كتاب

كيف يتحقق الخضوع لله ؟

بحث منهجي في إطار القرآن والسنة

د. حسني البشبيشي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، أما بعد :

ـ الإله هو الذي يمتلك صفات العظمة والقوة ، والعبد هو الذي يمتلك صفات الضعف والنقص ، فمن شعر بضعفه وقدرة الخالق عليه فقد تحقق عنده الشعور بالخضوع ، ومن لم يشعر بضعفه وقوة الخالق فقد نسي أنه عبد وأن له ربا : ((نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ))[1] ، لأنه لم يعقل حقيقة نفسه ولم يعقل معنى أن له ربا : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[2] .

ـ كل الناس عباد لله خاضعين له لأنه القوي القادر عليهم وهم الضعفاء (وهذه عبودية عامة) ، والإنسان إما أن يعقل ذلك الأمر فيشعر بالخضوع وإما أن يعطل عقله ويتناساه ويتشاغل عن ذلك بأمور الدنيا حتى يأتيه الموت .

ـ أصل العبادة الشعور بالخضوع ، فلا تتحقق العبادة بغير خضوع ، والرسل جاءت تنادي في الناس : ((اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ))[3] ، ولكن الناس يهربون لا يريدون الخضوع ، لأن مفهوم الحياة سوف يتغير فيعيشون حياة العبد لسيده ، ويعيشون حياة الخائف الهارب من النار ، ويعيشون حياة المسافر المستعد للرحيل ، ويعيشون حياة الطالب في لجنة الامتحان تحت مراقبة تحسب عليه كل حركاته وسكناته .

ـ رغم أن الإنسان يعلم بأنه خاضع لله لكنه لا يريد أن يشعر بالخضوع فيتناسى أنه واقع تحت قدرة الله ومراقبته ويتناسى أنه لن يستطيع أن يفلت منه ، فكل شيء يدعوه إلى الخضوع فهو يتناساه كأنه لا يعلمه ، فالآيات الكونية وصفات الخالق ووجود الآخرة ونزول القرآن وإرسال الرسل يدعوه للخضوع ، فهو يتناسى كل ذلك ، وهذا معنى نسيان الله والآخرة ونسيان دعوة الرسل (نسيان آيات الله ونسيان الذكر) .

ـ الإنسان يوقن بالله والآخرة ، وهذا اليقين يدعوه إلى الخضوع وهو لا يريد الخضوع ، فيتناسى ما يوقن به ويهرب منه ، فالإنسان إما أن يعقل ما يوقن به أو يتناساه ويتغافل عنه كأنه لا يعلمه ، ولو فكر الإنسان في حقيقة يقينه بالله والآخرة لعاش حياته خاضعا خائفا مترقبا لقاء الله والآخرة فهو عندئذ قد عقل ما يوقن به ، وغيره لا يعقل ، فالناس إما عاقل وهو المؤمن وإما متغافل قد عطل عقله : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[4] ، والمعاصي إنما تنشأ من وجود قدر من التغافل عن الله والآخرة .

ـ فإذا لم يشغل الإنسان تفكيره وهمه بحقيقة وجوده وحقيقة الحياة التي يعيش فيها وحقيقة مستقبله فبماذا يشغل تفكيره وهمه إذا ؟ فهل هناك شيء يستحق أن ينشغل به تفكيره وهمه أهم من ذلك ؟ فهو عندئذ لا يعقل .

ـ فهو يعيش الحياة ويخوض فيها وينشغل بأمور الدنيا ولا يفكر فيما سواها ، لقد أعطاه الله سمعا وبصرا وعقلا فما استعمل هذه الحواس فيما يستحق أن يشغل به تفكيره وهمه ، ففي صفوة التفاسير : (({ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة } أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته ، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها ، فهو بمنزلة عادمها ، كما قال تعالى : { فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا

---

(1) التوبة : 67
(2) الملك : 10
(3) الأعراف : 59
(4) الملك : 10

أفئدتهم من شيء }))[1] ، وفي تفسير الخازن : (({ وَجَعَلنا لهُمْ سَمْعاً وَأبْصاراً وَأفْئِدَةً } يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أبْصارُهُمْ وَلا أفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[2] .

ـ الفرق بيننا وبين السلف الصالح هو أن الآخرة ولقاء الله هو الذي كان يشغل عقولهم أما نحن فما يشغل عقولنا هو الدنيا وأمورها ، فلا يمكن لعاقل ألا ينشغل ذهنه بأخطر شيء ينتظره وينشغل بتفاهات تزول سريعا ، لكننا نتناسى لقاء الله والآخرة وننشغل بغير ذلك ، وأخطر شيء عند الإنسان هو تفكيره ، والعاقل يفكر في الشيء الخطير وينشغل عن التافه ، ولكن إذا حدث خلل في تفكير الإنسان فأصبح يفكر في التافه وينشغل عن الأمر الخطير أصبح في عقله وتفكيره خلل : ((فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا))[3] .

ـ نحن نعرف أن قدرة البشر فوقها قدرة الله وأننا نعيش تحت سيطرته وهيمنته علينا ، ونعرف أن هذه الحياة ليست حياتنا المعدة لمعيشتنا ، ونعرف أننا في انتظار الآخرة عن قريب ، لكننا نتناسى ذلك ونعيش حياة الهارب من سيطرة الله ومن خطر الموت والآخرة ، ونتشاغل عن ذلك بالتلهي بالدنيا ومشاغلها ومظهر الدين حتى يأتي الموت ، وسواء رضينا أم أبينا فنحن مقهورون تحت قدرة الله وغدا اللقاء ، فماذا نحن صانعون ؟ ! .

ـ ففي هذا الكتاب نقوم بتحليل ما يحدث داخل عقول الناس : فيما يفكرون ؟ وما الذي يشغل بالهم ؟ وما هي أهدافهم ؟ وكيف ينظرون إلى الأشياء ؟ وكيف يكون تفكير الإنسان سليما ؟ وما الذي يجب أن يفكر فيه الإنسان ؟ وكيف تحدث القرآن عن مسألة التفكير ؟ ، وكيف يتم إعادة ضبط العقل وعملية التفكير ؟ ، فالإسلام يشمل جانب ذهني وجانب عاطفي وجانب عملي ، الجانب الذهني يبين طبيعة تفكير المسلم وما ينشغل به تفكيره وكيف يكون تفكيره سليم ، والجانب العاطفي يبين طبيعة مشاعر المسلم من حب الله والخوف منه ورجاؤه والخضوع له والجانب العملي يبين طبيعة عمل المسلم .

ـ فالسبب الذي ادخل الكفار النار ورد في قوله تعالى : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أصْحَابِ السَّعِيرِ))[4] ، فإذا أردنا أن ندخل الجنة فلابد أن نسمع ونعقل ، فكيف يكون ذلك ؟ أي كيف نفهم عظمة الله وكيف نعرفه وكيف نعقل حقيقة أنفسنا وحقيقة الدنيا ؟ هذا هو موضوع الكتاب ، فهذه الأمور هي موجبات الخضوع ، فمن عقلها فقد خضع ، ومن تناساها وتغافل عنها فإنما هو يهرب من الخضوع لله تعالى .

ـ الإنسان العاقل يفكر في ما يسمعه ويراه فيتصوره ويشعر بقيمته وينشغل به باله ، ورغم أن الإنسان يعلم عظمة الله وضعف نفسه وخطورة الآخرة وضآلة الدنيا وشهواتها إلا أنه يعطل عقله فلا يتصور ذلك ولا يشعر بقيمته ولا ينشغل به باله ، فيكون كل تفكيره فيما سوى ذلك من ظاهر الدنيا فهذا هو نسيان الله والآخرة : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[5] .

ـ وظيفة العقل هي التفكير قي حقائق الأمور ، ولكننا قد نشغل وظيفة التفكير في سطحيات الأمور وظاهرها فينشغل العقل عن القيام بالوظيفة الأساسية وهي التفكير في حقائق الأمور ، ويحتاج الإنسان عندئذ إلى إعادة ضبط عملية التفكير من جديد ليعود للعقل وظيفته من جديد أي لتعود الحياة للعقل وبالتالي تعود الحياة للإنسان من جديد ليعيش الحياة من جديد بعقل جديد : ((أوَمَنْ كانَ مَيْتًا فَأحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا))[6] ، ((إنّمَا يَسْتَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعُونَ وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمّ إليه يُرْجَعُونَ))[7] .

---

(1) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (2 / 290)
(2) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (4 / 134)
(3) البقرة : 10
(4) الملك : 10
(5) الروم : 7
(6) الأنعام : 122
(7) الأنعام : 36

ـ العقل شرط من شروط الإيمان ، فالمجنون غير مكلف ، وكذلك الإنسان الذي بلغته الدعوة فعلمها ولكنه عطل عقله فلم يستعمله فتجاهل وتعامى وتناسى حقيقة ما دعت إليه الرسل كأنه لم يعلمها ، فأصبح كأنه مجنون ، فهو مكلف لأنه هو الذي عطل عقله وبالتالي فهو أفقد نفسه شرطا من شروط الإيمان : ((وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[1] .

ـ فلابد أن يعقل الإنسان حقيقة ما يقوله وحقيقة ما يوقن به وحقيقة ما يعمله ، فإذا كان الإنسان يقول بأنه مسلم ويوقن بـالله والآخرة ويعمل بالطاعات فلابد أن يكون عاقلا واعيا لحقيقة ما يقوله وما يوقن به وما يعمله : ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[2] .

ـ كيف يفهم الإنسان ويعقل معنى أن له خالقا ومعنى أن هناك آخرة ؟ بل كيف يفهم معنى الأشياء من حوله وكيف يكون عاقلا ؟ وبتعبير آخر كيف يفهم الإنسان عظمة الله وكيف يفهم خطورة الآخرة ؟ ، هذا هو موضوع الكتاب .

ـ أصل قضية الدين هي خضوع الضعيف للقوي ، فإذا عقل الإنسان مدى قوة الخالق ومدى ضعف نفسه فهو بذلك قد عرف الله وقد عرف حقيقة نفسه فعندئذ يخضع لله ويخاف من مهابته ومن عقابه ويرجو ثوابه ويحبه إعجابا بمدى قوته وينشأ عن ذلك طاعته وهذا هو مفهوم الدين .

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي هي علاقة خوف وخضوع وتعظيم وحب إعجابا بقوته ورجاءا واستعانة به وتوكلا عليه وطاعته ، فإذا شعر الإنسان بقوة الله وضعف نفسه شعر بالخضوع والتعظيم والخوف والحب و الرجاء وتوكل على الله وأطاعه ، وإذا لم يشعر الإنسان بقوة ما هو قوي وضعف ما هو ضعيف ففي عقله خلل ، هذا الخلل هو تناسي قيمة الأشياء ، وإذا تناسى الإنسان قيمة الأشياء رأى القوة والعظمة في المال أو الجاه أو الشهوات ولم يشعر بقوة الله وعظمته فكان خوفه وخضوعه وتعظيمه وحبه ورجاءه في الدنيا وتوكله عليها وعمله من أجلها فهذا هو عبادة الهوى .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بقوة الله وقدرته ولم يشعر بضعف نفسه فلن يشعر بالخضوع لله والخوف منه ومحبته ورجاءه ، وسبب ذلك الغفلة عن الله والغفلة عن ضعف الإنسان ، وكذلك إذا لم يشعر الإنسان بخطورة الآخرة ولم يشعر بضآلة الدنيا وما بها من الشهوات والأموال والمظاهر فلن يخاف من الآخرة ويعيش لها ، وسبب ذلك الغفلة عن الآخرة والغفلة عن ضآلة الدنيا .

ـ ولاحظ أن البشر ليس فيهم ضعيف وقوي ، فجميعهم ضعفاء والله وحده هو القوي : ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا))[3] ، وما عند الناس من صور القوة ما هي إلا عطاء من الله إليهم وليست ملكا لهم ، فالقوي بحق هو الذي يمتلك صفات القوة والقدرة .

ـ من الناس من يظن أن الدين عبارة عن أعمال ، فكلما أراد الالتزام بالدين اجتهد في الأعمال ، ولكن المطلوب من المسلم ليس فقط الأعمال ، فهناك مشاعر مطلوب من المسلم تحقيقها (عمل القلب) وبدون هذه المشاعر يقع المسلم في النفاق الأكبر بينما تقصيره في الأعمال هي معاصي قد يغفرها الله تعالى ، ولكي تتحقق هذه المشاعر مثل الخضوع لله والخوف من مهابته وحبه والخوف من عقابه ورجاءه لابد أن يستعمل عقله بصورة صحيحة فيعرف حقيقة نفسه وحقيقة ربه .

ـ والمادة العلمية في هذا الكتاب مستقاة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة ومن خلال كتب التفسير وأقوال العلماء وأمهات كتب التراث ، وجميع ذلك محققا وفي شكل منهجي ذو عناصر محددة واضحة وفي إطار منهج أهل السنة والجماعة ، وأكثر النصوص مستقاة من موقع المكتبة الشاملة على الإنترنت ، جزي

(1) يونس : 100
(2) الأنفال : 21 ، 22
(3) البقرة : من الآية 165

الله خيرا القائمين عليها خير الجزاء

والله المستعان وعليه التكلان

****

الفصل الأول

خطوات التعامل مع

ـ كان أحد الناس يجلس على مكتبه داخل أحد المباني الكبيرة يؤدي عمله في هدوء ، ثم فجأة دق جرس الإنذار ، لكنه لم ينزعج وبقي هادئا في مكانه جالسا على مكتبه ، رغم أنه كان يعلم أن جرس الإنذار يعني أن هناك حريق بالمبنى ويوقن بذلك تماما ، وأسرع الناس في المبنى يلوذون بالفرار وهم ينادون على هذا الرجل الجالس على مكتبه : احذر النار احذر النار ! ، ألا تعلم أن هناك حريق كبير بالمبنى ؟ ، فيقول لهم في برود أعلم ذلك ، وبقي في هدوءه منشغلا بأعماله ، وظل الناس ينادون عليه حتى نبح صوتهم من كثرة النداء ، لكن لا حياة لمن تنادي ، فكأنما ينادون رجلا لا عقل له أو ينادون أصما لا يسمع أو ينادون جماد من الجمادات أو ينادون رجلا ميتا ليس لديه أي إحساس أو عقل أو وعي ، إنه فعلا ميت وليس بحي ، وكما يقول الشاعر : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي ، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيا : ((لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ))[1] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ))[2] ، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[3] .

ـ إن هذا الكتاب يبين قضية الانزعاج (الشعور بالتحير والذهول من عجب وغرابة الأمر) التي ينبغي أن تحدث لهذا الرجل ، وهي أقرب إلى مفهوم (اليقظة) التي عرفها ابن القيم بأنها انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين[4] ، فهذا الرجل ليس لديه شعور بقيمة ما يحدث حوله فهو كالميت .

ـ فهذا الرجل كان عليه أولا أن يتصور خطورة الأمر (الشعور بالتحير والانزعاج) ثم يشعر بخطورة الأمر (الشعور بالقيمة) فيدرك ويعي حقيقة الأمر ، ثم ينشغل همه بالأمر ، ثم يخاف من هيبة الأمر (خوف المهابة) ، ثم يخاف من الضرر إذا لحقته النار (خوف العقاب) ، ثم يسرع للهرب ، وهذه هي خطوات التعامل مع المعلومات .

ـ إن الرسل جاءت لتنذر الناس بوجود الآخرة والجنة والنار ، وهذا الإنذار أشد من الإنذار بوجود حريق أو خطر ما ، ورغم ذلك هناك من لا ينزعج للأمر ويدعي أنه يخاف الآخرة .

ـ الإنسان يعيش في حصار تام من قوة أشد من جيوش العالم ، هي قوة الله التي تلازمه في كل مكان ، وهي قوة أقرب إليه من حبل الوريد ، ولا يستطيع أن يفلت منها ، ومحاصر برقابة تامة تلازمه في كل مكان ، ورغم ذلك هو لا يشعر بأي رهبة أو انزعاج ويعيش هادئا متناسيا قدرة الله ورقابته ، ففي أيسر التفاسير : (({ وهو معكم أينما كنتم } أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم))[5] ، وفي تفسير مراح لبيد : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم ، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله، وبنفوذ قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه))[6] ، وفي تفسير القرطبي : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ : مَا

---

(1) يس : 70
(2) النمل : 80
(3) الأنعام : 36
(4) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (1 / 142)
(5) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5/ 259)
(6) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ـ دار الكتب العلمية - بيروت (2/ 446)

نظَرتَ إلى شيء إلّا رَأيْتُ اللهَ تعَالَى أقْرَبَ إلَيّ مِنْهُ))[1] .

****

(1) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (17/ 231)

ـ التعامل الصحيح مع المعلومات يتم بالخطوات التالية :

1ـ التعرف على الشيء (التصور) .

2ـ معرفة ما فيه من النفع أو الضرر (الشعور بالقيمة) .

3ـ الهدف (انشغال التفكير) : إذا كان ذلك الشيء ضارا كان هدفه اجتنابه وإذا كان نافعا كان هدفه الحصول عليه وإذا كان لا ينفع ولا يضر لا يبالي به .

4ـ تتأثر مشاعره : فيخاف من الشيء الضار ويحب الشيء النافع ويخضع لمن له القدرة على النفع والضرر ويخاف من مهابته ويحبه إعجابا بقدرته .

5ـ تتأثر جوارحه : فيبتعد عن الشيء الضار ويسعى إلى الحصول على الشيء النافع .

ـ ونوضح هذا الأمر كالتالي :

ـ التعامل الصحيح مع المعلومات يتم كالتالي :

ـ أولا : عمل العقل : ويشمل ثلاثة أمور هي تصور الأمر وتدبره والشعور بقيمته واستمرارية التصور والتدبر ل لأمر .
ـ ثانيا : أثر عمل العقل : ويشمل عمل المشاعر وعمل الجوارح .

ـ كيف نعرف حقيقة الأشياء ؟ :

ـ يعرف الشيء بقيمته هل هو خطير ومؤثر أم تافه ولا قيمة له وذلك من خلال خمسة أمور هي :

1ـ معرفة مدى قيمة خطورته وأهميته سواء من ناحية نفعه أو ضرره .

2ـ معرفة مدة بقاءه : هل يستمر ذلك الخطر فترة طويلة أم يزول سريعا .

3ـ معرفة وقت وقوع ذلك الخطر : فالخطر الذي وقع في الماضي وانتهى أو الذي سيقع في المستقبل البعيد فلا قيمة له ، أما الخطر الذي أنت مقبل عليه ومسافر إليه كالآخرة أو الخطر الذي أنت واقع فيه كقدرة الله عليك ومراقبته لك ووجودك في ملكه على أرضه وتحت سماءه فهو الخطر المتحقق الآن وبالتالي فهو الخطر العظيم .

4ـ معرفة على من سيقع الخطر : فلو كان الخطر سيقع على بشر في كوكب آخر فلا قيمة له بالنسبة لك .

5ـ معرفة الدليل على ما سبق : سواء من كلام الرسل (ومعرفة الدليل عل صدق دعوة الرسل مثل إعجاز القرآن مثلا) أو من آيات الكون .

ـ وهذه الأمور السابقة هي أمور بديهية يقوم بها الإنسان العاقل بتلقائية ، ولكننا نوضحها لأن العقول قد تكون معطلة .

ـ كيف نعقل حقيقة الأشياء ؟ :

ـ كل أمر من الأمور الخمسة السابقة نعقله من خلال ثلاثة أمور هي تصوره والشعور بقيمته وانشغال الهم به إذا كان خطيرا .

ـ وهذه الأمور الثلاثة هي شروط العقل السليم ، وهي أيضا أمور بديهية يقوم بها الإنسان العاقل بتلقائية ، ولكننا نوضحها لأن العقول قد تكون معطلة حتى يعود العقل لعمله الطبيعي بعد موته فيحيا من جديد .

ـ وقبل أن نوضح هذه الشروط الثلاثة نوضح أولا مسألة وصول المعلومات واليقين النظري بها كالتالي :

****

ـ المعلومات التي يتم التعامل معها

ـ أولا : وصول المعلومات :

ـ تصل المعلومات إلى العقل من خلال أجهزة استقبال المعلومات وهي العين والأذن من خلال الرؤية و السماع .

ـ ثانيا : اليقين النظري بها :

ـ هي وظيفة فطرية تحدث بالضرورة طالما أن الإنسان عرف الدليل عليها .

ـ فالوظيفة الفطرية في الإنسان تقول بان أي شيء عليه دليل فهو صحيح حتى ولو لم يعرف ذلك الشيء ، والمعلومة حتى الآن لم تدخل إلى العقل ، فتعريف العقل أنه هو الذي يقوم بتحليل المعلومة فيعقل حقيقتها وقيمتها ، وبغير العقل فعندما ينظر الإنسان إلى قنبلة مثلا يكون مثلما ينظر إلى كرة على شكل قنبلة ، و اليقين النظري ليس من عمل العقل بدليل أن اليقين النظري بصدق دعوة الرسل موجود عند الكفار ورغم ذلك يصفهم الله تعالى بأنهم لا يعقلون .

ـ فالإنسان يقبل الأمر نظريا من حيث أنه صحيح في ذاته ، وهذا هو (يقين نظري) .

ـ وهذه الوظيفة لا يمكن أن تتعطل ، وهي موجودة عند جميع الناس ، فجميع الناس يوقنون بوجود الله وبأن عليهم أن يخضعوا له وبوجود الثواب لمن خضع والعقاب لمن استكبر ، ولو أن إنسانا قال بأنه لا يؤمن بوجود الله لكن في قرارة نفسه هو يؤمن بذلك وبأن عليه أن يخضع له وبأن الله لا يترك من خضع ومن لم يخضع سواء ، فلابد من الثواب والعقاب .

ـ الأدلة على وجود اليقين النظري عند جميع الناس :

1ـ كل من بلغته دعوة الرسل هو يؤمن بصدق الرسل وبالتالي يوقن بوجود الله والآخرة وإن قال غير ذلك : ((فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ))[1] ، ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ))[2] ، ((قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ))[3] ، ولقد كان أبو طالب يقول : ((لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ، ولا يعني بقول الأباطل))[4] .

2ـ اليقين النظري بتوحيد الله موجود عند جميع الناس ومقتنعين به في داخلهم ، ففي التفسير المنير : (((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) فالمراد من الآية أن الله تعالى جعل الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد حجة مستقلة عليهم، ولهذا قال : "أَنْ تَقُولُوا" أي لئلا تقولوا يوم القيامة : إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا أي التوحيد غافِلِينَ أي لم ننبه إليه))[5] ، وهذا اليقين النظري كان موجودا عندهم في حياة الذر (أي قبل الخلق) ولا يزال موجودا عندهم في الدنيا إذ لو لم يكن موجودا عندهم في الدنيا لكان حجة لهم يوم القيامة لأن غياب هذا الأمر عنهم لا دخل لهم فيه ، فاليقين النظري موجود عندهم لكنهم تغافلوا عنه وتناسوه وأعرضوا عنه عنادا .

---

(1) الأنعام : من الآية 33
(2) النمل : من الآية 14
(3) النمل : من الآية 14
(4) مصباح الظلام ـ وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والأرشاد (1 / 214)
(5) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (9 / 159)

ـ وفي تفسير السمعاني : (({ فَأما الذين اسودت وُجُوههم أكفرتم بعد إيمَانكمْ } أي: يُقَال لَهُم: أكفرتم بعد إيمَانكمْ ؟! ، فَإِن قَالَ قَائِل : كيفَ كفرُوا بعد الْإِيمَان وَلم يَكُونُوا مُؤمنين قطّ ؟ قيل أَرَادَ بِهِ إِيمَان يَوْم الْمِيثَاق، وَكفرُوا بعده))[1] فكل مولود يولد على هذا الإيمان ثم بعد ذلك يضيع الإيمان ولا يبقى منه غير اليقين النظري : ((كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[2] ، فيتناسى التوحيد بعدما عقله وتنتقل مشاعره للدنيا ، أي بعد أن كان لديه رصيد كامل من الخوف من الله وحبه ورجاءه ، يظل ينقص هذا الرصيد كلما أحب الدنيا وكلما خاف غير الله حتى تنتقل مشاعره للدنيا ويخضع لها .

3ـ الإنسان الضال يعلم الحق ويوقن بالحق ورغم ذلك يختار الباطل ، ففي تفسير البحر المحيط : ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)[3] : "وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ" : أي من الله تعالى سابق ، أو **على علم من هذا الضال بأن الحق هو الدين ، ويعرض عنه عنادا ، فيكون كقوله : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ**))[4] ، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل : (({ اتخذ إلهه هَوَاهُ } أي أطاعه حتى صار له كالإله { وَأَضَلَّهُ اللَّه على عِلْمٍ } أي علم من الله سابق ، وقيل : على علم من هذا الضال بأنه على ضلال ، ولكنه يتبع الضلال معاندة))[5] ، وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ((وقوله : وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ أي : وأضل الله - تعالى - هذا الشقي ، بأن خلق فيه الضلالة ، على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقي أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى ، فيكون قوله عَلى عِلْمٍ حال من الفاعل ، أي أضله - سبحانه - حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال ، ويصح أن يكون حالا من المفعول ، أي : وأضل الله - تعالى - هذا الشقي ، والحال أن هذا الشقي عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الغي على الرشد))[6] .

4ـ اليقين النظري بالآخرة موجود عند كل الناس لأن الله يصف الكفار بأنهم "نسوا الآخرة" : ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[7] ، والذي ينسى شيئا أو يتناساه لابد أنه كان يعلمه مسبقا ، فالكفار كانوا يوقنون نظريا بصدق دعوة الرسل وبصدق ما كانت تقوله الرسل من وجود الآخرة ، كما أن آيات الكون تدل على أنه لابد من حياة أخرى يكون فيها الثواب والعقاب ، فلا يمكن أن يترك الله الإنسان الذي لم يخضع لله يموت بغير عقاب ولن يترك الذي خضع له يموت بغير ثواب ، فلابد من إحياءه مرة أخرى للحساب ، فالكفار يتناسون الآخرة لذلك فهم لا يخافون منها رغم علمهم بها : ((كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ))[8] والذي لا يخاف من شيئا مخيفا هو يعلمه لكن لا يعقل خطورته لأنه يتناساه ، وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : (({ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً } ، أي : لا يخافون محاسبة الله لهم على أعمالهم في الآخرة ، قال قتادة : كانوا في الدنيا لا يخافون محاسبة))[9] ، إذن هم يوقنون بها ولكنه يقين نظري فقط ، وحقيقة أمرهم أنهم لا يوقنون بالآخرة لأنهم يتناسوها ولا يخافون منها ولا يترقبونها ولا يعقلون خطورتها وينفرون منها .

ـ ولا فائدة من اليقين النظري وحده ، فالإنسان إذا لم يعقل المعلومة فلا فائدة من استقبال المعلومات ولا فائدة من اليقين النظري بها ، فيصبح الإنسان كأنه لم يستقبل معلومات ، أي يصبح كأنه أصم لا يسمع أو كأنه أعمى لا يرى ، وهذا ما يطلق في الشرع بالختم على السمع والغشاوة على البصر ، أي يصبح بمنزلة من لا يرى ولا يسمع .

5ـ كل الناس يوقنون بـالله والآخرة والدين نظريا من خلال التفكر ولكنهم يتناسون ذلك :

ـ أي ملك من ملوك الدنيا يريد من الناس أن يعظموه ويخضعوا له ويطيعوه ، فهو بذلك يكون ملكا عليهم ،

---

(1) السمعاني ـ دار الوطن، الرياض - السعودية (1/ 347)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4559 في صحيح الجامع)
(3) الجاثية : 23
(4) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (9 / 422)
(5) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (2 / 272)
(6) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي (13 / 161)
(7) السجدة : 14
(8) المدثر : 53
(9) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة (12/ 8004)

فإذا لم يعظموه ويخضعوا له ويهابونه ويخافونه ويطيعوه هم بذلك لم يجعلونه ملكا عليهم .

ـ فكل الناس يعلمون ما الذي يريده الله منهم وهو أن يعظموه ويخضعوا له ويهابونه ويخافونه ويطيعوه .

ـ ومن الناس من يعظم الله ويخضع له ويهابه ويخافه ويطيعه فهو بذلك يجعله ملكا عليه ، ومن الناس من يرفض الخضوع لأن فيه ألم وذل ويرفض أن يطيعه لأن ذلك يقيده ويخالف هواه رغم علمه ويقينه النظري التام بأن الله هو الملك عليه وأنه يجب عليه أن يخضع له ويخافه ويطيعه ولكنه يستكبر .

ـ وكل الناس يعلمون أنه لا يمكن أن يترك الله من يخضع له ومن لا يخضع سواءا ، فلابد أن يعاقب الذي لم يخضع ويثيب من خضع ، وحيث أن الناس تموت ولا ترى عقابا أو ثوابا لأحد فلابد من بعث الناس مرة أخرى من أجل ثوابهم وعقابهم .

ـ فبالتفكر يعرف الإنسان وجود الآخرة : ((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ))[1] ، والأجل المسمى هو يوم تنتهي فيه الحياة لتبدأ حياة من جديد للثواب والعقاب ، فلن يبقى الناس يتناسلون إلى مالا نهاية وبالتالي تبقى الحياة بلا حساب وعقاب ، فلابد أن تنتهي الحياة لتبدأ حياة جديدة للحساب : ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ))[2] ، فبالتفكر يعقل الإنسان مجيء يوم الحساب ويشعر بمدى خطره : ((رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))[3] ، وفي تفسير التحرير والتنوير : ((" وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ " .. وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْثٌ وَجَزَاءٌ لَكَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا عَبَثًا، وَنَحْنُ خَلَقْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ بِالْحَقِّ، أَيْ بِالْحِكْمَةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ إِتْقَانُ نِظَامِ الْمَوْجُودَاتِ، فَلَا جَرَمَ اقْتَضَى خَلْقَ ذَلِكَ أَنْ يُجَازَى كُلُّ فَاعِلٍ عَلَى فِعْلِهِ وَأَنْ لَا يُضَاعَ ذَلِكَ، وَلَمَّا كَانَ الْمُشَاهَدُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْضِي حَيَاتَهُ وَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِ تَعَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَخَّرَ جَزَاءَهُمْ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى وَإِلَّا لَكَانَ خَلْقُهُمْ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ مِنْ قَبِيلِ اللَّعِبِ))[4] .

ـ إذن كل الناس على يقين نظري تام بالآخرة عن طريق الاستنتاج ، فمنهم من تفكر في ذلك ومنهم من تجاهله فأصبح يقينا نظريا فقط .

ـ كما أن كل الناس على يقين تام بأن الله بقدر على كل شيء ، ويقدر على إحياء الميت بعد موته : ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[5] ، فهم يوقنون بأن الله يحي الموتى فيخرج النبات الحي من البذرة الميتة التي لا روح فيها ويخرج الطفل الحي من النطفة الميتة وبالتالي فهم يوقنون بأن الله يقدر على أن يحي الإنسان بعد موته ، ولكن هذا اليقين عندهم هو يقين نظري فقط وليس يقينا حقيقيا فهم لا يعقلون ما يوقنون به ، كما أنهم يوقنون بأن كل إنسان يقوم بعد نومه ، أي يستعيد أهم صفات الحياة بعد أن فقدها ، فأصبح يرى ويبصر ويفكر ويتحرك بعد أن فقد هذه الصفات التي هي أهم الصفات التي تميز الحي من الميت ، فالله يظهر قدرته على سلب قوى الإنسان حتى لا يتكبر ويغتر بقوته ويعقل حقيقة نفسه ويعقل مدى قدرة الله عليه ثم يعيد إليه قوته وحركته حتى يعقل قدرة الله على إحياء الموتى ، ولكن لا يفقه ذلك إلا أصحاب العقول والبصائر .

****

ـ خطوات التعامل مع المعلومات (أي التعامل مع اليقين النظري الموجود عند جميع الناس)

ـ أولا : عمل العقل (الشروط الثلاثة للعقل)

---

(1) الروم : 8
(2) الحجر : 85
(3) آل عمران : 191
(4) التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر - تونس (25 / 310)
(5) يونس : 31

ـ الإنسان يفكر أولا في الأمر ، فإذا وجده أمرا هاما وخطيرا وشعر بخطورته أصبح ذلك الأمر قضية تشغل تفكيره ، وهذه هي الشروط الثلاثة للعقل وهي الوظيفة الطبيعية للعقل .

ـ الإنسان يعلم الحق من الباطل ويعلم الصواب من الخطأ ويعلم ما يضره مما ينفعه ، ولكن إذا حدث خلل في العقل فأصبح تفكير الإنسان غير سليم فإنه يرى ما يضره كأنه ينفعه ويرى ما ينفعه كأنه يضره ، ويحدث هذا الخلل إذا عطل الإنسان عقله فلم يستعمله فيتناسى ما يعرفه من الحق والباطل وما ينفعه وما يضره كأنه لا يعرف ذلك وبالتالي لا يفكر في هذا الأمر .

ـ والعكس صحيح إذا استخدم عقله فيما يعرفه من الحق والباطل وما ينفعه وما يضره فلم يتناسى ذلك فتفكيره سليم وعقله سليم ، وهو بذلك يحكم العقل على العاطفة ولا ينساق وراء شهوات تضره ولا تنفعه .

ـ العقل ليس مجرد كمبيوتر يعطي بيانات ولكنه يتفاعل مع المعلومة ويتأثر بها ، فيتصور المعلومة في خياله ثم يحدث انبهار ودهشة وتعجب من المعلومة وشعور بقيمتها ، ثم يحدث انشغال الهم والتفكير فيها ، فا العقل فيه حركة وتأثر .

ـ لا يتحقق العلم واليقين إلا مع وجود العقل ، فشرط العلم واليقين العقل ، ولا يتحقق العقل إلا بثلاثة شروط (هي التصور والشعور بالقيمة واستمرارية التصور) .

ـ فالإنسان إذا لم يعقل حقيقة ما يعلمه فهو لا يعلمه علما حقيقيا ، وإذا لم يعقل الإنسان حقيقة ما هو موقن به فهو لا يوقن به يقينا حقيقيا .

ـ التناسي (تعطيل العقل) معناه أنه يمنع نفسه من التفكير في حقيقة الأمر ، أي يتجاهل الأمر ويتناساه ولا يتدبره ولا يتفكر فيه ولا يتصوره ويتغابى .

ـ خلق الله للإنسان عقل سليم يفكر تلقائيا في حقائق الأشياء ، ولكن الإنسان إذا تدخل فوجه تفكيره إلى ظاهر الأشياء انشغل عن التفكير في حقائق الأشياء ، وظاهر الأشياء هو خادع وهو على عكس حقيقتها ، و الحكمة من أن الظاهر عكس الباطن هو للاختبار هل يعمل الإنسان عقله فيفكر في حقيقة الشيء أم يعطل عقله فيفكر في ظاهره .

ـ وظيفة العقل هي العلم الحقيقي بالشيء وليس العلم النظري ، فأي شيء يعلمه الإنسان لابد أن يعقله ، والإ نسان يعقل الشيء من خلال ثلاثة أمور هي تصور الأمر والشعور بقيمته واستمرارية تصوره ، فهذه الأمور الثلاثة هي شروط العقل وهي شروط العلم الحقيقي ، فإذا لم تحدث هذه الأمور الثلاثة فهو لا يعقل .

ـ ونوضح عمل العقل (الشروط الثلاثة للعقل) كالتالي :

1ـ التفكير السليم (التصور والتدبر لقيمة هذه المعلومات والتصور والتدبر لمدى تحققها)

ـ مفهوم التفكير السليم (التصور والتدبر في الأمر) :

ـ لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من التفكير ، فالعقل دائما يفكر ، وهو إما أن يفكر في حقيقة الأمر فهو عندئذ عاقل وهذا هو التفكير السليم ، وإما أن يفكر في ظاهر الإمر فهو عندئذ لا عقل له وهذا هو التفكير الظاهري أو التفكير الخاطئ ، فظاهر الشيء هو أمر لا يستحق التفكير فيه لأنه ليس الحقيقة .

ـ وكلما نظر الإنسان إلى ظاهر الأمور وشغل تفكيره بها كلما تناسى التفكير في حقائق الأشياء ، والعكس صحيح .

ـ الذي يقوم بحشو عقله بالدنيا وشهواتها هو يفكر بطريقة خاطئة ، أما الذي يفكر في حقيقة الدنيا وحقيقة الشهوات فتفكيره سليم ، فكلما شغل عقله في أمور الدنيا كلما ابتعد عن التفكير السليم ، وكلما أعمل عقله

في حقيقة أمور الدنيا وليس ظاهرها وحقيقة ما يراه كان تفكيره سليما وكذلك إذا تذكر مصيره والآخرة ومعرفة الله كان تفكيره سليم .

ـ التفكير في حقيقة الأمر يكون من خلال التصور والتشبيه والمقارنة الذهنية ، فالمقارنة توضح حقيقة الشيء ، فلا يجعل تفكيره في جانب واحد ويتجاهل باقي الجوانب ، فالذي ينظر إلى شهوات الدنيا فلا يفكر إلا في ذاتها ، فلا يمكن أن يكتشف ضآلتها لأنه لا يتعدى تفكيره سواها ، ولكن إذا فكر في أنها وقتية ومحدودة وفكر في أنها ضئيلة جدا بالمقارنة بالزينة الخادعة علم ضآلتها في حد ذاتها ، وإذا فكر في مقارنتها بشهوات الجنة وفي العقوبة عليها في عذاب النار وفي تأنيب النفس من عدم الاستحياء من الله وهو يراك وانعم عليك لعلم حقيقة ضآلتها ، ولذلك يكثر في القرآن ضرب الأمثال ليقارن الإنسان الأمور ببعضها ، ويكثر في القرآن بيان للأمور في الآخرة وفي الجنة وفي النار وفي حقيقة الدنيا حتى يستطيع الإ نسان أن يقارن الأمور ببعضها .

ـ فالعاقل كلما عرضت عليه شهوة لم يفكر في ذاتها فقط وإنما فكر في حقيقتها وقارنها بالآخرة فيعلم أنها ليست إلا لعب ولهو لا قيمة لها وأنها ضرر له وليست لذة فيبتعد عنها .

ـ والذي لا يفكر في المقارنة بين الدنيا والآخرة ، فيكون تفكيره في كل واحدة على حدة فينشأ عن ذلك أن تكون الدنيا عنده كبيرة جدا ، وتكون الآخرة عنده خيال كبير ، لكن المقارنة هي التي تضع حقيقة الشيء في موضعه ، وإذا قارن بين ظاهر الدنيا وحقيقتها من حيث زوالها وأنها محدودة ووقتية علم حقيقتها في حد ذاتها ، وإذا قارن بين الدنيا والآخرة علم حقيقتها

ـ والذي لا يفكر في المقارنة بين صفات الإنسان وصفات الخالق ، فيكون تفكيره في كل واحدة على حدة فينشأ عن ذلك أن تكون صفات الإنسان عنده كبيرة جدا ، وتكون صفات الخالق عنده مثل خيال كبير ، لكن المقارنة هي التي تضع حقيقة الشيء في موضعه ، فيعلم الإنسان حقيقة ضعف قوته وضعف قدراته وعلمه وصفاته أمام قدرة الله وعلمه وصفاته ويعلم مدى سيطرة الله وهيمنته على البشر فيخضع لله ويستسلم .

ـ فتفكير الإنسان في متع الدنيا مع عدم تفكيره في متع الجنة والعقوبة عليها في النار يجعل متع الدنيا في نظره كبيرة جدا ، فهو يتناسى الآخرة ولا يفكر إلا في ظاهر متع الدنيا ، والتفكير في الآمال والطموحات الدنيوية مع عدم التفكير في اقتراب الأجل يجعل الدنيا كبيرة في نظر الإنسان ،

ـ ونسيان الله معناه تناسي الفارق بين صفات الخالق وصفات البشر وقدرته عليهم ، وسبب هذا التناسي هو أنهم لا يريدوا أن يعيشوا معيشة الخضوع ، فيهربون من الخضوع بهذا التناسي .

ـ فالتصور هو التشبيه والمقارنة بين أمر محسوس وأمر لا نراه حتى يستشعر الإنسان مدى حقيقته وخطورته .

ـ وهذا الأمر ليس معرفة معلومات ولكنه تصور ذهني لخطورة هذه المعلومات ومدى تحققها ، وبالتالي ف التصور ليس شيئا يمكن كتابته أو قراءته ولكنه عملية ذهنية تخيلية ، ولكن الكتابة هي مجرد وصف وتشبيه ومقارنة تساعد على تخيل الأمر وتصوره في الذهن .

ـ فمثلا إذا غاب عن الإنسان تصور خطورة معنى كلمة " قنبلة " أصبحت بالنسبة له كلمة لا معنى لها .

ـ فالتصور معناه التخيل والرؤية الذهنية والتصور للشيء المعنوي أو الشيء الحسي الذي لا نراه من خلال تشبيهه ومقارنته في الذهن بالشيء الحسي ، ما عدا صفات الذات للخالق سبحانه لأنه سبحانه ليس كمثله شيء فإنك إذا رأيت الجمال كله في الأشياء فذلك ليس بشيء إذا رأيت الخالق فاستمتعت بلذة النظر إلى الخالق سبحانه في الجنة فذلك أعظم من متع الجنة كلها لأنه سبحانه هو الذي خلق الجمال كله ، ولكن يمكن تصور الشيء المعنوي وهو تصور مدى متعة جمال الخالق ،

ـ فالله سبحانه له يدين وله أصابع ويوم القيامة يمسك السماوات على أصبع من أصابعه ، فلا يمكن تصور يديه وأصابعه سبحانه ولكن يمكن تصور مدى قوة الخالق لأن القوة شيء معنوي ، ومن لم يعرف قوة الخالق ويتصورها لم يعرف الخالق سبحانه .

ـ فيمكن تصور حجم الكون الهائل بحجم النجوم الهائلة وأعدادها الهائلة والمسافات الهائلة بينها وتصور مدى قوة الخالق وقدرته على صناعة كل هذا الكون الهائل ومقارنة هذه القوة الهائلة بقوة الإنسان الضعيفة جدا وتصور مدى سيطرة الخالق على الإنسان والكون .

ـ ويمكن تصور معنى الموت وما يفعله من القضاء على قوة الإنسان والإنهاء على كل ما يملكه وكل ما يتمتع به بأن يتخيل الإنسان نفسه قد مات وأنه يتعرض لمثل ما تعرض له من مات ، فهو عندئذ فقط يعرف ماذا تعني كلمة (الموت) .

ـ وظيفة العقل الأساسية هي تحري الصواب من خلال التدبر والتصور للأمر ومناقشته في الذهن ، فمن أعمل عقله (تحرى الصواب) فقد اهتدى : ((فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا [الجن : 14] إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ [الرعد : 19]

ـ فأول شيء في عمل العقل هو التصور الذهني من خلال التشبيه والتخيل والمقارنة وضرب الأمثال لكل شيء يعلمه الإنسان ما عدا صفات الذات للخالق لأنه هو الذي خلق قوانين الزمان والمكان والأسباب التي تخضع لها المخلوقات وهو سبحانه لا يخضع لها ، وهو الذي خلق القوانين التي نعرف بها جمال الشيء وشكله وهو سبحانه لا يخضع لأي قوانين : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))[1] ، ولكننا تستطيع أن نتصور الصفات المعنوية ، فنتصور مدى قدرة الله على السمع فسبحانه من فوق سبع سماوات له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد ، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد ، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه ، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشأهم من جديد ، ونستطيع أن نتصور مدى المتعة التي يلقاها الإنسان من لذة النظر إلى جمال الخالق سبحانه ولكن لا نستطيع أن نتصور ذاته سبحانه .

ـ التفكير نوعان :

ـ الإنسان يفكر فيما حوله من الأشياء وما يحدث من أمور ويفكر في مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومشاكلها ، فهو يفكر في قيمة الشيء ، أي هل فيه نفع أم ضرر ومدى ما فيه من نفع أو ضرر ، وهذا التفكير نوعان هما :

1ـ تفكير ظاهري :

ـ الذي ينظر إلى ظاهر الأشياء فهو ينخدع بظاهر شهوات الدنيا فيراها كبيرة القيمة ، فينشغل تفكيره بأنه يريد أن يأكل ويشرب وينام ويتناسل ويتمتع ويعيش كما يعيش الآخرون ، وتلهيه مشاغل الحياة فلا يفكر إ لا في ظاهر الأمور ، ففي تفكيره خلل وهو في حقيقة أمره يعطل عقله : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[2] ، ورغم أن الأشياء تدعو الإنسان إلى أن يعرف سر وجودها وما وراءها لكنه يتناسى حقائق الأشياء ويشغل عقله بظواهر الأشياء فقط ، وينشأ عن التفكير الظاهري شعور خادع بقيمة الدنيا فيراها عظيمة القيمة رغم ضآلتها وفناءها .

ـ وكذلك ينظر إلى ظاهر أمر الغيبيات فلا يرى شيئا لأن الغيبيات لا نراها فظاهرها عكس حقيقتها ، فلا ينظر

(1) الشورى : 11
(2) الروم : 7

إلى حقيقتها وخطورتها ولا يوجه تفكيره في معرفتها ، فلا تتعلق مشاعره بها ولا يعيش لها .

ـ فالإنسان الذي لا عقل له عنده علم سطحي وظاهري بأمور الدنيا ، فلا ينظر إلى حقائق وجود الأشياء وما وراءها وحقيقة قيمتها ، ولكن فقط علمه مقصور ومحدود في إطار السطحيات والظاهر ، ففي تفسير البغوي : (({ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني : أمر معاشهم ، كيف يكتسبون ويتجرون ، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون ، وكيف يبنون ويعيشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي ، { وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ } ساهون عنها جاهلون بها ، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))[1] ، وفي تفسير الشيخ المراغى : (((ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا في التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال ، وسعة في الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[2] .

2ـ تفكير في حقائق الأشياء والأمور :

ـ مفهوم العقل (التفكير السليم ـ القلب السليم ـ العقل السليم) : هو التفكير الذي يتجه إلى حقائق الأمور وليس ظاهرها ، فإذا نظر إلى الأشياء من حوله نظر إلى حقيقتها وكيف وجدت ولماذا وجدت وإذا نظر إلى الدنيا نظر إلى قيمتها وما تؤول إليه وفنائها ، وإذا نظر إلى الشهوات نظر إلى حقيقتها الضئيلة وفناءها ، وإذا نظر إلى نفسه نظر إلى سر وجوده كيف وجد ولماذا يموت وماذا بعد الموت ، وإذا نظر إلى الخالق تعرف عليه وعلى صفاته وإذا نظر إلى الآخرة تعرف عليها وما بها ، وينظر إلى حقائق الأشياء من حوله وكيف جاءت ولماذا جاءت ، أما صاحب العقل المعطل الذي عطل عقله فيتجه تفكيره إلى ظواهر الأشياء فيتجه في ظاهر الأشياء دون أصولها ولم يسأل لماذا يأكل ولماذا يشرب ولماذا ينام ؟ .

****

2ـ الشعور بالقيمة (الوعي والإدراك ـ اليقين الحقيقي ـ نظرة الإنسان إلى الأمر)

ـ وظيفة اللسان هي الإحساس بالطعم ، ووظيفة الأنف هي الإحساس بالرائحة ، ووظيفة الجلد هي الإ حساس باللمس ، وعندما يحمل الإنسان شيئا يكون عنده إحساس بالوزن فيقول هذا خفيف أو ثقيل ، ووظيفة العقل الأساسية هي الإحساس بالقيمة فيعقل الإنسان هل هذا الشيء نافع أم ضار ومقدار مدى فيه من النفع أو الضرر ، فكما أن الإنسان عنده حاسة يعرف بها وزن الأشياء فيقول هذا خفيف وهذا ثقيل وهذا ثقيل جدا ، فكذلك عنده حاسة يستطيع بها تقييم الأشياء من حيث الأهمية والخطورة وما فيها من نفع أو ضرر ، وبقدر ما فيه من ضرر يكون قدر ما فيه من ألم ، وبقدر ما فيه من نفع يكون قدر ما فيه من لذة ، وبالتالي يستطيع تقييم مدى ما فيه من ألم أو لذة ، فيشعر بأن هذا مهم وهذا أهم وهذا غير مهم وهذا عظيم وهذا حقير وهكذا ، وهذا التقييم ليس معرفة نظرية بالنفع أو الضرر ولكنه إحساس بوزن هذه المعلومة من حيث ثقل ما فيها من نفع أو ضرر .

ـ وإذا وصلت المعلومة إلى الإنسان عن طريق الرؤية أو السمع ولم يشعر بقيمتها فما فائدة وصول المعلومة إذن ؟! ، فأصبح لا معنى ولا فائدة من وصول المعلومة للإنسان ، فأصبح الإنسان يرى ويسمع لكن لا يشعر بقيمة ما يراه أو يسمعه ، فإذا لم يشعر بقيمة ما يراه أو يسمعه فما فائدة انه يرى أو يسمع ، فعندئذ تكون وظائف العقل والعين والسمع معطلة عن العمل .

ـ فالشعور بالقيمة هو شعور الإنسان بمدى أهمية المعلومات التي تصل إليه ومدى تأثيرها عليه ، أي الشعور بقيمة النفع أو الضرر التي فيها ، أي الشعور بقيمة اللذة أو الألم ، أي الشعور بقدر السعادة أو الشقاء التي في

---

(1) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج : 3 ، ص : 571)
(2) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (ج : 27 ، ص : 56)

الشيء ، أي الشعور بأنه عظيم وكبير في نفعه أو ضرره أو بأنه ليس ذو قيمة أو أهمية ، وهذا الشعور يربط بين المعرفة النظرية والمشاعر ، وبدونه لا تنتقل المعلومة إلى المشاعر فتتأثر بها .

ـ فالشعور بالقيمة هو وظيفة العقل الأساسية ، وهي تؤدي إلى معرفة الله (الشعور بقدره) وتعطيل هذه الوظيفة يؤدي إلى الغرور بالدنيا (شعور كاذب بان للدنيا وشهواتها قدر كبير) .

ـ وعدم وجودها يعني غياب العقل أو موته ، فعدم وجود الوعي والإدراك لقيمة الأشياء معناه أن الإنسان لا يعي حقيقة وقيمة ما يقوله ولا يعي حقيقة وقيمة ما يوقن به ولا يعي حقيقة وقيمة ما حوله .

ـ فهنا انتقل الأمر إلى دائرة الوعي والإدراك والشعور فأصبح الأمر في بؤرة شعوره ، أي أصبح الإنسان له رؤية ونظرة لقيمة الشيء .

ـ أي انتبه وأفاق وانزعج واندهش لخطورة الأمر ، فالإنسان هنا يقول كلمته من خلال نظرته إلى الشيء فإذا كان ينظر إلى الشيء العظيم القيمة نظرة انتباه ودهشة وذهول فهذا معناه انه قد أيقن فعلا بأنه عظيم القيمة وانه متحقق ، أما إذا نظر إليه نظرة إهمال فهذا معناه انه لا قيمة له في نظره وهذ1معناه انه لا يعي ولا يعقل حقيقة الأمر .

ـ فالشعور بالقيمة هو نظرة الإنسان إلى قيمة الشيء وهذا هو يقينه الحقيقي ، فاليقين الحقيقي معناه طبيعة نظرة الإنسان إلى حقيقة الشيء ، فإذا كان الشيء فيه قدرة كبيرة على النفع أو الضرر فإنه ينظر إليه نظرة انتباه واهتمام ونظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته ، وإذا كان الشيء ليس فيه قدرة على النفع أو الضرر فلا يلفت ذلك نظره أصلا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية .

ـ فالشعور بالقيمة للشيء الخطير هو الذهول والانزعاج من اكتشاف المفاجئة المذهلة ، فيحدث ذلك عند اللحظة التي ينتقل فيها الإنسان الغائب عن الوعي إلى الوعي واليقظة فيفيق ، أو اللحظة التي ينتقل فيها ا لإنسان النائم إلى اليقظة والصحو ، فإذا كان الإنسان غافلا عن أمر ما يتعامل معه كأنه معدوم القيمة ثم ينتبه فيكتشف مفاجأة مذهلة ينزعج لها قلبه فيكتشف أنه أمر غاية في الخطورة والأهمية ، أو العكس ، أي إذا كان غافلا عن أمر ما يتعامل معه كأنه ذو قيمة كبيرة ثم ينتبه فيكتشف مفاجئة مذهلة ينزعج لها قلبه فيكتشف أنه أمر تافه بسيط ، وفي الحالتين يكتشف أنه كان مغفلا مخدوعا في منتهى الغفلة ، فمثلا إذا لم يحدث للإنسان في حياته الدنيوية شعور بخطورة الآخرة فإنه يوم القيامة يكتشف أنه كان مغفلا ويشعر بقيمة الآخرة ولكن بعد فوات الأوان : ((لَقدْ كنت في غفلة من هَذَا فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ))[1] ، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا .

ـ فالشعور بقيمة الآخرة معناه أن الإنسان يكتشف أمور مذهلة ويكتشف أنه كان أعمى لا يرى شيئا وكان بلا عقل لما يرى من الحقائق المذهلة ، فقد كان نائما والجيش مقبل عليه ليقتله ثم أفاق والجيش يدهمه ، ففي الحديث : ((مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[2] .

ـ وغياب الشعور بالقيمة لحقيقة ضآلة الدنيا معناه أن تكون نظرة الإنسان للمال وأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته ، وكذلك نظرته إلى حجم المتعة من شهوة النساء أو النظر إلى العورات ، وهكذا ، في حين نظرته إلى قدر الله مثل نظرته إلى أي شيء لا ينفع ولا يضر فلا يلفت ذلك نظره أصلا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية ، وكذلك نظرته إلى الآخرة تكون مثل نظرته إلى الحواديت وهكذا ، وكل هذا يختلف عن الاقتناع النظري واليقين النظري التام بعظمة الله وضآلة الدنيا وخطورة الآخرة .

(1) ق : 22
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5860 في صحيح الجامع)

ـ إذا تصور الإنسان قيمة الأمر فإنه ينظر إليه نظرة تعظيم وانبهار وانتباه ويقظة وذهول إذا كان عظيم القيمة سواء في نفعه أو في ضرره ، أو نظرة إهمال وازدراء إذا كان لا قيمة له ، وهذه النظرة هي (اليقين الحقيقي) ، أما إذا تناسى الأمر ، فهو بذلك يعطل عقله بمنعه من التعرف على حقيقة الأمر .

ـ فالشعور بالقيمة معناه أن نظرة الإنسان إلى الأشياء تتغير ، فالأشياء ذات النفع الكبير أو الضرر الكبير ينظر إليها نظرة انبهار وإعجاب ، والأشياء التي يكتشف أنه لا نفع فيها ولا ضرر ينظر إليها نظرة احتقار وإهمال و لا مبالاة ، فيتكون عند الإنسان يقين حقيقي بعظمة الخالق وخطورة الآخرة وضآلة الدنيا وضعف الإنسان ، لأنه يشعر بأن الله هو النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر ويشعر بأن كل صفات القوة والقدرة هي لله وغيره ناقص وعاجز وضعيف ، ويشعر بخطورة النفع والضرر في الآخرة .

ـ كل الناس يعرفون أن البشر جميعا خاضعين لله ، لكن اليقين الحقيقي بأن الإنسان خاضع لله هو الشعور بـ الخضوع .

****

3ـ انشغال البال (الشعور بالترقب ـ استمرارية التصور حتى ينتهي الخطر ـ الهدف)

ـ ما هي القضية التي يجب أن تشغل تفكير الإنسان ؟ :

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه ، فكل إنسان له قضية هي أهم شيء في حياته ، وهذه القضية تكون هي محور حياته ومستقبله ومصيره ، وفي الحديث : ((... كلُّ النّاسِ يَغدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا))[1] .

ـ الإنسان أمامه قضايا كثيرة منها مثلا مشاكل في عمله الذي يتكسب منه ، أو تطلع للترقي في عمله ، ومشاكل في بيته أو واجبات والتزامات يومية يجب القيام بها نحو أسرته ، وأمور للتسلية أو الترفيه تعود عليها كمشاهدة التلفاز أو الجلوس على المقهى أو الخروج للمتنزهات أو متابعة مباريات الكرة ، والتطلع لشراء مسكن أو سيارة ، والقيام بعمل تجاري أو التوسع في مشاريع لزيادة الدخل ، وتوفير الطعام والشراب أو التوسع فيه ، والاهتمام بمظهر الإنسان أمام الناس ، وتوفير كل ما يحتاجه أولاده وأسرته ، والتطلع إلى شهوات النساء أو الطعام والشراب أو زيادة المال أو الحصول على شهادات أو مناصب أو التغلب على أعباء الدراسة والزواج والتطلع إلى الحياة المريحة أو ظلم الإنسان لغيره أو ظلم الحكام للشعب أو أداء الصلوات أو قضية الموت والاستعداد له والآخرة وما يكون فيها والغاية من الخلق ومعرفة الخالق .

ـ هذه قضايا كثيرة ، العاقل ينظر إليها ويقارنها ببعضها ليرى أيها أخطر وأيها يجب أن تشغل تفكيره وأيها يختارها لتكون قضيته وشغله الشاغل طوال حياته ، كل القضايا المتعلقة بالدنيا ليست بشيء أمام قضية الموت والآخرة ومعرفة الخالق ، لأن جميع القضايا المتعلقة بالدنيا تفنى سريعا مع فناء الدنيا ، والذين كانت تشغلهم هذه القضايا الدنيوية فكانت شغلهم الشاغل قد ماتوا الآن فأيها يفيدهم الآن ، فالذين يعيشون وتنشغل عقولهم طوال حياتهم بقضية الموت والاستعداد له والآخرة وما بها ومعرفة الخالق هؤلاء هم العاقلين وغيرهم لا عقل لهم ، وهؤلاء تنشغل عقولهم بالطاعات ولكن كفرع من أصل ، فالأصل أن عقولهم مشغولة بالآخرة وترقبها والاستعداد النفسي والتهيب للقاء الرهيب أمام رب العالمين وينشأ عن ذلك القيام بـ الطاعات وليس تنشغل عقولهم بطاعات معينة دون أن تنشغل بتصور الآخرة وتصور قدرة الخالق وما هم صائرون إليه ، وهؤلاء أيضا قد تنشغل عقولهم بمشاغل الحياة ولكن انشغال عابر مؤقت قليل وهو أيضا انشغال كفرع من أصل ، فعليه أن يتغلب على بعض أعباء الحياة ولكنه يتقلل من أعباء الحياة قدر ما يستطيع وينشغل عنها بما هو أخطر ، فمن شغل همه بالآخرة فقد شغل همه بشيء واحد فقط ، ولكن من شغل همه بالدنيا فقد فتح على نفسه آلاف الهموم فهذه هي طبيعة الدنيا ، فكلما دخل من باب وجد أبواب أخرى كثيرة ، ويظل تتشعب به الهموم حتى يهلك ، ففي الحديث : ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 925 في صحيح الجامع)

دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))[1] ، وفي حديث آخر : ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك))[2] ، فطبيعة الدنيا عبارة عن متاهة كلما سرت في طريق وجدت طرقا أخرى فدائما يستجد لك فيها هموم أخرى وآمال أخرى ومتاعب أخرى ، ففي الحديث : ((خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط في وسط الخط خطا ، وخط خارجا من الخط خطا ، وحول الذي في الوسط خطوطا ، فقال هذا بن آدم وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي في الوسط الإنسان وهذه الخطوط عروضه إن نجا من هذا ينهشه هذا ، والخط الخارج الأمل))[3] أي يموت ولا يزال عنده تمني وآمال لم تتحقق ، فيظل الشيطان يلهيه حتى يموت .

ـ كل إنسان له قضية تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله فهو بذلك يعيش لهذه القضية وهي دينه ، فمن كانت قضيته التي تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله هي الله والآخرة فقد اسلم وجهه إلى الله : ((وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثقى))[4] أي توجه بكليته إلى الله من تفكير ومشاعر وعمل ، ومن كانت قضيته التي تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله هي الدنيا وشهواتها فهي دينه : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[5] .

ـ كل إنسان ينشغل تفكيره بشيء واحد هو الشاغل الأكبر وهو الحصول على السعادة والمتع واللذات والبعد عن ما فيه الشقاء والألم ، فإذا كان تصوره خاطئ عن قيمة النفع والضرر في الأشياء فسوف يكون نظرته خاطئة عن قيمة النفع والضرر في الأشياء فهو يرى السعادة واللذة في أشياء ليست فيها سعادة أو لذة وليس فيها نفع أو ضرر أو يكون فيها ضرر له ، ويؤدي هذا إلى أن ينشغل تفكيره بهذه الأمور التي هي في نظره تحقق له السعادة وتجنبه الشقاء .

ـ إذن ما هو الشيء الذي يشغل تفكيرك ؟ ، هل هو الحصول على المال أم شهوات الطعام والشراب والنساء أم المناصب والجاه والسلطان والمظاهر أم مشاغل الحياة اليومية والتغلب على متطلباتها وكسب المال و التجارة أم الخروج من مشاكل الفقر أو المرض أو الاستضعاف والظلم من أصحاب الجاه وعدم الحرية أم عمارة الأرض وتوفير وسائل السعادة فيها ، أم بعض من هذه الأمور أم جميعها ؟ ، فهذه هي هموم الدنيا ، أم أن الشاغل الذي يشغل تفكيرك هو الوصول إلى ملذات الجنة والتمتع بالحور العين إلى ما لا نهاية من السنين والبعد عن الحرق داخل النار إلى ما لا نهاية من السنين ومعرفة قوة الخالق التي تسيطر عليك في ليلك ونهارك وفي كل لحظة وكل حركاتك تحت المراقبة التامة وكل أنفاسك معدودة ذلك الأمر المرعب الواقع عليك في الدنيا وذلك الخطر الرهيب الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات من الآن من أمر الموت والحياة بعد الموت ؟ .

ـ فإذا كان الشاغل الأكبر هو هموم الدنيا فأنت جاهل لا عقل لك لأنك لم تتصور وتعي حقيقة السعادة وأين تكون ولم تتصور وتعي حقيقة الخطر الذي أنت واقع فيه والخطر الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات وبلا عودة ، فأنت في غفلة تامة وغباء تام تضر بنفسك وتهلكها ، فالدنيا لا قيمة لها أمام الآخرة مهما كانت آلامها ومهما كانت لذاتها وتزول سريعا في غمضة عين لمن يعقل كما أنها متعها ضئيلة ومحدودة في حد ذاتها .

ـ وإذا كان الشاغل الأكبر الذي يشغل تفكيرك هو الخطر الرهيب من سيطرة الخالق عليك والخطر الذي أنت مقبل عليه (الآخرة) فأن عاقل قد علمت حقا وأبصرت بحقائق الأمور ، ومن ضمن تأثر الهموم دوام انشغال الهم بالخالق (المراقبة) وبالموت والآخرة .

---

(1) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3170)
(2) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 6189 في صحيح الجامع)
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 635 ، برقم 2454)
(4) لقمان : 22
(5) الفرقان : 43

ـ وفي الحديث : ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا فقال : ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[1] ، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لم يكن يرفض التكنولوجيا والعلم الحديث والذي كان يتمثل في عهده في فراش لين بدلا من الحصير ، لكن ذلك ليس الذي يشغل همه وفكره ومشاعره ، وإنما الهم الأكبر الذي كان يشغل همه وفكره ومشاعره هو الآخرة ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[2] ، وفي الحديث : ((إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب))[3] ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[4] .

ـ إذن فالهم الدائم والهموم المؤقتة يحدثان معا في اللحظة الواحدة ، فالإنسان المسافر همه الأكبر هو أن يصل إلى حيث يريد ، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه ، ولكن لديه هموم أخرى ، ففي وقت ما يكون همه كيف يحصل على طعام أو كيف يتوقف في استراحة يتناول فيها طعام أو كيف يقضي حاجته .

ـ ويمكن تقسيم الناس من ناحية انشغال البال إلى ستة أصناف كالتالي :

ـ يمكن تقسيم الناس حسب أودية الدنيا الواردة في الحديث : ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))[5] ، فكل واحد يسير في واد من أودية الدنيا تكون همه وقضيته بينما المؤمن همه وقضيته الآخرة ، وهذه الأصناف كالتالي :

1ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على شهوات النساء فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .
2ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المال والحصول عليه فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .
3ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المظاهر والمناصب والألقاب والشهادات العلمية والحصول علي ذلك ، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .
4ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على مشاغل الحياة وهمومها وأعمالها لتصبح قضيتهم ، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك .
5ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على كل شهوات الدنيا ومشاغلها أو بعضا من ذلك ، فلا يفكرون إلا في فيها ولا ينشغل همهم إلا بها ولا يسعون إلا لها ولا يرغبون إلا فيها مع التفاوت ، فمنهم من يكون أكبر تفكيره في المال ثم المظاهر ثم شهوات النساء مثلا وغير ذلك .
6ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على الآخرة ولقاء الله ومعرفته ، ليست الدنيا كل همهم فرغم انشغال همهم بالدنيا إلا أن همهم منشغل بالله والآخرة ، وهؤلاء هم أهل جنات النعيم وغيرهم يعبدون أهواءهم .

ـ مفهوم انشغال البال :

ـ ينشغل بال الإنسان بالخطر الواقع وبالخطر الذي يقترب وقوعه ، واقتراب وقوع الخطر هو أيضا خطر ينشغل به الهم ، فقدرة الله عليك خطر واقع الآن ، والآخرة خطر قريب ، واقتراب الآخرة خطر .

ـ وانشغال الهم باقتراب الخطر هو الشعور بترقبه ، كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفه أو اليوم الذي يحدث فيه أمر خطير فيظل همه منشغلا بهذا اليوم ، فالطالب يترقب يوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج ، والعاقل الذي يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبا

---

(1) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3283)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2384 في صحيح الجامع)
(4) صيد الخاطر ـ دار القلم - دمشق (1 / 447)
(5) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3170)

يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلا بالتطلع إلى يوم اللقاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها ، والشعور بالترقب مثل شعور الإنسان الذي يقف ينتظر أحدا على موعد .

ـ فالشعور بالترقب معناه الاستعداد النفسي بانشغال الهم بالأمر فلا يكون مفاجئا عندما يأتي ، وعدم وجود الشعور بالترقب معناه أنه يتناسى ذلك الأمر ولا يشغل باله به رغم يقينه النظري به فيكون الأمر مفاجئا له عندما يأتيه .

ـ إن جود الله وقدرته وعظمته وهيمنته ووجود الآخرة وأهوالها وخطورتها هي أمور لا يمكن أن ينساها أي إنسان عاقل فهي أخطر شيء يعرفه الإنسان ، لكن الإنسان ينسى الله والآخرة بانشغال التفكير بما سوى الله والآخرة ، أي عدم تذكر الله والآخرة في الذهن أي الغفلة عن الله والآخرة ، ففي أيسر التفاسير : (({ لا تلهيهم تجارة ولا بيع } أي لا شراء ولا بيع { عن ذكر الله } فقلوبهم ذاكرة غير غافلة وألسنتهم ذاكرة غير هية ولا لاغية { وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة } أي لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة))[1] ، وفي تفسير القرطبي : ((قوله تعالى : (لاهية قلوبهم) أي ساهية قلوبهم ، معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والتفهم ، من قول العرب : لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه))[2] ، وفي تفسير البيضاوي : (({ ولكن مَتّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ } بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات { حتى نَسُواْ الذكر } حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك))[3] .

ـ هناك فرق بين أن يفكر الإنسان في الأمر وبين أن يكون الأمر قضية تشغل تفكيره ، فهو أولا يفكر في الأمر ، فإذا وجده أمرا هاما وخطيرا وشعر بخطورته أصبح ذلك الأمر قضية تشغل تفكيره ، وهذه هي الشروط الثلاثة للعقل (يفكر في الأمر ثم يشعر بخطورته ثم يصبح قضية تشغل تفكيره) .

ـ كل إنسان لابد له من التفكير ولابد له من قضية تشغل تفكيره تكون هي هدفه ، فلا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من التفكير أو أن يعيش بلا هدف ، وهدف الإنسان هو قضيته التي تشغل تفكيره ، فإما أن يتجه تفكيره إلى حقيقة ما حوله من الأشياء أو إلى ظاهرها ، فإذا اتجه تفكيره إلى حقيقة الأشياء عرف حقيقة وجوده وحقيقة الخالق وعرف مصيره وأدرك حقيقة ما دعت إليه الرسل ، فأصبح ذلك هدفه وقضيته التي تشغل تفكيره ، وإذا اتجه تفكيره إلى ظاهر الأشياء لم يعرف غير الدنيا وشهواتها ومشاغلها وهمومها ، فأصبح ذلك هدفه وقضيته التي تشغل تفكيره .

ـ مفهوم الهدف : هو القضية التي تشغل تفكير الإنسان ، فإذا كان هدفه المال فهو دائم التفكير في المال وما يتعلق به من الحصول عليه وإنفاقه ، وإذا كان هدفه الله والآخرة فهو دائم التفكير في معرفة الخالق والآخرة وما يتعلق بهما ، وهكذا ، فهناك قضية أساسية تشغل تفكير الإنسان هي هدفه .

ـ الهم يدل على الهدف والغاية ، فالذي لا هم له إلا الدنيا فلا غاية له غير الدنيا حتى لو كان يدعي أمام نفسه أنه لا يريد إلا الله والآخرة ، ففي تيسير التفسير : (({ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } .. فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا جمع حطام الدنيا ، لأن ذلك الذي يتبعونه هو منتهى ما وصلوا إليه من العلم))[4] ، وفي تفسير الشيخ المراغى : (({ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [هود: 15، 16] أي هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا الدنيا وزينتها ، ليس لهم في الآخرة إلا النار))[5] .

ـ هل الآخرة موجودة أم لا ؟ ، هل الآخرة أمر خطير أم أمر تافه ؟ ، هل الآخرة قضية تشغل تفكير الإنسان أم أنها لا تستحق التفكير فيها ؟ ، إذا لم تكن الآخرة قضية الإنسان وهدفه فتشغل تفكيره فهذا معناه أنه في

---

(1) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 573)
(2) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 11 ، ص : 268)
(3) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 120)
(4) تيسير التفسير للقطان (3 / 281)
(5) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (12 / 16)

حقيقة أمره يراها أمرا تافها لا قيمة لها وأنه في حقيقة أمره يرى أنها غير موجودة ، وأنه في حقيقة أمره يستهزئ بها ويسخر منها ، ((فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[1] ، فالأمر الخطير عندهم الذي يشغل تفكيرهم هو ما عندهم من العلم الدنيوي وما عندهم من الدنيا .

ـ تداخل الهموم في اللحظة الواحدة :

ـ الإنسان قد ينشغل باله في اللحظة الواحدة بأكثر من شيء ، فمثلا السائق الذي يقود سيارة ينشغل باله بـ الطريق لأنه لو غفل عن ذلك لوقعت حادثة ، وفي نفس الوقت وأثناء قيادته للسيارة قد ينشغل باله بـ الحديث في الهاتف المحمول أو بالحديث مع راكب يجلس بجواره وقد يلتفت إليه مرات أثناء الحديث معه أو ينشغل باله بتناول طعام أو ينشغل باله بجمع الأجرة من الركاب وحسابات باقي الأجرة للركاب أو ينشغل باله طوال الطريق بسماع الكاسيت ، إذن هناك هم دائم وهموم مؤقتة في نفس الوقت ، فكذلك الإنسان المسافر إلى الآخرة باله منشغل بسفره إلى الآخرة لان الدنيا كلها ليست إلا مسألة سفر إلى الآخرة وجميع الناس مسافرون ، ولكن أثناء السفر قد ينشغل باله بالطعام أو الشراب أو أعمال الدنيا المختلفة وقد ينشغل بـ اله بالوقوع في معصية لكن همه الدائم هو مسألة سفره ، فهذا هو حال المؤمن مهما انشغل باله بأمور الدنيا ومهما عمل من المعاصي فهمه الدائم الذي لا يفارق ذهنه هو سفره إلى الآخرة لا تغيب عن عينه .

ـ لكن قد يزداد انشغال همه بأعمال الدنيا وبالمعاصي حتى ينسى مسألة السفر ويوقف السيارة التي يسافر فيها ويعتبر نفسه مقيما وليس مسافرا ، فهو بذلك اطمئن بالدنيا ورضي بها على أنها دار إقامته ، هنا قد غاب همه بالسفر إلى الآخرة فهو بذلك نسي الآخرة ونسي السفر إليها : ((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين : 14] إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [يونس : 7] فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا [السجدة : 14]

ـ وكلما زاد هم الإنسان بالدنيا وبالمعاصي كلما كان همه الدائم بالسفر إلى الآخرة ضعيف .

ـ الفرق بين الهم الأكبر والأصغر وبين الهم الدائم والهم المؤقت :

ـ في لحظة واحدة قد يكون همه الأكبر الدنيا وهمه الأصغر الآخرة ولكن همه بالدنيا هم مؤقت وهمه بالآ خرة هم دائم .

ـ فالإنسان السجين همه الدائم هو متى يخرج من السجن ، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه ، لكن لا يكون ذلك همه الأكبر في كل لحظة ، ففي وقت ما يكون همه الأكبر كيف يحصل على طعام وفي وقت آخر يكون همه الأكبر كيف يحصل على ملابس وفي وقت ثالث يكون همه الأكبر كيف يضيع وقته في تسلية وهكذا .

ـ والمؤمن همه بالآخرة دائم وهمه بالدنيا مؤقت ، فهمه بالآخرة مطلوب منه في كل لحظة ، وقد يكون هما أصغر في لحظات وقد يكون هما أكبر في لحظات أخرى .

ـ فالمؤمن همه الدائم الذي يسيطر على عقله وتفكيره هو كيف يصل إلى لقاء الله وكيف يكون حاله في الآ خرة فهو يرتب حساباته للقاء الله ، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه ، لكن قد لا يكون ذلك همه الأكبر في كل لحظة ، ففي وقت ما يكون همه كيف يحصل على طعام وفي وقت آخر يكون همه كيف يتعامل مع مشاغل الحياة وهمومها .

ـ فالمؤمن في الدنيا كالسجين المهموم بيوم خروجه ، أما الذي تناسى أنه في سجن فهو لا عقل له ، لذلك

---

(1) غافر : 83

ففي الحديث : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1] .

ـ لكن الإنسان الذي يكون همه الدائم هو كيف يحصل على المال أو المنصب أو الشهوات أو كيف ينتصر على مشاكل الحياة وينقطع همه عن الله والآخرة أو يكون همه بالله والآخرة مؤقتا ، فهو بذلك ينسى الله والآ خرة .

ـ الهدف (الهم) الأكبر والأهداف (الهموم) المؤقتة :

ـ الإنسان الذي يريد أن يسافر إلى مكان ما ، فهذا هو هدفه ، ولكن أثناء سيره إلى ذلك المكان يريد أمور أخرى فهو يريد أن ينزل في استراحة يستريح فيها ويصنع كوخا مؤقتا يستظل به إلى أن يقوم ، ويريد أن يأكل ويشرب ، ولكن كل هذه الأهداف مؤقتة وعابرة وبسيطة ولا ينشغل بها كثيرا فهدفه الأكبر هو أن يصل إلى حيث يريد ،

فكذلك الهدف الأكبر الذي يسعى إليه الإنسان ويرجوه هو دخول الجنة والنجاة من النار ، ولكن هناك أهداف أخرى دنيوية ولكنها عابرة ومؤقتة ولا ينشغل بها كثيرا ، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[2] .

ـ انشغال الهم بالله والآخرة :

ـ هل يوجد شيء أخطر من اقتراب الموت والسفر إلى الآخرة ؟ ، فهذا الأمر لا يمكن أن يفارق ذهن إنسان عاقل أبدا .

ـ المؤمن عندما يعصي يكون تذكره لوجود الله ورؤية الله إليه ضعيف جدا ويكون انشغال باله بعظمة الله ضعيف جدا وكذلك يكون تذكره للآخرة والعقاب على الذنوب ضعيف جدا ، والمؤمن قد يضعف تذكره لله ومراقبته له في أي وقت .

ـ الإنسان ينشغل همه بالشيء بقدر ما فيه من نفع أو ضرر عليه ، فإذا كان فيه نفع كبير أو ضرر كبير عليه اهتم به فانشغل به همه بصورة كبيرة ، وإذا كان ذلك الشيء لا نفع فيه ولا ضرر عليه فلا يهتم به ولا ينشغل به همه مطلقا وينساه .

ـ فعدم وجود انشغال الهم بالآخرة معناه أن هذا الأمر في نظر الإنسان غير مهم وأن الإنسان ينظر للآخرة على أنها لا تنفع ولا تضر رغم وجود اليقين النظري التام بالآخرة وخطورتها .

ـ المؤمن لابد أن يعيش وصورة الآخرة لا تفارق ذهنه وصورة الملكين يراقبانه لا تفارق ذهنه ونظر الله إليه لا يفارق ذهنه ، فذهنه وهمه مشغول بذلك دائما في كل وقته وعمله ، فهو يعيش كأن هناك كاميرات مراقبة موضوعة له في كل مكان ، فصورة هذه الكاميرات وهي ترصده لا تفارق ذهنه في كل أعماله ، فهو يعيش كأنه يرى الله وكأنه يرى الملكين وكأنه يرى الله ينظر إليه ، وهو دائما متذكرا قدرة الله عليه ومدى عظمة صفاته ومدى ضعف الإنسان وضآلة الدنيا ، ومتذكرا الآخرة ومتذكرا رقابة الله له ، فلا ينسى ذلك ولا يفارق ذلك ذهنه .

ـ والمؤمن إذا كان انشغال همه بالدنيا أكبر من انشغال همه بالآخرة فذلك من ضعف يقينه بضآلة الدنيا وخطورة الآخرة .

ـ والمؤمن لا ينسى الله وقدرته وعظمته ، وكيف ينسى الإنسان الله وهو يعيش في ملكه ويأكل من نعمه ! ،

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم : 2324)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)

ومن ضمن انشغال هم الإنسان بقدرة الله وعظمته انشغاله بالآيات الدالة عليه فهو لا ينسى آيات الله ، فهَمّه ينشغل بآيات الله سواء الكونية أو آيات القرآن على أنها آيات تدل بصورة مباشره على الله وصفاته لأنها كلا مه ، فهو لا يعرض عن آيات الله ولا يتغافل عنها وإنما يفكر فيها وينشغل همه بها : ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [يوسف : 105] ، فمثلا عندما يعلم أي إنسان عاقل أننا موجودون على كرة معلقة في الفضاء تجعلنا ندور حول نار هائلة (الشمس) ، فكيف لعاقل نسيان مثل هذا الأمر ، إذن نسيان الأدلة هو نسيان للخالق ، وكل شيء هو دليل على الله من وجود التراب والهواء والجبال والسماء ، فإذا نسي الإنسان كل ما يدل على الله ولم يتذكر ولو آية واحدة فقد نسي الله تعالى .

ـ أكبر شيء يشغل هم الإنسان في أمور الدنيا هو المشاكل الدنيوية وما أكثرها ، ولكن شعور الإنسان بضآلة الدنيا يؤدي إلى شعوره بضآلة قيمة المشاكل الدنيوية مهما كانت لأنها جميعا تفنى ، فجميع آلام الدنيا ضئيلة لا قيمة لها ، فهناك حالتان لكي يزول انشغال الهموم بالمشاكل الدنيوية هما إما أن تحل هذه المشاكل فلم تعد موجودة أو هي موجودة ولكن الإنسان يشعر أنها لا قيمة لها فلا ينشغل بها همه ، فلا توجد مشاكل دنيوية خطيرة مهما كانت لأنها جميعا تافهة ، والمشكلة الوحيدة هي الحصول على رضا الله والجنة ، ومهما يترتب على المشاكل الدنيوية من ضرر في ماله أو عياله أو عمله الذي يتكسب منه أو صحته أو ما هو واجب عليه من أمور الدنيا فكل ذلك لا يشغل همه لأنه غير مطالب إلا بما يستطيع فقط فلا يحمل هما إلا لتحقيق إيمانه والفوز بالجنة وإن اتهمه جميع الناس فلا يهمه لأنه يتعامل مع الله فقط والله يعلم الحقائق سبحانه ، فالغضب والتعب النفسي لأمور الدنيا هو من ضعف الإيمان ، وعدم انشغال المؤمن بهموم الدنيا معناه شعوره بالسعادة والارتياح (حلاوة الإيمان) .

ـ ونفس الأمر في انشغال الهموم بنعيم الدنيا والاستزادة منها ، فالدنيا لا قيمة لها ، ففي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلَان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لا َ مَا أَصَابَنِى نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلا َءاً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلَان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلا َءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِى قَطُّ ضُرٌّ وَلا َ بَلا َءٌ))[1] .

ـ أخبرني فيما تفكر أخبرك من أنت ، فإذا كنت لا تفكر إلا في أمور الدنيا ولا هم لك إلا الدنيا فأنت تعيش من أجل الدنيا وهي غايتك وهدفك بدليل انك منشغل بها ، وإذا كان في همك ذكر لله والآخرة فأنت تعيش من أجل الله والآخرة والله غايتك وهدفك بدليل أن بالك منشغل بذكره ، فالذي يفكر في الشهوات هو رجل شهواني والذي يفكر في الآخرة هو رجل أخروي ، وهكذا .

ـ التفكير هو عملية مستمرة عند الإنسان لا تنقطع ، فهذا معناه أن باله مشغول دائما بالتفكير في أمر ما ، فإذا لم ينشغل بالآخرة انشغل بالدنيا وهكذا .

ـ عدم التفكير في أمر مهم وعدم انشغال التفكير والهموم به معناه تجاهل هذا الأمر والتغافل عنه وتناسيه و التغابي كأنه لا يعرفه وكأنه لم يسمع عنه وكأنه لم يعلم به ، وهذه التعبيرات هي التي عبر عنها القرآن وهي : نسيان الله والآخرة والغفلة عن الآخرة والجهل بعظمة الله وغياب العقل .

ـ ما الشيء الذي يستحق أن تفكر فيه وينشغل به همك ؟ ، هل الدنيا أم الآخرة ؟ ، أيهما يستحق التفكير أكثر ؟ العاقل يوجه تفكيره للشيء الخطير وينشغل تفكيره وهمه به ، والذي لا ينشغل تفكيره وهمه بأمر خطير هو لا يعقل وهو يعطل عقله .

ـ حقيقة هدف الإنسان ليس ما هو مقتنع به نظريا من أنه يرجو الله والآخرة ، ولكن حقيقة هدفه هو ما ينشغل به باله ، فإذا كان تفكيره لا ينشغل إلا بالدنيا فهي هدفه ومراده وهي ما يرجوه ، وإذا انشغل بقدرة الله عليه ووقوعه تحت سيطرته وعلمه وانشغل باله بمصيره المحتوم وكيف يكون حاله في الآخرة فالله و

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)

الآخرة هو هدفه ومراده وهي ما يرجوه .

ـ الإنسان دائما يفكر ، ولا يستطيع إن يبقى لحظة من غير تفكير ، ولا يستطيع أن يبعد نفسه عن التفكير في أمر ما إلا بالتفكير في أمر غيره .

ـ لابد أن يتأثر الذهن فينشغل البال بالتفكير في الأمر أثناء وقوع الحدث أو الأمر المؤثر أو الخطر أو أثناء ا لإقدام عليه ، فقوة الله ونظره إليك وقدرته عليك هي أمر مؤثر وخطير ومجيء الآخرة خطر هائل .

ـ فأي أمر خطير إما أن يكون قد انتهي في الماضي فينتهي التفكير فيه ولم يعد أمرا خطيرا ، أو هو مستمر فيستمر التفكير فيه ، أو هو سوف يحدث في المستقبل فيستمر التفكير فيه ، وجود الله وقدرته وسلطانه على الإنسان هو أمر مستمر فيكون التفكير في ذلك مستمر ، والآخرة ولقاء الله هي أمر مستقبلي فيستمر التفكير فيها حتى تحدث ، فمعرفة الله ليست أمرا عرفه الإنسان وانتهى الأمر وكذلك الآخرة .

ـ فلابد أن يتوجه التفكير للشيء المؤثر ، ولابد أن يستمر التفكير في الأمر المؤثر طالما أنه لم ينتهي خطره بعد ، فكل إنسان يفكر في أمور كثيرة لكن المحور الذي يدور حوله تفكيره هو الله والآخرة ، أما المغرور بـ الدنيا فمحور تفكيره هو الدنيا والشهوات لأن لديه شعور كاذب بأن فيها قيمة كبيرة مؤثرة .

ـ انشغال التفكير بأمر ما يدل على الاهتمام وعدم انشغال التفكير به يدل على اللا مبالاة به وعدم الاهتمام به واحتقاره ، فالإنسان ينشغل باله بالأمر إذا كان ذو قيمة ولا ينشغل به باله إذا كان يرى أنه لا قيمة له سواء في نفعه أو ضرره .

ـ قد يتذكر الإنسان الله والآخرة ثم ينسى ، فتذكره لم ينفعه لأنه نسي بعد ذلك ، فقد يتصور الأمر ويفيق وينتبه ثم يتناسى الأمر وينام .

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ فرجعوا إلى أنفسهم } : أي بعد التفكر والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم مالا ينطق ، { نسكوا على رؤوسهم } : أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى))[1] ، وفي التفسير المنير : ((فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أي راجعوا عقولهم ، وفكروا وتدبروا فَقالُوا لأنفسهم إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ بعبادتكم من لا ينطق. ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا، وعادوا إلى جهلهم، وردوا إلى كفرهم، وقالوا لإبراهيم: والله لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ أي فكيف تأمرنا بسؤالهم))[2] ، فهؤلاء لو رجعوا إلى أنفسهم فاستمروا على ذلك لاهتدوا لكنهم تناسوا الأمر مرة أخرى .

ـ إذن يتأثر هم الإنسان بالأمر ، فينشغل به باله إذا كان عظيم القيمة سواء في نفعه أو ضرره ، ويذهل عنه إذا كان لا قيمة له ، وذلك بحسب شعوره بقيمته وليس بحسب يقينه النظري ، فالآخرة في اليقين النظري خطر كبير لكن قد لا يشعر الإنسان لها بقيمة ولا يتأثر بها همه فحقيقة أمره عندئذ أنه لا يوقن بها يقينا حقيقيا .

ـ هم الإنسان دائما مشغول ، فإما أن ينشغل بذكر الدنيا أو ينشغل بذكر الله وذكر الآخرة أو ببعض من هذا وهذا .

ـ إذا انصلح بال الإنسان فأصبح ينشغل بالأمر المؤثر ويذهل عن الأمر الذي لا قيمة له انصلحت سائر وظائف الإنسان ، ففي تفسير البحر المحيط : ((وَأَصْلَحَ بالَهُمْ : أي حالهم ، قاله قتادة وشأنهم ، قاله مجاهد وأمرهم ، قاله ابن عباس. وحقيقة لفظ البال أنها بمعنى الفكر ، والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب. فإذا صلح

---

(1) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 423)
(2) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (17 / 78)

ذلك ، فقد صلحت حاله ، فكأن اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم ، وغير ذلك من الحال تابع))[1] .

****

ـ ثانيا : أثر عمل العقل

1ـ عمل المشاعر :

ـ يُعرف الشيء بقيمته ، فإما أن يكون قوي أو ضعيف في قيمته ، أو خطير أو تافه في قيمته ، أو عظيم أو ضئيل في قيمته .

ـ الشيء العظيم القيمة هو شيء مؤثر وهو أمر خطير ، وعندما يفكر الإنسان في عظمة قيمة ذلك الشيء فإنه ينشغل به ذهنه وهمه ويعجب بمدى قيمته فيحبه إعجابا به ويهابه ويخاف من مدى عظمته وخطورته وينكسر له فيخضع له حبا وخوفا .

أما الشيء التافه القيمة هو شيء غير مؤثر وهو أمر لا قيمة له ، وعندما يفكر الإنسان في حقيقة قيمة ذلك الشيء فإنه لا ينشغل به ذهنه وهمه وينساه ولا تتأثر به مشاعره فلا يحبه ولا يكرهه ولا يخافه ولا يخضع له .

ـ قدرة الله سبحانه وصفاته هي أمور عظيمة القيمة وخطيرة جدا ومؤثرة ، وعندما يفكر الإنسان في عظمة الخالق فإنه ينشغل به ذهنه وهمه ويعجب بمدى قدرته فيحبه إعجابا به ويهابه ويخاف من مدى عظمته وخطورة صفاته وينكسر له فيخضع له حبا وخوفا .

ـ الدنيا والشهوات هي أشياء تافه القيمة غير مؤثرة لا قيمة لها لأنها ضئيلة وزائلة ، وعندما يفكر الإنسان في حقيقة قيمة الدنيا والشهوات فإنه لا ينشغل بها ذهنه وهمه وينساها ولا تتأثر بها مشاعره فلا يحبها ولا يكرهها ولا يخافها ولا يخضع لها .

ـ قد يحدث العكس ، فالإنسان يعلم حقيقة عظمة الخالق ، لكنه قد يتناسى ذلك فلا يفكر في مدى قيمة صفاته وعظمته ، وبالتالي لا ينشغل بذلك همه ولا تتأثر مشاعره فلا يشعر بحبه ولا الخوف منه ولا رجاءه و لا الخضوع له .

ـ وكذلك يتناسى حقيقة ضآلة الدنيا والشهوات فلا يفكر في ذلك ، وينخدع بزينتها الخادعة فيراها عظيمة القيمة فيحب الشهوات ويهابها ويخضع لها .

ـ إذن فالشيء يعرف بقيمته ، وقيمة الشيء هي قيمة موجبات الخضوع في ذلك الشيء ، أي مدى خطورة ذلك الشيء .

ـ فالمشركون يرون الأصنام عظيمة القيمة في نظرهم ، لكنهم عندما يعرفون مدى قدرة الله يرون الأصنام أمام قدرة الله لا شيء ويعرفون تفاهتها فينسونها ولا ينشغل همهم بغير قدرة الله تعالى ، ففي : البحر المحيط ـ نسخة محققة - (4 / 513)

وَتَنسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ النسيان حقيقة والذهول والغفلة عن الأصنام لأن الشخص إذا دهمه ما لا طاقة له بدفعه تجرد خاطره من كل شيء إلا من الله الكاشف لذاك الداهم ، فيكاد يصير كالملجأ إلى التعلق بالله و الذهول عن من سواه فلا يذكر غير الله القادر على كشف ما دهم

ـ الإنسان تتأثر مشاعره بالأمر ، فتتفاعل به مشاعره إذا كان عظيم القيمة سواء في نفعه أو ضرره ، ولا تتأثر مشاعره (تتبلد مشاعره) إذا كان لا قيمة له ، وذلك بحسب شعوره بقيمة الأمر وليس بحسب يقينه النظري .

(1) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (9 / 459)

ـ وعمل المشاعر يشمل أمران هما :

أ ـ وجود الحالة النفسية المميزة لكل شعور من المشاعر :

ـ فالخوف فيه شعور بالقلق والاضطراب الداخلي والحب فيه شعور بالشوق والفرح والارتياح النفسي والإعجاب والخضوع فيه شعور بالانكسار والذلة والمسكنة ، وهكذا ، أي يشعر بما يشعر به الخائف من أمر هائل من أمور الدنيا بل اشد وهكذا .

ـ والحالة النفسية لكل شعور من المشاعر تكشف الإنسان أمام نفسه حتى لا يظن انه يخاف الله وليس في قلبه ذرة من الخوف أو يحسب أنه يحبه وليس في قلبه ذرة من الحب ، وهكذا .

ب ـ استمرارية هذه الحالة النفسية ما دام المؤثر ما زال موجودا :

ـ فتظل خائفا من الله محبا له خاضعا له حتى تموت وحتى بعد أن تموت تظل أيضا خائفا من مهابته محبا له خاضعا له حتى وآنت في الجنة (وهذه الأمور سوف تكون تلقائية) .

ـ التعامل مع المعلومات التي يستمر خطرها :

ـ يستمر التفكير في الأمر طالما استمر الخطر منه أو الألم أو اللذة منه حتى ينتهي خطره ويزول ألمه أو لذته ، وطالما أن الآخرة لم تأتي بعد فيستمر التفكير في هذا الخطر حتى تأتي وتنتهي بدخول الجنة أو النار ، وكذلك يستمر التفكير في قدرة الله وصفاته لان ذلك باقي فالله حي لا يموت سبحانه ، فيظل الإنسان في حالة قلق وخوف من الآخرة إلى أن يصل إلى الجنة أو النار ، ويظل في خوف من مهابة الله وحب وخضوع لله دائما حتى وهو في الجنة .

ـ فطالما أن المؤثر ما زال مستمرا وموجودا فلابد أن يستمر التأثر به ، فمثلا طالما أن الآخرة لا تزال لم تأتي بعد فلابد أن يستمر خوف المهابة من أهوالها وأن يستمر حب الجنة ورجاءها وكراهية النار والخوف منها وتبقى الآخرة في بؤرة شعوره ودائرة همومه وتكون أكبر أهدافه حتى تأتي الآخرة ، ويوم القيامة يكون هناك شعور أشد بخوف المهابة من أهوالها وما يحدث فيها .

ـ فما دام الطالب في انتظار نتيجة الامتحان فإنه يظل قلقا ، ويستمر القلق حتى تظهر النتيجة ، بل إنه كلما اقترب موعد النتيجة زاد القلق ، كذلك الذي يكون قلقا من الآخرة يظل هذا الشعور عنده حتى تأتي الآخرة ، بل إن القلق يزداد كلما اقترب العمر من الآخرة ، كما أن الإنسان لا يدري متى يموت فيكون خوفه أشد ، إذن فالمؤمن لابد أن يعيش حياته خائفا من الله ومن عقاب الله في أهوال القيامة وفي النار ، ففي الحديث القدسي : ((قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي))(1) .

ـ وطالما أن الله موجودا دائما ولن يغيب سبحانه فيظل الشعور بحبه والخوف من مهابته مستمرا حتى في الجنة ، ويظل المؤمنون في الجنة يشعرون بأن حب الله أكبر من حب كل شهوات الجنة رغم عظمتها لأن الله أعظم كما أن لذة النظر إلى وجه الله تعالى أمتع من كل متع الجنة ، والشعور بخوف المهابة والحب موجود أيضا عند الملائكة وعند الجمادات لأن كل شيء يسبح بحمده سبحانه .

ـ فقد تتحقق المشاعر والهموم والأهداف المتعلقة بالله والآخرة أو شيء يسير منها في لحظة ثم تنطفئ حتى تختفي نهائيا فلم يعد منها ذرة واحدة ، ثم تعود في لحظة أخرى وهكذا ، وهذا يدل على حدوث نسيان لله والآخرة ثم تذكر ثم نسيان وهكذا .

****

(1) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 4332 في صحيح الجامع)

2ـ تأثر الجوارح

ـ الإنسان تتأثر جوارحه ، فيكون عمله وسلوكه ومظاهر انفعالاته متأثرة بالأمر إذا كان عظيم القيمة سواء في نفعه أو ضرره ، ولا تتأثر جوارحه إذا كان لا قيمة له ، وذلك بحسب حقيقة يقينه وليس بحسب يقينه النظري .

ـ يرتبط العمل والكلام والسلوك بالشيء الذي فيه نفع كبير أو ضرر كبير ويبتعد عن الشيء الذي لا نفع فيه و لا ضرر .

****

ـ التعامل الخاطئ مع المعلومات

ـ التعامل الخاطئ مع المعلومات يتم بالخطوات التالية :

1ـ يتعرف على الشيء نظريا من غير أن يتصوره ويتدبره .
2ـ لا يشعر بقيمته .
3ـ لا ينشغل تفكيره بالأمر .
4ـ لا تتأثر مشاعره .
5ـ لا تتأثر جوارحه : أو يكون عمله من قبيل الافتعال .

ـ لماذا يتعامل الإنسان بصورة خاطئة مع المعلومات :

ـ لأنه يتسرع ويتعجل في الحكم على الشيء من قبل أن يعطي لنفسه فرصه ليعقله ويتعامل معه بصورة صحيحة ، فآيات الكون ودعوة الرسل تدعو الإنسان إلى الخضوع للخالق ، وهو لا يحب الخضوع لأن فيه ألم فيرفض الخضوع ويستكبر من قبل أن يترك لعقله فرصة ليعقل الأمر ، فهو بذلك يسعى إلى الضرر لنفسه فيوردها موارد الهلاك .

ـ التعامل الخاطئ مع المعلومات يتم كالتالي :

ـ أولا : تعطيل عمل العقل (تناسي الأمر وتجاهله)

ـ سبب تعطيل العقل هو الهروب من الخضوع :

ـ الإنسان لا يريد أن يخضع ، والطريقة التي تجعله لا يخضع هو نسيان ما يوجب عليه الخضوع ، أي نسيان الله والآخرة ودعوة الرسل ، والمقصود بالنسيان هنا أي التناسي .

ـ أصل العبادة الشعور بالخضوع ، فلا تتحقق العبادة بغير خضوع ، والرسل جاءت تنادي في الناس : ((اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ))[1] ، ولكن الناس يهربون لا يريدون الخضوع ، لأن مفهوم الحياة سوف يتغير فيعيشون حياة العبد لسيده ، ويعيشون حياة الخائف الهارب من النار ، ويعيشون حياة المسافر المستعد للرحيل ، ويعيشون حياة الطالب في لجنة الامتحان تحت مراقبة تحسب عليه كل حركاته وسكناته .

ـ وجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين ، والهروب من الخضوع معناه الهروب من الدين ومن قضية أن يكون لك إله رغم اليقين النظري التام بالله وبالدين .

ـ كل ما يدل على قوة الله يدل على ضعف الإنسان وأنه خاضع لله ، فالآيات الكونية وصفات الخالق ووجود

(1) الأعراف : 59

الآخرة التي هي ثواب الله وعقابه الهائل ووجود الملائكة بخلقتها الهائلة ونزول القرآن وإرسال الرسل كل ذلك يدل على قوة الله وأن الإنسان خاضع لله وواقع تحت قدرته ومراقبته ، فكل ذلك هو موجبات الخضوع ، والإنسان يعلم هذه الأمور التي توجب عليه الشعور بالخضوع والاعتراف بأنه خاضع لله ، لكنه يتناساها ويتجاهلها حتى لا يخضع لأنه لو فكر فيها وعقلها لشعر بالخضوع .

ـ إذن الهروب من الخضوع معناه تناسي وتجاهل ما يوجب الخضوع ، أي تناسي وتجاهل الآيات الكونية وصفات الخالق ووجود الآخرة ووجود الملائكة ونزول القرآن وإرسال الرسل ، وهو ما يعرف بنسيان الله ونسيان الآخرة ونسيان ذكر الله ونسيان آياته (أي القرآن) .

ـ الإنسان لا ينسى أن الله خالقه ولا ينسى قدرة الله ولا ينسى أن ذلك يوجب عليه الخضوع لكنه يتناسى ذلك لأنه يدعي القوة بما عنده من النعم وحتى لا يخضع ، فنسيان الله والآخرة معناه تناسي وتجاهل حقيقة الخالق وقدرته وعظمته وحقيقة الآخرة وخطورتها ، أي التعامي والتصام والتغابي والتغافل وتعطيل العقل تجاه الخالق والآخرة .

ـ ونسيان الله والآخرة يشمل ثلاثة أمور هي : عدم تصور قدر الله وعدم الشعور بعظمته وعدم شغل البال بذلك ، وكذلك الآخرة ، وسوف نوضح هذه الأمور وأدلتها الشرعية .

ـ التناسي يعني أنه يتعامل مع الله كأنه لا يعرفه ويعيش كأن الله لا يراه ولا يسمعه ، وكأن الإنسان لم يسمع أو يعرف أصلا عن وجود الله ، فهو تناسى الأمر ويتجاهله لأنه لا يريد أن يعقله ويتفهمه ، ومن ذلك نسيان الله والآخرة والدين ونسيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة .

ـ فاليقين النظري بالله وبعظمته موجود ، ولكنهم لم يتصوروا ويتدبروا معنى أن لهم خالقا ، أي لم يتصوروا قوة الخالق وضعفهم أمامه فأدى ذلك إلى عدم شعورهم بقيمة وخطورة أن لهم خالقا فأدى ذلك إلى عدم انشغال بالهم بقدرة الله وخطورة الآخرة ، وبالتالي لم يخضعوا لله (عدم تأثر المشاعر بذلك) .

ـ فالتناسي معناه أنه يعلم الشيء ويوقن به ولكنه يتناساه .

ـ أي لا وجود لله والآخرة في تفكير الإنسان وفي همومه ، فهو يعلم بوجود الله والآخرة لكن لا يفكر في الأمر ولا يشغل به باله ، أي كل تفكير الإنسان وهمه في غير ذلك من أمور الدنيا ، فهو بذلك يتعامل مع الله والآخرة معاملة من نسيه فلم يعلمه ، أو معاملة الشيء الذي يعلمه ولكن لا قيمة له ، والمقصود بالنسيان أي التناسي ، أي تناسي الله والآخرة .

ـ مفهوم التناسي والتجاهل والتغافل والتعامي والتصام والتغابي :

ـ العين والأذن والعقل هي أجهزة مسئولة عن استقبال المعلومات والتعامل معها ، فيحدث أولا استقبال المعلومة فالعين ترى والأذن تسمع والعقل يفكر ، ثم يتم تحليل هذه المعلومة في العقل من خلال ثلاثة وظائف هي التصور لمدى ما فيها من النفع أو الضرر (الألم واللذة) والشعور بقيمة ذلك النفع أو الضرر وانشغال البال بقدر ما فيها من نفع أو ضرر ، فإذا عطل الإنسان عقله أصبح يرى ويسمع ويفكر ولكن بغير شعور بقيمة الشيء الذي يراه أو يسمعه أو يفكر فيه ، وهذا معناه أن الإنسان يكون متجاهلا ومتغافلا عن هذا الشيء الذي يراه أو يسمعه أو يفكر فيه ، فيصبح كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يعقل .

ـ الجهل بأي معلومة يحدث في حالتين هما :

1ـ عدم وصول المعلومة : فالمخبر لم يخبره بالأمر : فمثلا إذا كان هناك قوم لم تبلغهم رسالة الإسلام ، فلم تأتي إليهم الرسل لتخبرهم عن الله وعن وجود الآخرة وعن مراد الله منهم ، فهؤلاء غير مكلفون لأنهم لم

يصل إلى سمعهم شيء ، ففي الآية : ((ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ))[1] ، ((لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ))[2] .

2ـ وصلت المعلومة ولكن السامع أصم لا يسمع أو مجنون لا يعقل : فمثلا الكفار كانوا يدعون الأصنام والأ صنام لا تسمع دعاءهم ، فالأصنام ليس لها سمع ولا عقل : ((وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ))[3] ، ومثل هذا الإنسان الذي فيه مرض في سمعه أو عقله يمنعه من أن يسمع أو يعقل فهو أيضا غير مكلف .

ـ أما التجاهل والتغافل فمعناه أنه يتصنع أحد الأمرين السابقين ، أي كأن المعلومة لم تصل إليه ، أو وصلت ولكنه أصم لا يسمع ، فالتناسي والتجاهل والتغافل معناه أنه سمع الأمر وعلمه ولكنه تجاهله كأنه لم يسمعه ولم يعلمه وكأنه أعمى لا يرى وكأنه أصم لا يسمع وكأنه مجنون لا يعقل وكأنه صنم أو جماد أو ميت ليس فيه حياة ، فإذا أخبرته بالأمر فكأنما تخاطب حجرا لا يفقه ، وكما يقول الشاعر : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ...... ولكن لا حياة لمن تنادي ، فهو بذلك قد عطل وظائفه ، وتحديدا هو قد عطل شعوره بقيمة ما يسمع أو يرى أو يعلم .

ـ وكثيرا ما يطلق عبارات الغفلة والنسيان والعمى والصمم في الشرع ويقصد بها التغافل والتناسي والتعامي والتصام ، ففي تفسير معاني القرآن : ((وقوله جل وعز والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر))[4] ، وفي تفسير الكشاف : (((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ) .. ومن يتعام عن ذكره أي : يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى كقوله تعالى : " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم "))[5] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي } أي : تعاموا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى وإتباع الحق))[6] .

ـ فقد تطلق كلمات الجهل والغفلة والنسيان ويقصد بها التجاهل والتغافل والتناسي ، مثل الغفلة عن الله ونسيان الله والغفلة عن الآخرة ونسيان الآخرة ، فنسيان الله والآخرة معناه التناسي لقدر الله وخطورة الآ خرة فهو يعامل الله معاملة الناسي له ، ففي تفسير ابن كثير : ((فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، إنا نسيناكم أي سنعاملكم معاملة الناسي لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء بل من باب المقابلة كما قال تعالى : (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)))[7] .

ـ فهناك فرق بين الجهل بالشيء وتجاهل الشيء ، فالجهل بالشيء هو عدم العلم به ، وتجاهل الشيء هو أن ينظر إلى الشيء كأنه ليس له قيمة أو كأنه أمر تافه ، فليس للشيء قيمة في نظره أو شعوره ، فهو لا يشعر بقيمة الشيء ، أي ينظر إلى الشيء نظرة الناسي له ، أي كأنه نسيه رغم أنه لم ينساه ، أي ينظر إلى الشيء نظرة إهمال لقيمته كأن ذلك الشيء لا قيمة له ، أي عدم الشعور بقدر ذلك الشيء (لا يتصوره ولا يشعر بقيمته ولا ينشغل به باله) .

ـ فتجاهل الأمر والتغافل عنه وتناسيه معناه العلم به مع عدم تصوره وبالتالي عدم الشعور بقيمته ، فالعلم بـ الشيء من خلال العين أو السمع أو العقل من غير تصوره والشعور بقيمته هو علم نظري وليس علم حقيقي ومعناه التجاهل والتغافل عن ذلك الشيء .

(1) الأنعام : 131
(2) يس : 6
(3) الأحقاف : 5
(4) تمعاني القرآن للنحاس جامعة أم القرى - مكة المرمة (ج : 5 ، ص : 55)
(5) تفسير الكشاف ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 252)
(6) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 5 ، ص : 201)
(7) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 6 ، ص : 362)

ـ فالمعرفة النظرية معناها إفراغ الكلمة من محتواها ، فتصبح عديمة القيمة ، فمثلا المعرفة النظرية بوجود الله وقدره وعظمته موجودة عند جميع الناس ، لكن المعرفة الحقيقية بوجود الله وقدره وعظمته غير موجودة عند البعض لعدم وجود التصور والشعور بقدر الله وعظمته .

ـ فالغافل عن الله أو الجاهل بالله أو الذي ينسى الله يعيش كأنه يجهل وجود الله وعظمته كأنه لم يسمع عن كلمة (الله) ، حيث حدث إفراغ لكلمة (الله) من محتواها الحقيقي فتصبح كأنها عديمة الأهمية وعديمة التأثير ، فالكلمة التي لا يشعر الإنسان بما فيها من نفع أو ضرر أو أهمية تصبح كأنها كلمة لا تنفع ولا تضر ، والإنسان لا يشعر ولا يتأثر بما لا ينفع ولا يضر وليس ذو قيمة أو أهمية .

ـ وكذلك المعرفة النظرية بوجود الآخرة وخطورتها موجودة عند جميع الناس ، والغافل عن الآخرة أو الجاهل بالآخرة أو الذي ينسى الآخرة يعيش كأنه يجهل وجود الآخرة وخطورة ما فيها من نفع أو ضرر كأنه لا يعرف شيئا اسمه (الآخرة) حيث حدث إفراغ لكلمة (الآخرة) من محتواها الحقيقي فتصبح كأنها عديمة الأهمية وعديمة التأثير ، فالكلمة التي لا يشعر الإنسان بما فيها من نفع أو ضرر أو أهمية تصبح كأنها كلمة لا تنفع ولا تضر ، والإنسان لا يشعر ولا يتأثر بما لا ينفع ولا يضر وليس ذو قيمة أو أهمية .

ـ فالغافل عن الآخرة يتعامل مع كلمة (الآخرة) كأنها تتحدث عن بشر غير موجودون على الأرض وأن هؤلاء البشر سوف يذهبون لعالم آخر غير الأرض ، إذن فالقضية لا تخصه هو ولا تعنيه ولا تضره ولا تنفعه فلا يشعر بقيمتها ، ولا مانع من أن يوافق عليها فلا يستشعر خطورتها لأنها لا تخصه ، وعندئذ تكون موافقة نظرية وليست حقيقية .

ـ فمعنى الغفلة أي التغافل ، فالغفلة معناها أن الإنسان إذا نظر إلى السماء لا يتعجب من مدى اتساعها وسر وجودها فلا يشعر أن لذلك قيمة ، وعندما ينظر إلى نفسه لا يتعجب من سر وجوده وحقيقة مصيره وهدفه فلا يشعر أن لذلك قيمة ، وعندما يسمع بنزول القرآن ودعوة الرسل لا يشعر بقيمة هذا الأمر وخطورته ، وعندما يعرف بوجود الآخرة لا يشعر بخطورتها ، فهو غافل قد عطل عقله ، رغم أنه يعرف كل ذلك ولكن معرفة نظرية بدون شعور بخطورة هذه الأمور .

ـ التناسي (تعطيل العقل) معناه أن الإنسان يتناسى كل شيء فهو يعيش كأنه ليس له ربا وكأنه لن يموت وكأنه لا آخرة ، ويتجاهل أن هناك رقيب وعتيد وأن الله يراه رغم علمه بذلك ، وكذلك يتجاهل آيات السماء والأرض والنظر فيها فيتناسى هذه الأمور كأن لم تكن ، وكأن أحدا لم يذكرها له ، وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة أو الموت ، رغم اقتناعه النظري التام بالآخرة وبأنه سيموت ، ويتعامل مع آيات الله كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم .

ـ التناسي هو تعطيل العقل عن القيام بوظيفته الطبيعية وهي التفكير في حقائق الأمور يجعل الإنسان عقله مريض ، فالتناسي معناه شغل التفكير في غير حقائق الأمور ، أي التفكير في ظاهر أمور الدنيا والدين وليس في حقيقة أمور الدنيا وأمور الدين ، أي حشو العقل بأمور الدنيا ومشاغلها وهمومها والعلوم الدنيوية الحديثة ، وعدم التفكير في حقائق الأشياء وسر وجودها وعدم التفكير في حقيقة الدنيا وضآلتها وعدم التفكير في حقيقة النفس ومدي ضعف الإنسان وعدم التفكير في حقيقة الخالق وصفاته ومدي عظمته وهيمنته على الإنسان وعدم التفكير في حقيقة الآخرة ومدى خطورتها ، وعدم التفكير في حقيقة الدين وأصله والتي هي معرفة الخالق وتحقيق الخضوع والحب والخوف والرجاء ومعرفة أن الدنيا دار اختبار وحصر التفكير فيما دون ذلك من أمور الدين .

ـ تعطيل عمل العقل يشمل ثلاثة أمور هي :

ـ أولا : عدم التصور

ـ يمنع نفسه من التصور والتدبر والتفكر في قيمة المعلومات ، فلا يتعرف على حقيقة الأمر ، في حين يكون

تصوره وتدبره في ظاهر الأمر وليس في حقيقته فينخدع بظاهر الأمر .

ـ وقد يبيع عقله لفكرة معينة بغير دليل ، فيضع عقله في إطار معين ويحصر عقله وتصوره فيها ، والذي يوجه عقله توجيه خاطئ هو المسئول عن نفسه وهو لا يعقل .

ـ وهو بذلك يعطل عقله لأن ذلك يؤدي إلى عدم وجود الشعور بالقيمة (الوعي والإدراك) والتي هي أهم وظيفة للعقل .

ـ لماذا يعطل الإنسان عقله ؟ : لأنه يعلم أن الأمر فيه خضوع وهو لا يريد ذلك وفيه ترك لما اعتاد عليه تقليدا لمن سبقه من الناس فيتعامل مع هذه المعلومات كأن لم تكن وكأنه لم يسمعها ، وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من اليقين النظري ولكنه يستطيع أن يمنع نفسه من تصور الأمر وبالتالي لا يحدث الخضوع .

****

ـ ثانيا : تعطيل الشعور بالقيمة (التزيين والغرور)

ـ فيكون عنده شعور كاذب بقيمة الشيء ، فالشيء الضئيل يراه عظيما (التزيين والغرور) والشيء العظيم يراه ضئيلا (يتناساه) .

ـ أي غياب الوعي والإدراك والشعور بقيمة الأمر ، أي عدم تأثر الذهن بقيمة الشيء ، وهذا معناه أن الإنسان لا يعي حقيقة وقيمة ما يقوله ولا يعي حقيقة وقيمة ما يوقن به ولا يعي حقيقة وقيمة ما حوله .

ـ فأصبح كأنه لا يعقل وكأنه لم يسمع عن وجود الله وكأنه نسي وجود الله وقدرته ووجود الآخرة وخطورتها ، فالعقل موجود ولكنه بلا فائدة والسمع والبصر موجود ولكنه بلا فائدة ، ففائدة وصول المعلومة من خلال السماع والرؤية والتفكير هو الوعي والإدراك لقيمتها ، وحيث أن ذلك لم يحدث فكأن الإنسان لا يسمع ولا يرى ولا يعقل .

ـ وهو عندئذ يتعامل مع الأمر كأنه لم يكن يعرفه ولم يسمع عنه البتة ، فينظر إلى الأمر العظيم نظرة إهمال وينخدع بالأمر التافه المزين فينظر إليه نظرة تعظيم ، وحقيقة يقينه عندئذ هي عكس يقينه النظري (غياب اليقين الحقيقي) .

ـ التصور لظاهر الأمر يؤدي إلى أن تكون نظرة الإنسان إلى الشيء على عكس حقيقته فيرى الدنيا والشهوات الضئيلة الفانية على أنها عظيمة القيمة والنفع ولا يرى لقدرة الله وخطورة الآخرة قيمة .

ـ فإذا تعطلت وظيفة الشعور بالقيمة أصبح الإنسان يسمع بغير شعور بقيمة ما يسمعه ، ويرى بغير شعور بقيمة ما يراه ، ويعرف بغير شعور بقيمة ما يعرفه ، ويعلم بغير شعور بقيمة ما يعلمه ، ويفهم بغير شعور بقيمة ما يفهمه ، ويصدق بغير شعور بقيمة ما يصدق به ، ويوقن بغير شعور بقيمة ما يوقن به ، ويؤمن بغير شعور بقيمة ما يؤمن به .

ـ يصبح الإنسان فاقد العقل لأنه لا يفكر في حقائق الأمور وبالتالي لا يعرف حقيقة ما هو خير وما هو شر وما هو ينفع وما هو يضر ، فهو يفكر في ظاهر الأمر فقد يضخم الشيء التافه ويحقر الشيء الذي فيه نفع كبير أو ضرر كبير ، والإنسان عندئذ جاهل لا علم له وأعمى لا يرى وأحمق لا عقل له .

ـ التناقض بين نظرة الإنسان واقتناعه بقيمة ومقدار الأشياء :

ـ كل الناس على اقتناع ويقين تام بان الدنيا لا قيمة لها في الآخرة وأن الآخرة هي من أخطر ما يمكن لكن نظرتهم إلى قيمة الدنيا والآخرة على عكس ذلك تماما ، فهم ينظرون إلى الدنيا نظرة اهتمام بالغ وينشغل بها تفكيرهم كأنها عظيمة القيمة ، في حين ينظرون إلى الآخرة دنيا بغير اهتمام ولا ينشغل بها تفكيرهم كأنها

أمر تافه لا قيمة له .

ـ وحقيقة اليقين عند الإنسان هي نظرته للشيء ، فإذا كان ينظر إلى الشيء عظيم القيمة فيراه عظيم القيمة فهو يدرك قيمته فيقينه سليم ، فهو ينظر إليه نظرة انبهار وإعجاب ودهشة وغرابة وترقب وخوف ورجاء وحب ، فإذا كان الإنسان ينظر إلى الآخرة بغير هذه النظرة فيقينه بالآخرة هو يقين نظري فقط وليس يقينا حقيقيا لأن الآخرة في نظره وهم وسراب لا قيمة له كأساطير الأولين أو مثل حواديت الشاطر حسن ، وكذلك إذا كانت نظرته إلى قدرة الله وصفاته المبهرة الهائلة مثل نظرته إلى أي أمر لا قيمة له فه لا يتأثر ولا يعجب ولا ينبهر بصفاته كأنها لا قيمة لها فيقينه بالله هو يقين نظري فقط لا قيمة له .

ـ ويحدث هذا التناقض من خلال التناسي لقيمة الشيء .

****

ـ ثالثا : التلهي بالدنيا (انقطاع الهموم عن الله والآخرة)

ـ الهم يدل على هدف الإنسان وغايته ، فإما أن يكون غايته الله والآخرة فيكون ذلك همه ، وإما أن يكون غايته الدنيا فيكون ذلك همه فهو يعبد الدنيا ، فإذا لم يكن لله والآخرة وجود في هم الإنسان فهذا نسيان لله والآخرة .

ـ انقطاع الهم بالخطر أثناء وقوعه هو غياب لليقين الحقيقي بهذا الخطر :

ـ لابد أن يستمر انشغال البال بالخطر طوال فترة وقوع الخطر ، فإذا انقطع الهم في وقت أثناء وقوع الخطر فهذا معناه أن الإنسان تناسى الخطر وأنه أصبح لا يعقل ، أنت الآن مسافر إلى الآخرة ولقاء الله والمحكمة ا لإلهية على أعمالك على وشك القدوم ، وأنت الآن في مرحلة اختبار مدته يوما أو بعض يوم ، أليس السفر إلى الآخرة خطر أنت واقع فيه الآن ؟ وأليس وجودك في لجنة الامتحان الآن خطر ؟ ، ذلك الامتحان الذي يتوقف عليه مصيرك كله ، أليس وجود الإنسان طوال حياته داخل طائرة تطير به في الفضاء (الكرة الأ رضية) حول نار الشمس الهائلة المشتعلة في الفضاء خطر قائم ؟ الآن يدل على ضعف الإنسان ووقوعه تحت سيطرة وقدرة الخالق يستطيع أن يفعل به ما يشاء ، وكيف ينسى عاقل آية كهذه أو غيرها من الآيات في كل شيء .

ـ فإذا لم يكن مع هم الدنيا هم الآخرة فأصبح الهم كله للدنيا فهذا معناه نسيان الله والآخرة .

ـ عندما ينشغل هم الإنسان بعظمة الله أو آياته الكونية أو خطورة الآخرة أو ضآلة الدنيا أو ضعف الإنسان عند الابتلاءات مثلا حيث يبتعد الهم عن روتين الهموم اليومية يشعر الإنسان بروح الإيمان تدب في نفسه .

ـ من شغل همه بالآخرة فقد شغل همه بشيء واحد فقط ، ولكن من شغل همه بالدنيا فقد فتح على نفسه آلا ف الهموم فهذه هي طبيعة الدنيا ، فكلما دخل من باب وجد أبواب أخرى كثيرة ، ويظل تتشعب به الهموم حتى يهلك ، فطبيعة الدنيا عبارة عن متاهة كلما سرت في طريق وجدت طرقا أخرى فدائما يستجد لك فيها هموم أخرى وآمال أخرى ومتاعب أخرى ، ففي الحديث : ((خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط في وسط الخط خطا ، وخط خارجا من الخط خطا ، وحول الذي في الوسط خطوطا ، فقال هذا بن آدم وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي في الوسط الإنسان وهذه الخطوط عروضه **إن نجا من هذا ينهشه هذا** ، والخط الخارج الأمل))[1] أي يموت ولا يزال عنده تمني وآمال لم تتحقق ، فيظل الشيطان يلهيه حتى يموت .

ـ فالتلهي بالدنيا يؤدي إلى الانشغال عن الآخرة كأنها ليست مهمة ، فتكون نظرة الإنسان للآخرة مثل نظرته لأي شيء غير مهم أو أي شيء لا ينفع ولا يضر ، فيفقد اليقين الحقيقي بالآخرة .

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 635 ، برقم 2454)

ـ جاء في تفسير ابن كثير : (((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .... يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبرًا لهم بأنه مَن إلتَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة))[1] فقد جعلنا الله في حاجة إلى أمور الدنيا على سبيل الاختبار ليرى الله من ستشغله عن هم الآخرة فلا تكون الآخرة همه الدائم أو تكون الدنيا كل همه فيكون من الخاسرين .

****

ـ ثانيا : أثر تعطيل عمل العقل

1ـ انقطاع المشاعر المتعلقة بالله والآخرة .

2ـ تعطيل عمل الجوارح :

ـ إذا تعطلت الوظيفة الأساسية للعقل وهي الشعور بالقيمة يتعطل اللسان ، فيتكلم بغير شعور بقيمة ما يتكلم به ، فكأنه يهذي ما يدري ما يقول ، فهو يقول بأنه يوقن بالآخرة وهو لا يشعر بخطورة ما يقول ، وينشغل لسانه بالكلام في أمور الدنيا التي لا قيمة لها ، وتتعطل الجوارح ، فهو يعمل بغير أن يشعر بقيمة ما يعمله ، فيعمل من أجل الدنيا التي لا قيمة لها ، أو يعمل للآخرة ولكن بغير شعور بقيمة ما يعمله .

****

ـ أمثلة توضح التعامل الخاطئ مع المعلومات

ـ مثال (1) :

ـ لو قيل لك أن في يدك الآن قنبلة ، فلو أنك عرفت أنها قنبلة من غير أن تشعر بقيمتها وخطورتها الشديدة وبالتالي لم تشعر بالخوف فهذا معناه أن معرفتك هذه هي معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية لأنك غيرت خصائص القنبلة فأصبحت في شعورك لا تضر ، فبقي منها الاسم فقط كأنها لعبة أو كوره على شكل قنبلة .

مثال (2) :

ـ لو قالوا لك أن أباك قد مات ، فلو علمت ذلك بطريق الاقتناع النظري فقط فإن هذا الأمر عادي ، فهو مجرد معلومة عرفتها ، ولكن الإنسان الطبيعي يعرف هذا الأمر بطريق الشعور بقيمته ، فيشعر الإنسان بمدي ما في هذا الأمر من أهمية وخطورة وأنه خبر غريب ومفاجئ ، فيشعر بأنه سيحرم من والده للأبد ، ويتذكر كذا وكذا فيشعر بالذهول والحزن والضيق .

ـ مثال (3) :

ـ الذي يدخن وهو مقتنع تماما بأن التدخين ضار جدا بالصحة كما هو مكتوب علي علبة السجائر ، لكنه لا يشعر بمدي خطورة ذلك الأمر ولا يرضى به ولا يعجبه ، لذلك فهو يدخن .

ـ مثال (4) :

ـ أنت إذا وقفت أمام أسد حقيقي ولم تشعر بخطورة الأمر فلم تشعر بالخوف فهذا معناه أن هذا الأسد في حقيقته بالنسبة لك هو تمثال أو صنم ، والفرق بين الأسد الحقيقي والأسد الصنم أن الأخير لا ينفع ولا يضر

(1) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص : 133)

، وهما مشتركان فقط في الاسم ، فالأول له إسم حقيقي والثاني له اسم مخترع ما أنزل الله به من سلطان ، لذلك عاب الله علي قوم يعبدون أصنام لا تنفع ولا تضر ((قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شيئا وَلا يَضُرُّكُمْ))[1] .

ـ فإذا كنت تقول بأنك توقن يقينا تاما بأن هناك أسد يجرى نحوك ويقترب منك ولم تتصور خطورة هذا الأمر ولم تنتبه لهذا الخطر ولم تخف منه ولم تسرع بالهرب فأنت كذاب أو يقينك بأنه أسد ضعيف .

ـ فكذلك معنى أن يعلم الإنسان أن له ربا والاها يعني أن هناك أحدا غير الإنسان لا تراه ذو قدر وقدرات هائلة فوق قدرات الإنسان ، وأنت وما تملك عبارة عن جزء من ممتلكاته ، وكل أمرك بيده ، ألا يدعوا ذلك إلى أن ترهبه وتخافه وتشعر بالذل والضعف أمامه ، فإذا لم تشعر بالخوف من الله ، فهذا يعني أن الله في نظرك مجرد اسم متشابه مع الاسم الحقيقي ، فالشيء الذي لا يؤثر على مشاعر الإنسان هو شيء لا ينفع ولا يضر كالصنم .

ـ فكلمة (إله) في اللغة أي الذي تتحير وتندهش من مدى قدرته وعظمة صفاته ففي النهاية في غريب الأ ثر : ((أَلِهَ يأْلَهُ إذا تحَيّر ، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها))[2] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((أَلِهَ يَأْله إذا تحيّر كأَنّ القلوب تأْلهُ عند التفكر في عَظَمَة الله))[3] .

ـ مثال (5) :

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في صورة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء ، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر ، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تفارق ذهنك في كل أعمالك ، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أن اليقين بوجود الملكين هو يقين نظري فقط .

مثال (6) :

ـ أنت عندك يقين واقتناع نظري تام بعذاب القبر وسؤال الملكين ، فلو قام إليك أحد الموتى ليخبرك عن ما كان من سؤال الملكين وعذاب القبر فتقول له وأنت بارد القلب : أنا أعرف ذلك وأكثر منه ، فلو جاء بعصاه وضربك بها لكان محقا ويقول لك أنت ليس لديك أي شعور عن عذاب القبر لأنك لا تشعر بمدي خطورة هذا ا لأمر وألم هذا العذاب .

ـ مثال (7) :

ـ لو أن إنسانا يعيش في منزل آيل للسقوط ، لكنه لا يريد أن يغادر المنزل فماذا يصنع ؟ ، يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر ، وهذا من الغباء طبعا وهو بذلك يلغي عقله .

ـ كذلك الدنيا سوف تنتهي في أي لحظة ، لكنه لا يريد أن يترك الدنيا التي يعتبرها داره وفيها متاعه فماذا يصنع ؟ ، يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر ، وهذا من الغباء طبعا وهو بذلك يلغي عقله ، أما العاقل فيظل تفكيره منشغلا بهذا الأمر طالما أنه ما زال مقيما في هذه الدنيا .

---

(1) الأنبياء : 66
(2) النهاية في غريب الحديث والأثر ـ المكتبة العلمية - بيروت (1 / 62)
(3) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني - بغداد (3 / 728 ـ 728)

ـ مثال (8) :

ـ المتغافل عن حقيقة وجوده وحكمة خلقه هو مثل رجل دخل مغارة مظلمة في مكان موحش ، فوجد عند مدخلها بقايا لجثة إنسان ، فما كان منه إلا أن وضع رأسه وأسلم جفنيه للنوم ، غير آبه بما يحتمل أن يكون في جوف هذه المغارة من وحوش ضارية ، وهو يمنّي نفسه بالفرار إذا استيقظ ، مع أن الموت قد يفاجئه في أي لحظة ، ولذلك ففي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[1] .

ـ فهذا الرجل على يقين تام بأن هذه المغارة فيها مخاطر كبيرة ورغم ذلك فهو يتجاهل هذه المخاطر وينام كأنه لا شيء ، فهذا الرجل ليس لديه شعور بخطورة الأمر ويقينه بالخطر هو يقين نظري فقط .

ـ مثال (9) :

ـ إذا كان أحد الناس يركب سيارة وفي أثناء الطريق وجد يافطة مكتوب عليها : (احذر أمامك مطب) مثلا ، هو قرأها ويعرف أن أمامه خطر يجب أن يحذر منه ، ولكنه لم يبالي بالأمر ولم يهدئ من سرعته فانقلبت به السيارة ، إن هذا الرجل كأنه سكرانا أو فاقد الوعي لأنه لم يشعر بخطورة الأمر ، فما فائدة المعرفة النظرية بأن أمامه خطر ؟ ، فهو تغافل عن الأمر وتجاهله ولم يعبأ به

ـ مثال (10) :

ـ لو أن أحد الناس وقع لك على توكيل رسمي عام وهو يدرك ويشعر بخطورة ما يعمله ، فهذا يدل على أنه يثق بك ثقة كبيرة فأنت حينئذ قد تكافئه على ثقته بك ، أما إذا لم يكن يشعر بخطورة ما يعمل وما يترتب عليه فهو أحمق .

ـ كذلك الذي يقول بأنه اختار أن يعيش عبدا لله وهو لا يشعر بخطورة أن يعيش الإنسان عبدا لسيده مثلما كان يحدث في الماضي حيث كان العبد يباع ويشترى في سوق العبيد ، وكذلك الذي يقول بأنه اختار ألا تكون معيشته في هذه الحياة التي يحياها الناس ولكن اختار أن يعيش من أجل الحياة الآخرة حيث فيها معيشته وهو لا يشعر بخطورة أنه يتنازل عن الإقامة في هذه الحياة ويعيش معيشة المسافر المستعد للرحيل .

ـ مثال (11) :

ـ لو قالوا أن الكرة الأرضية معرضة لخطر ما محقق ووشيك مثل نزول نيزك ضخم يحطم الأرض أو تعرض ا لأرض لأشعة تهلك البشر وأن هذا الخطر حقيقة سوف تقع ، فماذا يمكن أن يكون سلوك الناس عندئذ ؟ هل يكون همهم مشاغل الحياة والأكل والشرب والبحث عن الشهوات والذهاب للعمل أم يكون همهم مُنصبّا على هذا الأمر الذي سوف يهلك البشرية كلها ، إن هذا الخطر واقع فعلا وهو أنك سوف تموت قريبا وسوف يموت كل البشر وسوف تدمر الأرض وكل الكون فلماذا لا يشغل هذا الأمر بال الناس ويفكرون فيه ؟ ، ذلك لأنهم لا عقل لهم فهم يتجاهلونه بينما يفكرون ويهتمون بأمور الدنيا .

ـ وكذلك لو حدث كسوف للشمس أو حدث كوني كبير ثم قيل أن القيامة سوف تقوم الآن مثلا ، فماذا يمكن أن يفعل الناس ؟ إنهم لن ينشغلوا بأي أمر من أمور الدنيا وسوف يهرعون إلى الصلاة والعبادة خائفين وجلين مترقبين الآخرة : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهم في غفلة معرضون))[2] .

****

الفصل الثاني

التعامل مع الخطر الهائل

(1) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 62

(2) الأنبياء : 1

ـ الدنيا عبارة عن حجرة هادئة تماما وساكنة ، وداخل هذه الحجرة يوجد رجل يلهو ويلعب وسط هذا الجو الهادئ ، وخارج الحجرة توجد نار هائلة تقترب وتوشك أن تشتعل بالحجرة ، والرسل جاءت تدق الباب بشدة وتنادي بصوت عالي : احذروا النار احذروا النار ! ، وتنادي على من في الحجرة أن ينظر إلى الشباك ليرى النار ، وتدله على ممر للنجاة وسط النار يؤدي إلى حدائق وقصور فيها الأمان والمتع والملذات (الجنة) ، فسمع الرجل النداء ورأى النار من الشباك ، ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه كأنه لم يسمع النداء وكأنه لم يرى النار من الشباك وكأنه لم يفهم ما قالته الرسل ، واستمر في لعبه ولهوه وسط الجو الهادئ داخل الحجرة ، ولم تتأثر مشاعره ولم يتحرك للهرب ، فكأن هذا الرجل لا سمع له ولا بصر له ولا عقل له ولا مشاعر له وكأن جوارحه لا تعمل فكأنه ميت ، فرغم أن هذا الرجل يلعب ويلهو لكنه في الحقيقة ميت ! ، فمهما أخذت تنادي فيه : احذر النار ! فكأنما تكلم ميتا لا روح فيه : ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[1] ، فهذا الرجل منع نفسه من أن يسمع أو يعقل بتجاهله للأمر : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[2] ، وهو كالأنعام يأكل ويشرب ويتناسل وينام ، والبهائم لا تفقه خطاب البشر مهما ناديتها : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[3] ، فما زالت الرسل تدق الباب وتنادي وهو يستمع إليهم وهو يلعب مثلما يستمع إلى أمر تافه أو لا قيمة له : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[4] .

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم ، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم ، فكان طائفة منهم لم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب ، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا ، وكأن شيئا لم يكن ، وكأنهم لم يسمعوا ، وكأنهم كالحائط الذي لا يحس ، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم ، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم ، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولا ذوا بالفرار فنجو من الجيش ، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي الحديث : ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[5] ، ومعنى " أنا النذير العريان " أصله أن الرجل كان إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدا عنهم ليخبرهم بما دهمهم ، وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرا فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو ، وقيل معناه أنا النَّذِير الذي أَدْرَكَنِي جَيْشُ العَدُوّ ، فَأَخَذَ ثِيَابِي ، فانفلت منهم ، فَأَنَا أُنذِركمْ عُرْيَانًا .

ـ وفي الحديث : ((وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم))[6] ، وفي الحديث : ((لما نزلت { وأنذر عشيرتك الأقربين } جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فخص وعم فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار))[7] ، وفي حديث آخر : ((مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار

---

(1) النمل : 80
(2) الملك : 10
(3) الأعراف : 179
(4) الأنبياء : 1 ـ 3
(5) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج :1، برقم 148، وهو أيضا في صحيح الجامع برقم 5860)
(6) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 188 ، برقم 1578)
(7) حديث صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 338 ، برقم 3185)

هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[1] .

ـ فالإنسان الغافل يعيش كأنه لا يوجد أي خطر يهدد الكرة الأرضية والحياة الدنيوية ولا يوجد أي خطر يهدد حياته رغم أنه يعلم بأن الموت خطر يهدد حياته فيأتيه في أي لحظة ورغم أنه يعلم أن الكرة الأرضية وحياة البشر سوف تفنى في لحظة مباغتة بظهور علامات الساعة ، ويعيش كأن حياة البشر على الأرض و المنظومة الكونية ليس لها أحد يسيطر عليها ويحكمها وكأن كل إنسان يعيش حياته كيف يشاء كأن البشر موجودون من تلقاء أنفسهم ولا توجد حكمة من إيجادهم ، رغم أنه يعلم أنه ضعيف أمام قوة الخالق وأن الضعيف يجب عليه أن يخضع للقوي وأن الخالق لابد أن يعاقب من لا يخضع لأنه يستكبر على الله ، وطالما أنه لا يرى عقابا في الدنيا فلابد من بعث الناس وحسابهم على ما فعلوا ، ونزل الوحي لينذر من في الأرض من هذا الخطر الذي ينتظرهم فجأة وهو يوم الحساب على الخضوع ، ولكن البعض تجاهل كل الإخطار التي حوله وعاش في الحياة هادئا مطمئنا معتقدا بأن هذه هي حياته راضيا بأن حياته على هذه الأرض فهو مطمئن وراض بالحياة الدنيا رغم أن وجود الإنسان على الأرض ليس حياة يقيم فيها ويسكن ولكنها مجرد طريق وسفر واختبار وليست معدة للمعيشة ، والحياة التي يعيشها الناس ويقيمون فيها هي في الآخرة : ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[2] ، فالحياة التي يعيش فيها الإنسان ويأكل ويشرب ويلبس ويقيم هي الآ خرة أما هذه الحياة التي نعيشها فهي حياة كاذبة مؤقتة مثل الحياة التي يعيشها عابر السبيل ليصل إلى بيته ووطنه : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[3] ، " الحيوان " أي الحياة الحقيقية وفي الآية : ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[4] أي لحياته في الآخرة ، لذلك من الناس من تكون قضيته كيف يعيش حياته وكيف يقوم بشئون معيشته وكيف يدبر أموره المعيشية وهو لا يدري أنها ليست بحياة وأنها مجرد سفر أوشك أن ينتهي ، أما الذي يدرك أنه على سفر فهو منشغل بسفره عن هذه الأمور المعيشية المؤقتة فهو لا يبالي بلقيمات تعينه على سفره كيفما اتفق ولا يبالي كيف تكون هذه الحياة المعيشية العابرة لأنها زائلة سريعا فتكون عنده كيفما اتفق .

ـ الشعور بالتحير (تصور الخطر الهائل ـ عجز العقل عن تصور الخطر الهائل) :

ـ عندما يتصور الإنسان خطرا هائلا يصل إلى درجة التحير حيث لا يستطيع أن يتصور فوق ذلك .

ـ فالعقل يستطيع أن يتصور مدى خطورة أمر ما أو مدى فيه من الألم أو مدى ما فيه من اللذة ، ولكن قد يزيد مدى الخطورة أو درجة الألم أو درجة اللذة إلى درجة يطيش لها العقل ويتحير ولا يستطيع تصورها من مدى شدتها .

ـ فمثلا لا يستطيع العقل أن يتصور مدى حجم هذا الكون الهائل كله ، ولا يستطيع أن يتصور مدى دقة كل هذا النظام القائم به ، وبالتالي لا يستطيع أن يتصور مدى قدرة الله الهائلة على إيجاد كل هذا الكون الهائل ومدى علم الله على إيجاد هذا النظام الدقيق ، ولا يستطيع العقل أن يتصور مدى قدرة الله على فعل كل شيء وأي شيء: ((فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))[5] .

ـ وكذلك أهوال القيامة وآلام النار تفوق كل التصورات ، فأقصى ما يتصوره العقل هو أن يرى إنسان موضوع داخل نار الدنيا وهو يحترق ، ولا يستطيع أن يتصور أن هذا الألم لا شيء أمام نار الآخرة .

ـ وكذلك اقتراب الموت ولقاء الله والآخرة خطر هائل وواقع محقق الآن ، لا يمكن أن يتصور الإنسان مدى خطورة أنه بينه وبين الآخرة لحظات ، فهذا أمر يطيش له العقل ويتحير ، والأخطر أن الأمر يأتي فجأة

---

(1) حديث صحيح (صحيح الجامع برقم 5858)
(2) يونس : 7 ، 8
(3) العنكبوت : 64
(4) الفجر : 24
(5) الملك : 3، 4

وبغتة في أي لحظة .

ـ وكذلك لذات الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهذا أمر يطيش له العقل ويتحير .

ـ الهدوء التام أمام المخاطر ! :

ـ العجيب أن الإنسان يعيش في هدوء تام وغفلة تامة عن هذه المخاطر الهائلة ، فهو يوقن بها نظريا ولكن لا يشعر بخطرها مطلقا .

ـ وأراد الله أن تكون الدنيا معزولة تماما عن هذه المخاطر وهادئة تماما ، فالإنسان لا يرى الغيبيات بعينه فلا يرى تلك المخاطر ، وجعل الله ذلك ليختبر الإنسان ، فقد أتى له بالأدلة القاطعة على هذه المخاطر بالآيات الكونية ومعجزات الرسل وإعجاز القرآن والسنة ، ولكن الإنسان لم يستعمل عقله فيعقل الأمر ولكن تناسى ا لأمر وهرب منه ، وهو لن يستطيع أن يهرب من هذه المخاطر التي تلاحقه لتفتك به .

ـ الرسل جاءت تحذر من هذه المخاطر ولكن لا حياة لمن تنادي ، ولكن بعد لحظات من الآن نجد أنفسنا واقفين على أرض المحشر لنتذكر تحذير الرسل ولكن ذلك لا ينفع .

ـ والعجيب أن الإنسان يشعر بالخطر في آلام الدنيا ولذاتها ولا يشعر بالخطر في آلام الآخرة ولذاتها ، رغم أن الدنيا بكل آلامها ولذاتها ليست بشيء بالمقارنة بالآخرة .

ـ الذي يتناسى المخاطر سوف يدفع الثمن غاليا ، والذي يعقل الأمر فيتصور الخطر ويشعر به وينشغل به همه فقد فاز .

ـ مفهوم الشعور بالتحير :

ـ هو التصور للأمر الخطير الهائل ، ومعناه التعجب والدهشة والاستغراب والذهول من الأمر المؤثر والانتباه واليقظة إلى خطره ، وأعظم شيء مؤثر هو أن لك إله ، فكلمة (إله) في اللغة أي الذي تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته والتي تتمثل في خرق الأسباب فتحبه إعجابا بمدى قدرته الهائلة وتخاف من هيبته ، ففي النهاية في غريب الأثر : ((ألِهَ يأْلهُ إذا تحَيّر ، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[1] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((ألِهَ يَأله إذا تحيّر كأنّ القلوب تألهُ عند التفكر في عَظَمة الله ... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدّرجَة لم يُعْجِبهُ أحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلّ))[2] .

ـ أي اليقظة والانتباه والتعجب والذهول من اكتشاف حقائق الأمور والانتباه إلى ضررها الكبير أو نفعها الكبير ، وهو شعور يحدث فيه انزعاج ودهشة وذهول عندما يفقه ويشعر بخطورة الأمر .

ـ فالشعور بقدر الله والآخرة هو شعور بالتحير والانزعاج والدهشة والتعجب والاستغراب من روعة الانبهار و الذهول والدهشة من مدى عظمة الخالق وصفاته الخارقة للأسباب ومن عجائب وغرائب الآخرة التي هي حياة فوق مستوى الخيال ومن مدى ضآلة الدنيا وضعف الإنسان .

ـ والشعور بالقيمة للدنيا وللغيبيات يقترب من مفهوم (اليقظة) التي عرفها ابن القيم بأنها انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين[3] ، فمثلا مجرد المعرفة النظرية بالآخرة لا يكفى ، ولكن عندما ينتبه إلى مدى خطورة الآخرة في أنها مصيره وحياته وأنه راحل إليها فيحدث له انزعاج ودهشة وعجب وغرابة من روعة ما عرف فكأنه أفاق ويكتشف أنه كان فاقد الوعى عن خطر الآخرة ، ويكتشف أنه كان في غفلة من

---

(1) النهاية في غريب الأثر ـ المكتبة العلمية - بيروت (1 / 62)
(2) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني - بغداد (3 / 728 ـ 728)
(3) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (1 / 142)

هذا فيفيق من رقدة الغافلين ويستيقظ من نومه ، ولذلك ففي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[1] ، وهذا النائم يحتاج إلى اليقظة والشعور بالقيمة لمدى خطورة الآخرة وألم النار ولذة الجنة وقدر الله ليفيق .

ـ كل إنسان يعرف الحق والمطلوب أن يعقل ما يعرفه فلا يتناساه :

ـ كل إنسان عنده معلومات موجودة في يقينه النظري بالله والآخرة وحقيقة الدنيا وما هو حق وما هو باطل ، لكنه قد لا يتعامل مع هذه المعلومات مطلقا فلا يوجد أي رد فعل أو انفعالات أو تأثر بهذه المعلومات ، فلا يتأثر عقله بأن يتصورها ويشعر بقيمتها وينشغل بها ولا تتأثر المشاعر وتتفاعل بها ولا تتأثر الجوارح بـ العمل ، فقد تعطلت وظائف الإنسان جميعها وأصبحت تعمل بصورة متخبطة ، فالإنسان عندئذ كأنه ميت لا يحس ولا يتأثر ولا يستجيب لما في داخله من معلومات : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ **وَالْمَوْتَى** يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمّ إليه يُرْجَعُونَ))[2] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ **حَيًّا** وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ))[3] .

ـ السبب الذي أدخل الكفار النار ورد في قوله تعالى : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[4] ، فإذا أردنا أن ندخل الجنة فلابد أن نسمع ونعقل ، والإنسان العاقل يفكر في ما يسمعه ويراه فيتصوره ويشعر بقيمته وينشغل به باله ، ورغم أن الإنسان يعلم عظمة الله وضعف نفسه وخطورة الآخرة وضآلة الدنيا وشهواتها إلا أنه يعطل عقله فلا يتصور ذلك ولا يشعر بقيمته ولا ينشغل به باله فيكون كل تفكيره فيما سوى ذلك من ظاهر الدنيا فهذا هو نسيان الله والآخرة والغفلة عن الله والآخرة : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[5] .

ـ أمور الدين سواء كانت أمور العقيدة أو الطاعات والمعاصي هي في الأصل عبارة عن معلومات ، ويجب أن يتعامل الإنسان مع المعلومات بصورة صحيحة ، فالعقيدة تقول بوجود الخالق ووحدانيته ووجود الآخرة و الملائكة ونزول الوحي بكلام الله إلى الرسل ، وأوامر الله تقول بأن المعاصي عليها عقوبات فهي أمور تضر ، والطاعات لها ثواب فهي أمور تنفع الإنسان ، وكل ذلك عبارة عن معلومات ، وكل هذه معلومات يجب التعامل معها بصورة صحيحة .

ـ أنواع المعلومات :

ـ أيُ شيء إما أن يكون له قيمة أو لا قيمة له كالتالي :

1ـ الشيء الذي لا قيمة له : هو شيء لا ينفع ولا يضر (ليس فيه ألم أو لذة) فهو أمر تافه لا يلفت النظر ولا يشغل التفكير ولا ينتبه الإنسان إليه وينظر إليه الإنسان نظرة احتقار وسخرية .

2ـ الشيء الذي له قيمة فهو شيء فيه نفع أو ضرر (فيه ألم أو لذة) ، فهو شيء خطير أو مهم ، فهو مفيد أو ضار ، فهو أمر يلفت النظر ويشغل التفكير وينتبه الإنسان إليه وينظر إليه الإنسان نظرة اهتمام .

ـ والأشياء التي لها قيمة ينظر إليها الإنسان بحسب مقدار قيمتها ، فهي على ثلاثة درجات كالتالي :

1ـ الشيء ضئيل القيمة : فمقدار ما فيه من النفع أو الضرر (مقدار ما فيه من الألم واللذة) ضئيل فهو اقرب الشيء الذي لا نفع فيه ولا ضرر ، فينظر إليه الإنسان نظرة متواضعة لا يبالي به كثيرا ، ولا يشغل التفكير ولا ينتبه إليه الإنسان إلا بالكاد .

2ـ الشيء كبير القيمة : هو أمر خطير لشدة ما فيه النفع أو الضرر ، فهو شيء خطير جدا أو مهم جدا ، فهو

---

(1) التخريج : حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3662)
(2) الأنعام : 36
(3) يس : 70
(4) الملك : 10
(5) الروم : 7

مفيد جدا أو ضار جدا ، فهو أمر يلفت النظر ويشغل التفكير وينتبه الإنسان إليه وينظر إليه الإنسان نظرة اهتمام .

3ـ الشيء فائق القيمة : هو أمر خطورته فوق مستوى الخيال وأعظم من كل تصورات الإنسان ، فهو أمر يلفت النظر بشدة ويشغل التفكير دوما وينتبه الإنسان إليه وينظر إليه الإنسان نظرة اهتمام بالغ ، ومن أمثلة ذلك الجنة والنار وقدرة الله وصفاته الهائلة ، وخطورة ذلك على الإنسان هائلة ، وإذا لم يدرك الإنسان ذلك فيفيق قبل فوات الأوان فهو لا يزال غير واع لخطورة الأمر .

ـ المشكلة هي انقلاب نظرة الإنسان إلى قيمة ومقدار الأشياء :

ـ يحدث خلل في عقل الإنسان فتتغير نظرته إلى الأشياء فينظر إلى الشيء الذي لا قيمة له كالدنيا وما بها من أموال وشهوات وآلام والتي هي متع محدودة ومؤقتة وزائلة وتنقضي سريعا ولا قيمة لها بالمقارنة بالآخرة ينظر إليها على أنها عظيمة القيمة فينشغل بها ذهنه وتفكيره .

ـ كل شيء له قدر وقيمة ، فإما أن يكون عظيم القيمة أو لا قيمة له ، وانشغال البال معناه أن تكون نظرة الإنسان إلى الشيء عظيم القيمة نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم لقيمته ، وبالتالي ينشغل به همه وتتفاعل به مشاعره ويتأثر به عمله ، وتكون نظرة الإنسان إلى الشيء عديم القيمة مثلما ينظر إلى الشيء التافه بعدم اهتمام ، وبالتالي لا ينشغل به همه ولا تتفاعل به مشاعره ولا يتأثر به عمله ، وهذا هو الإنسان العاقل السوي الذي يشعر بقيمة الأشياء ، فإذا نظر الإنسان إلى الشيء التافه نظرة انبهار ونظر إلى الشيء العظيم بلا مبالاة فهو لا عقل له لأنه لا يشعر بقيمة الأشياء ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ قدرة الله وقوته وصفاته لها قيمة عظيمة ، والآخرة لها قيمة عظيمة ، والطاعات والمعاصي لها قيمة عظيمة ، بينما المال والشهوات والمناصب والمظاهر والأعمال الدنيوية وقدرة الإنسان ليس لها قيمة بالمقارنة بقيمة قدرة الله وخطورة الآخرة ، ولأن جميع هذه الأمور إلى زوال .

ـ فإذا كانت نظرة الإنسان إلى قيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو الأعمال الدنيوية أو أمور الدنيا نظرة انبهار وإعجاب وأنها أمور خطيرة وغاية في الأهمية فأصبح يتمناها وتتعلق بها مشاعره وهمومه وأهدافه وعمله ، في حين نظرته إلى قدرة الله وعلمه وقوته كأنه ينظر إلى أمر لا قيمة له ، وكذلك نظرته إلى خطورة معنى أن له ربا وأنه عبد ، ونظرته إلى خطورة الآخرة ، ونظرته إلى الكون من حوله وما يدل عليه من قدرة الخالق ، كأنها أمور نظرية وليست حقيقية ، ورغم أنه يعلم أنها أمور خطيرة لكنه يتجاهل ذلك ولا ينظر إليها نظرة اهتمام مثلما يهتم الإنسان بالأمر الخطير ، فالإنسان عندئذ لا عقل له لأنه لا يشعر بحقائق الأشياء من حوله .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بحقيقة قيمته هو نفسه من الضآلة وحقيقة قيمة المال والشهوات والمناصب و المظاهر والدنيا من الضآلة ولم يشعر بحقيقة قيمة قوة الله وقدرته وعظمته من العظمة وحقيقة خطورة الآخرة من العظمة فلن تتفاعل مشاعره وهمومه وأهدافه بالله والآخرة ، فلن يشعر بالخوف من الله و الخضوع له ورجاءه والخوف من الآخرة ، في حين ستتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالشهوات والمال و المظاهر وهموم الدنيا فيكون خوفه وخضوعه ورجاءه في الدنيا وتوكله عليها .

ـ فإذا شعر الإنسان بأنه ضعيف وبأن الدنيا ضئيلة وشعر بقدرة الله وخطورة الآخرة فعندئذ فقط يتحقق الخوف من الله والخضوع له ورجاءه ، وعندئذ فقط يتحقق الإيمان الحقيقي .

ـ المشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدا فوق كل التصورات :

ـ لابد أن يتناسب مقدار الشعور بالقيمة مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدا فوق كل التصورات ، فإذا كان الشعور بقيمة الآلام أو الملذات في الآخرة أقل من أو يساوي الشعور بقيمة الآلام أو الملذات في الدنيا فهذا

معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالآخرة ، وكذلك إذا كان الشعور بقيمة قدرة الله وقوته وصفاته أقل من أو يساوى الشعور بقيمة قدرة البشر وقوتهم وصفاتهم فهذا معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالخالق وصفاته .

ـ وإذا وصل الإنسان إلى درجة الكمال في الإيمان فهذا معناه انه يشعر بان كل ما هو غير الله من بشر وكائنات وجمادات لا قيمة له مطلقا .

ـ ومهما شعر الإنسان بحقيقة الآخرة ومدى ما تعنيه من الأهمية والخطورة فلن يصل إلى قدرها ، ومهما شعر الإنسان بقدر الله ومدى عظمته فلن يصل إلى الشعور بمدى قدره وعظمته : ((وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسّمَاوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ))[1] .

ـ فلو أن إنسانا غمس في النار غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل آلام الدنيا ومشاكلها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها ، ولو أن إنسانا غمس في الجنة غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل متع الدنيا ولذاتها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها ، ولو إن إنسانا عاش ألاف السنين في الآخرة ثم عاد إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة : ((قَالَ كمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قَلِيلًا لَوْ أَنّكُمْ كُنْتُمْ تعْلَمُونَ))[2] ، وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدّنْيَا مِنَ الكُفّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ في النّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمّ يُقَالُ لَهُ أي فُلأن هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لا مَا أَصَابَنِى نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدّ المُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلا ءًا ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الجَنّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلأن هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلا ءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِى قَطُّ ضُرٌّ وَلا بَلا ءٌ))[3] .

ـ العاقل عليه أن يتخيل أنه الآن موجود داخل نار الآخرة سواء لذنوب يتطهر منها أو لأنه لم يحقق الإيمان ويتذكر ما كان في الدنيا من آلام ولذات ومشاغل الدنيا فان كل ذلك في نظره لا يساوي شيئا ، فالذنب الذي يعتبره بسيط عقابه الآن شديد جدا داخل النار ، وعدم تحقيق الإيمان عقابه الخلود الدائم داخل هذه النار وهي تلتهم وجهه وجلده وتشويه كما تشوى الدجاجة داخل النار ، ولكن هذا التذكر بعد فوات الأوان : ((يَوْمَئِذٍ يَتَذَكّرُ الإنسان وَأَنّى لَهُ الذّكْرَى))[4] ، وكذلك عليه أن يتصور انه الآن موجود داخل الجنة ويتذكر ما كان في الدنيا من آلام ولذات ومشاغل الدنيا فان كل ذلك في نظره لا يساوي شيئا ، فالمتع التي كان الناس يتمنونها في الدنيا ويتقاتلون عليها هي الآن موجودة أمامه مضاعفة فهذه شهوات النساء من الحور العين وهذه القصور والخمور والمتع التي لا تنتهي ، ويتذكر انه لو ازداد في الطاعة لارتقى في درجات أعلى ، ولكن هذا التذكر بعد فوات الأوان .

ـ فالمشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدا فوق كل التصورات ، فالجنة فيها متع ونفع كبير جدا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بلذة الشوق تجاهها ، وإذا كان عنده شعور بلذة الشوق لها فلا يتناسب أبدا مع حجم المتع والملذات الهائل جدا الذي يفوق كل التصورات .

ـ والنار فيها ضرر كبير جدا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بألم الخوف من مهابتها وألم الخوف من دخولها ، وإذا كان عنده شعور بألم الخوف منها فلا يتناسب أبدا مع حجم الضرر والألم الهائل جدا الذي يفوق كل التصورات .

ـ بل إن الإنسان مهما كان يقينه ففي يوم القيامة سوف يكتشف أن حجم الألم أو اللذة كان يفوق كل تصوراته عندما يرى الملائكة ويرى الجنة والنار ويجد أن الدنيا قد انتهت وأنها ليست بشيء على الإطلاق ! ،

---

(1) الزمر : 67
(2) المؤمنون : 112 - 114
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)
(4) الفجر : 23

فهو عندئذ يعلم الحقيقة واضحة ولكن بعد فوات الأوان ، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا ، ففي اللحظة التي يموت فيها الإنسان فإنه يرى الملائكة ويرى الأهوال ويعلم أنه كان في الدنيا أعمى لا يرى شيئا والآن أصبح يرى وأنه كان أحمقا لا عقل له والآن أدرك الحقائق ولكن لا يستطيع أن يعود ولو لحظة واحدة ، ف الغافل يرى أمر الآخرة بعيد جدا ولا يعلم أنه في لحظة واحدة مفاجأة مباغتة من ليل أو نهار يأتيه عذاب الآ خرة فورا : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَو نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ))[1] .

ـ الله سبحانه له قدرات هائلة جدا فوق كل التصورات ولو اجتمع البشر جميعا لا يستطيعوا أن يصنعوا شيئا ولو بسيطا مما يصنعه الخالق كأن يخلقوا ذبابة مثلا ، وعلم الله بكل شيء حتى ما سيكون ومقدرته على كل شيء ، ولكن الإنسان لا يشعر بالانبهار والإعجاب والحب لهذه الصفات الخارقة التي تصل إلى الكمال ولا يشعر بالخوف من مهابة هذه القدرات ، ولو كان الإنسان عاقلا لمات من شدة الحب لله ولمات من شدة الخوف من مهابة الله تعالى ولمات من شدة الخوف من عقابه بالنار المحرقة التي يفوق ألمها كل التصورات ، ولمات من شدة الشوق والرجاء في ثوابه بالجنة بما فيها من المتع والحور العين والخمور والملذات التي تفوق كل التصورات .

ـ وجميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات ، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود اليقين الحقيقي بالغيبيات رغم وجود اليقين النظري التام بالغيبيات .

ـ تصور أنك تقف الآن على أرض المحشر في الآخرة أو أنك الآن داخل جنة الآخرة أو أنك الآن داخل نار الآ خرة ، أنت الآن فقط تعرف قيمة الدنيا وأنها بكل ما فيها من لذات وآلام لم تكن سوى لعب ولهو ، وأنت الآن تدرك أن الناس الذين يعيشون في الدنيا في غفلة تامة عن الآخرة وأن الآخرة خطر هائل جدا فوق كل تصورات الناس ، وأنت تدرك الآن أن الأمور معكوسة تماما فكل تفكير الناس ومشاعرهم وأعمالهم هي في أمور الدنيا وأنت تقول أهؤلاء أغبياء لا عقل لهم ! .

ـ الإنسان العاقل هو الذي لا يحتاج إلى أن يذهب للآخرة لكي يصدق بكل هذا الخطر ويشعر به ولكي يصدق بأن الدنيا ما كانت إلا لعب ولهو ، وإنما هو يستطيع أن يدرك ذلك بعقله وهو ما زال في الدنيا وهذا هو المؤمن الذي وعده الله بالجنة .

ـ تصورات الناس مهما بلغت لا تتناسب أبدا مع حجم الخطر الهائل في الآخرة الذي يفوق كل التصورات ولا يتناسب أبدا مع حجم تفاهة الدنيا التي ليست إلا لعب ولهو ، والإنسان الموضوع داخل نار الآخرة يدرك ذلك تماما ولكن بعد فوات الأوان ، وكذلك الإنسان الموجود داخل جنة الآخرة يدرك مدى تفاهة شهوات الدنيا التي يتقاتل عليها الناس .

ـ إعادة ضبط العقل :

ـ إذا علم الإنسان كيف تتم الوظيفة الطبيعية للتفكير في الإنسان قد يكتشف أن تفكيره غير سليم وأنه في حاجة إلى عقل جديد أو في حاجة إلى إعادة ضبط عملية التفكير من جديد فيستعيد عقله بعد أن مات عقله : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعُونَ **وَالمَوْتَى** يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[2] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ **حَيًا** وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ))[3] .

ـ قد يحتاج الإنسان إلى أن يعيد الكشف على عقله ليعرف هل عقله سليم ويعمل بصورة سليمة أم عقله مريض ؟ ، والمفاجأة أن الإنسان قد يكون عبقريا من علماء الذرة ورغم ذلك قد يكون عقله مريض ، وقد يبذل الإنسان عشرون سنة في التعليم وعشرون أخرى فيما يكتسبه من خبرة في عمله حتى يرتقي بخبرته

---

(1) يونس : 50، 51
(2) الأنعام : 36
(3) يس : 70

إلى أعلى المناصب ولكن في الحقيقة قد يحتاج إلى أن يعود إلى الوراء أربعون عاما ليكتشف أنه لا يعرف أبجديات الحياة التي يتعلمها الطفل وأن عقله لا يعمل بصورة سليمة ، فهو لا يزال لا يعرف حقيقة الأشياء من حوله ، فلا يعرف ماذا تعني كلمة (شجرة) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (شمس) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (موت) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (خالق) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (آخرة) وهكذا ، فلو عرضنا هذه الكلمات على خطوات عمل العقل الطبيعي وخطوات تعامل الإنسان مع المعلومات فعندئذ قد يكتشف الإ نسان أنه لم يكن عاقلا .

ـ فمثلا كلمة (شجرة) تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحد يقوم بهذه الأمور الهائلة ، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب ، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور لا نراه ولابد أن له من القدرة الهائلة فوق قدرة الإ نسان ، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل الطين إلى طعام مقصود به الإنسان ، وهذا معناه شعور بالتحير والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق ، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته ، فالضعيف يخاف من القوي ويخضع له ويعجب بقوته فيحبه ويرجو أن يعطيه ويتطلع إلى رؤيته والتذلل له ، فيحدث الخوف والخضوع والحب والرجاء والشوق إلى لقاء الله وينشأ عن ذلك طاعة أوامره إذا علمها ، فهذا هو معنى كلمة (شجرة) إذا نظر إليها العاقل فأدرك ماذا تعني وما حقيقتها وما وراءها ، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يتصور حقيقتها ولم يشعر بالتحير مما يحدث فيها من العجب ومن قدرة الخالق العجيبة الهائلة ولم يشعر بالخضوع والضعف والعجز عن القيام بهذا الأمر ولم يشعر بالقلق والخوف من عجب الأمر ولم يشعر بحب الإعجاب لقدرة الصانع فهو لم يفقه ويفهم ويعقل ماذا تعني كلمة شجرة ، وهكذا .

ـ وبهذا المفهوم فالفصل الخامس هو بيان لمعنى كلمة (خالق) ، والفصل السابع هو بيان لمعنى كلمة (الآ خرة) ، والفصل الثامن هو بيان لمعنى كلمات : الملائكة والرسل والقرآن .

ـ ما فائدة أن يرى الإنسان الأشياء أو أن يسمع الكلام والمعلومات التي تصل إلى أذنيه إذا لم يكن يعقل ما يراه وما يسمعه ، فهو عندئذ كأنه لا يسمع وكأنه لا يرى ، لأنه لا يسمع سماع فهم وتدبر ولا يرى الشيء فيعي حقيقته ، لذلك فالناس قسمين هما الذين يسمعون (أي الذين يفهمون ويعقلون) والذين لا يسمعون (وهم الذين لا يعقلون) : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[1] .

ـ التعامل الصحيح مع المعلومات :

ـ التعامل مع المعلومات يتناسب حسب قيمة ومقدار المعلومة ، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدا ، فمثلا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته ، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود النار والحساب في الآخرة واقتراب أجله ، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفا ورهبة وترقب فهذا معناه انه لا عقل له وانه غير واع لما يحدث حوله أو أنه كالميت ، وهذا حال الغافلين عن الآخرة ، وهكذا .

ـ ويتعامل الإنسان مع أي معلومة يعرفها (معرفة الأمر ومعرفة الأدلة عليه) بالخطوات التالية :

****

ـ لا علم ولا يقين ولا إيمان بغير عقل :

ـ الذي يعرف الشيء ويعلمه ويفهمه من غير أن يشعر بقيمته ومدى ما فيه من ألم ولذة هو في الحقيقة لا يعرفه ولا يعلمه ولا يفهمه ، والشعور بالقيمة هي وظيفة العقل الأساسية .

ـ فمعرفة الشيء بغير الشعور بقيمته هي معرفة نظرية فقط ، أما المعرفة الحقيقية هي معرفة الشيء مع الشعور بقيمته ، وكذلك العلم والفهم .

(1) الأنعام : 36

ـ فالمعرفة النظرية هي معرفة بغير شعور بالقيمة ، والمعرفة الحقيقية هي معرفة مع وجود الشعور بالقيمة ، والعلم النظري هو علم بغير شعور بالقيمة ، والعلم الحقيقي هو علم مع وجود شعور بالقيمة ، والفهم النظري هو فهم بغير شعور بالقيمة ، والفهم الحقيقي هو فهم مع شعور بالقيمة .

ـ فالمعنى الذي يهم من معرفة أي شيء هو الشعور بمدى أهميته أو مدى قدره وقيمته أو مدى ما ينشأ عنه من نفع أو ضرر ، فالذي يهم من معنى (رب) أي الشعور بأنه ذو قدر كبير أكبر من قدر الناس والأشياء ونوضح ذلك كالتالي :

ـ كل إنسان له قدر وقيمة فمثلا المدير في العمل له قدر أكبر من الزميل في العمل من حيث شعورك بالهيبة والتعظيم له ، ووكيل الوزارة له قدر أكبر وهيبة أكبر ، ورئيس الوزارة له هيبة أكبر ، ورئيس الدولة له قدر أكبر ، وأنت تشعر عنده بالهيبة لمكانته ، وتشعر بالخوف منه لأن له قدرة على أن يؤذيك ، وتريد أن يرضى عنك لأن له قدرة على أن يعطيك فترجوا ما عنده ، فتحدث هذه المشاعر من الهيبة والخوف والرجاء خاصة إذا كنت عند ذلك الشخص وهو أمامك وينظر إليك ، أنت في هذه الدنيا عند الله تقف على أرضه وتحت سماءه في ملكه وهو أمامك ينظر إليك ، وهو يرأس كل هؤلاء الوزراء والملوك وذوي السلطات والسلطان ، وهم جميعا تحت أمره وسلطانه ، فهل تشعر بنفس هذا الشعور من الهيبة والخوف والرجاء مع هؤلاء ، أي هل تجد نفس هذه الحالة النفسية التي تشعر بها مع هؤلاء ؟ .

ـ وكذلك الأشياء لها قيمة ، فالألف جنيه له قيمة ، والمليون له قيمة أكبر ، وكذلك السيارات والشركات و المصانع والفيلات ...الخ ، كل شيء له قيمة ، وبالتالي له قدر من الحب والرجاء في الحصول عليه والخوف من ضياعه ، وكل هذه الأشياء هي جزء ضئيل من ممتلكات الله ، فالله له قدر أكبر من قيمة وقدر كل هذه ا لأموال والأشياء لأنه مالكها ، فأنت ما أخذته من شيء لم تأخذه إلا عندما أذن لك صاحبه ، فلا تستطيع أن تتنفس نفسا إلا إذا أذن لك الله بذلك ، فإذا كانت هذه الأشياء لها قيمة وقدر من الحب والخوف والرجاء فهل تشعر بالحب والخوف والرجاء من صاحبها .

ـ وكذلك الذي يوقن بشيء ويؤمن به ويصدق به من غير أن يشعر بقيمته ومدى ما فيه من ألم ولذة هو في الحقيقة لا يوقن به ولا يؤمن به ولا يصدق به .

ـ إذا كان الرجل عنده يقين وليس عنده شعور بقيمة ما يوقن به فما فائدة اليقين عندئذ ؟ فيقينه فيه خلل ، فيقينه نظري وليس يقينا حقيقيا .

ـ اليقين النظري بأمر ما معناه اليقين بصحته من حيث الأدلة مع عدم الشعور بقيمته ، واليقين الحقيقي بأمر ما معناه اليقين به مع الشعور بقيمته ، فإذا كان أمرا خطيرا ومؤثرا شعر بخطورته ، وإذا كان أمرا تافها شعر بضآلته .

ـ فاليقين والتصديق بشيء بغير الشعور بقيمته هو يقين نظري فقط وتصديق نظري فقط ، أما اليقين الحقيقي والتصديق الحقيقي هو اليقين والتصديق والإيمان بالشيء مع الشعور بقيمته .

ـ فاليقين النظري بأمر ما معناه أنه يعرف ويعلم ويفهم ويوقن ويصدق ويقتنع ويؤمن بالأمر لكنه يتجاهله ويتناساه ويتغافل عنه ويتغابى ، أي كأنه نسيه أي عامله معاملة الناسي له ، كأنه لا يعرفه وكأنه لا يعلمه وكأنه لا يفهمه وكأنه لا يفقهه ، كأنه لم يسمع عنه وكأنه لم يراه وكأن الإنسان مجنون لا يعقل الأمر ، كأن ذلك الأمر غير موجود أو موجود ولكن كأنه لا قيمة له ، فهو يعرض عن الأمر ويدبر عنه ويتولى عنه ويتركه ويتلهى عنه ويتشاغل بغيره ولا يتدبره ولا يتذكره ولا يتفكر فيه ، فأصبح الأمر كأنه لا معنى له ولا قيمة ، أي أنه أفرغ الكلمة من محتواها فأصبحت كأنها مجرد اسم بلا مسمى .

ـ وباختصار هو قد عطل أهم وظيفة في الإنسان وهي الشعور بالقيمة ، فبذلك تعطلت وظائف العقل والسمع والبصر وجميع وظائف الإنسان .

ـ ومن ناحية أخرى فكل من بلغته الدعوة وكان عنده شعور بالقيمة ، فكانت وظائفه سليمة لم تتعطل (قلبه سليم) ، فإنه يؤمن بالضرورة لأن الرسل جاءت بالبينات والحجج الواضحة ، فالآيات تبين أن القلب إذا كان سليما غير مطبوع عليه فإنه يقبل الإيمان بمجرد أن يعرفه : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ))[1] ، وكل من عطل عقله فلم يشعر بقيمة الأشياء فلن يؤمن : ((وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ))[2] .

****

ـ اليقين الكاذب (اليقين مع التناسي) :

ـ هناك أمران متضادان ينفي أحدهما الآخر هو أن الإنسان يوقن بأمر ما ثم هو يتناساه كأنه لم يسمع عنه ، فـ التناسي نفى عنه يقينه بالأمر ، فمثلا من كان يوقن بعظمة الله وعظمة قدره وقدرته ثم هو يتناسى ذلك فيصبح الخالق في نظره كأنه لا قدر له وكأنه لا قيمة لقدرته فهو ينسى الله فيقينه بعظمة الله وعظمة قدرته هو يقين كاذب ، وكذلك من كان يوقن بخطورة الآخرة وأنها المصير وأن حياته وخلوده فيها ثم تكون في نظره كأنها لا قيمة لها فلا يتأثر بها همه ولا يخافها ولا يحمل لها هما ولا يعمل لها حسابا فهو ينسى الآخرة كأنه لم يسمع عنها فيقينه بالآخرة هو يقين كاذب .

ـ العلم النظري (الظاهري) والعلم الحقيقي :

ـ كل ما يصل إلى علم الإنسان سواء سمعه أو رآه فهو علم ، فإما أن يعلم حقيقته فهو علم حقيقي وإما أن يعلم ظاهره وهو علم نظري (ظاهري) : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[3]

ـ فقد يكون عبقريا من علماء الذرة ورغم ذلك لم يعقل ما في داخل هذه الذرة من العجب وأن وراءها قوة قاهرة فوق قوة الإنسان هي قوة الخالق وبالتالي يستسلم للخالق ويعيش خاضعا له ، فهو عبقري في ظاهر ا لأمر لكن حقيقته انه لا عقل له .

ـ والعلم بالدنيا بالمقارنة بالعلم بالآخرة فلا قيمة له لأن الدنيا أصلا إلى زوال ولا قيمة لها ، لذلك فالعلم هو العلم بالآخرة والغافل عن الآخرة ولو كان يعلم كل علوم الدنيا فهو جاهل ولا يعلم شيئا ، فهكذا وصفه الله تعالى : ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ [الروم : 6 ، 7] وفي تفسير مفاتيح الغيب : ((فرحوا بما عندهم من العلم ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : 7] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به))[4]

ـ العلم بظاهر الأشياء يؤدي إلى التقدم العلمي وعمارة الأرض وهو علم مطلوب لكنه ضئيل القيمة فالدنيا بكل ما فيها إلى زوال ، والعلم بحقائق الأشياء يؤدي إلى معرفة الله وهذا العلم عظيم القيمة .

ـ معنى (معرفة الله) :

ـ معرفة الله تعني العلم الحقيقي بوجود الخالق وصفاته ووحدانيته سبحانه وليس مجرد العلم النظري بذلك لان العلم النظري موجود عند جميع الناس ، والعلم الحقيقي لابد أن يتم في الخطوات السابق ذكرها في

---

(1) الأنعام : 36
(2) النمل : 81
(3) الروم : 7
(4) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 27 ، ص : 535)

التعامل مع المعلومات .

ـ جميع المعلومات تعَرّف الإنسان بـالله وتعرفه بأنه عليه أن يخضع ويطيع وتعرفه بالآخرة :

ـ المعلومات التي يراها الإنسان ويسمعها في حياته هي أنه يرى الأشياء ويرى نفسه ويرى أحوال الناس وأعمالهم ومصائرهم ويرى الشهوات ويرى معجزات الرسل أو يسمع عنها ويسمع كلام القرآن ويسمع كلام الرسل ويسمع كلام الناس ، هذه هي كل المعلومات التي تحيط بالإنسان في الدنيا ، وجميع هذه المعلومات هي آيات وأدلة تدل على الخالق وتدل على قوته وضعف الإنسان وتدل على انه يجب عليه أن يخضع ويطيع ، وذلك إذا تعامل الإنسان مع المعلومات تعامل صحيح ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ الأشياء التي يراها الإنسان حوله من ارض وسماء وجبال وهواء لا يستطيع الإنسان إيجادها لأنها فوق قدرة الإنسان فلابد أن أحدا أوجدها له قدرة فوق قدرة الإنسان هو الذي خلقها .

ـ ويرى أحوال الناس ونومهم وموتهم ومرضهم وتعرضهم للابتلاءات فلابد أن هناك قوة تقهرهم هي قوة الخالق ، وكذلك يرى خروج النبات الحي من الأرض الميتة وخروج الطفل الحي من نطفة ضئيلة فيعرف ان وراء ذلك قوة قاهرة .

ـ ويرى مصائر الناس ومصائر الأمم الذين عاشوا للدنيا قد انتهت أهدافهم وفقدوا دنياهم فيعلم أنهم لا عقل لهم حيث لم يتعاملوا مع المعلومات تعامل صحيح فيعرفوا الخالق ويخضعوا له ويطيعوه .

ـ ويرى الشهوات التي وضعها الله في الإنسان كيف أنها مقصودة بحيث لو لم يشعر الإنسان بالجوع فيشتهي الطعام لمات ولو لم يشعر بالحاجة إلى قضاء شهوة الجماع لانقطع النسل وانتهى البشر ولولا شهوة حب الحياة التي تجعله يسعى لتدبير الوسائل التي تعينه على الحياة من مسكن وملبس يؤويه من المخاطر التي تهدد حياته فلولا ذلك لمات ولو لم يشعر بالألم لمات لان الألم ينبهه بالخطر ، ويرى كيف تم تركيب جسم الذكر والأنثى بحيث يتوافقان ولا يختار الإنسان لنفسه أن يكون ذكرا أو أنثى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الروم : 21] ، ويرى كيف أن الشهوات محدودة وضئيلة وتزول سريعا وتفنى بفناء الدنيا والسعي وراءها عليه العقاب الأليم والشهوات لا قيمة لها وليست بشهوات أمام شهوات الجنة فيبتعد عن السعي للشهوات ، ويرى مشاغل الحياة وهمومها وأعباءها وشهواتها فيراها أمور ضئيلة فانية تفنى بالموت وبفناء الدنيا .

ـ ويسمع كلام القرآن والأدلة عليه فيعرف الخالق والآخرة ويعرف الحكمة من خلقه ويعرف انه يجب الخضوع لله وطاعته .

ـ ويسمع كلام الناس فيميز الحق منه من الباطل ومن اللغو الذي لا قيمة له .

ـ فجميع المعلومات هي آيات الله ، فمن تعامل معها بصورة صحيحة فقد حقق اليقين الحقيقي والإيمان الحقيقي بآيات الله ، ومن نظر إلى ظاهرها الخادع فقط فلم ينظر إلى حقيقتها وماذا تعنيه ومدى خطورتها ولو في آية واحدة تجعله يعرف الله ويخضع له ويطيعه فهو قد كفر بآيات الله ولم يحقق اليقين الحقيقي بها رغم وجود اليقين النظري بآيات الله .

ـ الناس صنفين حسب تعاملهم مع المعلومات :

1ـ الذين يتعاملون مع المعلومات بصورة صحيحة :

ـ وهؤلاء أصحاب العقول السليمة حيث يعرفون الله والآخرة وتتأثر مشاعرهم بـالله والآخرة وتتأثر جوارحهم بالعمل لذلك ، وهؤلاء هم المؤمنون .

2ـ الذين يتعاملون مع المعلومات بصورة خاطئة :

ـ يحدث عندهم تناقض بين اليقين النظري الموجود عندهم وبين خطوات التعامل مع المعلومات ، فمثلا هو يوقن نظريا بأنه سيموت لكن تصوره الذهني وطموحاته وتفاعل مشاعره وجوارحه كل ذلك يقول بأنه لن يموت ، فهو يتجاهل قضية الموت كأنه لن يموت ، ورغم انه يقول بلسانه انه مقتنع بأنه سيموت لكن حقيقة ما هو موقن به هو انه لن يموت ، وكذلك مسألة اليقين بالغيبيات ، فهو يوقن نظريا بالغيبيات لكن لا وجود للغيبيات في تصوره الذهني وتفاعل مشاعره وجوارحه ، وهؤلاء منهم من يقول بلسانه انه يؤمن بالغيبيات فهو منافق ، ومنهم من يقول بلسانه أنه لا يصدق بالغيبيات فهو كافر .

ـ التعامل الصحيح مع العقيدة الإسلامية :

ـ الذي يعتقد بشيء وهو يتغافل عنه ويتناساه ولا يشعر بقيمته وخطورته فكأنه لا يعرفه ، وهو عندئذ مثل المجنون لأنه لا يعقل ما يوقن به .

ـ فالعقائد عبارة عن معلومات يجب التعامل معها بخطوات التعامل الصحيح مع المعلومات وليس المطلوب منها مجرد تحقيق اليقين النظري فقط .

ـ فالإنسان يقول بمشاعره وانفعالاته ما لا يقوله بلسانه واقتناعه النظري ، وحقيقة اليقين عنده هو ما تكون عليه مشاعره وانفعالاته .

ـ فمثلا الآخرة تعني الأهوال والمصير والمستقبل ، فكيف لإنسان عاقل يصدق بهذا ولا تنشغل مشاعره بمصيره ومستقبله ، ذلك لأن الآخرة ليس لها وجود حقيقي في مشاعره ، فالذي يقول بأن الدنيا ضئيلة فانية والآخرة هي الحياة والمتع الحقيقية ثم تجد مشاعره منقطعة عن الآخرة ومتجهة إلى الدنيا فهو كذاب ، ولو كان صادقا فيما يقول لتعلقت مشاعره بالآخرة ، لأن الدنيا في مشاعره هي الحياة والمستقبل والمصير ، ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى الصدق الحقيقي (صدق المشاعر) ، فإن اقتناعه بأن الدنيا ضئيلة فانية وا لآخرة هي الباقية هو اقتناع كاذب ، وإنما هو يقول بمشاعره : ((إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[1] رغم أن الاقتناع النظري تام بالآخرة إلا أنه اقتناع كاذب ، فالآخرة في الاقتناع النظري عنده خطيرة ومصيرية لكنها في المشاعر ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها تأثير حقيقي علي المشاعر .

ـ ومثلا قد يكون عند الإنسان يقين نظري تام بأن قيمة المال ضئيلة ويقول ذلك بلسانه ، لكن شعوره وانبهاره بعظمة قيمة المال كبير ، فحقيقة اليقين عند هذا الإنسان هو أن المال عظيم القيمة ، ويتضح حقيقة اليقين عند الإنسان من انشغال همه ومشاعره وعمله بالمال بحيث يتقطع قلبه حبا للمال وهمه مشغول بجمعه وكل عمله لتحصيل المال ثم يقول بلسانه واقتناعه النظري أن المال لا قيمة له ، فهذا الإ نسان يحاسب يوم القيامة على حقيقة يقينه أن المال عظيم القيمة عنده .

ـ ومثلا كل إنسان عنده اقتناع نظري تام وبلا أدنى شك أنه قد يصل إلى سن الشيخوخة وتضعف قواه أو أنه قد يتعرض لأمراض أو محنة ، لكن بلسان المشاعر فكأنما يقول : لن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة أو لا أريد أن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة ، فهذا في لغة المشاعر عنده هراء ولا يمكن أن يحدث أبدا ! : ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[2] ، إن الإنسان لو شعر فعلا بخطورة أنه قد يتعرض للمرض والمحن لشعر بالخوف والقلق وشعر بمدي ضعف الإنسان وشعر بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، وشعر بالخضوع لهذه القوة ، ولتغير حاله تماما ، ولذلك من الناس من إذا وصل إلى سن الشيخوخة ، أو من النساء من إذا وصلت إلى سن اليأس ، أو إذا تعرض لمرض أو محنة فإنه يستنكر ذلك ولا يسلم به ويحدث له اكتئاب شديد لأنه لا يريد لنفسه أن يمرض ولا يريد أن يموت رغم أن

(1) المؤمنون : 37
(2) البقرة : 96

الناس من حوله يمرضون ويموتون ، فهو بمشاعره يعترض أولا على إمكانية حدوث المرض أو المحنة ، وينشأ عن ذلك أنه يعترض أيضا بمشاعره على الله وأن ذلك مقدر أو بأن هذا ظلم وتعدي عليه بدون وجه حق ، ونفس الشعور قد يحدث له عند خروج الروح لأن الله يسلب منه كل شيء ، وذلك رغم الإيمان النظري التام بالقضاء والقدر وبالموت ، ولذلك فالشرع يعبر عن الإيمان بالقضاء والقدر بالرضا بالقضاء والقدر ، و الرضا هو شعور داخلي وليس مجرد يقين نظري ، فعدم الرضا هو اعتراض بالمشاعر وإن كان موقنا يقينا نظريا وإن كان يقول بلسانه أنه راض وفي الحقيقة شعوره بالرضا غير موجود فقلبه متسخط .

ـ الكلمة التي لا يشعر الإنسان بقيمتها فكأنه لا يعرف معناها وتصبح كأنها لا معنى لها :

ـ الغيبيات عبارة عن أمور خارقة للأسباب فهي معلومات مؤثرة جدا وبالتالي تستجلب انتباه الإنسان وتؤثر في همه وتؤثر على مشاعره وهمومه وأهدافه وعمله ، فإذا لم يحدث ذلك فهذا معناه أن الإنسان رفضها استكبارا وتغافل عنها .

ـ فالعقيدة عبارة عن معلومات ، والتعامل مع أي معلومة لا يكون فقط بالاقتناع والتصديق النظري ، فلا يصح اعتقاد الإنسان حتى يعقل حقيقة ما يعتقد وينشأ عن ذلك مشاعر وهموم وأهداف متعلقة بالله والآخرة ، ولأن بعض كتب العقيدة تتناول العقيدة من جانب الاقتناع والتصديق النظري فقط ، لذلك فهذا الكتاب الذي بين يديك الآن هو كتاب في العقيدة ، لكنه لا يتناول العقيدة من ناحية الاقتناع والتصديق النظري فقط ولكن من جانب تصورها والشعور بخطورتها ووجودها في مشاعر المؤمن وهمومه وأهدافه .

ـ إذن التعامل مع أي معلومة لا يتم فقط كمعرفة نظرية ويقين نظري ، وإنما لابد من الشعور بمقدار ما في المعلومة من أهمية وخطورة أو ألم ولذة ، وبالتالي تكون المعرفة بهذه المعلومة معرفة حقيقية .

ـ فمثلا معنى كلمات : (إله) و(رب) و(الآخرة) و(الرسل) و(القرآن) و(الملائكة) و(القضاء والقدر) و (الموت) و(الدنيا) في اللغة وفي الشرع وفي العقل معروف وموجود عند الجميع ، ولكننا لا نعرف معنى هذه الكلمات في التصور والمشاعر !! ، فإن المعنى الذي يهم من معرفة أي شيء هو التصور لمدى أهميته أو مدى قدره وقيمته أو مدى ما ينشأ عنه من نفع أو ضرر ، وبالتالي مدى تأثيره على المشاعر ، فكلمة (الآخرة) والسفر إليها تعني الشعور بالخوف والشعور بالغربة ، وكلمة (الخالق) تعني أن هناك من له سيطرة وقدرة وتحكم فوق كل الناس والكون وهذا يعني الشعور بخوف المهابة وحب الانتماء إليه فيخضع له خوفا وحبا ، وكلمة (رب) تعني أنه أوجدك وأقامك وأمدك بما تحتاج وهذا يعني حبه تعالى ، وكلمة (مخلوق) تعني ضعف المخلوق ونقصه واحتياجه للخالق ليحيا ويقضي حاجاته وخضوعه لهيمنة الخالق وسيطرته ، ولذلك فإن الذي يشعر بعظمة الله وقدره وقدرته فقط هو الذي قد عرف الله وعرف أنه مخلوق معرفة حقيقية وهو الذي يحب الله وهو الذي يجيب على سؤال القبر " من ربك ؟ " ، أما الذي تنقطع مشاعره عن الله واليوم الآخر وتتوجه إلى الدنيا ، فالدنيا والشهوة ربه ودينه .

ـ ومن هنا نعرف كيف وصف الله الكافرين والمنافقين بأنهم أغبياء لا يفهمون ولا يعقلون رغم أنهم مقتنعون نظريا بصدق الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ، فالكفار يعلمون الحق ويفهمونه جيدا لكن مشاعرهم تأبى الإذعان والاستسلام لذلك ، وبالتالي فمشاعرهم جاحدة مستكبرة : ((فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ))[1] ، ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ))[2] ، ((إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ))[3] .

ـ ونستطيع أن نلخص ذلك بأنه لا يصح الإيمان بالله والآخرة والغيبيات إذا لم يكن لله والآخرة والغيبيات قيمة وقدر في شعور الإنسان ، وإذا لم تتأثر مشاعره بخوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب و الخضوع ، وإذا لم ينشغل همه بالله والآخرة وإذا لم يكن الله والآخرة أكبر أهدافه التي يسعى لها .

ـ فمثلا الذي يكون حبه وخضوعه وخوفه ورجاءه للدنيا وليس لله ، فإنه يقول بمشاعره : ((إِنْ هِيَ إِلا

(1) الأنعام : من الآية 33
(2) النمل : من الآية 14
(3) غافر : من الآية 56

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[1] ، وإن كان عنده اليقين النظري التام بالله والآخرة .

ـ فهناك من يتعامل مع المعلومات المؤثرة بدون الشعور بقيمتها ، فمثلا هناك من ينظر إلى السماء أو الأرض أو المخلوقات على أنها شيء عادي كمعلومات جرداء دون النظر إلى ما وراء الأشياء ومن وراء هذه الأشياء ، وكذلك ينظر إلى الآخرة كمعلومات دون الشعور بأهميتها وخطورتها ، وكذلك يتعامل مع الله وصفاته كمعلومات دون الشعور بتأثيرها وخطورتها على الإنسان وصلتها بالإنسان ومصيره ، ودون أن يشعر بقدر الله وعظمته ، وعالم الغيب بما فيه من أهوال وعجائب تهز الوجدان والمشاعر ، ذلك المصير المحتوم المخيف الذي في انتظارك ، وحياتك وبيتك هناك ، فذلك يستحق أن تفكر فيه وتتصوره وتشعر به ، لكنه يتعامل مع الغيبيات على أنها مسألة اقتناع نظري أو عدم اقتناع نظري فقط ، وهو مقتنع نظريا بها وانتهى الأمر على ذلك ، ذلك لأن عالم الغيب لا يمثل عنده أي قضية من أساسه في حقيقة الأمر .

ـ لذلك فقد يكون هناك علماء في كل أمور الدنيا والدين ويعملون بذلك العلم ، ورغم ذلك هم يخلدون في النار لأنهم تعاملوا مع كل أمور الدنيا والدين بدون شعور بالقيمة لحقيقة ما يعلمون وبدون تأثر مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم بذلك فهم يعيشون بغير شعور بالقيمة فبذلك طبع على قلوبهم فهم كالموتى .

****

ـ أين الخلل ؟ وما هو الحل ؟ :

ـ كلما أراد الإنسان أن يلتزم بالدين كل ما يخطر في باله عمل الطاعات كالعبادات والأذكار والصلوات فقط وهي أمور عظيمة الثواب ، ولكن إذا أراد الإنسان أن يلتزم بالدين فعليه أن يقوم بثلاثة أمور هي :

1ـ تغيير عقله : أي يعقل حقيقة الأشياء ، وتغيير العقل يشمل ثلاثة أمور (الشروط الثلاثة للعقل السليم) هي :

أ ـ يتغير تفكيره :

ـ أي تتغير طريقة تفكيره ، فيكون تفكيره عميقا في حقائق الأشياء وليس في ظاهرها ، أي يفكر في حقيقة الدنيا وحقيقة الشهوات وحقيقة الآخرة وحقيقة صفات الخالق (معرفة الله) وحقيقة ضعف الإنسان .

ـ فيسأل الإنسان نفسه عن حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك ؟ وماذا عليه أن يفعل ؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته ؟ وليس المطلوب المعرفة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه .

ـ أي التفكر مع حضور القلب لمعرفة الخالق والآخرة ، والتذكر مع حضور القلب لمعنى أن له إله ومعنى أنه المالك والخالق والرازق والقادر ومعنى الآخرة وما تعنيه من الخطورة ، أي يجمع بين التفكر والتذكر ، لذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح ... قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار))[2] .

ب ـ تغيير نظرته للأشياء :

ـ أي تغيير نظرته للأمور من حوله ليشعر بالقيمة الحقيقية للأشياء من حوله ، أي يكون عنده شعور بقيمة ما يسمعه وما يراه ، فيرى الأمور على حقيقتها ، فينظر إلى الدنيا وما بها من أمور وشهوات وأعمال على أنها ضئيلة فانية ، وينظر إلى حياته على أنه مسافر مرتحل من دار الغربة إلى وطنه ودار إقامته وأهله ، أي تصحيح المفاهيم عنده ، فالسعادة واللذة والمتعة عند بعض الناس هي في الدنيا والشهوات والطعام و

(1) المؤمنون : 37
(2) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 1 ، ص : 213)

الشراب ، وذلك يدل على أنه في عقولهم خلل ، وأنهم يحتاجون إلى أن تصح عقولهم أولا لكي تفهم حقائق ا لأشياء فهما صحيحا ، فمتع الدنيا ضئيلة سواء في حد ذاتها أو بمقارنتها بمتع الجنة ، بل أنها ليست متع وإنما آلام وعقاب يوم القيامة لمن تعلقت مشاعره بها .

ـ فتغيير نظرته إلى قيمة المال والمظاهر والشهوات والعادات من أمور يراها في نفسه عظيمة إلى أمور يراها في نفسه ضئيلة ، وفي نفس الوقت لا مانع أن تبقى الدنيا في يده ، أي تكون الدنيا في يده لا في قلبه ، وقد سئل الإمام أحمد عن الصاحب يكون زاهدا ومعه مائة دينار قال : ((نعم على شريطة إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يحزن))[1] وهذا معناه تغير المشاعر تجاه المال وهو أمر ليس سهلا ، وكذلك لا ينظر نظرة انبهار وإعجاب بأصحاب الجاه والمناصب أو بأصحاب الأموال والممتلكات أو بأصحاب الشهوات أو بمتع الدنيا وأموالها وشهواتها ولكن ينظر نظرة انبهار وإعجاب بمدى قدرة الله ومدى علمه وحكمته وينظر نظرة انبهار وإعجاب بمدى ما في الجنة من متع ولذات وينظر نظرة رعب ووجل من أهوال الآخرة .

ج ـ تغيير همومه وأهدافه :

ـ فتكون الآخرة ولقاء الله وحقيقة ضآلة الدنيا هي شاغله الدائم الذي يشغل همه ، وتكون الدنيا وما بها من أعمال أو مشاكل هي هم مؤقت مثلما يهتم المسافر بالطعام والشراب أثناء سفره فهو هم مؤقت ، فلا يتلهى بالدنيا وأمورها فتظل تشغله حتى يأتيه الموت : ((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ))[2] ، فتتغير همومه من هموم دنيوية إلى هموم بلقاء الله والآخرة وتتغير طموحاته من طموح إلى الدنيا إلى طموح إلى الآخرة ، ومن أمل في الدنيا إلى أمل في الآخرة ، وتتغير أهدافه من أهداف وطموحات ومشاريع ورغبات لا تعرف غير رغبات الدنيا إلى أن يصبح الطموح الأكبر هو الآخرة ، أي يتغير ما يتمناه الإنسان ويحلم به ، فبد لا من أن يتمنى الإنسان المال وأن يكون غنيا ويحلم بذلك ، أو يتمنى المتع المختلفة في الدنيا فإنه يتمنى نعيم الجنة ويحلم به ويتمنى النجاة من النار لأن هذا حال من عرف حقيقة الآخرة وعرف ضآلة الدنيا ، فبد لا من أن يكون أكبر ما يتمناه وأكبر ما يحلم به وأكبر ما يرجوه وأكبر ما يطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه أن يعثر على كنز مثلا أو يصل لمنصب أو شهوات ، ليصبح أكبر ما يتمناه ويطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه هو دخول الجنة والنجاة من النار .

2ـ تغيير مشاعره :

ـ فيخرج من قلبه محبة الدنيا ويدخل حب الله ، ويخرج من قلبه الخوف من التعرض لآلام الدنيا ويدخل الخوف من الله وهكذا ، فتتغير مشاعره من مشاعر لا تعرف غير الدنيا إلى مشاعر تعرف الله والآخرة والدين ، أي يغير ما يحبه وما يكرهه وما يخافه وما يرجوه من أمور دنيوية إلى أمور أخروية ، فتخرج الدنيا من القلب ، وهذا ليس أمرا سهلا فإن أخطر ما عند الإنسان وأغلى ما يملكه هو مشاعره ، وإن أصعب شيء على الإنسان هو تغيير مشاعره .

3ـ تغيير عمله :

ـ المسلم مطلوب منه أمران هما أعمال دنيوية وعبادات ، وكما أن أعمال الدنيا ضرورية فكذلك العبادات ضرورية فلا يقصر في العبادات على حساب أعمال الدنيا مهما كلفه الأمر ، فعليه أن يقبل على عبادة التفكر ويتدبر القرآن مستعينا بكتب التفسير ويقبل على الأذكار والصلوات والدعاء ويحرص على كل عمل يذكره با لآخرة ما استطاع ، ولا يجعل أعمال الدنيا تشغله عن ذكر الله والآخرة : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[3] ، وفي الحديث : ((مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى))[4] ، وفي حديث آخر :

---

(1) الآداب الشرعية (2 / 241)
(2) التكاثر : 1 ، 2
(3) المنافقون : 9
(4) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3247)

((ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا))[1] ، وعن وهب بن منبه قال : ((مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان ، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى))[2] ، وفي الحديث : ((التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة))[3] ، فلا تسرع في عمل الكسب ولكن مجرد المشي فقط وإنما تسرع في العبادات ، ففي العمل للكسب يقول تعالى : ((فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ))[4] ، وفي أعمال الآخرة يقول تعالى : ((وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ))[5] ، ((فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ))[6] ، ويقول علي رضي الله عنه : ((إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة إلا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل))[7] .

****

ـ مفهوم اليقين النظري واليقين الحقيقي :

ـ اليقين بالشيء المقصود منه اليقين بقيمة ذلك الشيء هل تافه أم خطير ؟ .

ـ اليقين بعظمة الله من غير أن ينظر الإنسان إليه نظرة تعظيم هو يقين نظري ، واليقين بخطورة الآخرة من غير أن يكون لها قيمة في نظره هو يقين نظري لا قيمة له ، واليقين بضآلة الدنيا مع نظر الإنسان إليها نظرة تعظيم لقيمتها هو يقين نظري لا قيمة له .

ـ وتفكير الإنسان هو الذي يحدد حقيقة يقينه ، فإما أن يكون تفكيره ظاهري أو سليم .

ـ التفكير الظاهري معناه أنه يحصر تفكيره في إطار ضيق هو ظاهر الأمر وليس حقيقته فوضع تفكيره داخل غلاف ، فوضع لعقله حجاب يمنعه من التفكير في حقائق الأمر وقفل على عقله فمنعه من التفكير في حقائق الأمور : ((وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ))[8] ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ))[9] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا))[10] ، ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[11] ، ((وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا))[12] .

ـ فالتفكير الظاهري هو تفكير خاطئ حيث أنه يتوهم أن الفوائد الظاهرية الضئيلة على أنها فوائد عظيمة متجاهلا ضرره أو أن الأمر ليس له أي فوائد ويتوهم أن له فوائد كبيرة ، فمثلا من يشرب السجائر هو يعلم ضررها ولكنه يتوهم فوائد تجعله يدخن متجاهلا ضررها ، وآدم اكل من الشجرة متوهما أنها شجرة الخلد .

ـ فمثلا كلما فكر الإنسان في فوائد المال كلما زادت قيمة المال في نظره ، فأصبح لديه يقين بأن المال عظيم القيمة ، وكلما فكر الإنسان في حقيقة المال في انه لا يحقق السعادة وفي انه إلى زوال وكلما فكر في حقيقة هذه الفوائد الوقتية المحدودة كلما نقصت قيمة المال في نظره ، فأصبح لديه يقين بأن المال ضئيل القيمة ، فالتفكير الأول هو تفكير سطحي ظاهري يتناول جانبا واحدا هو الزينة الخادعة متناسيا حقيقة هذه الزينة الخادعة ومتناسيا حقيقة المال في انه لا يحقق السعادة ، أما التفكير الثاني فهو تفكير سليم .

---

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 637 ، برقم 2458)
(2) الزهد لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص 49)
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبو داود ج : 4 ، ص : 255 ، برقم 4810)
(4) الملك : 15
(5) آل عمران : 133
(6) الذاريات : 50
(7) صفة الصفوة ـ دار الحديث، القاهرة (1 / 120)
(8) البقرة : 88
(9) فصلت : 5
(10) الأنعام : 6
(11) محمد : 24
(12) نوح : 7

ـ أذن هناك علاقة بين التفكير واليقين ، فالتفكير السليم يؤدي إلى يقين حقيقي بقيمة الشيء ، أما التفكير الظاهري يؤدي إلى يقين خادع بقيمة الشيء ، فمن كان تفكيره في حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وحقيقة وجوده وقدره وحقيقة صفات الخالق فيقينه بالله والآخرة يقينا حقيقيا ، ومن حصر تفكيره في ظاهر الدنيا فلم يفكر في حقيقتها وحقيقة وجوده فيقينه بالله والآخرة يقينا نظريا فقط وحقيقة يقينه أن الدنيا هي كل شيء وغيرها لا قيمة له .

ـ اليقين النظري معناه أنه يوافق على الأمر من حيث الأدلة فهو صحيح نظريا .

ـ فهو يتعامل مع هذه العبارة كأنها تخاطب بشرا آخرين في كوكب آخر ليسوا على الأرض فلا يخصه الأمر ، كأن الكلام ليس موجها له ، أو كأن هذا الكلام باللغة الإنجليزية وهو لا يعرف غير العربية فبالنسبة له كأنه ط لاسم ، فهو اكتفى باليقين النظري فقط .

ـ فاليقين النظري معناه أن الإنسان يكون مثل جهاز الكمبيوتر تعطي له معلومات ومعطيات فيعطي لك نتيجة سواء كانت النتيجة مكسب أو خسارة فهو لا يشعر بخطورة النتيجة فليس لديه شعور بالقيمة وليس عنده فرق بين أن تكون حجم النتيجة كبير جدا أو صغير ، وليس لديه فرق بين رقم مليون ورقم واحد فكلا هما بالنسبة له مجرد أرقام ، فليس لديه مشاعر ليفرح بالمكسب أو يحزن بالخسارة ، فلا يوجد أي تفاعل سواء سلبا أو إيجابا ، فالكمبيوتر يعطي نتيجة بأن هناك آخرة وغيبيات وأن ذلك حق فقط ، كذلك الإنسان له وظيفة فطرية مثل الكمبيوتر والرسل تأتي له بالدلائل والبراهين فيعطي نتيجة بأنه موقن تماما بـ الغيبيات والآخرة ، فهذا يقين نظري فقط .

ـ فلا يتحقق اليقين الحقيقي بالآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهن المؤمن وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه لأنها الخطر المترقب والحياة المنتظرة ، ولا يتحقق اليقين الحقيقي بوجود الله حتى يكون وجود من له القوة والهيمنة والسيطرة على الإنسان والكون حقيقة واقعة في ذهن المؤمن وبالتالي يعيش في إطار أنه مستعبد يعيش تحت سيطرة صاحب هذا الكون راضيا بأن عليه أن يعيش عيشة الذل والخضوع والاستسلام للجبار المتكبر .

ـ فاليقين النظري بشيء بغير شعور بخطورته هو يقين هزلي غير حقيقي وجاد وفعلي يصدر من إنسان يلعب ويلهو كالأطفال ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[1] ، ((ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[2] . ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[3] .

ـ أي معلومة لابد فيها من جانب معرفي وجانب شعوري ، الموافقة على الجانب المعرفي تتم باليقين النظري ، والموافقة على الجانب الشعوري تتم بعمل العقل (بالتصور والشعور بالقيمة وانشغال البال فيصبح يقينا حقيقيا) وبعمل المشاعر ، فالإنسان يكون موافقا على المعلومة موافقة حقيقية إذا وافق عليها من الجانبين ، أما إذا وافق على المعلومة من الجانب المعرفي فقط فهو في الحقيقة غير موافق على هذه المعلومة ، وهذا اليقين عندئذ يقينا نظريا فقط .

****

ـ آيات الكون وأركان الإيمان تأمر بالخضوع فيتناساها الإنسان حتى لا يخضع :

ـ أصل قضية الدين هي خضوع الضعيف (الإنسان) للقوي (الله) .

ـ معنى أن الإنسان يتناسى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويتناسى الآيات الكونية معناه أنه يتناسى قضية وجود من هو أقوى منه ويسيطر عليه حتى لا يخضع له (لأن الضعيف عليه أن

---

(1) الطارق : 13 ، 14
(2) الجاثية : 35
(3) الأنبياء : من الآية 2،3

يخضع للقوي) .

ـ فالأشياء لا يقوى على إيجادها الإنسان وتدل على قوة الخالق وضعف الإنسان (الآيات الكونية) .

ـ وقضية اليقين بالله تعني قوة الخالق ، فكل صفات الكمال هي للخالق وهي صفات قوة ، وكل صفات النقص للمخلوق هي صفات ضعف .

ـ وقضية اليقين بالآخرة تعني اليقين بثواب الله وعقابه الشديد في الآخرة ، وهذا الثواب والعقاب يدل على قوة الخالق .

ـ وقضية اليقين بالملائكة تعني اليقين بقوة الملائكة التي تفوق كل قوى البشر وبالتالي اليقين بمدى قوة خ القها .

ـ وقضية اليقين بدعوة الرسل (اليقين بالرسل وبالقرآن) هي في الأساس بيان لقوة الخالق والأمر ب الخضوع له .

ـ وقضية اليقين بقضاء الله وقدرة هي بيان لقوة الله لأن أدل الصفات على قوة الله وسيطرته على كل شيء هي القضاء والقدر .

ـ والخضوع معناه خضوع المشاعر خوفا وحبا ورجاءا وخضوع الجوارح بطاعة الأوامر ، فالخضوع بهذا المعنى شمل كل شيء وهو العبادة التي جاءت من أجلها الرسل .

ـ والفصل الرابع هو بيان لمعنى تناسي الآيات الكونية ، والفصل الخامس هو بيان لمعنى تناسي الخالق ، و الفصل السادس والسابع هو بيان لمعنى تناسي الآخرة ، والفصل الثامن هو بيان لمعنى تناسي الملائكة و القرآن والرسل ، والفصل التاسع هو بيان لمعنى تناسي ضعف الإنسان في حد ذاته ، والفصل العاشر هو بيان لسبب التناسي وهو أن الإنسان يدعي لنفسه القوة فلا يريد أن يخضع ، والفصل الحادي عشر هو إيضاح أن التعامل مع دعوة الرسل وآيات الكون باليقين النظري فقط هو تعامل خاطئ ونوضح فيه حقيقة الشعور ب الخضوع وحقيقة المشاعر ، والفصل الثاني عشر هو بيان تناسي معنى معيشة الخضوع .

****

ـ حقيقة الاختبار الذي خلقنا من أجله :

ـ الدنيا فيها ألم ولذة بوجود النعم وغياب النعم ، والآخرة فيها ألم ولذة بوجود الجنة والنار ، الألم واللذة في الدنيا يراه الإنسان بعينه ويتعامل معه ، والألم واللذة في الآخرة لا يراه الإنسان .

ـ الخضوع للدين وتكاليفه فيه ألم ، وترك الخضوع فيه لذة (الحرية) ، ورفض الخضوع ينبني عليه ألم هائل (النار) ، وقبول الخضوع ينبني عليه لذة هائلة (الجنة) .

ـ الإنسان أمامه الاختيار ، ولكي يختار إما أن يستعمل عقله أو يتعجل في الحكم بغير عقل كالتالي :

1ـ إذا استعمل عقله : علم أن عليه الخضوع حتى ولو لم ينبني عليه ألم ولذة الآخرة ، كما أنه لو قارن بين الأ لم واللذة في الدنيا والآخرة لوجد أن كل آلام ولذات الدنيا لا قيمة لها .

2ـ إذا تعجل في الحكم ولم يستعمل عقله : هو لا يرى الله ولا يرى الآخرة ولا يحب الخضوع ، ولا يرى غير النعم في الدنيا التي يتعامل معها ، فيعطل عقله لأنه نظر إلى ظاهر الأمر ولم ينظر إلى حقيقة الأمر ، فلا يقبل بالخضوع ولا يقبل بوجود الله ولا الجنة ولا النار رغم يقينه النظري التام بأن عليه أن يخضع ويقينه النظري التام بوجود الله ووجود الثواب والعقاب (الجنة والنار) ، فهو يتناسى وجود الله والآخرة ويتناسى

أن عليه أن يخضع .

ـ التعامل الخاطئ مع الخطر :

ـ التعامل مع الألم واللذة يكون عن طريق الشعور بها وليس عن طريق المعرفة ، فالألم واللذة هي شيء تشعر به وليس شيء تعرفه ، لذلك لا يمكن كتابة الألم واللذة ووصفها إلا لتقريب الصورة ، فمهما وصفت لك في هذا الكتاب عن مدى الخطر الذي نحن واقعين فيه من اقتراب الآخرة وخطورتها ومن وقوع الإنسان تحت قدرة الخالق وهيمنته عليه ومراقبته له فكل هذا لن يجدي طالما أن الإنسان لا يستشعر الخطر ويشعر به .

ـ فكذلك الإيمان هو مسألة خطر لا نتعامل معه كمسألة معرفية فقط ولكن كأمر نشعر به ونذوقه .

ـ فالتعامل مع الخطر يكون من خلال ثلاثة أمور :

1ـ العقل : ونقصد به الحاسة المسئولة عن استشعار الخطر والشعور به ولا نقصد به الوظيفة المسئولة عن المعرفة ، فالعقل هو شعور ، ويتعامل العقل مع الخطر الهائل بثلاثة أمور هي الشعور بالتحير والشعور بـ القيمة وانشغال الهم بالأمر .

2ـ المشاعر : مهما وصفت لك عن طبيعة المشاعر التي ينبغي أن يشعر بها المسلم من حب الله والخوف منه والخوف من الآخرة ، فهي أمور شعورية وليست أمور معرفية ، والإنسان الذي يشعر بألم أو بلذة قد لا يستطيع أن يصف لك ما يشعر به ، لأن الألم واللذة هو شيء له طعم يذوقه ويشعر به وقد لا يستطيع أن يعبر عنه .

3ـ العمل : ونقصد به العمل الناشئ عن تأثر العقل وتأثر المشاعر بالأمر ، فتأثر العقل وتأثر المشاعر يمثل النية التي تدفع إلى العمل ، وليس العمل الناشئ عن المعرفة النظرية أو العمل الأبتر المفتعل .

ـ ولو شاهد الإنسان كل المعجزات بعينه وذهب إلى الآخرة ورأى الجنة والنار بعينه فلن ينفعه طالما أنه يتعامل مع الأمر كمعرفة فقط ، فلو عاد إلى الدنيا فسوف يتناسى الخطر الذي رآه بعينه : ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ))[1] ، فمن أراد الله له الهداية فعقل الأمر وشعر به وعمل به فهو المهتدي ومن لم يرد الله به الهداية فلن يهتدي وإن رأى كل الآيات .

****

الفصل الثالث

الأدلة على التعامل الخاطئ مع موجبات الخضوع (آيات الكون ودعوة

ـ موجبات الخضوع هي آيات الكون ودعوة الرسل ، أو هي آيات الله وتشمل آيات الكون وآيات القرآن ، وهذه الأمور تبرهن على وجوب الخضوع للخالق وتأمر به ، فآيات الكون ودعوة الرسل هي موجبات للخضوع لأنها تبين عظمة الخالق وضعف المخلوق وبالتالي يخضع المخلوق لإرادة الخالق ولا يعيش وفقا لإ رادته هو .

ـ الإنسان ينظر إلى آيات الكون فيتحقق عنده يقين نظري بوجود الخالق وعظمته ووجوب الخضوع له

(1) الأنعام : 28

ووجود الثواب والعقاب .

ـ ويسمع دعوة الرسل فتذكره بما عنده من اليقين النظري ، ويتحقق عنده يقين نظري بصدق دعوة الرسل وما دعت إليه من وجود الخالق وعظمته ووجوب الخضوع له وطاعته ووجود الثواب والعقاب في الآخرة .

ـ أصبح الإنسان أمامه ثلاثة أنواع من المعلومات لابد أن يتعامل معها ، وهذه المعلومات كالتالي :

ـ أنواع المعلومات التي يتعامل معها الإنسان :

1ـ آيات الكون : تشمل كل ما يراه من حوله وفي نفسه .

2ـ دعوة الرسل : وهي تحديدا آيات القرآن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن ليبلغه للناس .

3ـ اليقين النظري الموجود عند الناس بالضرورة .

ـ التعامل الخاطئ مع المعلومات :

ـ معناه تجاهل آيات الكون كأنه لا يرى ، وتجاهل دعوة الرسل كأنه لا يسمع ، وتجاهل اليقين النظري كأنه لا يعلم .

ـ فمعنى نسيان الله أي تناسي اليقين النظري ، ومعنى نسيان ذكر الله أي تناسي دعوة الرسل (القرآن) ففي تفسير المحرر الوجيز : (({ نسوا الذكر } أي ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء))[1] ، ومعنى الإعراض عن آيات الله أي الإعراض عن آيات الكون والإعراض عن آيات القرآن (دعوة الرسل) .

ـ التعامل الخاطئ مع المعلومات (آيات الكون ودعوة الرسل) يشمل ثلاثة أمور هي تعطيل عمل العقل (التناسي) وتعطيل عمل المشاعر وتعطيل عمل الجوارح ، و ونوضح ذلك كالتالي :

ـ أولا : 50 دليلا على الهروب من الخضوع بعدم التفكير في دعوة الرسل وآيات الكون

ـ يمنع عقله من التفكير السليم في موجبات الخضوع (دعوة الرسل وآيات الكون) حتى لا يخضع ، ونذكر خمسين طريقة للهروب من التفكير السليم في الأمر أو عدم التفكير فيه مطلقا وبالتالي عدم الشعور بقيمته وعدم انشغال البال به

ـ دعوة الرسل وآيات الكون جاءت تعرف الناس بالله والآخرة ، فمعنى عدم التفكير في دعوة الرسل وآيات الكون أي عدم التفكير في عظمة الله (في معنى أن لك ربا) وعدم التفكير في خطورة الآخرة ، وسبب عدم التفكير لأن ذلك يوجب على الإنسان الخضوع وهو لا يحب الخضوع .

ـ والتفكير في الأمر لا يقصد به التفكير في معاني الكلمات ولكن تصور قيمته ومدى خطورته ، والإنسان يعقل الأمر من خلال التفكير فيه والشعور بقيمته وانشغال البال به ، فإذا لم يفكر فيه فهو لا يعقل ولا يفهم ذلك الأمر فهما حقيقيا .

ـ ولاحظ أن التفكر درجة أعلى من التفكير وهو إمعان التفكير في الأمر .

ـ إذا طلب منك أحد أمر ما ، فهناك ثلاثة حالات ، الحالة الأولى هي أن ترد عليه بالموافقة ، والحالة الثانية هي أن ترد عليه بعدم الموافقة مبينا له الأدلة على عدم الموافقة ، والحالة الثالثة هي أنك لا توافق على طلبه ولكن ليس لديك دليل على عدم الموافقة ، فتهرب منه ولا تستطيع أن تواجهه ، أي لا تفكر في كلامه و لا تشعر بقيمته ولا تشغل بالك به ، وهذه الحالة الثالثة نذكر منها في هذا الفصل خمسين حيلة من حيل الهروب من المتحدث ، فيعيش الإنسان حياته معيشة الهارب من الخضوع .

(1) المحرر الوجيز ـ دار الكتب العلمية - بيروت (4 / 204)

ـ يمكن تشبيه هذه الحالة الثالثة بأن هناك داعي يتحدث إلى رجل ما ، وهذا الرجل يرفض كلامه ولكن لا يملك دليلا على رفضه ، فيتهرب منه ، فيسأله الداعي ولكن الرجل لا يرد عليه ، فقال له : لماذا لا ترد علي ؟ ، ولكن الرجل لا يتكلم ، فقال له الداعي : هل تسمعني ؟ لماذا لا ترد على ؟ ، لكن الرجل لا يتكلم ، فقال له الداعي : هل أنت سكران ؟ ، هل أصابك مرض ؟ هل أنت أبكم لا تتكلم ؟ ، لكن الرجل لا يتكلم ، وكان الرجل يتجاهله ويلتفت بعيدا عنه وينظر في اتجاه آخر ، فسأله الداعي : هل أنت تراني وتسمعني ؟ ، لكن الرجل لا يتكلم ؟ ، وسار الرجل معرضا عنه مثلما يقوم النائم من نومه ويسير وهو لا يزال نائما ثم يعود لسريره (كما يحدث عند بعض الناس) فأخذ الداعي يهزه بيده ليفيق من نومه لكنه لا يحس ولا يفيق كأنه فاقد الإحساس ، فتعجب الداعي وقال له : هل أنت حي أم ميت ؟! .

ـ وربما ترك الداعي يتحدث وانصرف أو أعرض عنه أو تحدث مع غيره أثناء حديثه أو أعطاه ظهره أو أغمض عينه أو رجع إلى الوراء ... الخ ، وكلها تعبيرات تعني أنه يتجاهل ويتناسى كلام المتحدث رغم أن يوقن به نظريا ، أي لا يفكر في كلام الداعي ولا يشعر بقيمته ولا يشغل به باله .

ـ مفهوم الإيمان ومفهوم الكفر والنفاق :

ـ الإيمان هو قبول الخضوع (مع ما ينشأ عنه من خضوع المشاعر وخضوع الجوارح بالطاعة) ، والكفر و النفاق هو الهروب من الخضوع ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ آيات الكون والرسل تقول للإنسان : عليك أن تخضع ، فالمتحدث إليك هو الله من خلال آياته يأمرك بـ الخضوع ، وأيضا المتحدث إليك الرسول صلى الله عليه وسلم أو الرسل تأمرك بالخضوع ، وأيضا المتحدث إليك القرآن يأمرك بالخضوع ، وأيضا المتحدث إليك الدين أو دعوة الرسل (القرآن والسنة) تأمرك بـ الخضوع ، وأيضا المتحدث إليك آيات الكون تأمرك بالخضوع .

ـ التعامل مع المتحدث معناه التعامل مع الله أو الرسل أو الرسول أو القرآن أو دعوة الرسل أو الدين أو آيات الكون ، فمثلا الإعراض معناه الإعراض عن المتحدث أي الإعراض عن الله أو الإعراض عن الرسل أو الإعراض عن الرسول أو الإعراض عن القرآن أو الإعراض عن دعوة الرسل أو الإعراض عن الدين أو الإعراض عن آيات الكون ، وكلها معنى واحد لأنها تعني الإعراض عن الخضوع ورفضه ، وهكذا .

ـ فكيف تتعامل مع من يتحدث إليك ، فإما أن تقبل كلام المتحدث (تقبل الخضوع) فتخضع بمشاعرك وجوارحك وهذا هو الإيمان أو ترفض كلام المتحدث فلا تخضع وهذا هو الكفر أو ترفض كلام المتحدث فلا تخضع ولكن تقول أنك خاضع لله ولست خاضعا وهذا هو النفاق الأكبر .

ـ ورفض الخضوع إما أن يكون بعدم الاقتناع بأنه يجب عليك أن تخضع ، وهذا مستحيل ، أو يكون بالهروب مما تقوله آيات الكون ودعوة الرسل (الهروب من الخضوع) .

ـ وصور الهروب من المتحدث (آيات الكون ودعوة الرسل) تكون بأن يتجاهله أو يتغافل عن كلامه أو يتناسى كلامه أو يتصام كأنه لا يسمعه أو يتعامى كأنه لا يراه أو يتباكم فلا يجيبه أو يرد عليه أو يدبر عنه ويتركه أو يتولى عنه أو يرجع للخلف (النكوص على الأعقاب) أو ينصرف عنه أو يتلهى ويتشاغل عنه أو يتغابى كأنه لا يفهم كلامه أو لا يبالي بالأمر ولا يهتم به أو يتعامل مع الأمر كأنه هزل أو يتماوت (يتصنع الموت) أو يتصنع السكر (فقدان الوعي) أو يتصنع كأنه غير موجود فلا يراه احد أو يهرب أو يفر أو ينفر منه أو يضع الثياب على عينه حتى لا يرى أو يضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع أو يضع غشاوة على عينه حتى لا يرى أو يضع وقر في أذنيه حتى لا يسمع أو يتسلل (ينسحب في خفاء) أو يتخذ الأمر ظهريا (يعطي ظهره للمتحدث) أو يمنع نفسه من التفكير في الأمر أو لا يشغل باله به أو يعاند أو يقلد بدون عقل أو يضع على عقله قفل أو حجاب أو يضع عقله في أكنة أو يضيق على عقله أو لا يتدبر أو لا يتفكر أو لا يعقل كلام المتحدث (يتغابى كأنه لا يفهمه) أو يشوش على كلام المتحدث باللغو ، أو يكون كالحمار أو البهائم التي لا عقل لها ولا هم لها سوى الأكل والشرب والجماع ، أو يكون كالحمار الوحشي الذي يفر من الأ

أسد ، أو لا يحيط بالأمر علما (لا يعقله) ، أو ينفر ويشمئز من الأمر أو يثني صدره (يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره ليستخفي من المتحدث إليه كأنه منشغل بأمر آخر غير المتحدث) أو يرفع رأسه لأعلى متجاهلا المتحدث .

ـ وباختصار هو يشغل تفكيره في أي قضايا أخرى غير الأمور التي توجب الخضوع عليه خاصة لو كانت قضايا هامة وضرورية ليبرر بها لنفسه انصراف همه إليها وبالتالي تكون مشاعره وجوارحه مرتبطة بهذه القضايا .

ـ وكل هذه الألفاظ السابقة موجودة في القرآن وهي التي نقوم بشرحها ، وهي تعني عدم وجود التصور أو التفكير في كلام المتحدث وعدم وجود الشعور بقيمة ومعنى كلامه وعدم وجود انشغال البال به (وهذه هي الشروط الثلاثة للعقل) رغم أنه يفهم كلامه ويوقن به تماما ولكنه يقينا نظريا فقط ، وقبول الخضوع يعني وجود هذه الشروط الثلاثة .

ـ معنى التناسي (تعطيل العقل) :

ـ أي لا يتصور الأمر ولا يشعر بقيمته ولا يشغل باله به (غياب الشروط الثلاثة للعقل) .

ـ كلمات القرآن التي تعني التناسي (تعطيل العقل) :

ـ ورد في القرآن ألفاظ تعني التناسي (تعطيل العقل) منها :

ـ النسيان (نسيان الله ونسيان الآخرة) ومعناه التناسي ، والغفلة (الغفلة عن الله والغفلة عن الآخرة) ومعناه التغافل ، وغياب السمع ومعناه التصام كأنه لا يسمع ، والبكم ومعناه التباكم كأنه لا يجيب على من يسأله ، والعمى والعشى ومعناه التعامي ، والجهل ومعناه التجاهل ، وغياب العقل ، والموت ومعناه تصنع الموت ، والسكر ومعناه فقدان الوعي ، والتعامل مع الأمر كأنه هزل ، والتقليد (إشارة إلى تعطيل العقل) ، و اللعب واللهو (إشارة إلى التشاغل عن دعوة الرسل) والتشويش على المتحدث (التحدث أثناء حديثه) ، وا لانصراف والإدبار والتولي والإعراض والفرار والنفور والاشمئزاز واللغو في الأمر حتى لا يسمعه والتلهي ، واتخاذ الأمر ظهريا ، والنكوص (الرجوع للخلف) ، والتشبيه بالبهائم وبالحمار في أنها لا تعقل وفي أنها لا هم لها إلا الطعام والشراب والجماع ، والحيلولة بين المرء وقلبه (أي بين المرء وعقله) ، وعدم التفكر وعدم التوسم وعدم التدبر وعدم التذكر ، والعناد والإصرار والجحود ، والطبع على القلب والقفل والأكنة والزيغ و الختم والوقر والغشاوة والضيق والغطاء والغلاف والحجاب والران والغل والسد والصد والصرف والشد و الصدف والضلال والإغفال والرجس وتقليب الأفئدة وقساوة القلب وضيق الصدر وغمرة القلب وإغفال القلب عن ذكر الرب والحيلولة بين المرء وقلبه وإنساء العبد نفسه وتقليب الأفئدة والأبصار ومرض القلب وموت القلب وإنكار القلب والحمية وترك إرادة الله تطهير القلب وزيادة القلوب مرضا على مرضها ، وغياب العقل واللب والقلب وعدم الإحاطة بالأمر علما ، وثني الصدر (يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره) والا ستخفاء واستغشاء الثياب (يتغطى بالثياب) والسمود أي يرفع رأسه لأعلى (يتجاهل من يتحدث إليه) .

****

1ـ التصام (عدم التفكير في الأمر كأنه لم يسمعه وعدم الشعور بقيمته وعدم انشغال الهم به) :

ـ ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[1] ، ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[2] ، ((مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ))[3] ، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[4] ، ((وَلَا تَكُونُوا

(1) الأنعام : 36
(2) الملك : 10
(3) هود : 20
(4) البقرة : من الآية 171

كالذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[1] ، ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ))[2] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[3] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[4] ، ((وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ))[5] ، ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ))[6] ، ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[7] ، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[8] .

ـ فالإنسان إذا استمع إلى أمر بغير شعور بقيمة ما يسمعه فما فائدة السمع عندئذ فكأنه لا يسمع ، فعدم السمع يقصد به عدم وجود التفكير في الأمر وعدم انشغال الإنسان بالتفكير فيه ، وقد ورد في القرآن أن الكفار والمنافقين لا يسمعون بمعني لا يسمعون سماع تفهم وتدبر واستبصار واعتبار :

ـ ففي تفسير أبي السعود : ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار))[9] ، وفي تفسير أبي السعود أيضا : ((ولو علم الله فيهم خيرا ... لأسمعهم سماع تفهم وتدبر))[10] ، وفي تفسير القرطبي : ((وهم لا يسمعون أي لا يتدبرون ما سمعوا ولا يفكرون فيه فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق .... ولو أسمعهم أي لو أفهمهم))[11] ، وفي تفسير القرطبي أيضا : ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون يريد سماع تفهم وتدبر))[12] ، وفي تفسير الطبري : ((وقوله { إنك لا تسمع الموتى } يقول إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلبه فأماته لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه))[13] ، وفي تفسير الواحدي : ((ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا سماع قابل وليسوا كذلك يعني المنافقين وقيل أراد المشركين لأنهم سمعوا ولم يتفكروا فيما سمعوا فكانوا بمنزلة من لم يسمع))[14] .

ـ وفي تفسير الجلالين : ((وقالوا لو كنا نسمع أي سماع تفهم أو نعقل أي عقل تفكر ما كنا في أصحاب السعير))[15] ، وفي تفسير روح المعاني : ((فهم لا يعقلون : أي لا يدركون شيئا لفقدان الحواس الثلاثة وقد قيل من فقد حسا فقد فقد علما وليس المراد نفي العقل الغريزي باعتبار انتفاء ثمرته))[16] ، وفي تفسير روح المعاني أيضا : ((قوله سبحانه فهم لا يسمعون أي سماع تفهم واعتبار))[17] ، وفي تفسير روح المعاني أيضا : ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون : أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار .... من ألقى السمع وهو شهيد ينتبه لوعظ الله تعالى ويصغى إليه))[18] .

ـ جاء في تفسير القرطبي : (({ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والكفر في آياته ، وعلى السمع عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته ، وعلى الأبصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته هذا معنى قول أبن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم))[19] ، وفي تفسير القرطبي أيضا : ((أولئك الذين طبع الله على قلوبهم أي عن فهم المواعظ وسمعهم عن كلام الله تعالى وأبصارهم عن النظر في الآيات وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون))[20] ، وفي تفسير ابن كثير : ((أو ألقى

(1) الأنفال : 21
(2) يونس : 67
(3) النمل : 80
(4) يونس : 42
(5) نوح : 7
(6) البقرة : 7
(7) الفرقان : 44
(8) فصلت : 4
(9) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 7 ، ص : 57)
(10) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 15)
(11) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 7 ، ص : 388)
(12) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 14 ، ص : 18)
(13) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 19 ، ص : 495)
(14) تفسير الوجيز للواحدي (ج : 1 ، ص : 435)
(15) تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج : 1 ، ص : 755)
(16) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 1 ، ص : 439)
(17) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 5 ، ص : 15)
(18) تفسير الألوسي [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 11 ، ص : 33)
(19) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 1 ، ص : 136)
(20) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة : (ج : 10 ، ص : 192)

السمع وهو شهيد أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه))[1] ، وفي تفسير الطبري : (({ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون } { وهم لا يسمعون } يقول وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه وتركهم أن يوعوه بقلوبهم ويتدبروه فجعلهم الله لما لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها))[2] ، وفي تفسير أبي السعود : ((كالذين قالوا سمعنا بمجرد الإدعاء من غير فهم وإذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع))[3] ، وفي تفسير البغوي : ((وهم لا يسمعون أي يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون أي لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا))[4] ، وفي تفسير الجلالين : ((ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ وهم المنافقون أو المشركون ، إن شر الدواب عند الله الصم عن سماع الحق البكم عن النطق به الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا صلاحا بسماع الحق لأسمعهم سماع تفهم))[5] ، وفي تفسير البغوي : (({ وَمِنْهُم } يعني من هؤلاء الكفار، { مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } وهم المنافقون، يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه، تهاونًا به وتغافلا))[6] .

2ـ تصنع ضعف السماع (كأن به ثقل في السمع) أو يكون كالبهائم يسمع صوتا فقط :

ـ ففي التفسير الوسيط : (({ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا } أى: كأن في أذنيه صمما وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع))[7] .

ـ وفي التفسير المنير : (({ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً } أي ثقلا في السمع، يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه، أو فلا يسمعونه))[8] .

ـ وفي تفسير البغوي : (({ ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع } .... معناه كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنما يسمع صوتك وقيل معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من ا لأمر والنهي إلا الصوت))[9] ، وفي تفسير ابن كثير : ((ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول))[10] .

3ـ التعامي (عدم التفكير في الأمر كأنه لا يراه وعدم الشعور بقيمته وعدم انشغال الهم به) :

كل شيء حول الإنسان هو آيات تدل على الخالق وصفاته ولكن الإنسان قد يتجاهلها ويتعامل معها كأنه أعمى لا يرى ، وكذلك معجزات الرسل ومجيء الرسل والدعاة يخاطبون الناس .

ـ ((أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ))[11] ، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ))[12] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا))[13] ، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[14] ، ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا))[15] ، ((أنهم

(1) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية – بيروت (ج : 7 ، ص : 382)
(2) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة (ج : 12 ، ص : 458)
(3) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 15)
(4) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج : 2 ، ص : 281)
(5) تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج : 1 ص : 230)
(6) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج 4 / ص 213)
(7) التفسير الوسيط لطنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة (11/ 113)
(8) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (15/ 279)
(9) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج : 1 ، ص : 199)
(10) ابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (ج : 3 ، ص : 464)
(11) الزخرف : 40
(12) محمد : 23
(13) الأنعام : 25
(14) البقرة : من الآية 171
(15) الأنعام : 104

كانوا قَوْمًا عَمِينَ))[1] ، ((أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[2] ، ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعمى))[3] ، ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[4] ، ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فانها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ))[5] ، ((وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا))[6] ، ((وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ))[7] ، ((وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً))[8] ، ((الذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[9] ، ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[10] ، ((وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))[11] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[12] ، ((وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ))[13] ، ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ))[14] .

ـ الإنسان الأعمى يصبح كالتائه الذي لا يعرف كيف يسير ، أو كالذي يسير في الظلام لا يدري : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ))[15] .

ـ وفي التفسير الحديث : (((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) أي إن الشيطان إنما يسلط على الذي يتعامى عن ذكر الله ويصرّ على طريق الكفر والإثم))[16] ، وفي التفسير المنير : (((يَعْشُ) يتغافل ويتعام ويعرض لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[17] ، وفي التفسير الواضح : ((أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ... لقد وصف الله الكفار بأن في أعينهم ضعفا في البصر ، والمراد أنهم يتعامون عن الحق))[18] ، وفي تفسير بيان المعاني : ((« فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ » سبل الهدى لأنهم يتعامون عن النظر في آيات الله فلا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإ يمان))[19] ، وفي تفسير المراغى : (((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) أي أنهم يتصامّون عن سماع الحق ، فكأنهم صم ، ولا يستجيبون لما يدعون إليه فكأنهم خرس ، ولا ينظرون في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم فكأنهم عمى ، لا يعقلون لعملهم مبدأ ولا غاية ، بل ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ، ومن ثم اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون))[20] ، وفي تفسير روح المعانى : (((وَما كانُوا يُبْصِرُونَ) أي أنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق))[21] .

ـ ومن تعبيرات القرآن عن وجود البصر : ((يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ))[22] .

4ـ التباكم (عدم وجود أي رد فعل أو أي إجابة كأنه لا أحد يتحدث إليه) :

ـ التباكم معناه أنه منع فمه من التكلم في الأمر ومناقشته كأنه لم يسمع عن الأمر أصلا ليتكلم فيه أو كأنه أصم لا يتكلم ، فرفض الأمر من غير نقاش أو تفكر : ((جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ

(1) الأعراف : 64
(2) يونس : 43
(3) الرعد : 19
(4) الإسراء : 72
(5) الحج : 46
(6) الأعراف : 179
(7) البقرة : 7
(8) الجاثية : 23
(9) الكهف : 101
(10) ق : 22
(11) الأعراف : 198
(12) يونس : 43
(13) البقرة : 17
(14) الزخرف : 36
(15) الرعد : 16
(16) التفسير الحديث ـ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (2 / 374)
(17) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (25 / 153)
(18) التفسير الواضح ـ دار الجيل الجديد - بيروت (3 / 395)
(19) بيان المعاني مطبعة الترقي - دمشق (2 / 25)
(20) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (2 / 46)
(21) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (6 / 232)
(22) النور : 44

فِي أَفْوَاهِهِمْ))[1] ، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[2] .

ـ عندما تسأل أحدا عن أمر ما فإنه يجيب عليك بنعم أو لا أو بأنه لا يعرف أو يقول أي رد ، لكن إذا سألت إنسان عن أمر ما فلم يرد عليك ولم يتكلم مطلقا ، ثم كررت عليه السؤال مرات ومرات لكنه لم يتكلم بكلمة واحدة ، فلابد أن يكون هذا الرجل أخرس (أبكم) لا يتكلم أو أنه يتباكم اشارة إلى أنه لم يعجبه كلام المتحدث ولكن لا يستطيع أن يرفضه فليس لديه أدلة تثبت أنه خاطئ فهو مقتنع بكلام المتحدث ولكن لا يعجبه فيتجاهله كأنه لم يسمع المتكلم وكأنه لا أحد يقف أمامه يكلمه .

ـ فالتباكم معناه أنه لا يريد أن يُعمل عقله في الأمر كأنه ليس مطروحا أصلا ، فهكذا جاءت دعوة الرسل إلى الناس يخبرونهم عن الله والآخرة وهم يتباكمون .

5ـ التناسي (لم يهتم بالأمر وأهمله وتركه ولم يبالي به وأعرض عنه وجعله بمنزلة الناسي له رغم علمه به) :

ـ التناسي يشمل :

1ـ تناسي الله : ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[3] ، ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))[4] .

2ـ تناسي لقاء الله : ففي الحديث : ((يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا فيقول لا ، فيقول له اليوم أنساك كما نسيتني))[5] ، وفي حديث آخر : ((... فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى أي رب ، فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا ، فيقول إني أنساك كما نسيتني ...))[6] .

3ـ تناسي الآخرة : ((فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[7] ، ((إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))[8] ، ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ))[9] ، ((وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[10] .

4ـ تناسي دعوة الرسل (الذكر) : ((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ))[11] ، ((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ))[12] ، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[13] ، ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ))[14] ، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ))[15] ، ((قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا))[16] .

5ـ تناسي الابتلاءات : عندما يحدث للانسان ابتلاء يتذكر ضعف نفسه وقدرة الله عليه فيلجأ الى الله بـ الدعاء والتضرع ، ثم إذا كشف الله عنه البلاء تناسى قدرة الله وما حدث له من ابتلاء : ((وَإِذَا مَسَّ الإِنسان

(1) الأعراف : 51
(2) البقرة : من الآية 171
(3) التوبة : 67
(4) الحشر : 19
(5) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع : برقم 7997)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع : برقم 7032)
(7) الأعراف : 51
(8) ص : 26
(9) السجدة : 14
(10) الجاثية : 34
(11) الأنعام : 44
(12) الأعراف : 165
(13) الفرقان : 18
(14) الأعراف : 53
(15) المؤمنون : 110
(16) طه : 126

ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إليه ثمّ إذَا خَوّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ))[1] .

ـ ففي تفسير ابن كثير : ((فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع و التوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، إنا نسيناكم أي سنعاملكم معاملة الناسي لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء بل من باب المقابلة كما قال تعالى : (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)))[2] .

ـ وفي تفسير الشيخ المراغى : (((فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ) أي إنهم لما تركوا ما ذكرهم به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسىّ فى كونه لا تأثير له))[3] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ } أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم))[4] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكّرُواْ بِهِ } أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلاً))[5] .

ـ وفي أيسر التفاسير للجزائري : (({ فنسيتها } أي تركتها ولم تلتفت إليها معرضا عنها))[6] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ فَنَسِيتَهَا } أي عَمِيتَ عنها وتركتها ترْكَ المنسيّ الذي لا يُذكر أصلاً))[7] .

6ـ التغافل (عدم التفكير في الأمر وعدم الشعور بقيمته وعدم انشغال الهم به)

ـ التغافل يشمل :

1ـ التغافل عن الآخرة : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ))[8] ، ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ))[9] ، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))[10] ، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[11] ، ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[12] .

2ـ التغافل عن ذكر الله : ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[13] .

3ـ التغافل عن آيات الله (آيات الكون ـ دعوة الرسل ـ القرآن ـ مصائر السابقين) : ((وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ))[14] ، ((فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[15] ، ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[16] ، (الغمرة أي الغفلة) .

4ـ وصف أهل النار بأنهم الغافلون : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[17] ، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[18] .

---

(1) الزمر : 8
(2) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 6 ، ص : 362)
(3) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (9 / 96)
(4) تفسير ابن كثير / دار طيبة (3 / 256)
(5) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (3 / 59)
(6) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 388)
(7) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (4 / 392)
(8) الروم : 7
(9) مريم : 39
(10) الأنبياء : 1
(11) الأنبياء : 97
(12) ق : 22
(13) الكهف : 28
(14) يونس : 7
(15) يونس : 92
(16) المؤمنون : 63
(17) الأعراف : 179
(18) النحل : 108

ـ والغفلة يقصد بها التغافل ففي أيسر التفاسير : (({ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } وَقَدْ فَعَلَ اللَّه ُ بِهِمْ ذَلِكَ لأنّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّه ِ ، وتَغافَلُوا عَنْها))[1] ، وفي معاني القرآن : (({ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا } أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر))[2] ، وفي تفسير توفيق الرحمن : (({ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } أي : تعاموا ، وتصامموا ، وتغافلوا عن قبول الحق ، واستماع القرآن . كما قال تعالى : ? صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا َ يَعْقِلُونَ ?))[3] .

7ـ التجاهل ـ عدم العلم (عدم التفكير في الأمر وعدم الشعور بقيمته وعدم انشغال الهم به) :

ـ الذي يجهل الشيء فهو معذور بجهله لأنه لا يعلمه ، أما الذي يتجاهل الشيء فهو يعلمه لكنه يتعامل معه كأنه لا يعلمه ، وكذلك الغافل عن الشيء والناسي له ، فعندما يوصف الكفار والمنافقين بالجهل والنسيان و الغفلة يقصد به التجاهل والتناسي والتغافل .

ـ وقد تطلق كلمة { الجهل } على المؤمن بمعنى نقصان العقل ، فالمعصية جهل ، أو تطلق على الكافر والمنافق بمعنى غياب العقل بالكلية ، ويقصد بهما أيضا التجاهل أي أن الإنسان له عقل ولكنه هو الذي يتجاهله فهو الذي يعطل عقله ، لأن الإنسان المعدوم العقل (المجنون) لا ذنب له وهو غير مكلف .

ـ العلم بعظمة الله وقدرته وحكمته هو من الربوبية ورغم ذلك يبين القرآن أن هناك من يجهلون عظمة الله وقدرته وحكمته وذلك لأن الآيات تعني أنهم لا يشعرون بما تعنيه عظمة الله وقدرته وحكمته وليس مجرد اليقين النظري بعظمة الله وقدرته وحكمته ، ففي أيسر التفاسير للجزائري : (({ يجهلون } : عظمة الله وقدرته وتدبيره وحكمته))[4] ، وفي صفوة التفاسير : (([ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع))[5] ، وفي بيان المعاني : (((قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ 138) عظمة الله وقوة سلطانه ولا تقدرون نعمه))[6] ، وفي تفسير السمعاني : ((ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أي : لا يعلمون عظمة الله وقدرته فيخافون منه))[7] ، وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية : ((لا يعلمون قدر عظمة الله جل ذكره ، وما عليهم من الضرر في إشراكهم مع الله غيره))[8] ، وفي تفسير البحر المحيط : ((وَمَنْ يَعْشُ، بِضَمِّ الشِّين، أَيْ يَتَعَامَ وَيَتَجَاهَلْ عَنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ يَعْرِفُ الْحَقَّ))[9] ، فالمقصود بعدم العلم في بعض آيات القرآن أي تجاهل الأمر كأنه لا يعلم فأصبح بمنزلة من لا يعلم : ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[10] ، ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[11] .

ـ ومن تعبيرات القرآن عن الجهل : ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ))[12] ، ((قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ))[13] ، ((وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ))[14] ، ((قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ))[15] .

8ـ التغابي كأنه لا يفهم ولا يفقه (كأن المتكلم يتكلم بلغة أخرى غير اللغة العربية فلا يفهم معانيها) :

ـ التغابي معناه أنه لا يعطي انتباهه للأمر لأنه لا يبالي به ولا يهتم به ، فهو يعقل الأمر ويفهمه لكنه يتجاهله

(1) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 1091)
(2) معاني القرآن للنحاس ـ جامعة أم القرى - مكة المرمة (5 / 55)
(3) توفيق الرحمن في دروس القرآن ـ دار العاصمة ، السعودية (3 / 40)
(4) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (2 / 105)
(5) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (2 / 46)
(6) بيان المعاني ـ مطبعة الترقي - دمشق (1 / 413)
(7) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض - السعودية (5 / 405)
(8) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة (8 / 5455)
(9) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (9/ 372)
(10) الروم : 59
(11) لقمان : 25
(12) الأنعام : 111
(13) الأعراف : 138
(14) هود : 29
(15) الزمر : 64

كأنه لا يعقله ولا يفهمه :

ـ لقد كان فريق من اليهود يخالفون التوراة ويحرفونها رغم علمهم التام بها وفهمهم التام لها لكنهم لا يريدون الخضوع للدين فتجاهلوا وتناسوا ما يعلمونه ويوقنون به نظريا أن التوراة حق ، فهم يفهمون ولكنهم يتغابون ، ففي تفسير ابن كثير : (({ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كلامَ اللهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ } أي: يتأولونه على غير تأويله { مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ } أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟))[1] ، وفي تفسير السمعاني : ((يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه) أي : فهموه (وهم يعلمون) أنه الحق))[2] .

ـ فاليهود يفهمون معاني الكلام في التوراة وبالتالي يوقنون بالتوراة ولكن نظريا لأنهم يفهمون التوراة ولا يتفهمونها ، فهم يتغابون كأنهم لا يفهمون ، فعطلوا عقولهم وأصبحوا كالحمير ، ففي التفسير المنير : (((مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التّوْراةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً) أي إن شبه اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، بعد أن كلفوا القيام بها والعمل بما فيها، فلم يعملوا بموجبها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها، كشبه الحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة على ظهره، وهو لا يدري الفرق بين الكتاب والزبل، لأنه لا فهم له، و اليهود وإن كان لهم عقول وأفهام، فإنهم لم ينتفعوا بها فيما ينفعهم وفي إدراك الحقائق، لأنهم حفظوا اللفظ ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه بل أوّلوه وحرفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، لذا وصفهم تعالى بقوله : أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ [الأعراف 7/ 179]))[3] .

9ـ عدم المبالاة (التغابي) :

ـ ففي أضواء البيان : ((وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } فَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ : { مَاذَا قَالَ آنِفًا } يَدُلُّ عَلَى أنهم مَا كَانُوا يُبَالُونَ بِمَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ النّبِيُّ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - مِنَ الْآيَاتِ وَالْهُدَى))[4] ، وفي تفسير الخازن : ((قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ } يعني ومن هؤلاء الكفار { مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاونا به وتغافلا عنه))[5] ، وفي تفسير الشعراوي : ((وقولهم : { مَاذَا قَالَ آنِفاً . . } دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له))[6] .

ـ فهم يستمعون إلى الأمر وهم لاهون يفكرون في أمور دنياهم متشاغلين عن الأمر : ((اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبّهِمْ مُحْدَثٍ إِلّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[7] .

ـ وفي التسهيل لعلوم التنزيل : (({ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ } يعني أنهم حِسانُ الصور { وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ } يعني أنهم فصحاء الخطاب ، والضمير في قوله : { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ } وفي قوله : { تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ } : للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل مخاطب { كأنهم خُشُبٌ مُسَنّدَةٌ } شبههم بِالخشب في قلة أفهامهم ، فكان لهم منظر بلا مخبر ، وقال الزمخشري : إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط ، لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة ، بخلاف الخشب التي في سقف أو مغروسة في جدار ؛ فإن فيها حينئذ منفعة ، فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة ، وقيل : كانوا يستندون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فشبههم في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط))[8] ، وفي التفسير الحديث : ((كأنهم خشب مسندة : تعبير تنديدي يراد به وصفهم بفقد العقل والروح رغم ما هم عليه من

---

(1) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة (1 / 307)
(2) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض - السعودية (1 / 98)
(3) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (28 / 190)
(4) أضواء البيان دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ـ بيروت (7 / 189)
(5) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (4 / 144)
(6) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (14 / 8711)
(7) الأنبياء : 1 - 3
(8) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (2 / 377)

الجسامة والوسامة اللتين تعجب الناظر فكأنهم أخشاب مسندة بالدعائم))[1] .

ـ وفي تفسير الهداية الى بلوغ النهاية : (({ وَمَثَلُ الذين كفَرُواْ كمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ } أي : مثل الكافر في قلة فهمه لما يتلى عليه من عند الله عز وجل وما يدعى إليه ويوعظ به، مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها ، قال عكرمة : " معناه : مثلهم كمثل البعير أو الحمار تدعوه فيسمع الصوت، ولا يفقه ما تقول له " ، قال ابن عباس : " معناه : مثل الكافر كمثل البعير أو الحمار أو الشاة ، إذا قلت لبعضها : كلْ ، لم تعلم ما تقول ، غير أنها تسمع الصوت ، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك " ، قال مجاهد : " هذا مثل ضربه الله تعالى للكافر يسمع ما يقال له ولا يعقل ، كمثل البهيمة تسمع النهيق ولا تعقل " ، وعلى هذا المعنى فسره كل المفسرين))[2] .

10ـ غياب العقل (تعطيل العقل) :

ـ وصف الله الكفار بأنهم لا يفقهون ولا يعقلون ما يسمعونه : ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ))[3] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[4] ، وقال الكفار لشعيب : ((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ))[5] مع أن شعيبًا خطيب الأنبياء .

ـ فهم يسمعون القرآن أو يقرأونه ويفهمون معاني كلماته لكن لا يعقلونه (غياب التصور والشعور بالقيمة وعدم شغل البال بالأمر) ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وفي الصحيحين ... { ... ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌ ... }[6] . فهذا قارئ القرآن يسمعه الناس وينتفعون به وهو منافق ، وقد يكون مع ذلك عالمًا بتفسيره وإعرابه وأسباب نزوله ، إذ لا فرق بين حفظه لحروفه وحفظه لمعانيه، لكن فهم المعنى أقرب إلى أن ينتفع الرجل به، فيؤمن به ويحبه ويعمل به، ولكن قد يكون في القلب موانع من اتباع الأهواء والحسد والحرص والاستكبار، التي تصدُّ القلب عن اتباع الحق، قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }[7] ، فهؤلاء لا خير فيهم يقبلون الحق به إذا فهموا القرآن، فهو سبحانه لا يُفهمهم إياه ، ولو علم فيهم خيرًا لأفهمهم إياه، ولمّا لم يكن فيهم خير فلو أفهمهم إياه لتولوا وهم معرضون، فيحصل لهم نوع من الفهم الذي يعرفون به الحق، لكن ليس في قلوبهم قصدٌ للخير والحق وطلبٌ له، فلا يعملون بعلمهم ولا يتبعون الحق))[8] .

ـ الإنسان له عقل لكنه لا يستعمله فهو يتغابى كأنه لا عقل له رغم انه له عقل ، وإذا لم يشعر الإنسان بقيمة ما يعقله فما فائدة العقل إذن ، فأصبح كأن لم يعقل .

ـ فقد يكون عبقريا من علماء الذرة ـ وذلك أمر عظيم يأمر به الشرع ـ ورغم ذلك لم يعقل ما في داخل هذه الذرة من العجب وأن وراءها قوة قاهرة فوق قوة الإنسان هي قوة الخالق وبالتالي يستسلم للخالق ويعيش خاضعا له ، فهو عبقري في ظاهر الأمر لكن حقيقته أنه لا عقل له ، كما أنه لا يشعر بضآلة علم الذرة و التكنولوجيا والدنيا بالمقارنة بالآخرة ، ولا يشعر بقدرة الخالق وضآلة علم الذرة والتكنولوجيا والدنيا بـ المقارنة بقدرة الخالق وعلمه ، فهو بذلك غبي لا يعقل .

ـ ومن تعبيرات القرآن عن غياب العقل : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[9] ،

---

(1) التفسير الحديث ـ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (8 / 458)
(2) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة (1/ 544)
(3) الأنعام : 25
(4) محمد: 16
(5) هود: 91
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5840 في صحيح الجامع) |
(7) الأنفال : 22، 23
(8) جامع المسائل لابن تيمية ـ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (1 / 130 ، 131)
(9) الملك : 10

((صُمٌ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[1] ، ((إِنّ شَرّ الدّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصّمُ البُكمُ الذِينَ لا يَعْقِلُونَ))[2] ، ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأنها لَا تعمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تعمَى القُلوبُ التِي فِي الصّدُورِ))[3] ، ((أَمْ تحسَبُ أَنّ أكثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلًا))[4] ، ((وَلَقدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنّمَ كثِيرًا مِنَ الجِنّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أولئِكَ كالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ))[5] ، ((وَلَقدْ أَضَلّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كثِيرًا أَفَلَمْ تكُونُوا تعْقِلُونَ))[6] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصّمّ وَلَوْ كانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[7] ، ((وَمَا كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرّجْسَ عَلَى الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[8] ، ((وَهُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ أَفَلَا تعْقِلُونَ))[9] ، ((إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقوْمٍ يَعْقِلُونَ))[10] ، ((لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا))[11] ، ((وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ))[12] ، ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزّلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ لِلهِ بَلْ أكثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ))[13] ، ((وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ))[14] ، ((أَلَا أنهم هُمُ السّفَهَاءُ))[15] .

ـ الناس من ناحية العقل صنفين هما :

1ـ الأغبياء (الذين لا يعقلون) :

ـ الإنسان إما مؤمن وإما غبي ، ففي الحديث : ((ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم))[16] ،فكل شيء هو آية تدل على الخالق ومن أوضح هذه الآيات الشمس فهي تدل على قدرة الله الهائلة وعلى أن قدرته تصل إلى الكمال ليس فيها نقص وهذا معنى التسبيح ، أي أنه لا يرى في قدرة الله وصفاته أي نقص فهي بلغت الذروة والكمال فيخضع لقوة الله ويسجد ويكون من المؤمنين .

ـ والأغبياء إما أن يكونوا مجانين ، وهؤلاء لا عقل لهم لوجود أمراض عضوية وهؤلاء غير مكلفين ، أو هم الذين عطلوا عقولهم فلم يستعملوها : ((وَمَا كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرّجْسَ عَلَى الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[17] ، ((صُمٌ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[18] ، ((وَقَالُوا لَوْ كنّا نَسْمَعُ أو نعْقِلُ مَا كنّا فِي أَصْحَابِ السّعِيرِ))[19] ، وهم ليسوا مجانين ولكنهم عطلوا عقلولهم فأصبحوا كأنهم مجانين لا يعقلون وكأنهم لا يسمعون وكأنهم لا يبصرون وكأنهم موتى ، فهم يمنعون أنفسهم من الاستجابة للرسل بتعطيل عقولهم ، فهؤلاء في الحقيقة غير عاقلين وهؤلاء هم المنافقين والكفار .

2ـ العاقلين (أولي الألباب) :

ـ ((فَاتّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الذِينَ آمَنُوا قدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكرًا))[20] ، ((الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القوْلَ

---

(1) البقرة : من الآية 171
(2) الأنفال : 22
(3) الحج : 46
(4) الفرقان : 44
(5) الأعراف : 179
(6) يس : 62
(7) يونس : 42
(8) يونس : 100
(9) المؤمنون : 80
(10) الروم : 24
(11) الأعراف : 179
(12) التوبة : 87
(13) العنكبوت : 63
(14) البقرة : 130
(15) البقرة : 13
(16) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5599 في صحيح الجامع)
(17) يونس : 100
(18) البقرة : من الآية 171
(19) الملك : 10
(20) الطلاق : 10

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ))[1] ، ((فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا))[2] ، ((هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ))[3] ، ((وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ))[4] ، وفي تفسير اللباب في علوم الكتاب : (({ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ } قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : أي عَقْل))[5] ، وهؤلاء عاقلين ، وعندهم شعور بقيمة ما يعقلونه ، وهؤلاء يؤمنون بالضرورة : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[6] .

11ـ عدم الإحاطة بالأمر علما (أي لم يعقل الأمر) :

ـ ففي حاشية الشهاب : ((المسارعة إلى التكذيب مأخوذة من قوله : (لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) فإن التصديق والتكذيب بالشيء ينبغي أن يكون بعد العلم به والإحاطة بكنهه ومعرفة مآله ومرجعه وإلا كان مسارعة إليه في غير أوانه))[7] .

ـ وفي تفسير روح المعاني : (((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) ذم لهم بالمسارعة إلى تكذيب الحق قبل التأمل والتدبر والاطلاع على الحقيقة))[8] .

ـ وفي تفسير البحر المحيط : (((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) قال الزمخشري : (بل كذبوا) بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويفقهوا تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم))[9] .

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن : ((وفي قوله تعالى : « وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً » إشارة إلى أنهم لم ينظروا في آيات الله ، ولم يعرضوها على عقولهم ، بل واجهوها بالبهت والتكذيب ، ورموها بالسخرية والاستهزاء ، من قبل أن ينظروا فيها))[10] .

ـ وفي التفسير المنير : ((بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أي إن كفار قريش في الحقيقة كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم الثابتة بالمعجزات، أنهم كذبوا (بالقرآن وبالنبوة) بمجرد تبليغهم به من قبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، فهم في أمر دينهم في أمر مختلط مضطرب، يقولون مرة عن القرآن والنّبي : ساحر وسحر، ومرة : شاعر وشعر، ومرة : كاهن وكهانة، فهم في قلق واضطراب ولبس، لا يدرون ماذا يفعلون، كما قال تعالى : إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ [الذاريات 51/ 8- 9]))[11] .

ـ وفي تفسير التحرير والتنوير : (({ بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ }[يُونُس : 39] لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِأَنَّهُ دُونَ الْإِحَاطَةِ بِعِلْمِ مَا كَذَّبُوا بِهِ يَقْتَضِي أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ بِهِ لَيْسَ عَنْ بَصِيرَةٍ وَتَأَمُّلٍ))[12] ، وفي تيسير التفسير : (({ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } ، لقد سارَعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبّروا ما فيه ، أو يقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين والحقائق))[13] ، وفي مفردات القرآن : ((حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا [النمل : 84] : أي ولم تدركوا حقيقة كنهها))[14] ، وفي التفسير المظهرى : ((بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ يعنى أن كلامهم وإنكارهم للقران ليس مبتنيا على التحقيق والتفكر بل كذبوا به أول ما سمعوه قبل أن يتفكروا فيه ويحيطوا بالعلم بشأنه وإدراك انه ليس من جنس أن يمكن إتيانه من البشر))[15] ، وفي تفسير الرازي : (((وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً) فالواو

---

(1) الزمر : 18
(2) الجن : 14
(3) غافر : 54
(4) البقرة : 269
(5) اللباب في علوم الكتاب ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 18 ، ص : 46)
(6) الأنعام : 36
(7) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ـ دار صادر - بيروت (5 / 29)
(8) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (6 / 117)
(9) محمد : 20
(10) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (10 / 294)
(11) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (26 / 284)
(12) التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر - تونس (11 / 174)
(13) تيسير التفسير للقطان (2 / 192)
(14) تفسير المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (20 / 21)
(15) التفسير المظهري ـ مكتبة الرشدية - الباكستان (5 / 28)

للحال كأنه قال أكذبتم بها بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها ، أما قوله : (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ، كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل))[1] ، وفي تفسير البيضاوى : (((ولم تحيطوا بها علما) الواو للحال أي أكذبتم بها بادئ الرأي غير ناظرين فيها نظرا يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها)))[2] .

ـ ومن أحاط بالأمر علما (عقل الأمر) فإنه يستجيب بالضرورة : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[3] ، وبالتالي فشرط دخول الجنة أن يعقل الإنسان الأمر (يحيط بالأمر علما) ففي تفسير النسفي : (((وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أي ولكن من شهد بالحق بكلمة التوحيد وهم يعلمون أن الله ربهم حقا))[4] ، وفي تفسير القرطبي : ((إلا من شهد بالحق يعني عزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به))[5] ، وفي الحديث : ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة))[6] .

12ـ تصنع الموت أو النوم (أي كأنما تكلم إنسانا ميتا أو نائما لا يسمع ما تقول) :

ـ لا يمكن أن تحدث إنسانا ميتا ، لأنه لا يسمع ولا يرى ولا يتأثر بكلامك ولا يتحرك ، ففي أيسر التفاسير : (({ وما أنت بمسمع من في القبور} أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات))[7] ، فالمتحدث يتكلم لكن المستمع يتصنع كأنه ميت لا يسمع كلام المتحدث ولا يتأثر به نهائيا ، وكما يقول الشاعر : لقد أسمعت إذ ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي ، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيا .

ـ ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[8] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[9] ، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[10] ، ((أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ))[11] .

ـ وفي التفسير المنير : ((الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم تتطلب سماع آيات القرآن سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهذا منهج المؤمنين الذين يقبلون ما يسمعون، فينتفعون به ويعملون ، أما الإعراض عن الدعوة فمنشؤه تعطيل طاقات الحواس، فهم لا يسمعون سماع تدبر، ولا يتفهمون الآيات فهم إمعان وروية، فصاروا كأنهم موتى لموت قلوبهم، لا موتى أجساد))[12] .

ـ فقد تموت وظائف الإنسان وهو لا يزال حي ، فهو عندئذ كالمريض الذي أصيب " بسكتة مخية " حيث توقف المخ عن العمل في حين أعضاءه لا تزال تعمل ، أو كالرجل الذي شرب خمرا فأصبح سكرانا كأنه لا عقل له ، أو كالطفل الصغير يلعب ويلهو دون أن يعقل الأمور ، أو كالنائم الذي يقوم من نومه ويتحرك وهو لا يزال نائما (كما يحدث عند بعض الناس) ، أو كالبهائم لا عقل لها رغم أنها تعيش حياتها وتأكل وتنام وتتكاثر ، أو كالحمار يحمل على ظهره كتب سماوية ومصاحف لكنه لا يعي ولا يفهم قدر ما يحمله ، فوظائف المعرفة والعلم والفهم والوعي والإدراك أصبحت معطلة بسبب غياب التفكير السليم ، فهو يسمع ويعقل لكنه ليس لديه شعور بقيمة ما يسمعه أو يعقله ، فأصبح كأنه لا يسمع ولا يعقل وكأنه ميت لأنه فقد التفكير السليم في قيمة الأشياء : ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[13] .

---

(1) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (24 / 187)
(2) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (4 / 168)
(3) الأنعام : 36
(4) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 3 ، ص : 284)
(5) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 16 ، ص : 122)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 6552)
(7) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (4/ 349)
(8) الأنعام : 36
(9) النمل : 80
(10) يس : 70
(11) الأنعام : 122
(12) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (7 / 192)
(13) الفرقان : 44

ـ وكذلك يتعامل مع المتحدث كأنه نائم فهو يحذره من النار ويدله على الجنة فلا يتأثر ، ففي الحديث : ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[1] .

13ـ السكر (فقدان الوعي) :

ـ عند القيام بعملية جراحية لمريض فإنه يأخذ مخدر ، فهو عندئذ يكون فاقد الوعي لما حوله لا يدرك ما يحدث حوله ، وكذلك الإنسان عندما يتناسى قيمة ما حوله من الأشياء فهو بذلك يصطنع فقدان الوعي كأنه سكران لا يعي ولا يدرك ما حوله أي كأنه في غيبوبة أي كأنه ميتا أي كأنه نائما أي كأنه لا يدري ما حوله .

ـ فتعطيل وظائف العقل والأذن والعين يجعل الإنسان لا يشعر بحقائق الأشياء من حوله ، فيصبح كالتائه الذي يتخبط لا يدري الحق من الباطل ، لذلك هناك أمران لا ثالث لهما هما : إما أن يكون الإنسان لديه شعور بقيمة الأشياء فهو يشعر بقيمة ما يعمله فهو يعيش لله ، أو يتخبط لا يدري حقيقة ما يعمل كأنه طفل يلعب ويلهو لا يدري ما يعمل : ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ))[2] ، فهؤلاء اتخذوا مسألة الآخرة ووجود الخالق وعظمته لعبا ولهوا ولم يتعاملوا معها ويأخذوها مأخذ الجد : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[3] ، وهم يتصورون أن أعمالهم الدنيوية هي الجد رغم أنها لعب ولهو لأنها إلى زوال : ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ))[4] .

ـ وفي تفسير أضواء البيان : (((وقوله : { لَفِي سَكْرَتِهِمْ } أي : عماهم وجهلهم وضلالهم ، والعمه : عمى القلب ، فمعنى { يَعْمَهُونَ } يترددون متحيرين لا يعرفون حقاً من باطل ، ولا نافعاً من ضار ، ولا حسناً من قبيح))[5] .

14ـ التلهي (عدم التفكير في الأمر بشغل التفكير في أمور أخرى وعدم الشعور بقيمته وعدم انشغال الهم به) :

ـ لا يستطيع الإنسان أن يمنع عقله من التفكير في أمر ما هو يوقن نظريا بأنه خطير ، لكنه يستطيع أن يشغل عقله بالتفكير في أمور أخرى فهو بذلك يتلهى عن التفكير في ذلك الأمر الخطير ، فلا يكون له هم إلا بالدنيا ، ويوجه كل تفكيره وتدبره في الأمور الدنيوية وظواهر الأشياء دون بواطنها وحقيقتها فينشغل عن التفكير في حقائق الأمور ومصيره ، ففي تفسير البغوي : (({ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني : أمر معاشهم ، كيف يكتسبون ويتجرون ، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون ، وكيف يبنون ويعيشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } ساهون عنها جاهلون بها ، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))[6] .

ـ وفي تفسير البيضاوي : (({ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ } بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات { حتى نَسُواْ الذكر } حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك))[7] .

ـ وفي تفسير فتح القدير : (({ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر } .. والمعنى : ما أضللناهم ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك))[8] .

---

(1) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3662)
(2) الأعراف : 51
(3) الطارق : 13 ، 14
(4) الحديد : 20
(5) أضواء البيان ـ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان (2 / 189)
(6) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 3 ، ص : 571)
(7) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 120)
(8) تفسير فتح القدير ـ دار ابن كثير- دمشق (ج : 4 ، ص : 78)

ـ وقد ينشغل الإنسان بالمال وجمعه حتى يشغله عن التفكير في حقائق الأشياء ومعرفة الخالق والآخرة ، فهو بذلك ينشغل بالمال عن تحقيق الإيمان الحقيقي بالله ، ففي تفسير زاد المسير : ((قوله تعالى : { أما من استغنى } قال ابن عباس : استغنى عن الله وعن الإيمان بماله))[1] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ أما من استغنى } : ظاهره من كان ذا ثروة وغنى ، وقال الكلبي : عن الله ، وقيل : عن الإيمان بالله))[2] .

ـ وفي تفسير فتح القدير : ((قوله : { ألهاكم التكاثر } أي : شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها ... وقال الحسن : معنى ألهاكم : أنساكم))[3] .

ـ فقد يظل الإنسان منشغلا بالمال والأولاد وجمع الدنيا ، وتظل الدنيا تسرق منه عمره وهمه ومشاعره وأهدافه يفاجئ بلحظة يذهب فيها للقاء الله تعالى لم يكن قد حمل لها هما أو تفكر فيها واستعدت لها نفسه ، وفي الحديث : ((عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال يقول ابن آدم مالي مالي ، قال وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟))[4] ، ومعنى (حتى زرتم المقابر) أي حتى دفنتم فيها ، وفي تفسير أضواء البيان : ((قوله تعالى : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ }، أي : لو تعلمون علم اليقين لما { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ }))[5] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التغابن : 15] أي : الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم))[6] .

ـ وفي تفسير البيضاوي : (({ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن } يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[7] .

ـ وفي تفسير القرطبي : ((قوله تعالى : (لاهية قلوبهم) أي ساهية قلوبهم ، معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والتفهم ، من قول العرب : لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه))[8] .

ـ وفي تفسير القرطبي : ((ومعنى { يلعبون } أي يلهون وقيل : يشتغلون فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهو به وجهين : أحدهما : بلذاتهم ، الثاني : بسماع ما يتلى عليهم ، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لعب كما قال الله تعالى : { إنما الحياة الدنيا لعب ولهو } [محمد : 36] ، الثاني : يتشاغلون بالقدح فيه والاعتراض عليه قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل))[9] .

ـ وفي تفسير النسفي : (({ ذَرْهُمْ } أمر إهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه و الصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم { يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ } بدنياهم { وَيُلْهِهِمُ الأمل } ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } سوء صنيعهم ، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين))[10] فالقضية في الأصل ليست عدم اقتناعهم النظري وإنما انشغلوا عن الإيمان وتركوه كأنه أمرا ليس معروضا عليهم وكأنهم لم يسمعوا عنه ، كما ورد نسيان الآخرة بمعنى ترك الإيمان بها أي إهمال الأمر دون النظر فيه وليست مسألة عدم الاقتناع النظري بها .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ أذهبتم طيباتكم في حياتكم } : أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا ، { واستمتعتم بها } : أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا))[11] .

ـ وفي تفسير الكشف والبيان : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا (محلّه رفع على الابتداء) يَتَمَتَّعُونَ (في الدّنيا) وَيَأْكُلُونَ

---

(1) تفسير زاد المسير ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 400)
(2) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (ج : 10 ، ص : 434)
(3) تفسير فتح القدير ـ دار ابن كثير- دمشق (ج : 5 ، ص : 596)
(4) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5169)
(5) أضواء البيان دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان (1 / 41)
(6) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 5 ، ص : 161)
(7) تفسير البيضاوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 5 ، ص : 163)
(8) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 11 ، ص : 268)
(9) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 11 ، ص : 237)
(10) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 2 ، ص : 183)
(11) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج : 5 ، ص : 56)

كمَا تأكلُ الا ْنعَامُ (ليس لهم همّة إلا بطونهم ، وفروجهم ، وهم لاهون ساهون عمّا في غدهم))[1] ، وفي تفسير بحر العلوم : (({ والذين كفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ } يعني : يعيشون بما أعطوا في الدنيا ، { وَيَأْكُلُونَ كمَا تَأكُلُ الأنعام } ليس لهم هَمٌ إلا الأكل ، والشرب والجماع))[2] ، وفي تفسير الجلالين : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ" فِي الدُّنْيَا "وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام" أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلى الآخرة))[3] .

ـ وفي تفسير بحر العلوم : (({ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ } يقول : اتركهم ، وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا . يأكلوا ، ويتمتعوا ؛ يأكلوا كالأنعام ، ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا ، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد { وَيُلْهِهِمُ الامل } يعني : يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة ، وعن ذكر الله تعالى . ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة ، وعن ذكر الأجل { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } وهذا وعيد لهم أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة))[4] ، وفي تفسير البغوي : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ } في الدنيا ، { وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعَامُ } ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، وهم لاهون ساهون عما في غد))[5] ، وفي تفسير الجلالين : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ" فِي الدُّنْيَا "وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام" أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلى الآخرة))[6] .

ـ وفي تفسير البحر المديد : (({ وتركتم ما خولناكم } أي : تفضّلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآ خرة))[7] .

وفي تفسير الطبري : ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال : بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[8] ، وفي تفسير بحر العلوم للسمرقندي : ((قوله عز وجل : { إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار } يعني : اختصصناهم بذكر الله تعالى ، وبذكر الجنة ، وليس لهم همّ إلا همّ الآخرة))[9] .

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن : ((قوله تعالى : « ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » أي ذلك الذي يعيش فيه المشركون ، من إعراض عن ذكر الله ، وعن الخشية من لقائه يوم القيامة ، واستفراغ وجودهم كله في الحياة الدنيا ـ هو غاية علمهم الذي حصّلوه بعقولهم الفاسدة ، فهم إنما كان همّهم كله منصرفا إلى الحياة الدنيا ، فوجهوا عقولهم إليها ، وحصلوا من العلم ما يصلهم بهذه الحياة ، ويمكن لهم فيها ، وهو علم تافه يمسك بالقشور من حقائق الأشياء ، ولا ينفذ إلى صميمها ولبابها ، ولو أن علمهم بالحياة الدنيا كان علما قائما على فهم صحيح وإدراك سليم لكان لهم من هذا العلم سبيل إلى الإيمان بالله واليوم الآخر : « يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ »))[10] .

ـ وفي التفسير المنير للزحيلي : (((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا) أي فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير الله ، ولم يكن همّه إلا الدنيا ، وترك النظر إلى الآخرة))[11] .

ـ وفي تفسير الشيخ المراغى : (((ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا في التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال ، وسعة في الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[12] .

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن : ((« ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ... فليدعهم وما

---

(1) تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت (ج : 9 ، ص : 31)
(2) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 299)
(3) تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج : 10 ، ص : 68)
(4) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 251)
(5) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 7 ، ص : 281)
(6) تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج : 1 ، ص : 674)
(7) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (ج : 2 ، ص : 146)
(8) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 21 ، ص : 218)
(9) بحر العلوم للسمرقندي (ج 3 ، ص : 170)
(10) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (ج : 14 ، ص : 606)
(11) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (ج : 27 ، ص : 115)
(12) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (ج : 27 ، ص : 56)

اختاروا لأنفسهم من حياة ، كل همهم فيها أن يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويتلهّوا بالآمال الكاذبة ، التي تقيم لهم من دنياهم تلك عالما من سراب تتراقص على أمواجه عرائس زائفة ينخدع لها الحمقى والسفهاء من الناس ويقطعون العمر في جري لاهث وراءها ! ، وفى قوله تعالى « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، الذين رضوا بهذه الحياة ، واطمأنوا بها ، وأذهبوا طيباتهم فيها ، واستهلكوا وجودهم في لذاذاتها الفانية ، أنهم في سكرة يعمهون ، فإذا جاء أجلهم صحوا من سكرتهم ووجدوا ما عملوا من سوء حاضرا بين أيديهم يقودهم إلى عذاب السعير))[1] .

ـ وفي تفسير أبي السعود : (({ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ } ، { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون))[2] .

ـ ومن صور التلهي بالدنيا كثرة التفكير في أمور الدنيا خاصة عندما تنقص أو تزيد ، وقد يشعر بالقلق والا كتئاب والأرق والضيق والكآبة عندما يفقد شيئا من أمور الدنيا ، وقد يؤدي ذلك إلى إصابته بمرض السكر وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة وضعف المناعة وقد يؤدي ذلك إلى الوفاة حزنا على الدنيا ! .

ـ والتلهي لا يكون فقط بالشهوات أو بالسعي لها ولكن أيضا بالمشاكل الدنيوية والصراعات بين الناس ففي التفسير المنير : (({ ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ } أي ما ينتظرون للعذاب و القيامة إلا نفخة واحدة في الصور، هي نفخة الفزع التي يموت بها جميع أهل الأرض فجأة، وهم يختصمون فيما بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا أي وهم متشاغلون في شؤون الحياة من معاملة وحديث وطعام وشراب وغير ذلك))[3] ، وفي تفسير السعدي : (({ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ } أي: وهم لاهون عنها ، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم وتشاجرهم بينهم الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة ، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم ، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون))[4] .

15ـ عدم انشغال الهم بالآخرة :

ـ دليل على أنه لا يفكر في الآخرة ولا يشغل همه بهذا الأمر ، فهو يتناسى الآخرة ، والرسل جاءت لتنذر الناس بالآخرة ، فهو يتجاهل حديث الرسل له .

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))[5] ، وفي حديث آخر : ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك))[6] .

16ـ الغرور بالدنيا ـ الشعور بالإنبهار بالدنيا (إشارة إلى تناسي حقيقة الدنيا) :

ـ قال تعالى : ((فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ))[7] ، وفي تفسير مفاتيح الغيب : ((فرحوا بما عندهم من العلم ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : 7] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به))[8] ، وفي التفسير القرآني للقرآن : ((قوله تعالى : « ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ » أي ذلكم الذي أنتم فيه من بلاء وعذاب في الآخرة ، هو بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من غرور بما ملكتم فيها ، وزهو وعجب بما بين أيديكم من زخرفها ومتاعها ، فصرفكم ذلك عن أن تنظروا إلى ما وراء

(1) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (ج : 7 ، ص : 215)
(2) تفسير أبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (3 / 22)
(3) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (23 / 27)
(4) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 696)
(5) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3170)
(6) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 6189 في صحيح الجامع)
(7) غافر : 83
(8) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 27 ، ص : 535)

يومكم الذي أنتم فيه ، فقطعتم حياتكم في فرح ومرح ، ولهو وعبث))[1] أي فرح غرور بالدنيا كأنهم هم الذين جلبوا متع الدنيا لأنفسهم فهي ملكهم وهو أقوياء بذلك فاستكبروا عن الشعور بالخضوع لله القوي فمصيرهم النار باستكبارهم .

ـ إذن سبب الفرح هو شعور الإنسان بأنه مالك الشيء وبأنه هو الذي أوجده وعدم شعوره بأن الله هو المالك لهذا الشيء وهو الذي خلقه وأوجده ، والدليل على ذلك أن قوم قارون عندما قالوا له : (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قال لهم : (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) .

17ـ التقليد (إشارة إلى تعطيل العقل) :

ـ ظاهر الأمر أن الشيء الذي يعمله كثير من الناس إذن هو صواب ، فلابد أنهم فكروا في الأمر فوجدوه صوابا فعملوا به ، فالإنسان الذي يتعجل فينظر إلى ظاهر الأمر فهو مخطئ ، فلابد أن يستعمل الإنسان عقله في حقيقة الأمر وحقيقة ما يعمله الناس ، فربما يكون كل هؤلاء الناس مخطئون ، ولذلك يقول تعالى : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ))[2] ، ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ))[3] .

ـ فإذا اخترع الناس نظم وعظموا من قيمتها واتفقوا جميعا عليها وقالوا نعيش حياتنا على هذا النظام واستمروا عليه جيلا بعد جيل ، فهذا لا يعني أن ذلك هو الحق فيتبعه مثلما اتفق الجميع عليه ، ولكن يستعمل الإنسان عقله في حقيقة هذا الأمر .

ـ بل إن الأصل الشرعي أن أكثر الناس مخطئون فلا تسير وراءهم : ((وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ))[4]

18ـ الانصراف والميل عن الحق :

ـ ترك المتحدث يتحدث وانصرف عنه : ففي أيسر التفاسير : (({ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم } والحال أنكم تعلمون أني رسول الله إليكم حقاً وصدقاً ... وقوله تعالى : { فلما زاغوا } أي مالوا عن الحق بعد علمه غاية العلم فآثروا الباطل))[5] ، وفي محاسن التأويل : (({ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف : 5]{ فَلَمَّا زَاغُوا } أي : عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا))[6] .

19ـ الانصراف في سرية كأنه غير موجود :

ـ ((وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ))[7] .

20ـ الإدبار :

ـ يترك المتحدث يتحدث ويعطيه ظهره (أي يدبر عنه) ويتركه مبتعدا عنه ، والآيات في ذلك كثيرة منها :

---

(1) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (ج : 12 ، ص : 1269)
(2) البقرة : 170
(3) الزخرف : 23، 24
(4) الأنعام : 116
(5) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (4 / 251)
(6) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (9/ 220)
(7) التوبة : 127

((ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ))[1] ، ((تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى))[2] ، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[3] .

21ـ اتخاذ الأمر ظهريا :

كل الناس يعلمون ربوبية الله لكن بعضهم يتناسون الله كأنهم لا يعلمون : ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا))[4] .

ـ أهل الكتاب يوقنون بأن الرسول حق ولكنه يقين نظري فقط ، فهم يتجاهلون ما يوقنون به ويتغافلون عنه كأنهم لا يعلمون وكأنهم لم يسمعوا عنه : ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[5] .

22ـ التشويش على المتحدث (التحدث أثناء حديثه) :

ـ أي يتشاغل بالكلام مع أحد آخر أو مع آخرين أثناء حديث المتكلم حتى يتداخل الكلام مع بعضه .

ـ ففي إعراب القرآن وبيانه : ((« لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » أي أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطا وتشويشا عليه))[6] .

23ـ الإعراض والتولي :

ـ الأعراض والتولي معناه ترك المتحدث وأعرض عنه ، ففي أيسر التفاسير : (({ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } وما يأتي هؤلاء المُشركينَ ، الذين يُكذّبُونكَ ، شيءٌ من عندِ الله يُذكّرهُم بالدّينِ الحَقّ ، إلا أعْرَضُوا عن استِمَاعِهِ وترَكُوا إعْمَالَ الفِكرِ فيهِ ، ولمْ يُوَجّهُوا هَمّهُمْ إلى تدَبُّرِهِ))[7] .

ـ والإعراض ورد في آيات كثيرة منها : ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[8] ، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[9] ، ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[10] ، ((وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ))[11] ، ((وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ))[12] ، ((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا))[13] ، " صدف عنها " أي أعرض عنها .

ـ والتولي كما في قوله تعالى : ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[14] ، ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))[15] ، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[16] .

24ـ النكوص (الرجوع إلى الوراء) :

---

(1) المدثر : 23
(2) المعارج : 17
(3) النمل : 80
(4) هود : 92
(5) البقرة : 101
(6) إعراب القرآن وبيانه ـ دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية (6/ 455)
(7) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 2819)
(8) فصلت : 4
(9) ص : 67، 68
(10) يوسف : 105
(11) الأنبياء : 32
(12) الأنعام : 4
(13) الأنعام : 157
(14) لقمان : 7
(15) الأنفال : 23
(16) النجم : 29

ففي التفسير المنير : (({ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ } أي إنه متى تليت عليكم آيات القرآن نفرتم منها وأعرضتم عن سماعها وعمن يتلوها، كما يذهب الناكص (الراجع) على عقبيه، بـ الرجوع إلى ورائه. والمراد: أنهم يعرضون عن الحق، فإذا دعوا أبوا، وإن طلبوا امتنعوا))[1] .

25ـ النفور والاشمئزاز :

ـ ((وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا))[2] .

ـ ((وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ))[3] .

26ـ ثني الصدر (يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره ليستخفي من المتحدث إليه كأنه منشغل بأمر آخر غير المتحدث) والاستخفاء واستغشاء الثياب (يغطي رأسه بثوبه حتى لا يراه المتحدث) :

ـ ففي أيسر التفاسير : ((وقوله تعالى : { ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه } هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطئ رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يفعل ذلك ظناً منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل ، وبعضهم يفعل ذلك بغضاً للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يراه فرد تعالى هذا بقوله : { ألا حين يستغشون ثيابهم } أي يتغطون بها))[4] .

27ـ السمود أي يرفع رأسه ، كأنه يبحث عن شيء فى السماء ، ولا شى ء (كأنه يتجاهل من يتحدث إليه) :

ـ ففي التفسير القرآني للقرآن : ((« وَأَنْتُمْ سامِدُونَ » أي وأنتم غافلون في صلف وكبر ، والسامد هو البعير الذي يرفع رأسه ، كأنه يبحث عن شيء في السماء ، ولا شيء ! ..))[5] ، فالحديث عن أمور الدنيا والعلوم الدنيوية حديث هام وخطير في نظرهم ، بينما الحديث عن الله والآخرة يستمعون إليه بغير انتباه كأنه حديث تافه لا فائدة منه ، وهم يوقنون بهذا الحديث على أنه حق ولكنه يقين نظري فقط ، ويظهر حقيقة تكذيبهم في صورة تعجب وضحك ، بينما من كان يوقن بهذا الحديث حقا فإنه يبكي من خطورة الأمر ، وهم لا يستطيعون أن يواجهوا الأمر ويثبتوا أنه غير صحيح لذلك يتشاغلون عنه : ((أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ))[6] .

28ـ وضع حاجز بين المتحدث والسامع حتى لا يصل الكلام (إشارة إلى تجاهل كلام المتحدث) :

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } أي مانع وفاصل بيننا فلا نسمع ما تقول ولا نرى ما تفعل))[7] .

ـ وفي أيسر التفاسير أيضا : (({ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا } أي ساتراً لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى))[8] .

29ـ اتخاذ الأمر لعبا ولهوا وهزلا بغير جدية (لا يأخذ كلام المتحدث على أنه جد) :

ـ يتعامل مع الأمر كأنه هزل : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[9] ، فهو يستمع إلى الأمر وهو يلعب فلا

---

(1) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (18 / 73)
(2) الإسراء : 46
(3) الزمر : 45
(4) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (2 / 157)
(5) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (14 / 625)
(6) النجم : 59 - 61
(7) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (4/ 560)
(8) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (3/ 199)
(9) الطارق : 13 ، 14

يلقي له بالا : ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[1] .

ـ فهو يوقن بالأمر ويصدق كلام المتحدث لكنه يتخذ الأمر بغير جدية كأنه هزل .

ـ ففي محاسن التأويل : (({ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } .. وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به من أنه رب الجميع وخالقه : { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي : بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته ؛ لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان ، وإنما هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم))[2] ، وفي تفسير الشيخ المراغى : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي بل هم فى شك من التوحيد والبعث والإقرار بأن الله خالقهم ، وإن قالوا ذلك فإنما يقولونه تقليدا لآبائهم من غير علم ، إذ هم قابلوه بالهزء والسخرية فعل اللاعب العابث الذي يأخذ الجدّ وما لا مرية فيه أخذ الهزل الذي لا فائدة فيه))[3] ، وفي تفسير السمعاني : (({ بل هم في شك يلعبون } أي : يسمعون سماع لاعب ، ويقولون قول لاعب ، ويقبلون قبول لاعب))[4] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي في شك لا يزالون فيه يلعبون ، فإقرارهم ليس عن جد ولا تيقن))[5] ، وفي التفسير المنير : ((ثم ذكر حقيقة المشركين ، فقال : (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) أي بل هؤلاء المشركون في شكّ من أمر البعث والتّوحيد والإقرار الذي صدر منهم بأن الله هو خالقهم ، وهم في الواقع عابثون لا هون لاعبون، لا جدّية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسّلوك المطابق له))[6] .

ـ وفي تفسير السمعاني : (({ فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون } أي : في باطل لاهون ، ويقال : يخوضون في أمر النبي بالتكذيب ، ويلعبون بما هو [الجد] . وعن بعضهم : أنه رؤي في المنام ، فقيل له : كيف الأمر ؟ فقال : الأمر جد فأياك أن تخلطه بالهزل))[7] .

ـ وفي تفسير القرطبي : (({ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأنبياء : 1، 2]{ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ } يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته ، { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } الواو واو الحال يدل عليه { لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } ومعنى { يَلْعَبُونَ } أي يلهون. وقيل : يشتغلون ؛ فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما : بلذاتهم ، الثاني : بسماع ما يتلى عليهم ، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [محمد : 36] ، الثاني : يتشاغلون بالقدح فيه ، والاعتراض عليه))[8] .

ـ وفي تفسير إيجاز البيان : ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً : [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم ، والدنيا لهو وباطل))[9] ، وفي تفسير الرازي : ((هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وفيه وجهان : الوجه الأول أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به وما كانوا فيه مجدين ، والوجه الثاني أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم))[10] ، وفي تفسير السعدي : (({ لَهْوًا وَلَعِبًا } أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم ، { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها ، { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ } أي: نتركهم في العذاب { كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا ، وليس أمامهم عرض ولا جزاء))[11] ، وفي تفسير السمعاني : ((قوله تعالى : { الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا } معناه : أك

(1) الأنبياء : 1 ـ 3
(2) محاسن التأويل ـ تفسير القاسمي ـ دار الكتب العلميه ـ بيروت (8/ 408)
(3) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (25 / 121)
(4) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 122)
(5) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر ـ بيروت (8 / 25)
(6) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (25 / 208)
(7) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 269)
(8) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة (11 / 268)
(9) إيجاز البيان عن معاني القرآن ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت (1 / 332)
(10) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (14 / 77)
(11) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 290)

لا وشربا ، قاله عبد الله بن الحارث ، وقيل : معناه : الذين كانت همتهم الدنيا ، واشتغالهم بها ؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا))[1] .

ـ فاليقين النظري بشيء بغير شعور بخطورته هو يقين هزلي غير حقيقي وجاد وفعلي يصدر من إنسان يلعب ويلهو كالأطفال ولذلك يقول تعالى : ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[2] ، ((ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[3] .

30ـ الفرار :

ـ التشبيه بالحمار الوحشي حين يفر الأسد : ففي صفوة التفاسير : (({ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ }[4] { كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ } أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة { فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ } أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر : شبههم تعالى بِ الحمر النافرة مذمة لهم وتهجيناً وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد))[5] .

ـ وهم يفرون من الموت رغم أنهم موقنون به لأن الموت يعني ضعفهم وقوة من يقدر عليهم فيميتهم ، فـ الموت يأمرهم بالخضوع لذلك يفرون منه : ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ))[6] ، فكذلك يفرون من الله والآخرة وكل ما يأمرهم بالخضوع .

31ـ الانسلاخ والتفلت :

ـ الإنسلاخ كما في قوله : ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا))[7] .

ـ والتفلت كما في الحديث : ((مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي))[8] .

32ـ العناد والإصرار والجحود (عدم إعمال العقل) :

ـ لا يستطيع الإنسان أن يقنع نفسه بشيء بغير دليل ، هو لا يريد الخضوع ولا يملك دليلا ليقنع نفسه بعدم الخضوع فيلجأ إلى العناد ، فهو يتغافل عن ما يعلمه من الحق كأنه لا يعلمه ويعاند :

ـ ففي تفسير مراح لبيد : (({ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا } [المدثر : 16] كانَ لِآياتِنا الدالة على التوحيد والقدرة والعدل ، وصحة النبوة وصحة البعث عَنِيداً ، أي رادا وهو يعرفها بقلبه وينكرها بلسانه))[9] ، وفي تفسير البحر المحيط : ((وقال قتادة والسدي : { لا يُكَذِّبُونَكَ } بحجة وإنما هو تكذيب عناد وبهت))[10] ، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل : (({ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ } من قرأ بالتشديد فالمعنى : لا يكذبونك معتقدين لكذبك ، وإنما هم يجحدون بالحق مع علمهم به))[11] .

ـ والإصرار كما في قوله تعالى : ((وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا))[12] .

---

(1) تفسير السمعاني دار الوطن ـ الرياض (2 / 187)
(2) الطارق : 13 ، 14
(3) الجاثية : 35
(4) المدثر : 49-51
(5) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (3/ 456)
(6) الجمعة : 8
(7) الأعراف : 175
(8) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5859 في صحيح الجامع)
(9) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ـ دار الكتب العلمية – بيروت (2 / 579)
(10) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (4 / 489)
(11) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (1 / 259)
(12) نوح : 7

33ـ عدم التذكر والاتعاظ والاعتبار :

ـ هو أغلق عقله وإن رأى الآيات بعينه : ((وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا))[1] ، ((وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ))[2] ، ((وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ))[3] ، ((وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ))[4] .

ـ فهو مهما رأى من الآيات فلن تغني عنه شيئا وهناك علماء صعدوا الفضاء واكتشفوا فيه الكثير ولم يغني ذلك عنهم شيئا ، ولو رأى معجزات الرسل بعينه لن تغني عنه شيئا ، فلن يتعظ بأي شيء .

34ـ عدم التدبر والتصور والتفكر والتذكر والتبصر والتفقه والتفهم :

ـ ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[5] ، ((أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ))[6] ، وفي صفوة التفاسير : (({ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر } أي أولم نتركِكم ونمهلكم في الدنيا ، عمرا مديدا ، يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر ؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها ؟ وما لكم تطلبون عمرا آخر ؟))[7] ، ((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ))[8] .

ـ وفي التفسير المنير : (({ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ... أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم وحواسهم هم كالأنعام (البقر والإبل والغنم) لا همّ لهم إلا الأكل و الشرب والتمتع بلذات الحياة والدنيا ، ... أولئك هم كاملوا الغفلة عن آيات الله وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم فيما خلقت من أجله، وهو الاستفادة من المسموعات، والانتفاع من المبصرات، وهم الأغبياء الجاهلون الذين لا ينظرون إلى المستقبل، وإنما انصرفوا إلى الحياة الدنيا، وتركوا الاشتغال بما يؤهلهم للخلود في نعيم الحياة الآخرة ، **وعلى هذا تكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر** ، والإعراض عن الجنة و النار))[9] .

35ـ الاستخدام الخاطئ للعقل :

ـ خلق الله العقل للإنسان لكي يعرف الله من خلال نعمه وآياته ، فإذا لم يستخدم الإنسان العقل في معرفة الله واستخدمه في غير ذلك فهذا استخدام خاطئ للعقل ، فمن الناس من يقوم بحشو عقله بأمور الدنيا وعلوم الدنيا فقط من غير التدبر لمعرفة قدر الله والآخرة معرفة حقيقية ومن غير أن ينشغل همه بذلك ، بل قد يقوم بحشو عقله بكل علوم الدين ما عدا التدبر والشعور بقدر الله والآخرة وما يتصل بذلك .

ـ ففي تفسير أبي السعود : (({ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً } ليستعملوهَا فيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفوا بكلَ منهَا ما نِيطتْ بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلوا بها على شؤونِ منعمِها عزّ وجلّ ويداوموُا على شُكرِه ، { فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ } حيثُ لم يستعملوه في استماعِ الوَحي ومواعظِ الرسلِ .{ وَلاَ َ أبصارهم } حيثُ لم يجتلوا بها الآياتِ التكوينيةَ المنصوبةَ في صحائفِ العالمِ . { وَلاَ َ أَفْئِدَتُهُمْ } حيثُ لم يستعملوهَا في معرفةِ الله تعالى))[10] .

---

(1) الأنعام : 25
(2) الحجر : 14، 15
(3) الطور : 44
(4) الأعراف : 132
(5) محمد : 24
(6) المؤمنون : 68
(7) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (3 / 79)
(8) الروم : 8
(9) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (9 / 168)
(10) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (6 / 144)

ـ وفي صفوة التفاسير : (({ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة } أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته ، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها ، فهو بمنزلة فاقدها ، كما قال تعالى : { فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء }))[1] .

ـ وفي تفسير الخازن : (({ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً } يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[2] .

ـ وفي تفسير الرازي : (({ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً } والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً))[3] .

ـ وفي تفسير البغوي : (({ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني : أمر معاشهم ، كيف يكتسبون ويتجرون ، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون ، وكيف يبنون ويعيشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي ، { وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ } ساهون عنها جاهلون بها ، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))[4] ، وفي تفسير الشيخ المراغى : (((ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا في التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال ، وسعة في الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[5] .

36ـ الحيلولة بين المرء وقلبه (غياب العقل ، أي يعمل بغير عقل) :

ـ ففي تفسير البحر المحيط : (({ وَاعْلَمُوا أَنّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } ... وقال مجاهد : يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل عقوبة على عناده ففي التنزيل { إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب } أي عقل))[6] .

37ـ الطبع على القلب (الطبع على العقل) :

ـ كلمة " القلب " في القرآن يقصد بها " العقل " :

1ـ ففي تفسير القرطبي : ((القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر ، قال الله تعالى : {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} [الفرقان : 32] وقال : {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح : 1] يعني في الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل ، قال الله تعالى : {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق : 37] أي عقل ، لأن القلب محل العقل في قول الأ كثرين ، والفؤاد محل القلب ، والصدر محل الفؤاد))[7]

2ـ ويقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : ((هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب ؟ ، جـ - هذه مسألة أشكلت على كثير من النظار الذين ينظرون إلى الأمور نظرة مادية لا يرجعون فيها إلى قول الله

(1) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (2 / 239)
(2) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (4 / 134)
(3) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (28 / 25)
(4) تفسير البغوي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 3 ، ص : 571)
(5) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر (ج : 27 ، ص : 56)
(6) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (ج : 6 ، ص : 68)
(7) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (1 / 189)

وقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلا فالحقيقة أن الأمر فيها واضح أن العقل في القلب (!) ، وأن القلب في الصدر : {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} [الحج: 46]، وقال: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]، ولم يقل: القلوب التي في الأدمغة (!) ، فالأمر فيه واضح جدًا ، أن العقل يكون في القلب ، ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : "ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، إلا وهي القلب ، فما بالك بأمر شهد به كتاب الله ، والله هو الخالق العالم بكل شيء ، وشهدت به سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم-؟! ، إن الواجب علينا إزاء ذلك أن نطرح كل قول يخالف كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، وأن نجعله تحت أقدامنا ، وألا نرفع به رأسًا ، إذن القلب هو محل العقل))[1] .

3ـ ومعنى "القلب" في اللغة أي "العقل" ففي مختار الصحاح : ((القَلبُ الفؤاد وقد يعبر به عن العقل قال الفراء في قوله تعالى { لمن كان له قلب } أي عقل))[2] .

4ـ الطبع على القلب هو الطبع على العقل بدليل أن نتيجة الطبع على القلب هي نفس نتيجة عدم التفكير في الأمر ، فكلاهما يؤدي إلى عدم الفقه وعدم العلم والغفلة ويصبح كأنه لم يسمع والآيات تبين ذلك كالتالي : ((وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[3] ، ((وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ))[4] ، ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[5] ، ((وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ))[6] .

38ـ انقلاب العقل (تعطيل العقل) :

ـ قد يكون عقل الإنسان مقلوبا يحتاج إلى أن يقوم بعدله ليكون في الوضع الصحيح وذلك كناية عن مرض العقل وعدم قيامه بوظيفته السليمة :

ـ ففي تفسير التحرير والتنوير : (({ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } يجوز أن يكون عطفا على جملة { أنها إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 109] فتكون بيانا لقوله : { لا يُؤْمِنُونَ } أي بأن نعطل أبصارهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرون ما تحتوى عليه الآية من الدلائل ولا تفقه قلوبهم وجه الدلالة فيتعطل تصديقهم بها ، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم، وذلك أنهم قد خلقت عقولهم نابية عن العلم الصحيح بما هيأ لها ذلك من انسلالها من أصول المشركين، ومن نشأتها بين أهل الضلال وتلقي ضلالتهم ، كما بينته آنفا.فعبر عن ذلك الحال المخالف للفطرة السليمة بأنه تقليب لعقولهم وأبصارهم، ولأنها كانت مقلوبة عن المعروف عند أهل العقول السليمة))[7] ، وفي التفسير المنير : (({ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ } نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه وَأَبْصَارَهُمْ عنه فلا يبصرونه))[8] .

39ـ نكس على رأسه (جعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى إشارة إلى تعطيل العقل) :

ـ بعدما عقل الأمر تراجع وأغلق عقله .

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ فرجعوا إلى أنفسهم } : أي بعد التفكر والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم مالا ينطق ، { نسكوا على رؤوسهم } : أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى))[9] ، وفي التفسير المنير : ((فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أي راجعوا عقولهم ، وفكروا وتدبروا فَقالُوا لأنفسهم إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ بعبادتكم من لا ينطق. ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ انقلبوا

---

(1) شرح رياض الصالحين- للشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - دار الوطن للنشر، الرياض (ج : 1 ، ص : 341)
(2) مختار الصحاح ـ المكتبة العصرية ـ بيروت (1 / 258)
(3) الأعراف : 100
(4) التوبة : 87
(5) الروم : 59
(6) الأنعام : 25
(7) التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر - تونس (6 / 272)
(8) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (7 / 324)
(9) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 423)

إلى المجادلة بعد ما استقاموا، وعادوا إلى جهلهم، وردوا إلى كفرهم، وقالوا لإبراهيم: والله لَقدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاء يَنْطِقُونَ أي فكيف تأمرنا بسؤالهم))[1] ، فهؤلاء لو رجعوا إلى أنفسهم فاستمروا على ذلك لاهتدوا لكنهم تناسوا الأمر مرة أخرى .

40ـ الختم على القلب (الختم على العقل) :

ـ ففي تفسير الكشف والبيان : (({ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ } فذهب بها { وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ } وطبع عليها يعني لا يفقهوا قولا ولا يبصروا حجة))[2] ، وفي التفسير المظهرى : ((خَتَمَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ - فلا تعى خيرا - والقلب هو المضغة وقد يطلق على المعرفة والعقل قال الله تعالى : { إِنّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ }))[3] .

41ـ التشبيه بالبهائم وبالحمار والكلب إشارة إلى غياب العقل (في أنها لا تعقل وفي أنها لا هم لها إلا الطعام والشراب والجماع أي غياب انشغال الهم بالله والآخرة) :

ـ وذلك للدلالة على عدم العقل ، كما في قوله : ((مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارًا))[4] ، ((أمْ تَحْسَبُ أنّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلا كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلًا))[5] ، ((أُولئِكَ كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ))[6] .

ـ ففي تفسير الهداية : (({ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب } أي مثله إذ لم ينتفع بما أوتي مثل الكلب الذي لا ينتفع بترك الحمل عليه ، هو يلهث على كل حال . فكذلك هذا ، هو ضال على كل حال ، لا ينتفع بما أوتي من الآيات ، كما لم ينتفع الكلب بترك الحمل عليه ، وقيل : إن هذا مثل من يتلو كتاب الله عز وجل ، ولا يعمل به ، هو مثل الكلب لا ينتفع بترك الحمل عليه ، ولا يترك اللّهث ، كذلك هذا لا ينتفع بقراءة كتاب الله عز و جل ، فيعمل ، هو مثل من لا يقرأه ولا يعمل به . ومعنى {تَحْمِلْ عَلَيْهِ} تطرده وتشرده ، فهو يلهث طردته ، وكان الحسن يقول : هو المنافق))[7] ، وفي تفسير السراج المنير : (({ كمثل الكلب } أي : كمثله في أخس أوصافه وهو { إن تحمل عليه } أي : بالطرد والزجر { يلهث } أي : يدلع لسانه {أو} إن {تتركه يلهث} فهو يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ، وليس غيره من الحيوان كذلك ، قيل : كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال الكلال والراحة ؛ لأنّ اللّهث طبيعة أصلية فيه ، فكذلك حال من كذب بآيات الله إن وعظته فهو ضال ، وإن تركته فهو ضال ، وكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ، وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً ؛ لأنّ الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللّهث طبيعة لازمة للكلب))[8] .

ـ وفي تفسير المنتخب : (({ أمْ تَحْسَبُ أنّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلا كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلًا } .. وهل تظن أن أكثرهم يسمعون سماع الفهم أو يهتدون بعقولهم؟! لقد نفذوا ما تأمرهم به أحلامهم ، وصاروا كالبهائم لا همّ لهم إلا الأكل والشرب ومتاع الحياة الدنيا ، ولا تفكير لهم فيما وراء ذلك ، بل هم شر مكاناً من البهائم ، فالبهائم تنقاد لأصحابها إلى ما فيه خيرها ، وتنأى عما يضرها ، وهؤلاء يلقون بأنفسهم فيما يهلكهم))[9] .

42ـ تناسي اليقين بربوبية الله تعالى (نسيان الله) :

ـ الكفار يوقنون بربوبية الله لكنهم يتناسون ذلك (نسوا الله) ، أي عطلوا عقولهم عن إدراك معنى الربوبية و

---

(1) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (17 / 78)
(2) تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان عن تفسير القرآن (4 / 148)
(3) التفسير المظهرى ـ مكتبة الرشدية - الباكستان (1 / 23)
(4) الجمعة : 5
(5) الفرقان : 44
(6) الأعراف : 179
(7) الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة (4 / 2643)
(8) السراج المنير ـ مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة (1 / 537)
(9) المنتخب ـ الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام (1 / 537)

الشعور بما تعنيه ، فأصبحوا كأنهم لا يوقنون بربوبية الله ، فالموجود عندهم هو اليقين النظري فقط أما اليقين الحقيقي بربوبية الله فهو غير موجود عندهم فهم لا يعقلون ما يوقنون به ، فالآيات تبين أن الكفار لا يوقنون اليقين الحقيقي بربوبية الله تعالى :

1ـ في تفسير أبي السعود : ((وقوله تعالى نحن خلقناكم فلولا تصدقون .. أي فهلا تصدقون بالخلق فإن ما لا يحققه العلم ولا يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس من التصديق في شيء ، وقيل بالبعث استدلالا عليه بالإ نشاء فإن من قدر عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبرا))[1] ، وفي تفسير الكشاف : (({ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } تحضيض على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به ، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به ، وإما بالبعث ؛ لأنّ من خلق أولا لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً))[2] ، وفي تفسير محاسن التأويل (تفسير القاسمي) : (((نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ) أي : معشر قريش والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئا { فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ } أي : بالخلق ، وهم وإن كانوا مقرين به لقوله :{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان : 25] إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ؛ لأنه إذا لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة ، لا يعد تصديقاً))[3] .

2ـ وفي تفسير أبي السعود : (((أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا وإلا لما أعرضوا عن عبادته))[4] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ بَل لا يُوقِنُونَ } : أي إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون))[5] وفي تفسير البيضاوى : (((بل لا يوقنون) إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته))[6] ، وفي تفسير روح المعاني : ((أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له))[7] ، وفي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : (((بل لا يوقنون) وذلك أنه حكي عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) [لقمان : 25] فتبين أنهم في هذا الاعتراف شاكون إذ لو عرفوه حق معرفته لم يثبتوا له نداً ولم يحسدوا من اختاره للرسالة))[8] .

3ـ وفي تفسير ابن كثير : ((قالت الرسل : { أَفِي اللهِ شَكٌ } وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ } الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه))[9] ، وفي تفسير البحر المديد : ((فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك في الربوبية ، { قالت رُسُلهم أفي الله شكٌ } : أفي وجوده شك ، أو في ألوهيته ، أو في وحدانيته شك ؟))[10] ، وفي تفسير الوسيط لسيد طنطاوي : ((والاستفهام في قوله { أَفِي اللَّه شَكٌ } للتوبيخ والإ نكار ، ومحل الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته))[11] ، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لا بن جزي : ((" أفي الله شك " المعنى أفي وجود الله شك أو أفي إلهيته شك وقيل في وحدانيته))[12] .

4ـ وفي تفسير البحر المديد : (({ ربُكم وربُ آبائكم الأولين } أي : هو رب الجميع ، ثم ردّ أن يكونوا موقنين

---

(1) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 8 ، ص : 196)
(2) تفسير الكشاف ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 465)
(3) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (9/ 125)
(4) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (8 / 151)
(5) تفسير البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (8 / 115)
(6) تفسير البيضاوى [أنوار التنزيل وأسرار التأويل] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (5 / 155)
(7) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (27 / 38)
(8) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلميه ـ بيروت (6 / 195)
(9) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 4 ، ص : 482)
(10) تفسير البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (ج : 3 ، ص : 47)
(11) تفسير الوسيط لسيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة - القاهرة (ج : 7 ، ص : 528)
(12) تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (ج : 1 ، ص : 409)

بقوله : { بل هم في شك يلعبون } وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان ، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب))[1] ، وفي تفسير التحرير والتنوير : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } { بل } للإضراب الإبطالي رد به أن يكونوا موقنين ومقرين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما فإن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو ك العدم لأنهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العلم ، فإن العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرق إليه الذهول ثم النسيان فضعف حتى صار شكا لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس، أي هم شاكون في وحدانية الله تعالى))[2] ، وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ((و"بَلْ" في قوله - تعالى - : (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) للإضراب الإبطالى ، لأن المقصود من الآية الكريمة ، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله ، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان ، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك ، لأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله ، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب ، قال الآلوسى : « قوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ... إضراب إبطالى ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه ، وتنوين شَكٍّ للتعظيم ، أي : في شك عظيم. يَلْعَبُونَ أى : لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان ، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب »[3]))[4] ، وفي أيسر التفاسير : (({ بل هم في شك يلعبون } : أي فليسوا بموقنين بل هم في شك من ربوبية الله تعالى لخلقه وإلا لعبدوه وأطاعوه (بل هم في شك يلعبون) بالأقوال والأفعال واليقين لهم في ربوبية الله تعالى ، وإنما هم مقلدون لآبائهم في ذلك))[5] ، وفي تفسير البحر المحيط : ((وقوله : (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) تحريك لهم بأنكم تقرون بأنه تعالى خ الق العالم ، وأنه أنزل الكتب ، وأرسل الرسل رحمة منه ، وأن ذلك منكم من غير علم وإيقان ، ولذلك جاء : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، أي في شك لا يزالون فيه يلعبون. فإقرارهم ليس عن جد ولا تيقن))[6] ، وفي التفسير المنير : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي بل هؤلاء المشركون في شكّ من أمر البعث والتّوحيد والإ قرار الذي صدر منهم بأن الله هو خالقهم، وهم في الواقع عابثون لا هون لاعبون، لا جدّية عندهم في الا عتقاد الصحيح، والسّلوك المطابق له))[7] ، وفي تفسير القرطبي : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك ، وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعن لهم من غير حجة))[8] ، وفي صفوة التفاسير : (({ بل هم في شك يلعبون } أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان ، في قولهم : الله خالقنا))[9] ، وفي تفسير القاسمي : (({ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } أي : بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته ؛ لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان ، وإنما هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم))[10] .

5ـ الكافر يظن أن ما عنده من مال ونعم ملك له وحصل عليه بجهده رغم اليقين النظري التام بأن الله هو المالك والرزاق ، ففي ففي تفسير ابن جزي : (({ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي } [فصلت: 50] { لَيَقُولَنّ هذا لِي } أي هذا حقي الواجب لي، وليس تفضلا من الله ولا يقول هذا إلا كافر، ويدل على ذلك قوله: وَما أَظُنُّ السّاعَةَ قائِمَةً))[11] ، وفي تفسير القاسمي : (({ لَيَقُولَنّ هذا لِي } أي حقي نلته بعملي ، لا بفضل من الله جحدا للمنعم))[12] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي } أَيْ بِسَعْيِي وَاجْتِهَادِي، وَلَا يَرَاهَا أَنَّهَا مِنَ اللهِ))[13] .

6ـ اليقين الحقيقي بربوبية الله هو الذي يؤدي إلى عبادته سبحانه (والعبادة هي خوف المهابة والحب

(1) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (5 / 279)
(2) التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر - تونس (25 / 285)
(3) تفسير الآلوسى [روح المعاني] ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج 13 ص 115)
(4) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة (13 / 118)
(5) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5 / 6)
(6) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (9 / 399)
(7) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (25 / 208)
(8) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (16 / 129)
(9) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (3 / 198)
(10) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (8/ 408)
(11) تفسير ابن جزي [التسهيل لعلوم التنزيل] ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (2/ 243)
(12) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (8/ 346)
(13) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (9/ 316)

وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع والعمل لله فشملت بذلك كل شيء) : ((إِنّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ))[1] ، ((رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ))[2] ، ((وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون))[3] ، وفي أيسر التفاسير لأسعد حومد : (((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ) وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ بِاللَّهِ ، العَابِدِينَ غَيْرَهُ ، مَنْ خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ الخَلْقَ جَمِيعاً ، لَيَعْتَرِفُنّ بِأَنّ اللَّه تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فِي الوُجُودِ ، وَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ . وَلَكِنّهُمْ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ هَذَا فَإِنّهُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمّنْ لاَ يَمْلِكُ شَيْئاً ، وَلاَ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ ، فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ طَرِيقِ الحَقّ إلى طَرِيقِ الضّلاَلَةِ لَوْ لَمْ يَكُونوا فِي غَايَةِ الجَهْلِ ، وَسَفَاهَةِ الرّأْيِ؟ ، (فَأَنّى يُؤْفَكُونَ) فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ))[4] ، وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم : (((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ) وقوله سبحانه : (فَأَنّى يُؤْفَكُونَ) تعجيب من تناقضهم في أفعالهم ، ومن انحراف في تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم ، أي : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات والأرض ، والمسخر للشمس و القمر ، فلماذا أشركتم معه في العبادة آلهة أخرى؟ ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته عز وجل ؟))[5] .

ـ وعبارة (فأنى يؤفكون ؟) تدل على أن هؤلاء لا يعقلون ما يقولونه من أن الله هو الخالق والرازق ، لأنهم لو عقلوا ذلك لعبدوه وحده سبحانه ، ويؤكد ذلك عبارة (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) في قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزّلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ))[6] ، وعبارة (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) في قوله تعالى : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[7] .

7ـ وفي قوله تعالى : ((وَهُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[8] ، أي أفلا تعقلون ربوبية الله ، ففي التفسير المنير : (((وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنّهارِ) أي ولله وحده تسخير الليل والنهار، وجعل كل منهما يطلب الآخر، يتعاقبان، لا يفتران ولا يفترقان بنظام دقيق وزمان محدد كما قال تعالى: لَا الشّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس 36/ 40] ، ثم حذر الله تعالى من ترك النظر في كل هذا فقال : (أَفَلا تَعْقِلُونَ) أي أفلا تتفكرون في هذه الأشياء، أفلا تعقلون كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته، وألا تدلكم عقولكم على العزيز العليم الذي قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، لتعلموا أن الله حي موجود قادر؟!))[9] .

8ـ اليقين بالله والآخرة إذا لم يتم تصوره والشعور بخطورته وانشغال البال به ظل يقينا نظريا فقط ، و اليقين بالله والآخرة إذا لم يؤدي إلى خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع فهو يقين نظري وليس يقينا حقيقيا ، أما اليقين الحقيقي فهو الذي يؤدي إلى هذه المشاعر لأن توحيد الربوبية و الأسماء والصفات يستلزم توحيد الألوهية ، ومن توحيد الألوهية هذه المشاعر ، ولأنه بالفطرة من عرف الله أحبه وخافه وخضع له ورجاه .

9ـ وفي الحديث : : ((ذَاقَ طَعْمَ الإيمان مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإسلام دِينًا وَبِمُحَمّدٍ رَسُولاً))[10] ، فـ الحديث يطالبنا بالرضا بالله ربا وليس اليقين النظري به ربا ، والرضا هو شعور من المشاعر وليس مسألة معرفية علمية ، والحديث يبين أن الإيمان له طعم وحلاوة وبالتالي هو شيء تشعر به وليس شيء تقتنع به فقط ، فالإيمان بالله ربا هو شيء تشعر به وتذوق طعمه وليس مجرد الاقتناع النظري بالله ربا يكون إيمانا حقيقيا .

---

(1) الزخرف : 64
(2) مريم : من الآية 65
(3) الأنبياء : من الآية 92
(4) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 4291)
(5) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ـ سيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر ، الفجالة - القاهرة (11 / 55)
(6) العنكبوت : 63
(7) لقمان : 25
(8) المؤمنون : 80
(9) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (18 / 83)
(10) تحقيق الألباني : (صحيح (انظر حديث رقم : 3425 في صحيح الجامع)

10ـ يقول المستشار الدكتور على جريشة : ((إن الفصل بين المعنيين " توحيد الربوبية " و" توحيد الألوهية " لا محل له إلا ليكون للبيان والتوضيح .... ونود أن نؤكد أن منهج القرآن في عدم الفصل بين أنواع التوحيد ـ كما ذهب إليها العلماء ـ هو المنهج الأقوم .. وهو الذي يتفق مع أسماء الله وصفاته))[1] .

43 ـ السخرية والاستهزاء (إشارة إلى أنه يرى كلام المتحدث هراء ولا يبالي به) :

ـ ففي تفسير مراح لبيد : (({ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } ، { وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ } أي طبقة من كبرائهم { سَخِرُوا مِنْهُ } أي كانوا يتضاحكون لعمله السفينة ويقولون : يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا ، وكان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدا ، وكانوا يقولون : ليس ها هنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون))[2] .

ـ وفي تفسير البحر المحيط : (({ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا } وَهِيَ انْقِلَابُ الْعَصَا ثُعْبَانًا وَعَوْدُهَا عَصًا وَإِخْرَاجُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ نَيِّرَةً، وَعَوْدُهَا إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ، إذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ، أَيْ فَاجَأَهُمُ الضَّحِكُ بِحَيْثُ لَمْ يُفَكِّرُوا وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا، بَلْ بِنَفْسِ مَا رَأَوْا ذَلِكَ ضَحِكُوا سُخْرِيَةً وَاسْتِهْزَاءً، كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَضْحَكُ))[3] .

44 ـ تجاهل كلام المتحدث هو تجاهل للمتحدث :

ـ الكفار يوقنون بأن القرآن هو كلام الله : ((فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ))[4] ، ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ))[5] .

ـ فمعنى الكفر بآيات الله أي الإعراض عن كلام المتحدث (وهو الله سبحانه) وتناسي كلامه بنفس الطرق السابقة في الهروب من المتحدث :

ـ التناسي كما في قوله : ((يَوْمَ يَأْتِي تأويلهُ يَقولُ الذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ))[6] ، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي))[7] ، ((كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا))[8] ، والتغافل كما في قوله : ((وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[9] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ))[10] ، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[11] ، والتعامي كما في قوله تعالى : ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى))[12] ، ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ))[13] ، والإعراض كما في قوله : ((وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ))[14] ، ((وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ))[15] ، ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي))[16] ، ((بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ))[17] ، ((وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا))[18] ، والتولي : ((كما قوله تعالى فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[19] .

ـ فالكفر بآيات الله معناه التناسي والتغافل والتعامي والإعراض والتولي عن كلام المتحدث وهو الله سبحانه ، والكفر بآيات الله معناه أيضا التناسي والتغافل والتعامي والإعراض والتولي عن المتحدث وهو الله

---

(1) رسالة في العقيدة ـ للدكتور على جريشة ـ دار البشير ـ طنطا (ص : 47 ـ 49)
(2) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ـ دار الكتب العلمية - بيروت (1 / 507)
(3) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (9/ 378)
(4) الأنعام : من الآية 33
(5) النمل : من الآية 14
(6) الأعراف : 53
(7) المؤمنون : 110
(8) طه : 126
(9) يونس : 92
(10) الأعراف : 146
(11) الكهف : 28
(12) الرعد : 19
(13) الزخرف : 36
(14) الجن : 17
(15) الشعراء : 5
(16) طه : 124
(17) الأنبياء : 42
(18) طه : 99 ، 100
(19) النجم : 29

سبحانه ، فالكفر بآيات الله معناه نسيان الله .

ـ وأصل فساد البشرية هو الإعراض عن كلام المتحدث وتناسيه ، أي الإعراض عن الله وتناسيه ، أي نسيان الله تعالى : ((وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ))[1] .

ـ وفي تفسير ابن كثير : (({ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } أي : لما أعرضت عن آيات الله ، وعامَلتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينساك { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } [الأعراف : 51] فإن الجزاء من جنس العمل))[2] .

45 ـ التخفي وراء الحجج المصطنعة :

ـ يصطنع لنفسه حجج واهية ليقنع نفسه بغير الحق بصورة متكلفة رغم علمه النظري التام بالحق ، فمثلا هو لا يرى ميتا عاد إلى الحياة فيعتبر ذلك دليلا على عدم البعث رغم أنه يرى الإنسان حيا بعد أن كان نطفة ميتة لا روح فيها ، ويرى النبات حيا بعد أن كان بذرة ميتة لكنه يوقف عقله عن التفكير ، ولو أراه الله رجلا عاد بعد الموت لقال إنه سحر ، إذن هو سوف يظل يصطنع ويلفق المبررات الواهية ، حتى لو أنه رأى المعجزات أمام عينه فسيقول أريد معجزات أخرى أكبر وأريد أن أرى الله والملائكة ، فهو يقنع نفسه بحجج واهية لكي يهرب من الخضوع : ((وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ))[3] .

ـ وإذا أضطر لمواجهة المتحدث ومجادلته اصطنع هذه الحجج الواهية وأغلق عقله عليها ، فلا يسمع لإجابة المتحدث : ((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ))[4] .

46ـ تجاهل التجاهل ! (نسيان النفس) :

ـ الإنسان يعلم أنه على الباطل ويتناسى ذلك ، والمنافق يعلم أنه منافق ويتناسى ذلك ، فهو يرى أن ما عنده من كفر ونفاق ليس كفرا ونفاقا ولكنه أمر بسيط غير مهم رغم علمه النظري بأن ما عنده هو كفر ونفاق ، فهو يتناسى ما يعلمه عن نفسه ولا يواجه نفسه .

ـ فالذي يتجاهل الآخرة والدين يعلم أن ذلك يدخله النار ولكنه يتجاهل الأمر ولا يفكر فيه ، كما أنه يتجاهل النار رغم يقينه النظري بوجودها .

ـ لذلك يخاف الإنسان على نفسه أن يكون من المنافقين حيث يتناسى إعراضه عن الله والآخرة ، ويتناسى أنه بذلك من المنافقين

ـ فالإنسان الغافل يعلم أنه غافلا ولكنه يكون غافلا عن أنه غافل ! .

ـ ففي التفسير المنير : (({ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } أي لا أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله ، ونسي ما قدم من الكفر والمعصية ، أو لا ظلم أعظم من كفر من يشاهد الآ يات والبينات الدالة على الحق والإيمان، ثم يعرض عنها، ومع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يده من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة ، وعلى رأسها الكفر بالله ، **والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم**))[5] أي أنه يتشاغل عن كفره ويتناساه ويحسب أنه من المهتدين .

---

(1) النمل : 82
(2) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة (5 / 324)
(3) الأعراف : 132
(4) يس: 78، 79
(5) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (15 / 282)

ـ لذلك جاءت الرسل إلى الناس يتعجبون من عدم خوف الناس من الله رغم علمهم أن الله حتما سيعاقبهم على تغافلهم عن الله وشركهم : ((وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا))[1] ، ولذلك جاءت الرسل للناس لتقول لهم : (ألا تتقون) أي ألا تخافون عاقبة شرككم : ((كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ))[2] .

ـ فالإنسان يعلم أن ما يفعله فيه الضرر لنفسه ولكنه يتناسى ذلك وهو ينظر إلى ظاهر الأمر من الزينة الخادعة ، ففي أيسر التفاسير : (({ ولكني أراكم قوما تجهلون } : أي حظوظ أنفسكم وما ينبغي لها من الإ ِسعاد والكمال))[3] .

ـ الإنسان إذا كان مصابا بمرض ما فإنه يعلم بعقله أنه مريض ما عدا مرض واحد لا يعلم بعقله أنه مريض هو إذا كان عقله نفسه هو المريض ، لذلك فالذي لا يعقل لا يعلم بأنه لا يعقل ويظن أنه من العاقلين : ((أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ))[4] .

47 ـ الكفر هو هروب من الله والدين والخضوع :

ـ الكفار الذين يعبدون الأصنام ويكذبون بالبعث ويأتون بالحجج الواهية على أنهم على الحق ، هم في الحقيقة عندهم يقين نظري بربوبية الله وعندهم يقين نظري بتوحيد الله وعندهم أيضا يقين نظري بألوهية الله ، فهم يعلمون بأن الإله لابد أن يعبد ويعلمون أنه لابد أن يخضعوا لله ويعلمون أنه لابد أن يطيعوا الله ، فهم يوقنون نظريا بكل شيء في الدين ، لكنهم لا يحبون الخضوع ويريدون أن يعيشوا معيشة الحر الذي يفعل ما يشاء وليس معيشة العبد لسيده ، وهم لا يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بأن الدين باطل ، وبالتالي يلجأوا إلى حيلة الهروب من الدين ، فهم لا يبتعدوا عن الدين لأنهم ضد الدين فيرونه خطأ ، وإنما لا يريدون الخضوع ويريدون الشهوات فيهربون من الدين ويتناسونه ولا يفكرون فيه ، ويشغلون عقولهم بغير ذلك حتى يأتيهم الموت .

ـ وقد سبق أن أوضحنا في العنصر السابق أن الحجج التي يأتي بها الكفار هم يعلمون أنها مجرد خدع ليستخفوا وراءها وهم غير مقتنعين بها .

ـ فالكفر معناه أنه وضع ساترا أو غطاءا بينه وبين المتحدث ، أي وضع ساترا أو غطاءا بينه وبين الله أو بينه وبين الحق أو بينه وبين الدين ، فكلمة "الكفر" في اللغة معناها الستر أو الغطاء وليس معناها رفض الدين بعدم الإقتناع به ، ففي أساس البلاغة : ((كفر الشيء وكفّره: غطّاه، يقال: كفر السحاب السماء، وكفر المتاع في الوعاء، وكفر الليل بظلامه، وليل كافر. ولبس كافر الدروع وهو ثوب يلبس فوقها ، وكفرت الريح الرّسم، والفلاح الحب، ومنه قيل للزرّاع: الكفار))[5] ، وفي المغرب في ترتيب المعرب : (((الْكُفْرُ) فِي الْأَصْلِ السَّتْرُ يُقَالُ كَفَرَهُ وَكَفَّرَهُ إذَا سَتَرَهُ))[6] .

48ـ عدم الشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة (ليس همه وهدفه) :

ـ الكافر يوقن بصدق دعوة الرسل وما أخبروا به من وجود الآخرة : ((فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ))[7] ولكنه يتناسى الآخرة فيعاقب يوم القيامة على تناسيه الآخرة : ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا))[8] ، فيقينه بالآخرة هو يقين نظري فقط وليس يقينا حقيقيا لأنه يتناسى الآخرة و

(1) الأنعام : 81
(2) الشعراء : 105 - 108
(3) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج : 5 ، ص : 59)
(4) يونس : 100
(5) أساس البلاغة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت - لبنان (2 / 140)
(6) المغرب في ترتيب المعرب ـ دار الكتاب العربي (1 / 411)
(7) الأنعام : من الآية 33
(8) السجدة : 14

لا يرجوها ولا يترقبها ولا ينتظرها ولا يشغل همه بها وليست هدفه ويتعامل مع الدنيا على أنها دار إقامة وليس كدار سفر وفيها تتحقق أهدافه فالآخرة ليست هدفا يترقبه ولا يعيش حياته بناءا على أنه يلقى الله ، رغم اليقين النظري التام بالآخرة ، فهو يرضى بالدنيا على أنها داره .

ـ أما المؤمن فيعيش حياته يعد نفسه للآخرة على أمل أن يلقى الآخرة فيجد الثواب ، فعندما يذهب إلى الآخرة لا يكون الأمر مفاجئا له وإنما هو أمر كان يتوقعه وينتظره طوال عمره ، فهو يعيش حياته رجاء الآخرة ، أي من أجل الآخرة ، فهو يعيش حياته وعنده رجاء وأمل وتوقع وانتظار اللحظة التي يصل فيها إلى الآخرة ، فهمه مشغول باليوم الذي يلقى فيه الله تعالى والآخرة ، فذلك هدفه .

ـ وفي تفسير السعدي : ((يقول تعالى { إِنّ الَذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به { وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُنْيَا } بدلا عن الآخرة ، { وَاطْمَأَنُوا بِهَا } أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها ، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون ، {وَالَذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود ، { أُولَئِكَ } الذين هذا وصفهم { مَأْوَاهُمُ النَارُ } أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها))[1] .

ـ والشعور بترقب لقاء الله والآخرة ورد في القرآن بمعنى الرجاء للقاء الله والآخرة ، ففي التفسير المنير : (({ مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ } أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة))[2] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ وارجوا اليوم الاخر } أي توقّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوال))[3] .

ـ وعدم الشعور بترقب لقاء الله والآخرة يعبر عنه بعدم الرجاء : ((بَلْ كانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[4] ، ((وَقَالَ الَذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَنَا))[5] .

49ـ شغل التفكير بكل أمور الدين ما عدا معرفة الله والآخرة ! :

ـ لا يمكن أن يتحقق الشعور بالخضوع والخوف من الله إلا إذا شعر الإنسان بقوة الله وضعف نفسه ، ولا يمكن أن يتحقق الشعور بحب الله إلا إذا شعر الإنسان بعظمة الله وإنعامه عليه ، أي لا يمكن أن يتحقق الشعور بالخضوع والخوف والحب له إلا إذا عرف الإنسان الله والآخرة معرفة حقيقية ، أما إذا تناسى الله و الآخرة فلن تتحقق هذه المشاعر ، وكيف يقوم الإنسان بالدين وينسى أصل الدين الذي هو معرفة الله تعالى .

ـ فهذه صورة من صور الهروب من الخضوع ، وهي نسيان الله والآخرة وغياب الشعور بالخضوع لله مع القيام بباقي أمور الدين ! .

ـ والطبيعي أن الطاعة تنشأ من معرفة الله ومن الخضوع له والخوف منه ومحبته لكنه يتكلف الطاعة ويصطنعها ، فأصبح الإنسان يعيش ولا وجود حقيقي للغيبيات في ذهنه ومشاعره ، فأصبح دنيويا لا يتعدى تفكيره إلى ما وراء ذلك وتحولت العبادات إلى شيء أقرب إلى التراث أو العادات لأنها فقدت معناها الذي نشأت منه .

ـ وظيفة العقل الأساسية هي معرفة الله ، فمن استخدم عقله وشغل باله بكل شيء عدا معرفة الله تعالى

---

(1) تفسير السعدي [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان] ـ مؤسسة الرسالة (1 / 358)
(2) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (20/ 186)
(3) تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (7/ 39)
(4) الفرقان : 40
(5) الفرقان : 21

فهو بذلك يعطل عقله ، ففي صفوة التفاسير : (([وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة] أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته ، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها ، فهو بمنزلة فاقدها ، كما قال تعالى : [فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء]))[1] .

ـ فالدين ليس فقط عمل الجوارح ، ولكنه أيضا شعور بعظمة الله والخوف منه والخضوع له والتوكل عليه وشعور بالآخرة والخوف منها .

50ـ الران (عدم المبالاة بأوامر الدين إشارة إلى عدم المبالاة بالدين) :

ـ المقصود بعدم المبالاة بأوامر الدين ليس الوقوع في المعاصي ولكن عدم الشعور بقيمة أوامر الدين كأنها قضية غير مهمة .

ـ أي يعصي ولا يندم على ما فعل ويصر على المعاصي فتزيده المعاصي جرأة على الله حتى يختفي الخوف من الله نهائيا ، وتزيده المعاصي في محبة الدنيا حتى تختفي محبة الله نهائيا ، وتشغل المعاصي همه بالدنيا والشهوات وتلهيه حتى ينقطع همه عن الله والآخرة نهائيا وينقطع تفكيره عن الغيبيات ، ففي الحديث : ((إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }))[2] ، فالمعصية تصبح سهلة عنده ، ففي الحديث : ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أي بيده فذبه عنه))[3] .

ـ فهناك تعارض بين العمل بالشهوات وعمل العقل ، فإذا اختار العمل بالشهوات أغلق عقله ، وإذا اختار عقله فلابد أن ينهى نفسه عن الشهوات : ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ، فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى))[4] .

ـ وكما أن الإعراض عن كلام المتحدث هو إعراض عن المتحدث ، فكذلك الإعراض عن أوامر المتحدث كأنه لم يسمعها أو كأنها لا قيمة لها هو أيضا إعراض عن المتحدث .

ـ حقيقة الطاعة هي تنفيذ أوامر وهي صورة من صور الخضوع ، والإنسان يهرب من الطاعة باعتبارها مسألة تنفيذ أوامر بنفس الطرق السابقة ، أي يتجاهل أوامر المتحدث ويتناساها ويتغافل عنها ولا يبالي بها ويتلهي عنها ولا يشغل باله بها رغم العلم بالحلال والحرام وأنه يجب إتباع أوامر الشرع .

****

ـ ثانيا : الأدلة على الهروب من الخضوع بعدم تأثر المشاعر بدعوة الرسل وآيات الكون

ـ لا تتأثر المشاعر بالمتحدث أو بكلامه أو بالأمور المذكورة في كلامه (المتحدث هو آيات الكون أو دعوة الرسل أو الرسل أو الرسول صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو الدين أو الله سبحانه وتعالى ، والحديث هو الأ مر بالخضوع من خلال بيان ضعف الإنسان وقوة الخالق ووقوع الإنسان تحت أمر الخالق سبحانه) .

---

(1) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (2 / 239)
(2) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1418 ، برقم : 4244)
(3) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم 2358)
(4) النازعـات : 37 ـ 40

ـ فهو لا يحب سماع المتحدث : ((وَإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأزَّتْ قلوبُ الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة وَإذا ذُكِرَ الذِينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ))[1] ، ويكره كلام المتحدث لأنه لا يحب الخضوع : ((ذَلِكَ بِأنَّهُمْ كرِهُوا مَا أنزَلَ اللهُ فَأحْبَطَ أعمالهُمْ))[2] .

ـ الإنسان العاقل يخاف من الشيء المخيف ويحب الشيء المحبوب ويرجو الشيء النافع ويخضع لمن هو أقوى منه (والله هو وحده القوى وكل ما سواه ضعيف) ، ولكن تعطيل العقل يؤدي إلى أن تتعطل المشاعر فيخاف الإنسان من شيء غير مخيف ويحب شيء غير محبوب ويرجو شيئا لا ينفعه ولا يضره أو يرجو شيئا يضره ويخضع لما ليس له سلطان عليه ، وهو بذلك لا يعقل ، فتعطيل المشاعر يعنى غياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة .

ـ إن الشيء الذي لا تخافه ولا ترجوه ولا تحبه ولا تكرهه ولا تشعر تجاهه بأي شيء هو شيء لا قيمة له أو هو شيء له قيمة ولكنك فاقد العقل ، كما أن عدم الشعور بأي شيء تجاه الغيبيات معناه الغفلة والإعراض القلبي وإهمال الغيبيات ، ففي تفسير اللباب : (({ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن } أي يُعْرِض عن القرآن ، وقيل : يُعرِض عن الله ، فلم يخفْ عقابه ولم يرجُ ثَوَابَه))[3] .

ـ فالإنسان الذي لا يشعر إطلاقا بألم الخوف من مهابة النار أو بلذة الشوق إلى الجنة هو في حقيقة أمره لا يعرف شيء اسمه النار ولا شيء اسمه الجنة ، فهي في مشاعره أمور مثل الأمور التي لا تنفع ولا تضر فيقتنع بها فقط نظريا وليس يشعر بها ، فهو بذلك قد سلب خاصية الألم من النار وخاصية اللذة من الجنة فأصبحت أمور نظرية لا قيمة لها ، وكذلك إذا لم يشعر إطلاقا بشيء من ألم الخوف من مهابة الله أو شيء من لذة الحب لله فهو لا يعرف كلمة (الله) ، وإن كانت كلمات (الله) و(النار) و(الجنة) موجودة في الا قتناع واليقين التام لكنه يقين نظري ، ولكنها غير موجودة في شعور الإنسان ولم تتأثر بها مشاعره وهمومه وأهدافه وأمانيه .

ـ قال تعالى : ((وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كحُبِّ اللهِ وَالذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً لِلهِ))[4] ، ((إذْ نُسَوّيكُمْ بِرَبِّ العَالمِينَ))[5] ، فالآية معناها إذا كان حب غير الله متساوي لحب الله أو أكبر كان ذلك نفاق أكبر ، فما بالك لو لم يكن حب الله موجود أصلا فذلك نفاق أكبر .

ـ المشاعر المتعلقة بالله كالحب والخضوع هي أصل توحيد الألوهية ، وبدونها لا يتحقق توحيد الألوهية .

ـ معني أن شيئا ما لا تحبه ولا ترجوه ولا تخافه إذن هو في نظرك أمر غير مهم ، والأمر الغير مهم أمر غير خطير تأخذه علي سبيل الهزل وليس علي سبيل الجد ، والله يقول : ((إنّهُ لقوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالهَزْلِ))[6] ، فإن الآخرة أمر خطير وقول فصل وأمر لا يحتمل التراخي والهزل .

ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك))[7] ، ويقول أيضا : ((وَلَا بُدّ أنْ يَكُونَ مَعَ التّصْدِيقِ شَيْءٌ مِنْ حُبِّ اللهِ وَخَشْيَةِ اللهِ وَإلا فَالتّصْدِيقُ الذِي لَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ إيمَانًا ألْبَتّةَ بَلْ هُوَ كَتَصْدِيقِ فِرْعَوْنَ وَاليَهُودِ وَإبْلِيسَ))[8] ، ويقول أيضا : ((ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب وبكمالها يكمل))[9] ، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يأله العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له بمعنى مألوه وهو الذي

---

(1) الزمر : 45
(2) محمد : 9
(3) اللباب في علوم الكتاب ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 17 ، ص 262)
(4) البقرة : من الآية 165
(5) الشعراء : 98
(6) الطارق : 13 ، 14
(7) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 529)
(8) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 307)
(9) الاستقامة ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 260)

تألهه القلوب أي تحبه وتذل له))[1] .

ـ لا يصح الإيمان بقول القلب فقط (قول القلب هو اليقين النظري) بغير عمل القلب (عمل القلب هو المشاعر والهموم والأهداف) فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((الصواب قول السلف والأئمة إن الإيمان قول وعمل ، أصله قول القلب وعمل القلب))[2] ، وبالتالي فإن عمل القلب هو من أصل الإيمان أو أصل الدين أو أصل العبادة فإذا ذهب ذهب الإيمان ، كما يقول أيضا : ((الدين والإيمان قول وعمل وأوله قول القلب وعمله فمن لم ينقد بقلبه ولم يذل لله لم يكن مؤمنا))[3] ، كما يقول أيضا : ((فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب))[4] ، ويقول ابن القيم : (((وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) ، (وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنا بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة))[5] ، ويقول أيضا : ((فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول بل ويقرون به سرا وجهرا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به))[6] .

ـ وفي معارج القبول : ((من قال من أهل السنة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للانقياد ظاهرا وباطنا بلا شك لم يعنوا مجرد التصديق فإن إبليس لم يكذب في أمر الله تعالى له بالسجود وإنما أبى عن الانقياد كفرا واستكبارا واليهود كانوا يعتقدون صدق الرسول صلى الله عليه و سلم ولم يتبعوه وفرعون كان يعتقد صدق موسى ولم ينفذ بل جحد بآيات الله ظلما وعلوا))[7] ، فالكفار عندهم يقين نظري بأن الله هو الخالق وليس هذا يقينا حقيقيا لأنه لم يؤدي إلى إذعان وخضوع ، وكذلك أبو طالب يوقن بأنه لا إله إلا الله لكنه يقين نظري وليس هذا يقينا حقيقيا لأنه لم يؤدي إلى إذعان وخضوع .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهة الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع و العطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبي : إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ، وقوله لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله ، وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس ... وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب فإنما هو القول التام كقوله : من قال في يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه أو غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وليس هذا مرتبا على مجرد قول اللسان ، نعم من قالها بلسانه غافلا عن معناها معرضا عن تدبرها ولم يواطئ قلبه لسانه ولا عرف قدرها وحقيقتها راجيا مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض))[8] .

---

(1) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج 3 ، ص : 26)
(2) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ دار العاصمة، السعودية (ج : 6 ، ص : 36)
(3) الاستقامة لابن تيمية ـ الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود ـ المدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 145)
(4) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (ج : 7 ، ص : 529)
(5) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 1 ، ص : 109)
(6) الصلاة وأحكام تاركها ـ لابن القيم الجوزية ـ مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة (ج : 1 ، ص : 56)
(7) معارج القبول ـ دار ابن القيم - الدمام (ج : 2 ، ص : 594)
(8) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 1 ، ص : 339)

ـ فالتصديق والإيمان الحقيقي لابد أن يكون معه مشاعر : [[الإيمان بالله ليس ـ فقط ـ معرفة نظرية واقتناعا عقليا نظريا به سبحانه ، بل لابد أن يتبع ذلك ميل قلبي وتفاعل ، واتجاه لمشاعر الحب نحوه سبحانه ، وهذا ما يؤكده قوله تعالى : (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)[1]]][2] .

ـ لا تتحقق التقوى بغير الخوف من الله ، ولن ينجو الإنسان من النار إلا إذا كان من المتقين : ((ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا))[3] .

ـ وعد الله المؤمنين بالتمكين في الأرض : ((وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ))[4] ، وجعل الخوف من مهابة الله والخوف من عقابه شرط للتمكين : ((وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ))[5] ، إذن فلا يتحقق الإيمان بغير الخوف من الله .

ـ التعامل مع المعلومات المؤثرة (ومنها العقيدة) يستلزم تأثر المشاعر والهموم والأهداف ، وهذا أمر فطري ، فالذي يرى الأسد ويوقن تماما بأنه أسد فإنه يخاف منه ، والذي يرى شيئا جميلا فإنه يحبه ، والذي يقف عند ملك من ملوك الدنيا فإنه يخاف من مهابته ، وهكذا ، ولكن حيث أن الله وحده الملك ووحده النافع الضار ف لا يخاف غيره ولا يحب سواه إلا ما هو خارج عن إرادة الإنسان من أمور الفطرة ، فإذا أخبرك إنسان بأن أباك قد مات فإنك تحزن ، وهكذا .

ـ الأدلة على أن الخوف من الله والخوف من ثوابه وعقابه (الخوف من الآخرة) شرط للإيمان :

1ـ قال تعالى : ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[6] ، ((جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))[7] ، ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ))[8] ، ((قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ))[9] ، ((وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ))[10] .

2ـ التصديق الحقيقي بدعوة الرسل هو الذي يؤدي إلى الخوف من الله (لأن الكفار عندهم تصديق بدعوة الرسل لكنه تصديق نظري فقط) لأن من عرف الله وعرف قدره خافه ، ومن لم يخف من الله فذلك لأنه نسي الله :

ـ ((إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ }))[11] ، ((وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ))[12] ، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[13] ، ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ))[14] ، ((مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى))[15] ، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))[16] ، ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا))[17] .

ـ أصل قضية الدين هي التخويف ، فمن خاف فهو الذي قبل الدين ومن لم يخف لم يقبله سواء خوف مهابة

---

(1) الحجرات : من الآية 7
(2) بناء الإيمان من خلال القرآن ـ مجدي الهلالي ـ مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة (ص : 9 ، 10)
(3) مريم : 72
(4) النور : 55
(5) إبراهيم : 14
(6) النازعات : 40، 41
(7) البينة : 8
(8) الشورى : 18
(9) الطور : 26، 27
(10) الأعراف : 154
(11) فاطر : 18
(12) الأنعام : 51
(13) ق : 45
(14) يس : 11
(15) طه : 2، 3
(16) الأعلى : 10
(17) النازعـات : 45

أو خوف عقاب ، فوجود الله وقدرته الهائلة ووجود الآخرة وخطورتها وأهوالها ووجود الملائكة واختبار الإ نسان على هذه الأرض كل هذه أمور مخيفة جدا ، فمن أيقن بهذه الأمور يقينا حقيقيا فإنه يشعر بالخوف و الخضوع لله تعالى ، فالذي يخاف هو الذي استجاب فعلا للدين وانتفع به .

ـ وذلك لأن الهداية تؤدي إلى الخوف : ((وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى))[1] .

3ـ الإنسان إذا عقل ما تعنيه آيات الكون وآيات القرآن فإنه يخاف : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ))[2] ، ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى))[3] .

4ـ القرآن يعبر عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم وجود الخوف منها وعدم رجاءها : ((كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ))[4] ، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً))[5] ، ((أنهم كانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً))[6] ، ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[7] ، ((وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ))[8] ، وفي تفسير النسفي : (({ إِنَّ في ذَلِكَ } فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة { لآيَةً } لعبرة { لمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة } أي اعتقد صحته ووجوده))[9] ، فالقرآن يبين أن مسألة الإيمان بالآخرة هي مسألة أن الإنسان يريد الشيء أو يرغبه أو يرجوه أو أنه لا يريد الشيء أو لا يرغبه أو لا يرجوه ، وليست فقط مسألة اقتناع نظري أو عدم اقتناع نظري ، فقد يقتنع الإنسان بالأمر لكنه لا يريد الشيء أو لا يرغبه أو لا يرجوه ولا يعجبه و لا يستسيغه .

ـ ويبين القرآن أن المؤمنين هم الذين يخافون الآخرة ويخافون من الله تعالى :

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم } يوم القيامة وهم مذنبون ، وليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع ، فهؤلاء ينفعهم إنذارك بالقرآن أما الكفرة المكذبون فهم كالأموات لا يستجيبون وهذا كقوله تعالى من سورة ق { فذكر بالقرآن من يخاف وعيد }))[10] ، ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كريمٍ))[11] ، ((إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ))[12] ، ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أنها الْحَقُّ إلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ))[13] ، ((يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ))[14] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ } أي : قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ، { فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ } أي : فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف))[15] ، فالآخرة أمر مرعب مخيف يجعل الإنسان يخاف من مهابتها ، كما أنه يخاف من الخلود في النار إذا لم يمت على الإيمان ، ويخاف من عقاب الذنوب فكل إنسان يقع في المعاصي إلا الرسل فهم معصومون .

5ـ لا تتحقق التقوى بغير الخوف ، والتقوى سبب للنجاة من النار : ((ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا))[16] .

---

(1) النازعات : 19
(2) هود : 103
(3) النازعات : 26
(4) المدثر : 53
(5) الفرقان : من الآية 40
(6) النبأ : 27
(7) يونس : 7 ، 8
(8) العنكبوت : من الآية 36
(9) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 2 ، ص : 82)
(10) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (2 / 64)
(11) يس : 11
(12) فاطر : 18
(13) الشورى : 18
(14) النور : من الآية 37
(15) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 7 ، ص : 435)
(16) مريم : 72

ـ ولاحظ أن الإنسان قد يدعى وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة فشرط وجود هذه المشاعر هو وجود الحالة النفسية المميزة لذلك الشعور (وقد أوضحنا ذلك بالفصل الحادي عشر) .

****

ـ ثالثا : الأدلة على الهروب من الخضوع بعدم الطاعة وتناسي معنى الطاعة

ـ إذا ضعف اليقين أو غاب حدثت المعاصي ، ولكننا لا نعرف هل المعاصي عند إنسان ما نشأت من ضعف يقينه أم من غيابه والله هو الذي يعلم ذلك ، لذلك فالمسلم مهما عمل من المعاصي فلا يشك أحد في إسلا مه .

ـ وبتعبير آخر إذا غاب الشعور بالخضوع (بالطرق السابقة) أو كان الشعور بالخضوع ضعيفا (من ضعف الإ يمان) فذلك يؤدي إلى المعاصي .

ـ الإنسان يعمل ما ينفعه ويبتعد عن ما يضره ، والإنسان يعمل خاضعا لمن هو اقوي منه (ولا قوي إلا الله وكل ما سواه ضعيف) ، والذي ينفعه أو يضره هو من هو أقوى منه ، فإذا عمل الإنسان ما يضره ولا ينفعه وعمل خاضعا لمن لا سلطان عليه فهو بذلك قد عطل جوارحه ، وهو بذلك قد عطل عقله .

ـ قبول الخضوع معناه أن ينخلع الإنسان من حياته ليعيش خاضعا وليس حرا أي يعيش حياته بناءا على تكليفات وأوامر ويعيش مقيدا وليس حرا وهذا أمر ثقيل على النفس لأن النفس لا تحب الخضوع .

ـ طاعة الأمر أو رفضه تعبير بسيط عن قبول الخضوع أو رفضه ، ولو استطعنا أن نعتبر جميع أعمال الإنسان عملا واحدا ، فهذا العمل إما أن يكون طاعة وإما أن يكون معصية ، فإذا كان طاعة فهذا معناه أنه قبل أن يخضع بجوارحه لله تعالى وليس تبعا لما يريده هو لنفسه ، وهذا قبول للدين ، وإذا كان معصية فهذا معناه أنه رفض أن يخضع بجوارحه لله تعالى وعاش تبعا لما يريده هو لنفسه ، وهذا رفض للدين .

ـ ولا يستطيع أحد من الناس أن يعرف هل جميع أعمال الإنسان إذا اعتبرناها عمل واحد فهل هو طاعة أم معصية إلا الله ، لذلك مهما عمل المسلم من المعاصي فهو مسلم لا شك في إسلامه عند الناس والله وحده هو الذي يعلم هل جميع أعماله إذا كانت عملا واحدا تكون طاعة أو معصية .

ـ والإنسان يعلم في نفسه هل يعيش معيشة الخاضع الذي يسير تبعا لسيده أم يعيش تبعا لهواه .

ـ ((تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ))[1] ، ((فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))[2] ، وفي الحديث : ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى))[3] .

ـ وفي الفصل الثاني عشر أوضحنا قضية المعاصي والأدلة على أنها تنشأ من ضعف اليقين بالله والآخرة أو من غيابه .

****

الفصل الرابع

التعامل الصحيح مع الأدلة عل

(1) النساء : 13 ، 14
(2) الكهف : 110
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4513 في صحيح الجامع)

ـ لا يقين إلا بدليل ، فالعقل البشري مفطور على أنه لا يقتنع بشيء إلا بدليل ، وإذا تصور الإنسان أنه مقتنع بشيء ولا يعرف الدليل فهذا من الوهم وهو يخدع نفسه .

ـ وكلما قوي الدليل وكثرت الأدلة كلما زاد اليقين .

ـ التعامل الخاطئ مع الأدلة على الخالق :

ـ كل الناس يعرفون الأدلة على الخالق ، فكل شيء حولهم هو دليل على الخالق ، ولكن بعضهم يتعاملون مع هذه الأدلة بصورة خاطئة ، فيتعاملون مع هذه الأشياء لا باعتبارها دليلا على الخالق ولكن باعتبارها أشياء موجودة ويستفيدون منها ، فالشمس تضيء للإنسان ولا يفكر لماذا تضيء ومن الذي جعلها تضيء ؟ ، و الزرع يخرج من الأرض ليفيد الإنسان ولا يفكر لماذا يخرج ومن الذي جعله يفيد الإنسان ؟ ، والبترول في باطن الأرض يفيد الإنسان ولا يسأل من الذي وضعه في باطن الأرض ولماذا ؟ ، والإنسان موجود على الأ رض يسعى ويتحرك ولا يفكر من الذي أوجده ولماذا ؟ ، وهكذا ، وإذا فكر في الأمر فيفكر في ظاهر الأمر وليس في حقيقته .

ـ فالإنسان إذا عرف الدليل معرفة نظرية فيقينه نظري فقط ، وإذا عرف الدليل معرفة حقيقية فيقينه يقينا حقيقيا ، أي إذا عقل حقيقة الدليل فتدبره وشعر بقيمته وانشغل به باله فيقينه بالخالق يقينا حقيقيا ، وينشأ عن ذلك أن تتأثر به مشاعره وجوارحه .

ـ عدم التصور للأدلة على الخالق وعدم الشعور بخطورتها وعدم شغل الهم بها وعدم تأثر المشاعر بها هو إعراض عن الله :

ـ والأدلة على الخالق هي آيات الكون وإعجاز القرآن والسنة ومعجزات الرسل ، هذه الأدلة الثلاثة هي آيات الله أي الآيات الدالة على الله ، والإعراض عنها وتناسيها هو إعراض عن آيات الله :

ـ ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[1] ، ((وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ }))[2] ، وفي تفسير الرازي : (({ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ }[3] فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى مَعَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا بِالْحِفْظِ وَالْحِرَاسَةِ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ وَلَطَائِفُ الْقُرْآنِ مُعْرِضُونَ فَلَا يَتَأَمَّلُونَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَا كَالِئَ لَهُمْ سِوَاهُ))[4] .

ـ وسبق أن أوضحنا خمسين دليلا تبين صور النسيان والغفلة والإعراض عن الدين (الإعراض عن الله والآ خرة والأدلة على الخالق والآخرة) ، وأيضا الأدلة على أن عدم تأثر المشاعر بالله والآخرة والأدلة على الخالق والآخرة هو نسيان لله والآخرة (راجع الفصل الثالث) .

ـ ولاحظ أن الإعراض عن الأدلة على الخالق هو إعراض عن الخالق .

****

ـ التعود على مشاهدة المعجزات :

---

(1) يوسف : 105
(2) الأنبياء : 32
(3) الأنبياء : 42
(4) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب] ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت (22 / 147)

ـ لو جاءك ساحر فسحر لك أشياء مذهلة ، هذا معناه أن الساحر له قدرة أعلى من قدرتك ، وأنت لا تريد أن تشعر بضعف قوتك أمام قوته ، فتتجاهل ما قام به من السحر كأنه لم يسحر شيئا وكأنها أمور عادية ، وكل يوم يأتيك الساحر فيسحر لك أشياء مذهلة وأنت لا تبالي فقد تعودت على رؤية ما يأتي به .

ـ فتجاهلك لهذا السحر لن يغير من حقيقة الأمر شيء فقوتك ضعيفة .

ـ هذا الأمر إذا كان سحرا فما بالك لو كان حقيقة وليس سحرا ، فأنت حولك أمور هي معجزات وهي أعجب من السحر ، فخروج النبات بألوانه وثماره من تراب أسود هو أعجب من السحر وهو أمر خارق للأسباب ، وكذلك كل الآيات الكونية ولكن الإنسان تعود النظر إلى السماء والأشياء من حوله على أنها أمور عادية .

ـ فكل ما لا تستطيعه ويكون فوق قدرتك فهو إعجاز ، فأنت لا تستطيع إيجاد ولو ذبابة ، فما بالك بكل هذا الكون الفسيح الهائل .

ـ فوجود أشياء لا يستطيع الإنسان القيام بها ولا من حوله من المخلوقات دليل على أنه لا أحد من البشر ولا المخلوقات أوجدها ولابد أن أحدا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجدها .

ـ فإذا تصور الإنسان ذلك شعر بضعف قوته وشعر بخضوعه لقوة الخالق الذي له كل هذه القدرة .

ـ وبالتالي فالعاقل كلما رأى شيئا تذكر ضعف نفسه وقدرة من أوجد هذا الشيء فشعر بالخضوع لله تعالى وشعر بحب الإعجاب بقوته وخاف من مهابة قوته ، وهذا هو التعامل الصحيح مع الأدلة على الخالق .

****

ـ الإنسان يعيش هادئا تماما وحوله المعجزات تحيط به ولا تلفت نظره ولا تتأثر بها مشاعره :

ـ لو عقل الإنسان مدى قدرة الخالق لعاش في رعب من هيبة قدرته سبحانه ، وعدم رؤية الله لا يغير من حقيقة الأمر شيء فقدرته فوقنا مهيمنة ومسيطرة ولكن الغافل لا يشعر بشيء ، إن قدرة الخالق فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره ، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه ويعيش كأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج كأنه لا خطر يتعرض له أو يمكن أن يلحق به .

ـ فنحن واقعين تحت خطر عظيم هو قدرة الله ومراقبته ، لكننا في غفلة تامة نعيش بحرية غير مدركين أننا نعيش حياة الخاضع

****

ـ الفرق بين اليقين النظرى واليقين الحقيقى بالأدلة على الخالق :

ـ إذا لم يشعر بالخضوع فيقينه بأن الإنسان خاضع لقوة الله كاذبا ، فمن شعر بأنه يعيش تحت قوة هائلة مسيطرة على كل حياة الإنسان فإنه يشعر بالخضوع والذل له ويعيش خائفا من مهابته خاضعا له منبرها ومحبا لمدى قوته الهائلة .

ـ العاقل يتعامل مع الأشياء على أنها آيات تدل على مدى قدرة الخالق :

ـ العاقل عندما ينظر إلى الأشياء تكون بالنسبة له آيات تدل على مدى قدرة الخالق ، فهي آيات فقط في نظر من يعقل: ((إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ))[1] ، ((أَوَلَمْ يَهْدِ

(1) آل عمران : 190

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ))[1] .

ـ لكن الذي لا يعقل ما يراه فما فائدة أن يرى الأشياء من حوله وهو لا يعقل حقيقة هذه الأشياء وسر وجودها ويتناسى القوة الخفية وراء الأشياء فكأنه أعمى لا يرى .

ـ الاستخدام الخاطئ للعقل :

ـ العقل بطبيعته يفكر في الأمر الخطير ، ولا يوجد شيء أخطر من أن يعرف الإنسان من الذي صنع كل هذه ا لأشياء والكائنات ؟ ، من هذا الصانع الذي له كل هذه القدرة الهائلة على صناعة كل هذا الكون وكل هذه الكائنات والذي عنده كل هذا العلم والإبداع والدقة في كل شيء والذي عنده السيطرة الهائلة على التحكم في كل هذا الكون والكائنات وأنت واقع تحت سيطرته ومراقبته وتحكمه وسمعه وبصره ، وأنت جزء من ممتلكاته ؟ ، هل يوجد شيء أخطر من هذا ؟ ، هل يمكن أن ينشغل الإنسان بنفسه وعمله وأموره عن هذا ؟ ، هل يمكن ألا يصاب الإنسان بالرعب والفزع والقلق والخوف وهو يعيش تحت هذه السيطرة الكاملة لا يستطيع الهروب منها ولا يستطيع أن يفعل شيئا من غير مراقبة وسماع ما يفعله من حركة أو سكنة ، هل يمكن ألا يعجب الإنسان بكل هذه القدرات الخارقة فيحب الخالق ، وهل يمكن ألا يعترف الإنسان بضعفه فيستسلم ويعلن خضوعه للخالق .

ـ المطلوب أن يسأل الإنسان نفسه عن حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك ؟ وماذا عليه أن يفعل ؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته ولماذا يأكل ويشرب ؟ وليس المطلوب المعرفة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه .

ـ السبب في أن الله خلق كل هذه السماوات الهائلة والأرض وأنزل الوحي من السماء إلى الأرض هو أن نعلم مدى قدرته الهائلة جدا ومدى علمه الهائل جدا فنخضع لقدرته وعلمه الهائل : ((اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا))[2] .

ـ وفي صفوة التفاسير : (({ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة } أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته ، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها ، فهو بمنزلة فاقدها ، كما قال تعالى : { فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء }))[3] .

ـ وفي تفسير الخازن : (({ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً } يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[4] .

ـ وفي تفسير مفاتيح الغيب : ((فرحوا بما عندهم من العلم ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : 7] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به))[5] وفي التفسير الوسيط : ((فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا

---

(1) السجدة : 26
(2) الطلاق : 12
(3) صفوة التفاسير ـ دار الصابوني - القاهرة (2 / 239)
(4) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (4 / 134)
(5) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 27 ، ص : 535)

يستوي المطيع والعاصي ، والمراد بالعلم هنا : ما أدى إلى معرفة الله تعالى، ونجاة العبد من سخطه))[1] .

ـ وفي تفسير زاد المسير : (({ أنهم كانُوا قَوْمًا عَمِينَ } [الأعراف : 64] قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه))[2] ، وفي أيسر التفاسير : (({ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ } أي ذكر بمظاهر قدرتنا وآياتنا في الآفاق وآلائنا على العباد إنما أنت مذكر ليس غير))[3] .

ـ لماذا يتعامل الإنسان بصورة خاطئة مع الأشياء :

ـ لأن الأشياء تدل على قدرة الله وعلمه ومدى خضوع الإنسان ، فيتجاهل ذلك حتى لا يخضع .

****

ـ تحقيق الشعور بوجود الخالق

ـ الفرق بين الميت والحي :

ـ لو أن تمثالا مصنوعا من الطين نُفِخت فيه الروح فأصبح بشرا يتحرك ، ماذا يمكن أن يقول ويفعل ؟ ، إن أول شيء يعمله هو أن يسأل نفسه من أنا ؟ ، ومن أي شيء أتيت ؟ ولماذا ؟ ، وينظر إلى نفسه فيجد نفسه بعد أن كان طينا أصبح يتحرك فيسأل نفسه ما سر هذه الروح ومن أوجدها ولماذا ؟ ، وينظر حوله فيجد أرض وجبال وسماء وأشياء فيسأل ما هذا ؟ ومن الذي أوجده ؟ ولماذا ؟ .

ـ هذه الأسئلة لابد أن يسألها أي إنسان تدب فيه الروح ، وأي إنسان لم يسأل نفسه هذه الأسئلة هو إنسان ميت لم تدب فيه الروح بعد ، فلا يزال تمثالا من الطين أو هو يتحرك لكن تعطلت وظائفه فصار كالميت ، فهذا هو الفرق بين الميت والحي ، وفي تفسير الطبري : ((ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن قدرة الله فيها وحججه ، فهو في الآخرة أعمى))[4].

ـ جميع الناس يعرفون الإجابة على هذه الأسئلة معرفة نظرية وليست معرفة حقيقية ، فيعرفون نظريا أنه لا يمكن أن تكون هذه الأشياء من تلقاء ذاتها كما أن البشر وباقي الكائنات ليس لديها القدرة على إيجاد كل هذه الأشياء ، فلابد من وجود قوة خارجية هي التي أوجدت هذه الأشياء وهذه القوة هي الخالق .

ـ أما المعرفة الحقيقية للإجابة على هذا الأسئلة فهي الشعور بخطورة خلق الأشياء ، فإيجاد هذه الأشياء أمر خارق للأسباب معجز لا يستطيعه بشر ولا يخضع لقانون الأسباب وفوق مستوى فهم وقدرات البشر ويدل على قدرة هائلة جدا لمن أوجد هذه الأشياء وعلم كبير جدا لمن أوجد كل هذه الأشياء بمنتهى الدقة في كل شيء ، فهذا الأمر أشد من السحر لأن السحر خيال أما هذا فحقيقة وفوق مستوى الخيال .

ـ كل هذا يجعل الإنسان يشعر بالهيبة والانبهار والعجب والإعجاب والدهشة والغرابة والخشية والرهبة وخوف المهابة من الأمر ، فيقع في الإنسان شعور بالانهزام والاستسلام لأن عقله يعجز عن أن يفسر هذه الأ مور الخارقة للأسباب ويشعر بالخضوع والخوف من مهابة هذا الخالق العظيم الذي استطاع أن يوجد كل هذا الكون ، العظيم جدا في علمه الذي استطاع أن يدير كل هذا الكون ويدبر كل حركة وسكنة بمقدار محدد في منتهى الدقة بحيث لو زاد قليلا أو قل لتعطل وحدث خلل وفساد كبير ، والحب لهذا الخالق الذي أوجد لك هذه الروح فأصبحت لك حركة كما تريدها أنت وأوجد لك هذه اليد والعين وكل هذه النعم .

ـ فإذا تحققت هذه المشاعر في الإنسان فهو عندئذ قد عرف معرفة حقيقية بوجود الخالق ، وإذا لم تتحقق هذه المشاعر فهو إنسان ميت ! .

ـ ويظل الإنسان يتغافل عن هذه الأسئلة ويتلهى عنها بأمور الدنيا حتى يموت ، لأنه لا يشعر لهذه الأسئلة

---
(1) التفسير الوسيط للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (3 / 2227)
(2) زاد المسير ـ دار الكتاب العربي - بيروت في علم التفسير (2 / 133)
(3) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5/ 563)
(4) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 17 ، ص : 504)

بقيمة ويعتبرها فلسفة ومضيعة للوقت فلا يشعر بقيمة للخالق في مشاعره .

ـ إذن هناك من يسأل نفسه لماذا نموت ؟ ومن الذي يميتنا ؟ ومن الذي أعطانا هذه الروح التي نتحرك بها ؟ ولماذا أتينا إلى هذه الدنيا ؟ ، وكيف وجدت هذه الدنيا ؟ ، ويشعر بأنها أسئلة خطيرة ومخيفة ، أما غيره فيتجاهل الأمر ويعيش حياته هكذا كما هو ، فهذا غبي وجاهل يتناسى حقائق وجوده ويتجاهلها دون أن يتساءل عنها ، خاصة إذا كان قد بلغ سنوات كثيرة من عمره من الرقي والترقي الدنيوي والرقي والترقي الديني فيصعب عليه أن ينزل مستويات هائلة حتى مرحلة الطفولة لأن المطلوب أن يسأل نفسه هذه الأ سئلة ويعرف الإجابة عليها معرفة حقيقية .

ـ كيف يتحقق الشعور بوجود خالق للأشياء ؟ :

ـ لو أن رجل يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات ، ودخل بيته ذات مره فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سرير موضوع في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت ، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب الكرة وينام على السرير دون أن يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادى ، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو ، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام ، فهذا حـ ال الإنسان الذي لا يعقل .

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلا ورأى ذلك فإنه يفاجئ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا .

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان ، والأنهار تحمل المياه العذبة له ، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارا وليلا ، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها لنفسه ، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام ! ، أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان ، وكأن الماء والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه ، ففي تفسير روح المعاني : (({ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } [الطور : 35 ، 36] ، { بَلْ لَا يُوقِنُونَ } أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له))(1) .

ـ الشعور بوجود الخالق معناه الشعور بخرق الأسباب :

ـ الذي يستطيع أن يخرق الأسباب يكون إلها ، والذي يكون محكوما بالأسباب يكون عبدا لمن وضع هذه الأ سباب ، فمثلا سيدنا موسى جاء ليثبت أن الله هو الإله الحق عن طريق أن يثبت أن الله يستطيع خرق الأ سباب التي يعهدها البشر فوضع العصا فإذا هي حية حقيقية ، فكل شيء لا يستطيعه الإنسان أو الكائنات الأ خرى يدل على وجود قوة خارجية لها قدرة أعظم من الإنسان تستطيع عمل ذلك ، فذلك يدل على الله سبحانه ، فالإنسان لا يستطيع إيجاد التراب ولا الماء ولا نفسه ، إذن فالذي أوجد التراب والماء والبشر هو إله له قدرة خارقة للأسباب ، فقدرته فوق قدرة البشر ، وكذلك الإنسان يحدث في داخله أمور أكبر من مستوى علمه وأكبر من مستوى قدرته وتتم عن غير إرادته ، وكذلك خلق الكون أكبر من مستوى قدرة الإ نسان ، والدقة المتناهية في كل شيء أكبر من مستوى علم الإنسان ، فيشعر بأن هناك قوة خارجية مهيمنة هي التي تسيطر على كل شيء وهي التي تفعل كل هذه الأمور .

ـ مسألة خرق الأسباب أشد من السحر لأن السحر خيال وليس خرق للأسباب ، فإذا كان الإنسان عندما يرى

(1) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (27 / 38)

السحر أمام عينه فإنه يشعر بالتحير والانزعاج والدهشة والتعجب والاستغراب والانبهار والذهول والدهشة من روعة ما يرى ، فإن ذلك يكون أشد إذا كان هذا السحر حقيقة .

ـ فالإله هو الذي تشعر له بهذه المشاعر ، أي أن التأله معناه التحير والانزعاج والدهشة والتعجب والانبهار و الذهول والاستغراب والدهشة من روعة ما يرى ، وهذه المشاعر هي الحالة النفسية المميزة للشعور بخرق الأ سباب فإذا لم تكن هذه المشاعر موجودة فهذا يعني عدم وجود الشعور بوجود الخالق ، فالإنسان إذا رأى أمرا خارقا للأسباب ولم يتحير ويتعجب دل ذلك على أنه لا عقل له وكأنه ليس بإنسان وكأنه ميت لأنه يخالف صفات البشر ، وكل شيء حول الإنسان هو أمر خارق للأسباب لأن وجوده فوق قدرة البشر ، بل إن وجود الإنسان نفسه لا يستطيعه البشر فهو أمر خارق للأسباب ، ومع ذلك يعيش كأنه لا شيء : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ))[1] .

ـ فمعنى كلمة (إله) في اللغة أي الذي تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته و التي تتمثل في خرق الأسباب فتحبه إعجابا بمدى قدرته الهائلة وتخاف من هيبته ، ففي النهاية في غريب ا لأثر : ((ألِهَ يأْلَهُ إذا تحَيّر ، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[2] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((أَلِهَ يَأله إذا تحيّر كأنّ القلوب تألهُ عند التفكر في عَظَمة الله ... إذا وَقع العَبْد في هذه الدّرجَة لم يُعْجِبهُ أحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلّ))[3] .

ـ تحقيق الشعور بوجود خالق للأسباب :

ـ قد يكون الإنسان على اقتناع نظري تام بأن الله هو النافع الضار الشافي الرازق الوكيل الكفيل وأن كل شيء بيد الله وأنه متوكل على الله تماما ، لكن حقيقة مشاعره تقول أن كل شيء بالأسباب ، وأن الدواء هو الذي يشفي ، وأن كل شيء يمكن صناعته بالعمل ، وكل شيء يمكن شراءه بالمال ، وأنه يحصل على المال من كده وتعبه ، وأن الأسباب هي التي تفعل كل شيء ، فشعوره بالخضوع يكون للأسباب وشعوره بالخوف متعلق بالأسباب وشعوره بالحب للأسباب ، لذلك فهو يعيش في عالم الأسباب كل شيء عنده بالحساب وبالتخطيط وبالاستقراء وبالمعادلات الرياضية ، فهو رجل مادي لا مشاعر له ، ويرى أن المشاعر نفسها يمكن صناعتها بالأسباب ! .

ـ فمشاعره تقول بأن الأسباب هي التي تنفع وتضر وما يأتي له من مال ليس رزقا وإنما بالأسباب ، وهو يعتمد ويتوكل على عقله وماله وجاهه وفلان ، ويفسر كل شيء بالأسباب فما حدث كان لأسباب وما سيحدث فهو بأسباب ، والفوز عنده هو الفوز في الدنيا والخسارة هي الخسارة في الدنيا ، رغم اليقين النظري التام بأن الله هو النافع الضار وبأن ما يأتيه هو رزق وبأنه متوكل على الله وبأن الفوز الحقيقي إنما هو الفوز بالجنة .

ـ فهو يقوم بإيقاف تفكيره خارج حدود الأسباب أو يكون تفكيره سطحيا ، بل إنه لا يشعر بأنه يمكن أن يكون هناك شيء خارق للأسباب ، فيرى أن الأسباب هي التي أوجدت كل شيء .

ـ والذي يعبد الأسباب لا يشعر بالثواب والعقاب الأخروي وإنما يشعر بالنتائج التي هي في الدنيا والتي هي ثمرة العمل والأسباب ، فهو يشعر فقط بما هو محسوس وبالأسباب والنتائج ، فهو يقوم بالعمل على أساس المكسب والخسارة الدنيوية ، فالآخرة موجودة عنده فقط في الاقتناع والمعرفة النظرية فقط وليس للآخرة وجود في مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه وحساباته ، فهو علماني في مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه ، وفي قصة قارون خير دليل على ما نقول حيث قال : ((قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))[4] .

---

(1) الطور : 35 ، 36
(2) النهاية في غريب الأثر ـ المكتبة العلمية - بيروت (1 / 62)
(3) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني - بغداد (3 / 728 ـ 728)
(4) القصص : من الآية 78

****

ـ الهدف من التفكر هو الشعور بوجود الخالق وليس اليقين النظري بوجود الخالق :

ـ قال تعالى : ((فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))[1] ، ((إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[2] .

ـ يظن البعض أن وظيفة التفكر هي إيجاد الاقتناع النظري بوجود الله وصفات الربوبية وذلك موجود عند جميع الناس ، لذلك لا يرى أنه يحتاج إلى التفكر ، ولكن التفكر مع استحضار القلب يؤدي إلى الشعور بوجود الخالق وقدرته وعلمه وهذا هو الاقتناع الحقيقي بجود الخالق وقدرته وعلمه .

ـ ولقد نشأ الأنبياء على التفكر لمعرفة الله ، فلقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصعد إلى غار حراء ليتفكر وجاءه الوحي في نفس المكان الذي كان يتفكر فيه ، ففي الحديث : ((... وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك))[3] .

ـ وبالمثل نشأ سيدنا إبراهيم : ((وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ))[4] .

ـ فالإنسان يكفيه أن يشعر بالإعجاز في آية واحدة من آيات الله المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومه وتفكيره وتتغير حياته كلها ولن يحتاج أكثر من آية واحدة سواء في السماء أو في الأرض أو في نفسه أو في أحوال الدنيا ومصائر السابقين أو أي شيء .

ـ فالإنسان قد يفكر في أمور الدنيا والحياة وتفاصيل الأشياء دون التفكير في أصول الأشياء وحقائق الأمور كحقيقة الدنيا وحقيقة الموت ، رغم أن فطرة الإنسان تدعوه لمعرفة لغز الموت والحياة ومعرفة أسرار الكون من حوله ، وحقيقة نفسه وقضيته التي يعيش من أجلها ، فمثلا هو يعرف أنه سيموت لكنه لا يتدبر حقيقة ما يعني أنه سيموت ، ويعرف ضآلة الدنيا ، لكنه لا يتدبر حقيقة ما تعنيه هذه الدنيا وحقيقة ما بها من زخرف وشهوات ، وتكون له طموحات ولا يتدبر حقيقة ومصير هذه الطموحات ، ويعمل ولا يتدبر حقيقة ما يعمله ، ويعرف أن هناك كون ونجوم ولكن لا يتدبر ما تعنيه وما حقيقتها ، ويسمع ويعرف أن هناك آخرة وجنة ونار ، ولكن لا يتدبر حقيقة ذلك ، ولا يتدبر حقيقة ما يعني أن لهذا الكون ربا والاها ، وإذا تدبر كل هذا فهو تدبر بغير حضور قلب وشعور بقيمة ما يتدبره ، لذلك فالقرآن يركز تماما على قضية إعمال السمع و البصر والتفكر والتدبر والاتعاظ والعبرة .

ـ فمن الناس مَنْ فكر في كل شيء في الدنيا والدين وأجاد في كل أمور الدنيا والدين ، وتمتع بعقلية وذكاء خارق ، ولديه خبرات هائلة وعلوم هائلة في الدين والدنيا ، لكنه لم يتفكر في أمور بديهية جدا والتي تمثل أصل وجوده ودينه ، لم يتفكر فيما وراء الأشياء ، فالسماوات والأرض أمر يجعلك تتحير من مدى قدرة الخالق ، وكون أننا نعيش على كرة معلقة بنا في الفضاء أمر غاية في العجب ، ورغم ذلك فكل هذا لا يؤثر و لا ينفع فيمن لا يشعر بخطورة هذه الأمور ، فهناك من عاش حياته دون أن يسأل نفسه عن سر وجوده وسر وجود الكون من حوله فيشعر في داخله بخطورة هذا الأمر فهذا هو الغافل الذي لا يفقه .

****

ـ التفكر في أي شيء معين يكون في ستة نواحي هي :

1ـ عجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء :

---

(1) الأعراف : 69
(2) قٓ : 37
(3) التخريج : متفق عليه (مشكاة المصابيح برقم : 5841)
(4) الأنعام : 75 - 80

ـ أي أن هذا الشيء موجود فلابد له من خالق لأنه لا يستطيع إيجاد نفسه ولا يستطيع الإنسان إيجاده :

ـ فمثلا هذا الكون لا يمكن أن يكون هو الذي أنشأ نفسه ، ولا يستطيع الإنسان إيجاده ، فلابد من وجود أحدا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجده ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك الإنسان نفسه .

ـ وكذلك أنظر إلى الجمال في صنعة الله في الفاكهة والزروع وألوانها ومذاق كل واحدة وسائر المخلوقات ، إنه لا يمكن لسمكة زينة أن يكون في داخلها أنظمة هي التي تختار هذه الألوان بطلاقة وعناية ودقة فائقة ثم كيف يتشابه نفس هذه الأنظمة في جميع الأسماك من نفس النوع ؟ ، إنها ليست مسألة داخل الجسم ولكنها إرادة خارجية من قوة خارقة هي التي صممت هذا الجمال والإبداع .

2ـ عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه :

ـ الحكمة من وجود الزلازل والبراكين وخسوف الشمس وإهلاك الأمم كعاد وثمود ومعجزات الرسل وغير ذلك من عجائب قدرة الله هو أن الله يظهر للناس بعضا يسيرا من قدرته حتى يشعروا بمدى قدرة الله فيخافوا من مهابة قدرة الله سبحانه ، ففي الحديث : ((خسفت الشمس فقام النبي صلى الله عليه وسلم فزعا يخشى أن تكون الساعة فقام حتى أتى المسجد فقام يصلي بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته يفعله في صلاته قط ثم قال إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يرسلها **يخوف بها عباده** فإذا رأيتم منها شيئا فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))[1] ، ولذلك يقول تعالى : ((وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً))[2] ، فالله يريد أن يخاف الناس من مهابته بهذه الآيات التي تظهر قدرته ولكن هناك من لا يخاف من مهابته : ((وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَاناً كَبِيراً))[3] .

ـ الإنسان له قدرات وحركة إرادية ، لكنه ينام رغما عنه ويموت رغما عنه ويُسلب عندئذ السمع والبصر و الحركة فمن الذي أجبره على ذلك ، إذن هناك من هو أقوى منه ، وفي استطاعته سلب صفاته وقدراته ، ولا يستطيع أحد من البشر عمل ذلك ، إذن هناك أحدا لا نراه هو أقوى من الإنسان وله قدرات أكبر ، وبديهي أن يكون هو الذي صنع هذا الجسد وأمده بهذه الصفات ، فكما وضع هذه الصفات فهو يستطيع نزعها : ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[4] ، ((وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ))[5] .

ـ لكن الإنسان ينام ويتجاهل قضية النوم ويتجاهل ما يحدث له ومن يفعل به ذلك وكأنه لا شيء رغم أنه أمر خارق للأسباب .

ـ المرض عبارة عن صورة من صور تذكير الإنسان بأنه ضعيف وبأن الله له أن يفعل ما يشاء في خلقه وليس لهم إلا أن يرضوا ولا يسألوا لماذا ولا كيف ؟ .

ـ الابتلاءات تدل على وجود قوة أعلى من الإنسان استطاعت أن تقهره وتغلبه وتسلب منه نعمة من النعم ، وهو لم يستطع أن يمنع ذلك ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه أو أن ينتقم لنفسه ، فيشعر بأنه ضعيف وليس بقوي وأن عليه أن يستسلم لصاحب القوة الذي قدر عليه ، ويشعر بالمهابة من عظمة قوة من فعل ذلك ، ويزول الغرور عن نفسه .

ـ لذلك فبعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدا مات مثلا فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون وأنهم لا يستطيعون مقاومة الموت ولا الدفاع عن أنفسهم ، والذي يستطيع أن يميتهم يستطيع أن يفعل بهم أي شيء لأن الموت هو أشد الضرر فيخضعوا لمن يستطيع أن يتوفاهم : ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 153 ، برقم : 1503)
(2) الإسراء : من الآية 59
(3) الإسراء : من الآية 60
(4) الزمر : 42
(5) الروم : 23

كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ))[1] ، وكذلك بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم تعرضوا لمحنة فاكتشفوا فيها ضعف أنفسهم واحتياجهم إلى الله وقدرة الله عليهم ، فمنهم من استمر شعوره بهذه المحنة التي هي آية تدل على الله فاستمرت هدايته ، ومنهم من نسي هذه الآية فترك الهداية بمجرد أن مرت المحنة .

ـ فالنفس بطبيعتها متكبرة والابتلاءات تجعل النفس تنكسر وتعترف بأنها ضعيفة فتخضع .

3ـ عجز علم الإنسان أو علم الشيء نفسه عن القيام بوظائف معقدة غاية في الدقة :

ـ فمثلا الإنسان يحدث داخل جسمه وظائف معقدة جدا غاية في الدقة ، فلا يمكن أن تحدث هذه الوظائف من تلقاء نفسها ولا يمكن لعلم الإنسان أن يقوم بها ، فلابد من وجود أحدا لا نراه له علم هائل فوق علم الإ نسان هو الذي صمم هذه الوظائف المعقدة .

ـ الكائنات الحية تعمل أشياء أكبر من مستوى قدراتها وإمكانياتها وعلمها مما يدل على أن هناك قوة خارجية هي التي تعمل ذلك ، فمثلا الجنين فور الولادة يتجه لثدي أمه ويرضع فمن علمه ذلك ؟ ، والحيوانات تقوم بأعمال تحميها من العدو ، وبعض النباتات تتحور بشكل يحافظ عليها ، فتقوم الكائنات بأعمال فطرية هي لا تعقلها رغم أنها أعمال في منتهى العقل والحكمة فلابد أن هناك من علمها ذلك وأن هناك قوة خارجية هي التي تحركها وتعلمها ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))[2] ، كما أن أعضاء الإنسان متناسبة لتمكنه من القيام بوظائفه ، والكرة الأرضية متناسبة في البعد عن الشمس بحيث لا تكون جليدا ولا تكون منصهرة من الحرارة حتى تكون متناسبة لمعيشة الإنسان ، وهكذا ، فكل ذلك يدل على أن كل هذه الأمور موضوعة بحكمة وبقصد وأن هناك من رتب لها ذلك ، فكل شيء محسوب بحسابات في منتهى الدقة بحيث لو زادت أو قلت ذرة واحدة لاختل الأمر سواء في جسم الإنسان أو في الأجرام السماوية أو في أي شيء فهذا يدل على وجود صانع عليم حكيم خبير .

ـ عندما تتفكر في مدى الدقة المتناهية في مقادير الأشياء بحيث لو نقصت أو زادت ولو بمقدار ذرة حدث خلل كبير ، فوظائف الكون وحركته ووظائف جسم الإنسان والكائنات كلها مصممة بمنتهى الدقة ، فهذا يدل على حكمة عالية جدا وعلم كبير جدا فوق مستوى الخيال ، وإدارة عجيبة جدا لكل هذه الأشياء معا في نفس الوقت وفي كل لحظة .

ـ وأنت تجد ثمرة الفاكهة مثلا ليست مربعة وتجد عليها قشرة لحمايتها إذن هناك علم وقصد فيمن صنعها لتبقى محفوظة وهذا يعني الخضوع لقدرة الله وعلمه .

4ـ عجز علم الإنسان عن تفسير وفهم الأمور الخارقة للأسباب : هنا لم يصنع شيئا ولم يصمم وظيفة ، ولكن فقط يريد أن يفهم الوظيفة وصناعة الشيء فلا يستطيع ، فحتى مجرد فهم الشيء يعجز العقل عن فهمه ، مثل وجود الروح وخروجها .

ـ لو أن إنسانا قال أن نزول المطر من السماء هو سحر وأن إنبات الزرع هو سحر لكان أكثر عقلا من الذي يرى ذلك أمرا عاديا ولا يلتفت إليه ، والأشد منه جهلا هو الذي يقتصر على الأسباب العلمية التي أحدثت ذلك ويتجاهل الإعجاز في وجود السبب الأصلي ، فمثلا يرى أن الجاذبية وحركة الرياح سبب نزول المطر ، ويرى أن الجاذبية والرياح لها أسباب علمية ، وهذه الأسباب العلمية لها أسباب أخرى هي التي أوجدتها إلى أن يصل إلى سبب ما لا يرى له تفسير علمي فهو عندئذ إعجاز ، ثم إنه لا ينظر إلى وجود حكمة وقصد من وجود هذه الأمور بهذه الكيفية لخدمة الإنسان فهل هذه الأمور تجمعت من تلقاء نفسها عفويا فأحدثت هذا العمل المتكامل المنسق المعقد بهذا الشكل البديع المقصود ! .

---

(1) يونس : من الآية 104
(2) طـه :50

ـ عندما تتفكر في أي أمر ينبغي عدم التوقف عند الحدود المادية للأسباب ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ عندما تتفكر في أي أمر تجد له مبررات علمية لحدوثه ، فتبحث عن سبب هذه المبررات فتجد لها مبررات أخري وهكذا ، وعليك أن تستمر في هذا حتى يعجز العلم المادي ويقول هذه لا أجد لها مبررات فتعرف أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر ، وعندئذ تشعر أن هناك قوة قاهرة تهيمن على كل شيء وتسيطر علي كل شيء سيطرة كاملة وهيمنة كاملة وعلى الجميع الاستسلام والخضوع الكامل للخالق ، كما تؤدي إلى شعور بالخوف من هذه القدرة الهائلة الخارقة للأسباب ، فالإنسان ينظر إلى الأ شياء بعين الأسباب فيجد أن وراء كل سبب سبب آخر ، فإذا استمر في النظر اكتشف عجز هذه الأسباب عن تفسير الأمر ، وبالتالي فهناك يد خفية وراء هذه الأسباب ، فيشعر بالخضوع ﻟِمَنْ هو مسبب الأسباب : ((ثمّ ارْجِعِ البَصَرَ كرّتَيْنِ يَنْقلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ))[1] ، أما التوقف عند الحدود المادية للأ سباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور ، وإن كان مقتنعا نظريا أن الخالق هو الذي أوجدها ، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب ، دون أن تخرج مشاعره عن التعلق با لأسباب ، فينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى كل شيء على هذا النحو .

ـ فالمشكلة أننا نتوقف عند الأسباب ونفسر حدوث كل شيء بالأسباب العلمية ونتجاهل عدم مقدرة الأسباب عن تفسير الأمر ، فمثلا خروج النبات من الأرض هو معجزة وأمر خارق للأسباب ولكننا نفسر أي عملية تحدث في النبات لوجود شيء معين هو الذي يؤدي إلى ذلك ، وإذا سألنا عن سبب وجود ذلك الشيء نكتشف أن هناك شيء آخر أدى إليه وهكذا حتى نصل إلى أن العلم يعجز عن تفسير ذلك الأمر ، هنا نكتشف أن القضية كلها خرق للأسباب وأن هناك قوة خارجية هي التي تصنع ذلك الأمر ، والمشكلة أننا لا نترك أنفسنا نصل إلى عجز العلم عن تفسير الأمر ونتفكر في هذه النقطة لكن تفكيرنا يتوقف عند حدود الأ سباب العلمية .

ـ وهكذا في أبسط وأوضح آيات الله المنظورة وهي السماء من فوقنا فيها نجوم عالية لا تقع علينا ، فتفسير ذلك عندنا هو وجود قوى طرد مركزي مع وجود قوى جذب مثلا ، ثم نسأل ما سبب قوى الطرد والجذب هذه فيقولون لوجود أشياء معينة ، وما سبب هذه الأشياء المعينة ، وهنا يعجز العلم عن تفسير الأمر ، فنستنتج أن عدم سقوط النجوم هو إعجاز وأمر خارق للأسباب ، وهذا ما يستنتجه الإنسان الفطري بمجرد النظر في السماء بدون معرفة النظريات العلمية ، وهكذا ينظر الإنسان الفطري إلى الزرع وكل شيء من الذرة إلى المجرة فيراه إعجاز فهو موجود أو مصنوع بكيفية دقيقة جدا لا يمكن أن تنشأ من داخل ذلك الشيء ف لابد من وجود قوة خارجية لها مقدرة هائلة وعلم كبير بحيث تستطيع أن تصنع هذا الشيء .

ـ فمثلا : الإنسان مولود من أمه ، وأمه من جدته وهكذا ، فلابد أن أول بشر موجود من لا شيء ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد إلا من يستطيع أن يخرق الأسباب فهو الخالق ، كما أن الأشياء المصنوعة جاءت من خامات ، وهذه الخامات من خامات أخرى ، فلابد أن هناك خامات أو أشياء بدأت من العدم ، وهذا لا يقدر عليه غير الخالق سبحانه ، فالإنسان لا يستطيع إيجاد نفسه ، والأشياء لا تستطيع إيجاد نفسها .

ـ فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر ، فهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله ، فالبشر لا يستطيع أن يلغي الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها .

5ـ عجز علم الشيء نفسه عن معرفة الإنسان ومعرفة ما يفيده وإيجاد ما يفيده :

ـ فمثلا أشجار الفاكهة لمن تخرج هذه الفاكهة ؟ ، إنه أمر مقصود ليتناوله الإنسان ، وهل تدري هذه الأشجار بـ الإنسان ، ولماذا تقصد وتعد له هذه الفاكهة المناسبة لتكون طعاما له ؟ ، وكيف تستطيع أصلا أن تصنع هذه الفاكهة وهي من مادة مختلفة تماما عن مادة البذرة ومادة الأرض التي نبتت منها ؟ ، إن هذه الأشجار لا يمكن أن يكون لها هذا العقل الهائل وهذه القدرة الهائلة ، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت لهذه الشجرة أن تكوّن هذه الفاكهة وتصنعها للإنسان ، فإن الله أراد ذلك فقال تعالى : ((وَجَعَلنَا

(1) الملك : 4

فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) **لِيَأْكُلُوا** مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ))[1] .

ـ وأيضا البقرة لمن تخرج هذه الكمية من اللبن الزائدة عن حاجة أولادها ، هل البقرة تعي الإنسان وتريد له ذلك ؟ طبعا لا ، وهل أصلا تستطيع البقرة وتفهم هذه المصانع المعقدة في جسمها والتي تقوم بتصنيع ذلك اللبن ؟ طبعا لا ، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك فقال تعالى : ((نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ))[2] فقال (نسقيكم) أي هو سبحانه الذي قصد ذلك للإنسان وصنع ذلك له ، فذلك يعني حب من صنع لك هذا الغذاء وقصده لك والخضوع والمهابة من عظيم قدرته على فعل ذلك ومدى هذا العلم ، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك ، وهي التي سخرت هذه البقرة من أجل الإنسان ، وهي التي تمد الإنسان بما يحتاجه .

6ـ معرفة أن هذا الشيء هائل جدا فيدل على مدى مقدار هذه القدرة الهائلة :

ـ عندما تتفكر في مدى عظمة هذا الكون من نجوم حجمها هائل جدا فوق مستوى الخيال ، ومدى بعدها الهائل جدا فوق مستوى الخيال ، هنا تشعر بأن قدرة الخالق فوق مستوى الخيال ، وهنا فقط تشعر بمعنى قدرة الله ، فلابد أن يكون شعورك مبهرا متعجبا من مدى قدرة الله ، وكذلك الوظائف المعقدة جدا والتي هي غاية في الدقة فيدل على علم هائل جدا ، فهذه القدرة الهائلة وهذا العلم الهائل يجعل الإنسان يتحير من مدى شدته . وهذا يؤدي إلى الشعور بالخضوع للخالق والشعور بالخوف من هيبته .

ـ ملحوظة : لاحظ أن المعلومات السابقة ليس الغرض منها تحقيق المعرفة النظرية ولكن لكي يشعر الإنسان بأنها أعجب من السحر ويشعر بضعف قدرته عن أن تصنع مثل هذه الأشياء وبالتالي يشعر بضعفه واستسلا مه وحبه للخالق .

****

ـ التعامل الصحيح مع الآيات الكونية :

ـ لابد أن نتصور الآيات الكونية من أربعة نواحي هي :

1ـ لابد أن تشعر بالمقارنة بين البشر وبين الكون ، أو بين البشر وبين الكرة الأرضية ، أو بين البشر وبين الشمس مثلا ، وهذه المقارنة من حيث الحجم ومن حيث القدرة ، فمن حيث الحجم يتبين مدى ضآلة حجم الإنسان بالنسبة إلى حجم الكرة الأرضية أو الشمس أو الكون ، ومن حيث القدرة فالشمس تستطيع أن تبتلع الكرة الأرضية بمن عليها من البشر ومثلها مليون مرة ، والزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات وغيرها تستطيع أن تنسف آلاف البشر في لحظة واحدة ، والبشر يعيشون في خطر دائم ومن الممكن أن ينسفوا في لحظة ، والبشر جميعا محمولون على كرة تطير بهم في الفضاء وكأن الكرة الأرضية تفعل بهم ما تشاء فهي أعظم في حركتها وسرعتها من قدرة البشر .

ـ فالإنسان ضعيف أمام عظمة الكون : ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[3] ، فالإنسان لا قيمة له أمام هذا الكون الهائل .

2ـ ثم تشعر بالمقارنة بين عظمة الكون وعظمة الخالق ، فإذا كان الكون عظيما إلى هذه الدرجة فما بالك بعظمة الخالق ، فالكون ما هو إلا مخلوق لا حول له ولا قوة ، ففي الحديث : ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض))[4] ، وفي حديث آخر : ((ما

---

(1) يس : 34 ، 35
(2) النحل : من الآية 66
(3) غافر : 57
(4) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 8125 في صحيح الجامع)

السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة))[1] .

3ـ ثم تشعر بالمقارنة بين ضآلة البشر وعظمة الله ، فإذا كانت قيمة البشر ضئيلة أمام عظمة الكون ، فما بالك بقيمة البشر أمام عظمة الله وقدرته وهيمنته عليه .

4ـ فينشأ عن ذلك الشعور بالخضوع والخوف من مهابة الخالق والحب إعجابا بقوته والخوف من عقابه ورجاءه .

ـ إذن من لم يعرف عظمة الكون بالمقارنة مع قدرات الإنسان وإمكانياته لم يعرف عظمة الخالق وضعف الإ نسان .

ـ إن نظرة واحدة متأملة في الكون وحقائق الأشياء قد تضع في النفس من الإيمان ما يغير حياة الإنسان كلها ، مثلا كأن ينظر إلى الكرة الأرضية وهي هباءة بين الأجرام فيعرف الإنسان معرفة حقيقية بضآلة حجمه ، في حين لو تعلم الإنسان كل علوم الدين والدنيا طوال عمره فقد لا يتكون في نفسه شيء من مشاعر الإيمان (خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع) .

ـ ونوضح ذلك من خلال الأمثلة التالية :

ـ مثال (1) : (تناسي الصلة بين الإنسان والكون !) :

ـ هل تصدق أننا نعيش وسط النجوم ؟! ، كان الناس يظنون أن هذه النجوم الكثيرة وهذا الفضاء الواسع هو فوقنا فقط ، لكن اكتشف العلماء أن هذه النجوم وهذا الفضاء حول الأرض من كل اتجاه وليس فوقنا ، فحن نعيش على أرض معلقة في الفضاء ، وهناك نجوم أسفل الأرض ونجوم أعلاها .

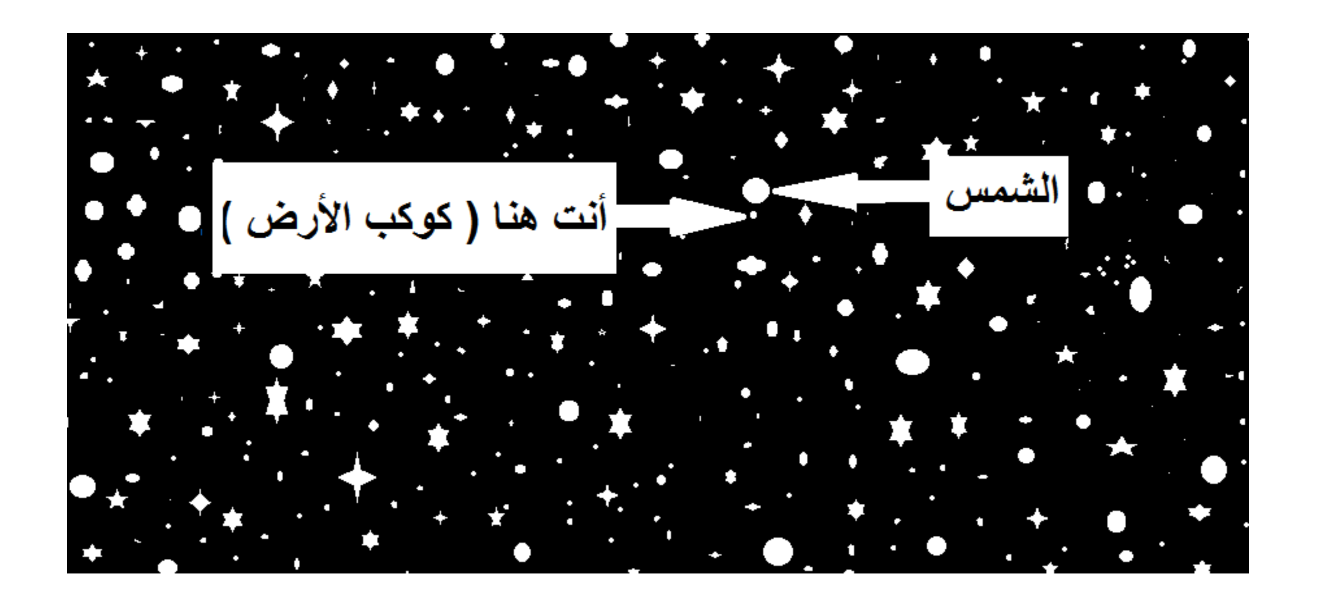
ـ وإذا عرّفنا كلمة (السماء) على أنها الفضاء وما فيه من النجوم فهذا معناه أننا نعيش في السماء ! ، ولا تتعجب من أن هذه حقيقة تحتاج إلى تصور ذهني وتخيل لمكان الكرة الأرضية بالنسبة للنجوم :

ـ فالكون عبارة عن فضاء تسبح فيه نجوم هائلة العدد ، وكل نجم تدور حوله بعض الكواكب ، ومن بين هذه النجوم والكواكب الهائلة العدد في الكون يوجد نجم اسمه الشمس وكوكب اسمه الأرض ، فكوكب الأرض هو كرة معلقة في الفضاء يحيط بها النجوم من كل اتجاه ، فالنجوم ليست فقط فوق الأرض ولكنها تحيط بـ الكرة الأرضية من كل اتجاه .

ـ إذن نحن نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه ! .

ـ تخيل لو أن الكرة الأرضية لم تعد معلقة في الفضاء وسقطت فأين تذهب ؟ ، إن تحت الكرة الأرضية فضاء ونجوم ! .

(1) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 1 ، ص : 223 ، برقم : 109)



ـ عندما صعدت سفن الفضاء في الفضاء البعيد التقطت صورة للأرض وحولها الشمس والنجوم ، فكانت الأ رض عبارة عن نقطة زرقاء باهتة وسط النجوم (والصورة التوضيحية تبين ذلك) .

ـ إن هذه الدنيا التي نعيشها بكل ما فيها ليست إلا حياة ضئيلة جدا موضوعة على نقطة زرقاء باهتة وسط الفضاء والنجوم ، فالأرض ومن عليها من البشر مجرد جزء صغير جدا من منظومة كبيرة جدا هي الكون حيث هناك إله يحكم هذا الكون ويتحكم فيه كيف شاء وكل هذا الكون ملك له ، فيتكون شعور بضعف البشر وعجزهم وشعور بمدى عظمة هذا الكون واتساعه فلا يقدر البشر على إيجاد شيئا منه ولا التحكم فيه وبالتالي الشعور بمدى قدرة وعظمة خالق الكون .

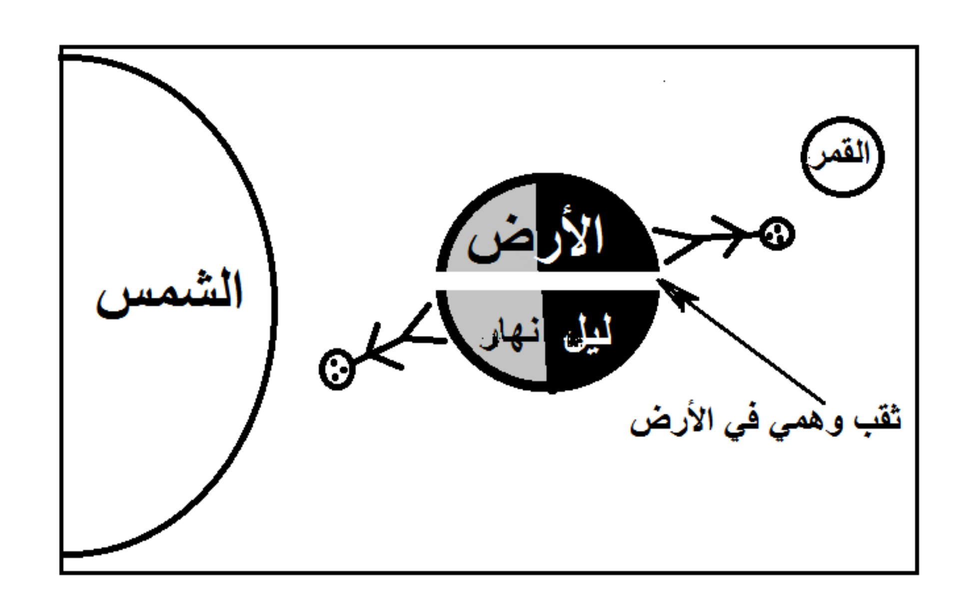
ـ أي القضيتين تشغل الذهن أكثر ؟ ، قضية تجمع البشر جميعا في مكان واحد هو الكرة الأرضية فلا يزيد حجم كل هذه البشرية عن نقطة تافهة في فضاء سحيق ! ، أم القضايا والمسائل والمشاغل التي بين البشر بعضهم البعض وهموم الحياة وأعمالها ؟ ، فما قيمة ما يحدث بين البشر وما يتشاغلون به من أعمال وهم جميعا عبارة عن كتلة ضئيلة جدا من النمل تتحرك في نقطة لا تكاد تراها في مشهد الفضاء والنجوم ، طبعا العاقل يشغله القضية الأولى عن أي شيء آخر من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومن العلوم والمعارف المختلفة ، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها ، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك .

ـ إذن فهناك دائرتين دائرة كبيرة وهي آيات الله (مثل ضآلة البشرية إلى حجم الكون وبالتالي مدى عظمة الخالق أمام ضآلة الإنسان) ودائرة صغيرة وهي ما يحدث على كرة الأرض من أمور ، فالبعض حصر عقلة بما يحدث في هذه الدائرة الصغيرة وتغافل عن هذه الدائرة الكبيرة فهو بذلك لا عقل له .

ـ مثال (2) : (الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء !) :

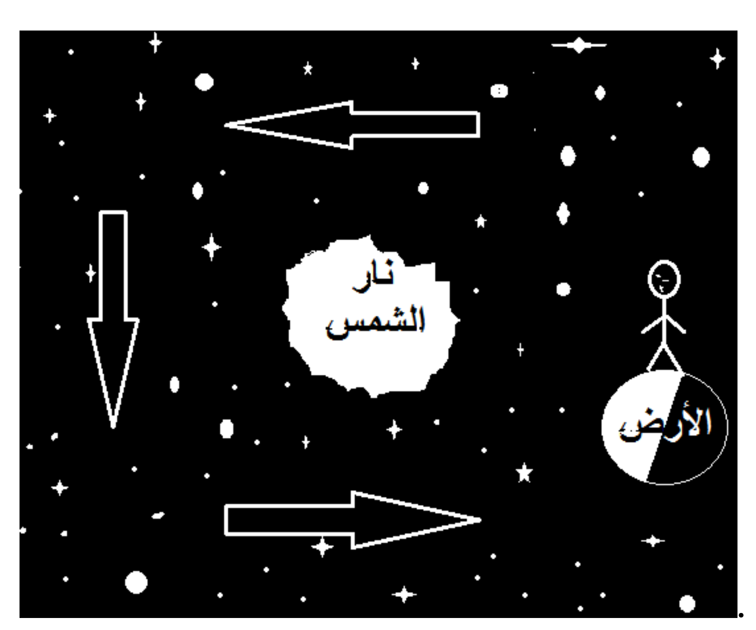
ـ تصور وضعك مع حركة الأرض حول نفسها ، وحدوث الليل والنهار ، فهذا يؤدي إلى الشعور بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، وتؤدي إلى الشعور بضآلة الإنسان ، وبالتالي الشعور بالاستسلام و الخضوع للخالق .

ـ تخيل لو أنك كنت بالليل وقمت بعمل ثقب في الكرة الأرضية فسيصل إليك نور الشمس ! .



ـ مثال (3) : (نحن ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء !) :

هل تصدق أن هناك نارا هائلة جدا معلقة في الفضاء وأننا ندور حولها مثلما يدور الفراش حول النار المشتعلة ؟! ، إن الشمس عبارة عن كتلة من النار هائلة مشتعلة في الفضاء ونحن الآن ندور حولها على ظهر مركبة فضائية تطير بنا في الفضاء المظلم هي الأرض في رحلة تستغرق عام كامل ، ففي اللحظة التي تقرأون أنتم فيها هذه السطور تدور الأرض في مدارها حول الشمس في رحلة طولها 950 مليون كم نقطعها في سفر سنة ثم تبدأ من جديد دون توقف ، وحر الصيف وبرد الشتاء يحدث بسبب اقترابنا أو بعدنا عن نار الشمس أثناء هذه الرحلة



ـ فنحن نسير الآن بسرعة 108 ألف كيلو متر في الساعة (30 كم في الثانية) ، ويمكنكم أن تعرفوا ضخامة هذه السرعة على النحو التالي : إن أقصى سرعة يمكنكم أن تصلوا إليها عند قيادة سيارة عادية هي 200 كيلو متر، يعني أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تبلغ 540 مرة بحجم سرعة السيارة ، ويمكن أن نفهم ا لأمر بشكل أوضح من خلال هذا المثال أيضا : فسرعة الرصاصة تبلغ 1800 كيلو متر في الساعة ، وسرعة ا لأرض في دورانها حول الشمس تبلغ 60 مرة حجم سرعة الرصاصة ، فبسرعة الأرض الهائلة هذه تكون قوة جاذبية الشمس غاية في الأهمية ، فلو أنه حصل نقص في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تضيع في الفضاء بسرعة غير عادية ، وذلك يمثل نهايتها ، والعكس أيضا صحيح ، بمعنى أنه لو حدثت زيادة في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تتجه نحو الشمس بسرعة هائلة وتذوب وتتبخر ، وبالتأكيد فنحن أيضا سوف نتبخر معها ، ولو كانت جاذبية الأرض أقل مما هي عليه الآن لطاشَ كلّ شيء ولطشنا نحن أيضا في الفضاء .

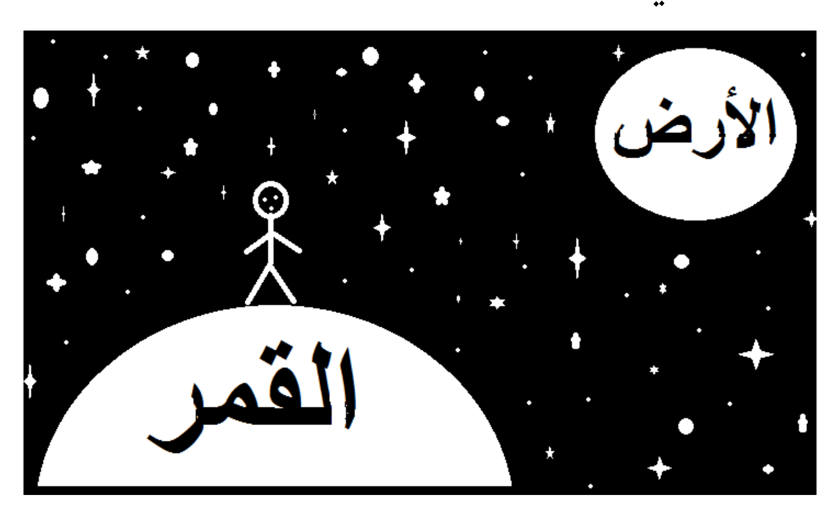
ـ فنحن الآن نطير في الفضاء حول هذه النار في دورة كل عام ، إن في هذا شعور بالرهبة والخوف ، و الشعور بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، والشعور بقدر مدى ضآلة الإنسان ، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق .

ـ هناك حدثان يحدثان في آن واحد هما أنك تتحرك الآن على كرة تطير بك في الفضاء ، والحدث الثاني هو أحداث الحياة وصراعاتها ومشاغلها وهمومها وعلومها وشهواتها وما يدور من حولك من أمور في دنيا الناس والذهاب والإياب والحوارات والمشاغل ، فأي الحدثين يشغل بالك أكثر ؟ ، وهل يمكن أن تنسى هذا الحدث ا لأكبر أنك تسير الآن في الفضاء ؟ ، طبعا العاقل يشغله الأمر الأول عن الثاني ، ولكن البعض يغفل عن هذا الأ مر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها ، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك .

ـ لا يمكن لإنسان عاقل أبدا أن ينسى أنه يسير الآن على متن مركبة في فضاء سحيق ، ومن يعقل ذلك فإنه يركع ويسجد على متن هذه المركبة لمن يحركه على هذه المركبة في فضاء الكون الهائل .

ـ مثال (4) : (الأرض كرة معلقة في الفضاء) :

ـ عندما صعد العلماء إلى القمر رأوا الأرض صغيرة وكأنها القمر بالنسبة لهم ، تخيل نفسك هناك علي سطح القمر وتشير إلى الأرض من بعيد : هناك بيتي وأولادي وأهلي في انتظاري حتى أعود ، إن الآخرة مثل ذلك ، وانظر كيف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء ! .



ـ مثال (5) : (اتساع الكون اللانهائي) :

ـ الضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع ، ومنها ما يبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة ، ومنها ما يسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في مدة مليون سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في (340) مليون سنة ، ومنها ما يبقى الضوء مسافراً منها إلينا في مدة ملايين السنين !! [سرعة الضوء (300) ألف كيلومتر في الثانية] : ((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ))[1] .

ـ وأيضا تأمل أن الفضاء كله ظلام ، والنور موجود فقط في قشرة طفيفة على الأرض ، وتدبر أن الكون لا نهاية له ، وهذا مضاد وخارق للأسباب التي يعرفها الإنسان ، وهذا يعني أن هناك من يستطيع خرق الأسباب هو الخالق سبحانه .

(1) الواقعة : 75 ، 76

ـ الفرق بين التصديق النظرى والتصديق الحقيقى بالحقائق العلمية :

ـ إذا علم الإنسان حقائق علمية مثل اكتشاف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء أو دوران الأرض حول نفسها أو دورانها حول الشمس ، وكل هذه أمور عجيبة ومذهلة وأعجب من السحر ولكن لا يشعر بخطورتها إلا من كان له شعور بقيمة هذه الحقائق العلمية .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بالتعجب والتحير ويشعر بضآلة الإنسان أمام عظمة هذا الكون وأنه أشد ضآلة أمام خالق الكون فيشعر بالخضوع والاستسلام لله فإنه بذلك يكذب بمشاعره أن الأرض كرة في الفضاء أو أنها تدور حول الشمس ، وذلك رغم التصديق النظري التام بكل الحقائق العلمية ، فهو يتغافل عن خطورة هذه الأمور ويتجاهلها .

ـ إذن فالذي يتعامل مع هذه الحقائق العلمية كمعرفة نظرية فقط هو في الحقيقة يُكَذِّبُ بهذه الحقيقة غير موقنا بها يقينا حقيقيا ، فهو يتغافل ويتجاهل هذه الآيات من آيات الله الدالة عليه ، فإذا كان تعامله كذلك مع كل ما يعرفه ويراه من آيات الله من أرض وسماء وزرع وجبال وكائنات وكذلك مع إعجاز القرآن والسنة فهو قد نسي الله تعالى .

****

ـ الشعور بعظمة الله تعالى

ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان بصفات الله ، وإنما لابد أن يشعر بعظمة هذه الصفات (مدي عظمة عزته ومدي عظمة ملكه ومدي عظمة كبرياءه ..) فأن الله كرمه مبهرا وقدراته وصفاته مبهرة عظيمة ، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدا من البشر أو شيئا واحدا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى ، وكل هذا الكون الهائل جدا ، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت ، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة ، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوتا حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد ، والله هو القادر ولكن قدرته هائلة جدا فوق كل التصورات والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة ، وهكذا .

ـ فالصفات لها درجات ، فالقوة لها درجات والعلم له درجات وهكذا ، وصفات الله تصل إلى درجة الكمال ، فقوة الله هائلة جدا لا توصف وكذلك علمه وكل صفاته ، فصفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة بحيث تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمة الخالق وقدرته سبحانه ، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة ، ففي تاج العروس : ((ألِهَ يَألَهُ إذا تحَيَّرَ ، يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها ، أبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلبُه إلى أحَدٍ))[1] .

ـ وهذا يجعل مشاعرك تتعلق به حبا وخضوعا وخوفا ورجاءا لدرجة أنك لا تستطيع أن تقطع مشاعرك وهمومك وأهدافك عنه ، لأنك لو قطعت مشاعرك وهمومك وأهدافك عنه تهلك ، فهذا هو الوله (مأخوذ من كلمة " إله ") مثل قولك (العاشق الولهان) أي الذي لا يستطيع أن يقطع حبه ومشاعره وأهدافه عن محبوبه فلا يستطيع أن يعيش إذا ابتعد عن محبوبه .

ـ " الوله " يدل على الحب والفرح بالمحبوب لدرجة أنه إذا ابتعد عنك تتحير ويذهب عقلك وتحزن حزنا شديدا ، وهذا التحير والحزن هو الوله : ((الوَلَهُ : ذهابُ العَقل والفؤاد من فقدان حبيب ، يقال : وَلِهَت تولَهُ وَتلِهُ، وهي والهةٌ ووَالِه. وكل أنثى فارقت وَلَدَهَا فهي والِهٌ))[2] ، (((وله) الوَلَهُ الحزن وقيل هو ذهاب

(1) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322)
(2) العين ـ دار الهداية (ج : 36 ، ص : 550)

العقل والتحير من شدّة الوجد أو الحزن أو الخوف والوَلَهُ ذهاب العقل لفِقدانِ الحبيب))[1] .

****

ـ الشعور بعظمة الكون والأشياء بالنسبة للإنسان

ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان باتساع الأرض واتساع الكون وحجم الأرض وحجم الكواكب والنجوم ، وإنما لابد أن يشعر بعظمة هذه المسافات والأحجام التي تجعل الإنسان العاقل يجن ويخر ساجدا ، فإن أرقام المسافات والأحجام لا نهائية ومبهرة جدا ولا يمكن تصورها أو تخيلها : ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[2] .

****

الفصل الخامس

تناسي حقيقة اليقين بالله

ـ في هذا الفصل نبين التصور الذهني لصفات الخالق ما عدا صفات الذات للخالق : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))[3] ، فنحن لا نستطيع أن نتصور صفات الذات لكن نستطيع أن نتصور الصفات المعنوية ، فنتصور مدى قدرة الله على السمع فسبحانه له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد ، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد ، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه ، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشئهم من جديد ، ونستطيع أن نتصور مدى المتعة التي يلقاها الإنسان من لذة النظر إلى جمال الخالق سبحانه ولكن لا نستطيع أن نتصور ذاته سبحانه .

ـ نسيان الله معناه أن الإنسان يتناسى حقيقة يقينه بالله وصفاته لأنه لو عقل حقيقة صفات الله لخضع وهو لا يريد الخضوع .

ـ عدم التصور لصفات الله (عدا صفات الذات) وعدم الشعور بخطورتها وعدم شغل الهم بها وعدم تأثر المشاعر بها هو نسيان لله :

((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[4] ، ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))[5] .

ـ وسبق أن أوضحنا خمسين دليلا تبين صور النسيان والغفلة والبعد عن الله والآخرة ، وأيضا الأدلة على عدم تأثر المشاعر بالله والآخرة هو نسيان لله والآخرة (راجع الفصل الثالث) .

ـ خوف المهابة من أهوال القيامة ومن كل الأخطار في الدنيا والآخرة ومن عظمة الكون الهائل ليست بشيء أمام خوف المهابة من الله ، وكل النعيم واللذات في الجنة وفي الدنيا ليست بشيء أمام لذة النظر إلى وجه الله الكريم .

---

(1) لسان العرب ـ دار صادر - بيروت (ج : 13 ، ص : 561)
(2) غافر : 57
(3) الشورى : 11
(4) التوبة : 67
(5) الحشر : 19

ـ وكل الآلام في الدنيا والآخرة هي بأمر الله ، وكل اللذات التي في الدنيا والآخرة هي بأمر الله ، فالخوف من الآلام ورجاء اللذات هو في حقيقته خوف من عقاب الله ورجاء ثواب الله ، وغير الله لا ينفع ولا يضر .

ـ بل إن الله هو الذي خلق الألم واللذة ، كما أن خاصية الألم في النار هي بأمر الله إذا نزعها لا تحرق ، وخاصية اللذة في المتع المختلفة هي بأمر الله إذا نزعها فلا لذة منها .

****

ـ الإنسان يعيش هادئا تماما ومعزول عن رؤية الخالق بقدرته الهائلة التي تحيط بالإنسان في كل لحظة :

ـ كيف يعيش الإنسان وفوقه قدرة هائلة ورقابة محكمة في كل لحظة ؟ ، إذا عقل الإنسان ذلك فإنه يعيش في رعب من هيبة قدرة الله ومراقبته .

ـ وعدم رؤية الله لا يغير من حقيقة الأمر شيء فقدرة الله فوقنا مهيمنة ومسيطرة ولكن الغافل لا يشعر بشيء .

ـ إن قدرة الله فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره ، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه .

ـ فمثلا الإنسان إذا علم أن المخابرات الأمريكية تهتم بأمره وترسل له قوة مسلحة تتخفى وترصده في كل مكان فإنه قد لا ينام عدة أيام أو قد لا ينام مطلقا ، فما بالك بقدرة الله عليك التي ترصدك في كل مكان وتعد عليك أنفاسك .

ـ فالعاقل يكون في حياته قلقا متوترا خائفا منزعجا وصورة قدرة الله لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها ، فقدرة الله أشد في خطورتها من قدرة أي شيء مخيف يمكن أن تتصوره .

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بقدرة الله رغم أنها تحيط به لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بمدى قدرة الله ومراقبته ؟! ، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج ! ، فنسيان الله ليس معناه نسيان وجوده ولكن معناه نسيان قدرته وعظمته : ((نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ))[1] .

ـ فالعاقل هو الذي لا ينخدع بعدم رؤية الخالق وهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به .

ـ أراد الخالق سبحانه أن نعرفه بطريق غير مباشر ، فنحن لا نرى الله سبحانه ، ولو رأي الناس الله لماتوا خوفا من مهابته ولذابوا من محبة ولذة النظر إلى وجهه الكريم ، والعاقل يؤمن بـالله طالما أن الأدلة موجودة في آيات الكون ودعوة الرسل وطالما أنه يرى أثر قدرة الله بعينه في الزلازل والبراكين وإهلاك الأ مم وغير ذلك .

ـ فالإنسان يعيش وحوله قدرة الله ومراقبته فهو يعيش في رعب وقلق واضطراب ، ولكن يحيط به جدار رقيق جدا يعزله عن رؤية الله ، فيجعله ذلك الجدار في هدوء تام فهو لا يرى الله ولا أي ضجيج أو شيء يدعو للإزعاج ، ففي ذلك خدعة كبيرة جدا لمن لا عقل له ، أما العاقل فهو يعلم أن رؤية الله أو عدم رؤيته لن يغير من حقيقة الأمر شيء وأن قدرته واقعة والخطر يحيط به

ـ إن الإنسان عندما يشعر بقدرة الله المحيطة به فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تماما ، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته ، لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة .

****

(1) التوبة : من الآية 67

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (قدرة الله) !! :

ـ إذا أخبرت إنسانا أنه يعيش وحوله خطر هائل لكنه لا يراه ولم يشعر بالخطر فهذا معناه أنه لا يوقن بما أخبرته ، رغم أنك أتيت له بالأدلة على صدق كلامك فهو يوقن بصدق كلامك نظريا فقط من حيث صحة الأ دلة .

ـ مجرد العلم بأن لنا إلها فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين خائفين من مهابته وخائفين من عقابه ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي يتمثل في قدرة الله التي تحيط به ومراقبة الله الذي يعلم ما بداخلك وما تفكر فيه : ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ))[1] ، ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ))[2] .

ـ فنحن واقعين تحت خطر عظيم هو قدرة الله ومراقبته ، لكننا في غفلة تامة نعيش بحرية غير مدركين أننا نعيش حياة الخاضع .

ـ فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين قدرة الإنسان وقدرة الله المهيمنة عليه ، فعندئذ تشعر بمدى خطورة ا لأمر .

ـ نحن نعيش في هروب وتجاهل لقدرة الله علينا ومراقبته لنا ، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم ونحن مقبلون على لقاء الله سواء رضينا أم أبينا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[3] ، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن لقاء الله إن استطعت ! ، فالأمر خطير وحاسم ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة ونلقى الله فماذا أنت صانع ؟! .

ـ الإنسان لا ينكر وجود الخالق ، لكنه قد يتجاهل خطورة قدرته التي تحيط به فتصبح قدرة الخالق كأنها لا قيمة لها ، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره ، وهو بذلك قد أفرغ كلمة "الخالق" من محتواها .

ـ وكل إنسان حر له أن يفعل ما يشاء ، فإما أن يتجاهل خضوعه لله ، وإما أن يعترف به ، ولكن تجاهل الإ نسان لخضوعه لله لن يغير من حقائق الأمور شيء ، فهو عندئذ مثل النعامة التي تضع رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء ، أي كأنها تقول لنفسها أنه طالما أنها لا ترى الأعداء إذن فهم غير موجودون ولا أحد يطاردها ! .

****

ـ الفرق بين اليقين النظرى واليقين الحقيقى بخضوع الإنسان لقدرة الله :

ـ إذا لم يشعر بالخضوع فيقينه بأن الإنسان عبد خاضع لقوة الله كاذبا .

****

ـ لا إله بغير خضوع :

ـ وجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين ، وبغير الشعور بالخضوع فلا معنى لأن يقول الإ نسان أنه عبد وأن له إله ، فإذا رفعنا الخضوع من كلمة " عبد " أصبحت كلمة مفرغة من المعنى ، فالعبد هو الخاضع ، والذي لا يشعر بأنه خاضع هو لا يريد أن يكون عبدا ، وهو لا يستطيع أن يخرج من سيطرة الله ولكنه يتصنع الهروب من سيطرة الله تعالى .

---

(1) البقرة : 235
(2) آل عمران : 30
(3) ص : 67 ، 68

ـ الذي لا يشعر بالخضوع مستكبر يريد أن يخرج من سيطرة الخالق ، ففي تفسير السمعاني : (({ أم هم المسيطرون } أي: الأرباب المسلطون))[1] ، وفي أيسر التفاسير للجزائري : (({ أم هم المسيطرون } أي المتسلطون الغالبون فيتصرفون كيف شاءوا))[2] .

ـ أي ملك من ملوك الدنيا يريد من الناس أن يعظموه ويخضعوا له ويطيعوه ، فهو بذلك يكون ملكا عليهم ، فإذا لم يعظموه ويخضعوا له ويهابونه ويخافونه ويطيعوه هم بذلك لم يجعلونه ملكا عليهم ، فكل الناس يعلمون ما الذي يريده الله منهم وهو أن يعظموه ويخضعوا له ويهابونه ويخافونه ويطيعوه .

ـ ومن الناس من يعظم الله ويخضع له ويهابه ويخافه ويطيعه فهو بذلك يجعله ملكا عليه ، ومن الناس من يرفض الخضوع لأن فيه ألم وذل ويرفض أن يطيعه لأن ذلك يقيده ويخالف هواه رغم علمه ويقينه النظري التام بأن الله هو الملك عليه وأنه يجب عليه أن يخضع له ويخافه ويطيعه ولكنه يستكبر .

ـ وكل الناس يعلمون أنه لا يمكن أن يترك الله من يخضع له ومن لا يخضع سواءا ، فلابد أن يعاقب الذي لم يخضع ويثيب من خضع ، وحيث أن الناس تموت ولا ترى عقابا أو ثوابا لأحد فلابد من بعث الناس مرة أخرى من أجل ثوابهم وعقابهم .

ـ كل الناس خاضعين لله ويعلمون ذلك ولكن بعضهم يتناسى خضوعه لله فيهرب من الخضوع ولا يشعر به .

ـ كما أن الخالق لابد أن يكون الأقوى والمخلوق الأضعف لأن الذي خلق صفات القوة في الإنسان لابد أن يكون هو الأقوى : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً))[3] .

****

ـ العبودية نوعان (الخضوع نوعان) :

ـ قال شيخ الإسلام ابن القيم : ((العبودية نوعان عامة وخاصة : فالعبودية العامة عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم فهذه عبودية القهر والملك قال تعالى : { إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا } فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم ... وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر قال تعالى : { يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون }))[4] .

ـ النوع الثاني ينشأ من الاعتراف بالنوع الأول والشعور به ، فمن شعر بعبودية القهر تحقق عنده العبودية الخاصة ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ كل الناس عباد لله وخاضعين لله ، ولا يستطيعوا الخروج عن سلطان الله لأنهم جميعا واقعين تحت سيطرته وسلطانه وقوته وهم ضعفاء أمام قدرته وهيمنته عليهم وهم لا حول لهم ولا قوة ، وهذه هي عبودية القهر والملك .

ـ والناس أمامهم أمرين هما :

1ـ الاعتراف بعبودية القهر والملك ، أي الاعتراف بأنهم عباد لله خاضعين له ، أي الشعور بالخضوع ، وينشأ عن ذلك محبته وطاعته ، وهذه عبودية خاصة بالمؤمنين ، فمن استشعر حقيقة أنه واقع تحت سلطان الله وأنه عبد مقهور واستشعر أن قدرة الله فوق قدرته فإنه يرضى بذلك ويعترف أنه عبدا لله تعالى .

ـ فقوة الإنسان وإرادته ليست بشيء أمام قوة الله وإرادته ، وإذا أراد الله أن ينسف قوة الإنسان وإرادته لفعل ، فالإنسان العاقل يعلن استسلامه لقوة الله وإرادته .

---

(1) تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 279)
(2) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة (5 / 182)
(3) فصلت : من الآية 15
(4) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (1 / 126)

2ـ عدم الاعتراف بعبودية القهر والملك ، أي عدم الاعتراف بأنهم عباد لله خاضعين له ، أي عدم الشعور بـ الخضوع ، رغم وجود اليقين النظري التام بأنهم عباد لله خاضعين له ، وهذه عبودية عامة ، فهو يرفض أن يعترف بأنه يعيش عيشة الذل والخضوع ، ويتصور أنه حر لا يذل لأحد ولا يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده ، فلا يريد أن يلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعا منهزما تحت إرادة متكبر عليه قاهر له .

****

ـ الهروب من الخضوع :

ـ الذي يهرب من الموت هو في الحقيقة لا يستطيع الهروب منه ، لكن المقصود من الهروب من الموت هو أنه يتجاهله ويتناساه كأنه لن يموت ، فكذلك الهروب من الخضوع ، فكل الناس خاضعين لله بالقهر ، لكنه يتناسى خضوعه لله بالقهر فهو بذلك يهرب من الخضوع ، وهذا من الغباء ، لأنه يكون كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء !

ـ الإنسان إما أن يعيش حياة الهارب من الله المتغافل عنه كأنه لم يسمع عنه ، وذلك بأن يتلهى عن الله بـ الدنيا ، فهو يتلهى ويتشاغل : ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[1] ، وإما أن يعيش حياة السير إلى الله .

ـ الشعور بوجود الخالق معناه أن يخضع الإنسان له ، والذين لا يريدون الخضوع يعطلون عقولهم فيتناسون الخالق حتى لا يخضعوا ، وبعضهم قد يزين لنفسه حجة واهية وهي أنه لا يرى الله : ((وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا))[2] .

ـ ولو أنزل الله لهم آيات مباشرة أمام أعينهم لما آمنوا أيضا ، لأن القضية هي أنهم لا يريدون الخضوع : ((وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا))[3] ، ((وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ))[4] .

ـ الشعور بمدى قوة الله أمام قوة الإنسان :

ـ كل الناس يعلمون أن قوتهم لا شيء أمام قوة الله ، ولكن هذا لا يزيد عن كونه يقين نظري فقط ، فلو شعر الإنسان بمدى قوة الله فقد يخر مغشيا عليه ويعيش حياته خائفا مرعوبا .

ـ فمهما كانت قوة الإنسان فلن يستطيع أن يحرك جبل من الجبال ، ولو سقط الجبل على الإنسان لأهلكه ، فا لإنسان ضعيف ، هذا بالنسبة للجبل ، فما بالك بالكرة الأرضية الهائلة ، وما بالك بالشمس التي يمكن أن تبتلع مليون من الكواكب أمثال الكرة الأرضية ، وما بالك بالمجموعة الشمسية ككل ، وما بالك بالكون الهائل ، وما بالك بالكرسي والعرش ، ففي الحديث : ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة))[5] فالكرسي يسع الكون كله : ((وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ))[6] ، والعرش أعظم بكثير ، فهذا يدل على مدى عظمة الله سبحانه ومدى قوة الخالق وقدرته على إيجاد كل هذا الكون .

ـ والإنسان له أن يتصور مدى قدرة الله بحيث يمكن وضع البشر جميعا على أصبع واحد من أصابع الرحمن .

ـ والسماوات كلها ضئيلة جدا أمام عظمة خالقها ، ففي الحديث : ((يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن بشماله

---

(1) الأنبياء : من الآية 2،3
(2) الفرقان : 21
(3) الأنعام : 25
(4) الحجر : 14، 15
(5) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 1 ، ص : 223 ، برقم : 109)
(6) البقرة : 255

ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون))[1] ، وفي حديث آخر : ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض))[2] ، وفي حديث آخر : ((جاء حبر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال الحبر تصديقا له ، ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)))[3] .

ـ تحدث الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ عن عظمة الله فكان من شدة تأثره أنه كان يتمايل فيتحرك المنبر حتى كاد يسقط ففي الحديث عن عبد الله بن عمر قال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : يأخذ الجبار سماواته وأرضيه بيده ، وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ، ثم يقول : أنا الجبار أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، قال ويتمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم))[4] ، إن عظمة الله يقشعر منها جلود المؤمنين : ((اللهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ))[5] .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بأن الإنسان مخلوق :

ـ اليقين الحقيقي بأن الإنسان مخلوق هو الشعور بالخضوع ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ الإنسان بدون الروح هو قطعة من اللحم والعظم ، هذه الروح هي التي تجعل هذه القطعة من اللحم و العظم بشر يتحرك ، تم تركيب هذه الروح بهذه القطعة بطريقة معينة ، فأنت عبارة عن تركيبة معينة مصنوعة ، والإرادة أيضا مصنوعة وفق مراد الصانع ، فكل شيء يتم وفق الصانع وليس وفق المادة المصنوعة ، فالفارق بين الخالق والمخلوق مثل الفارق بين الصانع والمادة المصنوعة ، فعليك أن تستلم للخالق وتتوكل عليه يفعل بك ما يشاء .

ـ الأصل أن الإنسان لا يملك شيئا ولا يسمع ولا يبصر وليست فيه روح يتحرك بها ، فلا يزيد الإنسان عن أنه مجرد قطعة من الطين لا تتحرك ، أما ما عند الإنسان من روح يتحرك بها وسمع وبصر وممتلكات من أموال ومسكن وأولاد ومناصب وملابس كل ذلك هو نعم من الله على الإنسان وهي أمانة أو هدية وليست ملكا للإ نسان ، فالإنسان يتحرك ويسمع ويبصر بأمر الخالق فإذا تخلى الله عنه لحظة لم يعد يسمع أو يبصر وهلك ، فكل شيء يعمله الإنسان ويملكه هو بحول الله وقوته .

ـ فالعلم الحقيقي بأن الإنسان مصنوع وليس صانعا وليس مستقلا بذاته وأنه جزء من ممتلكات صاحب هذا الكون ، وبتعبير آخر فالعلم الحقيقي بأن الإنسان وكل شيء مخلوق هو الشعور بأن الإنسان خاضع لله تعالى .

ـ نسيان نعم الله معناه أن الإنسان يتحرك كما لو كان مالكا ، فإذا سلب الله منه نعمة حزن وتضايق ، فأنت لك حق أن تحزن فقط إذا ظلمك أحد بأن أخذ منك شيئا مما تمتلكه أنت فأخذ منك شيئا هو حقك ، أما إذا أخذ الله منك شيئا كان قد أقرضك إياه لفترة ثم يسترد ما يملك فهذا حقه ، بل إننا إذا عرّفنا الإنسان على أنه قطعة من الطين وأن كل ما يزيد عن ذلك من روح وسمع وبصر وأموال هو نعم من الله علي الإنسان وملك لله تعالى لم نكن محقين لأن قطعة الطين هذه هي ذاتها ملك لله تعالى ، لذلك لو عذب الله جميع خلقه

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 8101 في صحيح الجامع)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 8125 في صحيح الجامع)
(3) التخريج : متفق عليه (مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5524)
(4) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 2 ، ص : 1429 ، برقم 4275)
(5) الزمر : 23

لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأنهم شيئا من ملكه ومالك الشيء له أن يفعل بما يملك ما يشاء .

ـ فإذا عرف الإنسان ذلك معرفة حقيقية حدث له شعور بالخضوع لأنه ضعيف والضعيف يخضع للقوى ، وحدث له توكل تام على الله في كل شيء ، وحدث له شعور بحب الله لما أعطاه من عظيم النعم ، وحدث له خوف من مهابة مدى عظمة الله وقدرته عليه ، وحدث له رجاء وطمع فيما عند الله ليعطيه .

ـ شعور الإنسان بأنه مخلوق معناه شعوره بأنه واقع تحت سيطرة وهيمنة أحد له القوة والقدرة الكاملة عليه ، وأنه أسير وليس حرا فهو خاضع تحت أمر وتصرف سيده ، والشعور بضعفه ونقصه واحتياجه للخالق ليحيا ويقضي حاجاته ، فإذا لم يشعر الإنسان بذلك فهو غافل عن معنى أنه مخلوق وإن كان موقنا بذلك تماما لأن ذلك اليقين عندئذ هو يقين نظري فقط .

ـ أما من عرف ذلك معرفة نظرية فقط عاش في غرور بما عنده ظنا منه أنه يملك ما عنده ، وحزن إذا سلبت منه نعمة ولم تتأثر مشاعره بالتوكل والخضوع والحب والخوف من الله تعالى .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بلقاء الله :

ـ إنك علي موعد مع الخالق نفسه تكلمه ليس بينك وبينه واسطة ولا مترجم ولا حجاب يحجبك عنه ، ففي الحديث : ((ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة))[1] ، فيحاسبك ويكلمك ويسألك وتجيب عليه وتكلمه ، فالذي يشعر بهذا اللقاء يشعر بخوف المهابة والخضوع لله بدليل الآية : ((وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وأنها لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِينَ ، الذينَ يَظُنُّونَ أنهم مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إليه رَاجِعُونَ))[2] فمعني (يظنون) أي يوقنون ، واليقين هنا ليس مجرد الاقتناع النظري فقط وإنما هو شعور بلقاء الله ، فمجرد الاقتناع النظري بلقاء الله لا يعطي ا لإنسان الشعور بالخشوع في الصلاة ولكن فقط الذي يشعر بلقاء الله يشعر بالهيبة والرهبة والخشوع و الخضوع لله تعالى ، فإنه لقاء مهيب ورهيب لو تصورته وشعرت به ، فالآية تربط بين الخشوع في الصلاة و الشعور بقدر لقاء الله فكلاهما وقوف بين يدي الله ، فيقول ابن القيم : ((للعبد بين يدي الله موقفان : موقف بين يديه في الصلاة , وموقف بين يديه يوم لقائه ، فمن قام بحق الموقف الأول هوّن عليه الموقف ا لآخر , ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفّه حقه , شدّد عليه ذلك الموقف ، قال تعالى : { وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا } (الإنسان : 26 ، 27)))[3] .

****

ـ العلاقة بين الربوبية وبين الشعور بالخضوع :

ـ كل الناس عباد لله خاضعين له رغم أنفهم ، وهذه عبودية عامة ، وهي من الربوبية ، فمن عقل هذا النوع من العبودية وشعر به تحقق عنده الشعور بالخضوع وتحققت عنده العبودية الخاصة .

ـ فمجرد العلم بأن لنا خالقا فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا عبيدا خاضعين تحت سيطرته وقهره ، والذي يوقن أن له خالقا يقدر عليه ويسيطر عليه ويرزقه ويملكه ، ثم لا يشعر بمدى قدرة الخالق عليه ويشعر بأنه خاضع وواقع تحت سيطرة وهيمنة الخالق عليه ، ويشعر بأنه ضعيف لا يقدر على شيء ولا يملك شيئا ولا يملك من أمر نفسه شيء إذ أن القدرة كلها للخالق والملك كله للخالق ، وأنه بغير الخالق لا يستطيع أن يعيش أو يتنفس لأن الخالق هو الذي يرزقه ويمده بما يحتاجه ، فيشعر بالخضوع له وبالحب له ، كل هذا يشعر به الإنسان لمجرد أن يوقن يقينا حقيقيا بأن له خالقا ، فإذا لم يتحقق هذا الشعور بأهمية وخطورة

---

(1) التخريج : متفق عليه (7533 مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5550)
(2) البقرة : 45 ، 46
(3) الفوائد لابن القيم ـ دار الكتب العلمية - بيروت (1 / 200)

معنى أن له خالقا فقد أفرغ الكلمة من معناها الحقيقي ، أي أصبحت كلمة (خالق) مفرغة من الأهمية و الخطورة كأنها لا نفع فيها ولا ضرر ولا لذة ولا ألم ، فهو في حقيقة الأمر لا يعرف شيئا اسمه (الخالق) حيث أصبحت كلمة مفرغة من الأهمية والتأثير .

ـ فالموافقة على الإسلام يعني قبول الاستسلام والذل طوال الحياة للخالق ، فالإسلام معناه الاستسلام ، ومعنى أن الإنسان مسلما هو أنه يقبل أن يعيش حياته عبدا كالخادم عند سيده ، فيعترف بأن كل صفات العظمة والقوة والكمال والمحامد هي لله فقط وكل صفات الضعف والنقص والعجز والذل هي للإنسان ولكل شيء غير الله تعالى .

ـ فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين صفات الله وصفات البشر مثل القدرة والقوة والعلم ... الخ ، فصفات القدرة والقوة والعزة والعظمة والكبرياء والكمال للخالق تعني صفات الضعف والنقص والعجز والذل و الخضوع للمخلوق فعندئذ تشعر بمدى قدرة الله ومدى ضعفك فتشعر بمدى قدرة الله عليك ، إذن لابد من الشعور بضآلة وضعف الإنسان والشعور بعظمة الله وقدرته عليه ، فعندئذ يشعر الإنسان بالخضوع ، كما يشعر بالحب لله لاتصافه بصفات القوة والعظمة والجمال والكمال ، فإذا لم يشعر الإنسان بضعفه ونقصه وأنه لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه ويحتاج إلى من يقوم بأمره فهو لا يشعر بأن له خالقا ، فالمعنى الحقيقي لكلمة (خالق) أي الذي له كل صفات الجمال والكمال و(المخلوق) أي الذي فيه كل صفات الضعف والنقص وما عنده من صفات حميدة ليس بشيء أمام صفات الخالق ، فالخالق هو الذي له القدرة والغلبة والقوة والقهر عليك والذي يمدك بكل ما تحتاجه ، والذي لا تستطيع أن تعيش بغيره ، ومعنى كلمة (مخلوق) أي الضعيف الخاضع تحت سيطرة وهيمنة الخالق ، وهذه المعاني ينبغي أن تكون في شعور الإنسان وليس كمعرفة نظرية .

ـ فلابد من الشعور بأن لك خالقا هو الذي صنعك أنت وكل ما حولك ، وأنك وكل ما تملك عبارة عن جزء من ممتلكاته وكل أمرك بيده وأنت في يده ويستطيع أن يفعل بك ما يشاء ، وأنك لست حرا وأن عليك الاستسلا م والخضوع ، ألا يدعوا ذلك إلى الشعور بالذل والحاجة إليه وحبه والرهبة والخوف منه ! ، فالإنسان يحب أن يكون حرا مستقلا بمعنى أنه لا يحب أن يتحكم فيه أحد ولا يسيطر عليه أحد ، أما معنى أنه عبد أي أن هناك من يسيطر عليه ويتحكم فيه .

ـ فالقضية أن كلمات (خالق) و(رب) و(إله) في مشاعر البعض هي أمر عادي ، فكون أن له خالقا وإلها هو أمر عادي ليس له تأثير في المشاعر ، وليس لهذه الكلمات أهمية أو خطورة تذكر من ناحية المشاعر ، إذن في الاقتناع النظري فان الله هو ربنا وإلهنا وهو العظيم والكريم والقادر وكل صفات الجلال والكمال ، لكن في المشاعر لا يوجد شعور بما تعنيه هذه الكلمات من الهيبة والرهبة والخشية والخضوع والخوف منه سبحانه ، إن صفات الخالق تعالي ليست صفات عادية مثل صفات البشر ، فإن قدرة الخالق مبهرة تفوق كل التصورات وليست عادية فلماذا لا تنبهر ، وقدرته على أن يصنعك أنت فهذا أمر معجز وغاية في العجب ، فلماذا لا تشعر بالهيبة والانبهار والعجب والإعجاب والدهشة والغرابة والخشية والرهبة والخوف والخضوع والحب لله تعالي ، فهذا معناه أن شعور المرء بصفات الخالق مثل شعوره بصفات البشر ، فهو بذلك يسوي بينه وبين البشر : ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[1] ، وإن كان في الاقتناع النظري أن الله له كل صفات الجلا ل والكمال ، فنحن نتعامل مع صفات الخالق بدون أن نشعر بمدي عظمتها ومدي خطورتها ومدى تأثيرها وأثرها ، فإذا كان قدر الخالق وقدرته في شعور الإنسان يساوي صفرا ، وقدر ما يصدر عنه من نفع أو ضرر في شعور الإنسان يساوي صفرا ، فلا تتأثر ولا تتعلق به المشاعر ، فهذا معناه أن الخالق ليس له وجود في شعور الإنسان .

ـ التفكير السليم في صفات الخالق :

ـ صفات الخالق تدل على قوة الخالق وضعف الإنسان وبالتالي توجب على الإنسان الخضوع ، لكن الذي لا

(1) الشعراء : 98

ينظر هذه النظرة إلى صفات الخالق فهو يتناسى صفات الله وينسى الله ، أي يتناسى موجبات الخضوع في صفات الخالق .

****

ـ الشعور بوجود الله

ـ الشعور بوجود الله له معنيان هما :

1ـ الشعور بأنك ترى الله ، وهذا هو الإحسان وهو أعلى مراتب الدين ، لذلك قال عامر بن عبد القيس رحمه الله : ((لو كشِف الغطاء ما ازددت يقيناً))[1] ، وقال آخر : (لو رأيت الجنة والنار ما ازددت يقيناً) .

2ـ الشعور بأنك واقع تحت سلطان الله ، فقدرة الله عليك وعلمه بك يسيران معك في كل مكان ، وغياب هذا الشعور هو تغافل عن الله وغياب للإيمان ، ونوضح هذا المعنى كالتالي :

ـ الشعور بأنك واقع تحت سلطان الله :

ـ قدرة الإنسان على الرؤية مرتبطة بالمسافة وبوجود حواجز ، فهو لا يستطيع أن يرى أحد داخل حجرة وهو خارج الحجرة ، ولكن الله يستطيع ذلك ، وهو لا يستطيع أحدا على مسافة بعيدة جدا ، لكن مع الله لا شيء اسمه مسافات فهو يرى كل شيء ورؤيته أقرب ما يكون للشيء .

ـ وكذلك قدرة الإنسان على السمع مرتبطة بالمسافة وبوجود حواجز ، فهو لا يستطيع أن يسمع من بداخل الحجرة أو يسمعه بصورة ضعيفة ، لكن الله يستطيع أن يسمع من بداخل الحجرة كأنه لا توجد حواجز ويسمعه بوضوع تام ، وهو لا يستطيع أن يسمع من مسافة بعيدة ، لكن مع الله لا شيء اسمه مسافات فهو يسمع كل شيء وسمعه أقرب ما يكون للشيء .

ـ كذلك قدرة الإنسان محدودة ، فمثلا قدرته على أن يتعرض لأحد بأذى مرتبطة بالمسافة وبوجود حواجز ، فهو لا يستطيع أن يتعرض لأحد بأذي موجود داخل الحجرة وهو خارج الحجرة ، ولكن الله يستطيع أن ينفعه أو يضره بقوله كن فيكون رغم أن الإنسان موجود داخل الحجرة ، وهو لا يستطيع يتعرض لأحد بأذى وهو بعيد عنه بمسافة كبيرة ، لكن مع الله لا يوجد شيء اسمه مسافة فيستطيع أن ينفعه أو يضره بقوله كن فيكون .

ـ وكذلك قدرة الإنسان على السمع والبصر والعلم بما يحدث محدودة ، ولكن الله يستطيع أن يسمع ويرى ويعلم كل ما يحدث وكل ما يعمله ملايين الخلائق وكل شيء في أن واحد ، ويعلم دَبِيب النملة السّوْدَاء على الصّخْرَة الصماء فِي اللّيْلَة الظلماء ، فهذه قدرة هائلة جدا : ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[2] .

ـ قد يسأل سائل : هل وجود الخالق هو أمر مخيف ومذهل وخطير ومحير أم أنه أمر عادي ؟ ، أي هل مسألة وجود الخالق تدعو للخوف والإعجاب وانشغال البال والتحير ؟ ، والجواب : وهل هناك شيء بعد الله يدعو للخوف والإعجاب وانشغال الهم والتحير ؟ ، إن وجود الخالق معناه وجود قدرة هائلة إلى حد مرعب ومخيف فهي قدرة أوجدت كل هذا الكون الهائل وهي قدرة تسيطر على الإنسان ، فالإنسان يتحير من مدى هذه القدرة ويخاف من مهابتها ، فهو كلما سار يمينا وشمالا لا يستطيع الخروج من قدرة الملك فهي قدرة تحكمه وتصله في أي مكان ولا يستطيع التخفي أو الهروب منها ، فقدرة الله يمكن أن تناله في أي وقت وفي أي مكان فهو يعيش في حالة رعب تحت السيطرة الكاملة ، فقدرة الله ورقابته مصاحبة للإنسان في

(1) الرسالة القشيرية ـ دار المعارف، القاهرة (ج : 1 ، ص : 318)
(2) الأنعام : 59

كل لحظة .

ـ فاليقين الحقيقي بوجود الخالق معناه الشعور بوجود من له القوة والهيمنة والسيطرة على الإنسان والكون ، وبالتالي يعيش في إطار أنه مقهور يعيش تحت سيطرة صاحب هذا الكون راضيا بأن عليه أن يعيش عيشة الذل والخضوع والاستسلام للجبار المتكبر ، ولكن الإنسان يتصنع الهروب من سيطرة الملك .

ـ كذلك علم الله هائل جدا ، فهو يسمعك ويراك ويعلم بكل شيء في كل مكان بل إنه سبحانه يعلم ما سيكون في المستقبل فذلك يدعو إلى التحير والذهول والخوف والإعجاب بمدى هذه القدرة الهائلة ، فالإ نسان يعيش تحت المراقبة والسيطرة الكاملة .

ـ ففي أيسر التفاسير : (({ وهو معكم أينما كنتم } أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم))[1] ، وفي أيسر التفاسير أيضا : (({ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد } أي نحن بقدرتنا على الأخذ منه والعطاء والعلم بما يسر ويظهر أقرب إليه من حبل الوريد الذي هو في حلقه))[2] ، وفي تفسير مراح لبيد : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم ، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله، وبنفوذ قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه))[3] ، وفي تفسير القرطبي : (({ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ : مَا نَظَرْتَ إِلَى شيء إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَيَّ مِنْهُ))[4] .

ـ تناسي الصلة بين الإنسان والخالق :

ـ لو أن إنسانا عنده من الغنى والثراء الكثير وعنده من أسباب القوة الكثير ويعيش في قصر فخم ، وآخر فقير وضعيف ويعيش في كوخ ، فالفقير يعلم بفقره وضعف نفسه ويعلم بقوة هذا الرجل الغني ومدى ما يمتلك من ألوان الثراء ، لكن كل واحد يعيش في مسكنه بعيد عن الآخر وكل واحد في شأنه لا علاقة بالآخر ، ولا يتدخل أحدهما في شأن الآخر ، فهذا الفقير لن يشعر بالخضوع أو الخوف من الغني طالما أنه لا صلة بينهما ، لكن إذا كان هذا الفقير لا بيت له وهو يعيش داخل قصر هذا الرجل الغني ، وكان هذا الرجل الغني هو حاكم البلاد وهو الذي ينفق عليه ويرعاه ، فهنا يشعر الفقير بالخضوع والخوف والحب لهذا الرجل الغني .

ـ فقد يتصور الإنسان أنه يعيش بعيد عن الله ، وأنه يعيش في شأنه منعزل عن الله ولا تصله قدرة الله ، وحيث أن الله لم يجعل الدنيا دارا للحساب للثواب والعقاب وجعلها دارا للعمل فالإنسان حر في أن يعصي أو يفعل ما يشاء ، فيحسب الإنسان أن الله ليس له سلطان عليه وأنه تركه يفعل ما يشاء .

ـ فلابد أن يشعر الإنسان أنه يعيش في ملك الله وتحت سلطانه وفي أي مكان يسير فيه تكون معه قدرة الله ومراقبته وهذا أمر مرعب لمن يفقه ، فعندئذ فقط يتحقق الشعور بالخضوع ويعيش الإنسان حياته خاضعا خائفا مترقبا لقاء الله والآخرة .

****

ـ الشعور بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب

ـ المراقبة لها ثلاثة معاني هي :

1ـ شعور الإنسان بأن الله هو السميع العليم البصير الرقيب الشهيد ، وغياب المراقبة بهذا المعنى هو تغافل عن الله وغياب للإيمان ، والمؤمن لابد أن يشعر دائما بأن الله سميع يسمعه وعليم يعلم ما يفعله ورقيب

---

(1) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5/ 259)
(2) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (5/ 143)
(3) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ـ دار الكتب العلمية - بيروت (2/ 446)
(4) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (17/ 231)

يراقبه .

2ـ قوة هذا الشعور ، والمراقبة بهذا المعنى من كمال الإيمان .

3ـ الإحسان بمعنى العمل الناشئ عن مراقبة الله ، والإحسان أعلى مراتب الإيمان .

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب :

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب هو الشعور بالمراقبة بالمعنى الأول السابق ذكره ، أي الشعور بأن الله يسمعك ويراك ويرقبك دائما ، وعدم وجود هذه المراقبة تعني غياب اليقين الحقيقي بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب ، رغم وجود اليقين النظري التام بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب .

ـ وقوع الإنسان تحت السيطرة التامة والمراقبة التامة :

ـ تصور لو أن إنسانا يسير وراءك في كل لحظة لا يفارقك ويمسك بمسدس يصوبه نحوك ومعه كاميرا تسجل عليك كل شيء بالصوت والصورة ، فكيف تعيش حياتك إذا ؟ ، قدرة الله وعلمه يسيران معك في كل لحظة ، فأنت تعيش تحت سيطرة كاملة ومراقبة تامة .

ـ والإنسان إما أن يعلن استسلامه لهذه السيطرة فهو مسلم ، وإما أنه يريد أن يهرب من هذه السيطرة ولكنه لن يستطيع ، فيتناسى أنه مراقب وأنه تحت سيطرة الله ، وهذا من الغباء ، ففي تفسير أبي السعود : (({ و الله مُحيطٌ بالكافرين } أي لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطُ به المحيطَ ، شبه شمولَ قدرته تعالى لهم وانطواءَ ملكوتِه عليهم بإحاطة المحيط بما أحاط به في استحالة الفوْت))[1] .

ـ الخضوع هو شعور بأنك واقع تحت قدرة المسيطر المهيمن الجبار القادر المالك العزيز .

ـ والشعور بالمراقبة يقوى ويضعف حسب الشعور بقوة الرقيب ، فلو افترضنا أن الإنسان يراقبه طفل من الأ طفال ، فلن يعبأ بأوامره وبكلامه ولن يوقره ويحترمه لأنه طفل قوته ضعيفة رغم أنه يعلم أن الطفل يسير معه ويرقب كل ما يفعله ، أما إذا افترضنا أن الإنسان يسير معه قوة مسلحة من الجيش بالدبابات من حوله والطائرات الحربية من فوقه والألغام والمتفجرات موضوعه في كل مكان يذهب فيه ، فلا يمكن أن ينشغل ذهنه عن هذه الرقابة الهائلة ، فقوة الله سبحانه أعظم من كل الجيوش في العالم مجتمعة وهي معك في كل لحظة .

ـ فمثلا لو سمعت أن رجلا خارقا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو .....الخ ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالهيبة والخشية والرهبة ، فان الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك : ((وَيَسْألُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبّي نَسْفاً))[2] ، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة ، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق وقدرة الله معك في كل لحظة تحيط بك ؟ ، إن الشعور بمدى قدرة الله يعني الشعور بـ الخوف من مهابته ، والشعور بالخوف من عقابه ، والشعور بالخضوع لله تعالى والتسليم بقدرته .

ـ فإذا لم يتحقق الشعور بمدى قدرة الله ، فلن يشعر الإنسان بقيمة رؤية الله له ، لأن مدى قدرة الله عندئذ تكون عنده مثل قدرة أحد من الناس فجعل رؤية الله له مثل رؤية أحد من الناس له .

ـ وإذا غاب الشعور بأن الله يسمعه ويراه ويعلم ما يفعله فإن الإنسان سوف يعمل ما يشاء ويترك الهداية لأنه عندئذ لن يحاسب طالما أنه لا يعلم أحد بما يفعله ـ في تصوره ـ ، ولو شعر بأن الله يراه لاهتدى أي لو شعر بمراقبة الله تعالى لاهتدى ، ففي التفسير القرآني للقرآن : (({ كلا } هو ردّ على هذا السؤال فى قوله تعالى :

(1) تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (1/ 54)
(2) طـه : 105

{ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } وكلا إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل شيء ، ولو كان يعلم هذا علما مستيقنا لخاف ربه وخشي بأسه، ولكن ضلاله أعمى قلبه، وأظلم بصيرته ، فلم يرى جلال الله، ولم يشهد عظمته، ولم يخش بأسه !))[1] .

ـ مفهوم الشعور بأن الله هو السميع البصير العليم الرقيب :

ـ هناك فرق بين الاقتناع النظري بأن الله سميع عليم رقيب ، وبين الشعور بأن الله يسمعك الآن ويراك ، فتخيل أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك بل وما تفكر فيه ، ألا تشعر بالخوف والقلق ، فإن الله يسمعك ويراك ويراقبك ، إذن لابد أن تشعر أن أحدا ما يراقبك ليلا ونهارا ويري كل ما تفعله وهذا معناه أن تظل هذه المراقبة علي بالك وفي همك دائما ، فإذا لم تشعر بأنك مراقب فهذا يعني أن شعورك بأن الله سميع وبصير غير موجود ، وإن كنت علي اقتناع نظري تام بأن الله سميع وبصير .

ـ كل الناس مسلمين وكافرين يوقنون بأن الله عليم بكل شيء : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ))[2] ، ولكن هذا عند البعض ليس إلا يقين نظري فقط فهم غافلون غير منتبهين لخطورة أن الله العظيم يعلم ما يفعلونه ، فحقيقة اليقين عند هؤلاء هو أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون : ((وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ))[3] .

ـ ولو وصل الإنسان إلى درجة الكمال في المراقبة لم يقع في ذنب أبدا ، وإنما يقع في الذنب إما لغياب المراقبة أو لضعف المراقبة (نقصد بالمراقبة التعريف الأول الذي هو الشعور بأن الله هو الرقيب) .

****

ـ الشعور بأن الله هو المالك

ـ مفهوم أن الله هو المالك :

ـ أنت تعيش في ملك الله وتأكل من رزقه وتسكن في أرضه وأنت نفسك جزءا من ملكه فيجب عليك أن تعيش معيشة العبيد فلست حرا تفعل ما تريده لنفسك ولكنك عبد تعيش من أجل سيدك .

ـ كل هذه المساكن والمدن التي يعيش فيها الناس لها مالك واحد فقط هو الخالق سبحانه ، والناس يعلمون ذلك لكنهم قد ألفوا المعيشة في هذه المساكن وعاشوا فيها زمانا يحسبون أن المساكن التي يسكنون فيها هي بيوتهم ، ويحسبون أن ما وجدوه في هذه الأرض من خيرات هو ملكا لهم ، ويحسبون أنهم أحرارا يفعلون ما يشاءون ، لذلك فهم يتناسون الأمر كأنهم لا يعلمون .

ـ إن هذا الكون الهائل لابد له من خالق ، والذي يخلق شيئا فإنه يملكه ، إذن فهو المالك ، هذه المعلومة البسيطة لا نتعامل معها كمعرفة نظرية ولكن نعرفها معرفة حقيقية حيث يحدث شعور بالقيمة لخطورة هذه المعلومة وخطورة ما تعنيه ، لأن هذا يعني أن عقود التمليك التي عندنا في الدنيا مجازية للتعامل بيننا في الدنيا فقط وليست عقود حقيقية لأنه في الحقيقة لا أحد يملك شيئا فالله هو المالك لكل شيء وإنما هي أمانة وعارية ملك لله ويستردها الله منا وقتما يشاء ، لذلك فمَنْ اعتقد أنه يملك شيئا ملكا حقيقيا فقد أشرك : ((لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ))[4] ، ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ))[5] ، ((أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ))[6] ، ((وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ))[7] ، ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ **يَمْلِكُ السَّمْعَ**

---

(1) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (16/ 1629)
(2) الزخرف : 9
(3) فصلت : 22 ، 23
(4) غافر : من الآية 16
(5) الفتح : من الآية 14
(6) يونس : 66

وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[2] .

ـ إن كل ما عندك وكل ما معك من مال ومسكن وزوجة وأولاد ومنصب وجاه وكل النعم وكل شيء ملكا لله تعالى بل أنت نفسك ملكا لله ، لأن الذي خلق شيئا فهو يملكه ، وكذلك كل ما يكتسبه الإنسان من تكريم ومن أفضلية ومن سمع ومن بصر وإرادة وعقل وقدرات ، ولكن الإنسان يظن أن ما به من يد وعين وأنف ....إلخ ملكا له ، فإن الله هو المالك لأنه الخالق ويتضح ذلك كالتالي :

ـ المال ملك لله : ((وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ))[3] ، ((وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ))[4] ، و المال تشتري به طعام وشراب ...الخ ، وأي شيء تشتريه مصدره النبات أو الحيوان أو مادة الأرض وذلك ملك لله تعالى ، كما أن المال رزق الله وليس من كدك وتعبك ، فلا يجوز للإنسان أن يتصرف في المال كيفما يشاء لأنه ليس ملكا له وإنما هو ملك لله ، فيتصرف فيه كيفما يريده الله منه لأنه مالك هذا المال .

ـ كل ما يصنعه الإنسان هو من مادة الأرض أو نبات أو حيوان ، وكل ذلك ملك لله تعالى وليس لك فضل في تصنيعه فالله هو الذي صنعه ، ففي تفسير الطبري : ((عن قتادة : { والله خلقكم وما تعملون }[5] بأيديكم))[6] ، وقابلية تحويل المواد من مادة إلى مادة أخرى هي من خواص أودعها الله فيها فقد سخرها الله للإنسان لتقبل التحويل إلى مادة أخرى ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ))[7] ، ((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[8] ، و المخترعات تنشأ من تطويع مواد الأرض وهي ملك لله ، والله الذي سخرها وعلم الإنسان كيف يستفيد من تسخيرها ، والطاقة التي تدير الموتور هي من صنع الله سبحانه فلا يغتر الإنسان بذلك .

ـ فما يعمله الإنسان ليس جلب للرزق فهو فقط يسقي الأرض فيخرج الزرع ، ويحفر الأرض ليستخرج المعادن والبترول ويقوم بالصناعة ، فهو لم يصنع الماء والتراب والبذور التي تنبت الزرع ، ولم يصنع المعادن والبترول الذي في باطن الأرض ، فالزراعة والصناعة هي من الرزق : ((أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ))[9] ، فأعمال الإنسان الدنيوية ليست إلا تحصيل رزق موجود وليس إيجاده ، فحقيقة الأعمال الدنيوية مهما كانت تبدو ضخمة ومعقدة هي مجرد لعب ولهو : ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[10] .

ـ ولو كان الرزق موجود في شكل جبل عند مكان ما ، لذهب الناس ليأخذوه كله ويبعثروه ويضروا أنفسهم بكثرة الطعام والشراب وغير ذلك ، ولكن الرزق موجود بشكل معين بحيث كلما احتاج الإنسان أخذ نصيبه الذي يحتاجه .

ـ القوة في الجسم رزق أيضا وليس معني أنك تأخذ بأسباب القوة أنك صاحب ومالك هذه القوة أو أنك جلبتها لنفسك ، فالعمليات التي تتم داخل الجسم لتحويل الطعام إلى عضلات هي من أمر الله ، وكذلك كل ما يكتسبه الإنسان من تكريم ومن أفضلية ومن سمع ومن بصر وإرادة وعقل وقدرات .

ـ أعضاء الإنسان من أنف وعين وكلية .. الخ هي ملك لله وليست ملكا لصاحبها ، لذلك أفتى بعض العلماء

---

(1) النمل : 91
(2) يونس : 31
(3) الحديد : من الآية 7
(4) النور : من الآية 33
(5) الصافات : 96
(6) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 21 ، ص : 70)
(7) الحج : من الآية 65
(8) الجاثية : 13
(9) الواقعة : 63 ـ 72
(10) الحديد : من الآية 20

بعدم جواز بيعها ، ففي كتاب بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة : ((القول الثاني : لا يجوز بيع الأعضاء وهو ما أفتى به المجمع الفقهي ، الأدلة على التحريم أن أعضاء الإنسان ليست ملكاً له ، ولم يؤذن له ببيعها شرعاً فيكون بيعها داخلاً في بيع الإنسان ما لا يملك))[1] ، والإنسان ليس حرا في جسده يفعل به ما يشاء لأن جسده ليس ملكا له لذلك فالتدخين حرام لأن فيه ضرر لشيء أنت لا تملكه ففيه إفساد لما خلقه الله : ((وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ))[2] ، ((وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ))[3] .

ـ الإنسان لا يملك سمعه ولا بصره : ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ))[4] .

ـ عقل الإنسان ليس ملكا له ، فالله هو الذي صمم له العقل وصمم له الطريقة التي يفكر بها العقل ويقوم بوظيفته ، وهو الذي وضع للإنسان قانون الأسباب .

ـ والعقل له إمكانيات هائلة ولذلك فالإنسان مغرور به ويظن أنه يفعل به المخترعات والأعاجيب بفضل عقله وينسى أن الله هو الذي صنع له هذا العقل ، وبالتالي ما يصنعه الإنسان من مخترعات كالسيارة هو من صنع الله تعالى ، ففي تفسير الطبري: ((وقوله { وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل إبراهيم لقومه: والله خلقكم أيها القوم وما تعملون ، وفي قوله { وَمَا تَعْمَلُونَ } وجهان: أحدهما: أن يكون قوله"ما" بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم ، والآخر أن يكون بمعنى"الذي"، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه: أي والذي تعملون منه الأصنام، وهو الخشب و النحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم ، وهذا المعنى الثاني قصد إن شاء الله قتادة بقوله: الذي حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: { وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } : بِأَيْدِكُمْ))[5] ، والأشياء مسخرة لتستجيب للإنسان وتنفعه وليس هو الذي يسخرها في الإغراض التي يريدها ، كما أنه لا يصنع الشيء من العدم بل يستفيد مما في الأشياء من مزايا التسخير ، فعقل الإنسان ليس ملكا له كما آن عقله ناقص وعاجز أمام علم الله ، وهذا معناه مطلق الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ـ والطعام الذي تأكله ليس ملكا لك ولم تحضره من كدك وتعبك إنما هو ملكا لله وهو الذي أنعم به عليك ، وكذلك الملابس التي تلبسها هي ملكا لله وليست ملكا لك وقد أنعم الله بها عليك ، لذلك ففي الحديث : ((من أكل طعاما ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر))[6] ، فإذا قال هذا الدعاء وهو يشعر أن هذا الطعام فعلا أطعمه الله به وما يلبسه إنما كساه الله به من غير كده وتعبه ومن غير حول منه ولا قوة فإن الله يغفر له ذنوبه ، وهو عندئذ قد حقق الشعور بأن الله هو المالك وبأن له صفات الإنعام فيخضع له ويحبه ويطيعه ، فالأصل أن كل الناس جائعين والله يطعمهم ، عراه والله يكسيهم ، ضالين والله يهديهم ، ففي الحديث القدسي : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[7] .

ـ لذة ملئ البطن ولذة إخراج المني هي نعم من الله على الإنسان يجب أن يشكره عليها ويستعمل هذه النعم ليس كما هو يريد ولكن في إطار الحدود التي وضعها الله وبلا إسراف .

ـ الجاه والمنصب ملك لله : المنصب والجاه رزق مثلما المال رزق وليس من أخذك بالأسباب وكدك وتعبك أو الحصول علي شهادة (وكذلك المكانة العلمية رزق من الله تعالى) .

---

(1) بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة (ج : 13 ، ص : 2)
(2) البقرة : من الآية 195
(3) النساء : من الآية 29
(4) يونس : 31
(5) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (21 / 70)
(6) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 6086 في صحيح الجامع) |
(7) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4345 في صحيح الجامع) |

ـ العائلة : الذي يجعل العائلة لها إسم كبير وشرف وجاه هو المنصب لمَنْ فيها أو المال لمَنْ فيها أو الممتلكات وكل ذلك هو ملك لله تعالى .

ـ والعلم يملكه الله : ((وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ))[1] ، ((وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شيئا))[2] ، فالعلم والحكمة نعم يؤتيها الله للإنسان : ((وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إلا قَلِيلا ً))[3] ، ((يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبَابِ))[4] ، فمن الناس من يعبد عقله فهو يظن أنه يصنع الكثير من وسائل التقدم العلمي والتكنولوجيا بعلمه فيظن أن لا أحد أعطاه هذا العلم وأنه اكتسبه من نفسه وأنه هو الذي سخر هذه الأشياء لصالحه وليس أنها مسخرة ومجهزة لخدمة الإنسان .

ـ الإنسان نفسه ملك لله تعالى لأن الله خالقه ، وخالق الشيء فهو يملكه .

ـ فما عند بعض الناس من مال أو جاه أو جمال ... الخ هو في الحقيقة نعم من الله عليهم وليس شيئا من عند أنفسهم ، لذلك لا تجب محبتهم لما عندهم ، وبالتالي من الولاء والبراء ألا تحب الناس لما عندهم من الدنيا ولكن لما عندهم من الدين ، فيكون قدر محبتك للإنسان بقدر ما عنده من الدين وقدر بغضك له بقدر بعده عن الدين .

ـ السعادة مخلوقة وهي ملك لله تعالى :

ـ الشعور باللذة والمتعة والسعادة أو بالألم والضيق والعذاب هو عبارة عن إشارات عصبية يتم ترجمتها في المخ فيحس الإنسان بالألم مثلا ، فإن الله هو الذي صنع هذه الطريقة وهذه الأجهزة كما أنه يستطيع أن يجعلك تشعر بالسعادة بغير هذه الطريقة وبدون سبب إذا أراد ، إن الناس يسعون إلى الشهوات لما يجدون فيها من الشعور باللذة والمتعة والسعادة ، فإن الله هو الذي خلق لك هذه الترجمة في المخ لتشعر باللذة ، كما أن الله سبحانه هو الذي جعل الطعام والشراب والجماع فيه لذة ولو شاء لسلب هذه اللذة وعندئذ فـ الناس سوف تبتعد عن الطعام وعن الزواج فتضيع الذرية ويهلك الناس ، فمثلا الله سبحانه سلب خاصية الإ حراق من النار فلما وضعوا سيدنا إبراهيم فيها لم يضره شيء ، وكذلك فـالله هو الذي جعل الألم يحدث عندما يمرض الإنسان حتى يلجأ إلى الله ثم يسعى للأخذ بأسباب الشفاء ولولا ذلك لبقي المريض حتى يموت لأنه لا يشعر بالألم ، فاللذة في الطعام والشراب والجماع هي نعم أعطاها الله سبحانه للبشر فأقبلوا على هذه النعم ونسوا من أنعم بها عليهم ، فبدلا من أن تكون سببا لمعرفة الله أصبحت سببا لنسيان الله تعالى فانشغلوا بالنعمة عن المنعم ، إذن الألم واللذة هي خواص مخلوقة موضوعة في الأشياء ، وإحساسك بـ السعادة هو أمر موضوع بداخلك ، وهذا يعني الشعور بالاستسلام والخضوع لله ، ويعني التوكل على الله ، فهو وحده الذي بيده سعادتك ، فإن الله هو الذي يملك السعادة فيعطيها فقط للمؤمن لأن السعادة الحقيقية هي السعادة النفسية وهي فقط للمؤمن ، فما بال ملوك الأرض ؟ والأرض كلها والأموال بين أيديهم و المعيشة الضنك لهم ! ، لذلك قال أحد العارفين بـالله : لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف : ((الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ **لَهُمُ الأَمْنُ** وَهُم مُهْتَدُونَ))[5] ، ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[6] ، أما غيرهم فمحرومون من السعادة النفسية : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكرِي فَإِنّ لهُ **مَعِيشَةً ضَنكًا** وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعمى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى))[7] .

ـ الشعور بأن الله هو المالك :

(1) البقرة : من الآية 216
(2) النحل : من الآية 78
(3) الإسراء : من الآية 85
(4) البقرة : 269
(5) الأنعام : الآية 82
(6) النحل : الآية 124 ـ 126
(7) طه : من الآية 17

ـ إن معني أن الله هو المالك وأن الإنسان لا يملك شيئا هو أن يتنازل الإنسان عن كل شيء يملكه (يتنازل عن نفسه وممتلكاته وأهله وكل شيء) وينسبه إلى الله ، وهذا هو أصعب شيء علي الإنسان ، فالنعم فيها متع للإنسان ، كما أن التنازل عن كل شيء معناه الاستسلام والشعور بالخضوع والذل لمَنْ يملك روحك ، وأن تقبل الذل في أن ما عندك إنما هو محض تكرم وإنعام ومنة من الله عليك .

ـ تخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حـ الك ؟ ، وكذلك الحال فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكا لك ، إنما هو ملك لله ، وكذلك المال الذي معك إنما أعطاك إياه الله وهو مال الله ، ولذلك إذا أردت أن تعصي الله فاخرج من تحت سماءه ومن فوق أرضه واخرج من ملكه إن استطعت !! .

ـ فالنفس تأبي أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل ، وأصعب شعور علي النفس هو الذل فلا تريد أن تركع وتسجد ، فالركوع والسجود معناه الإقرار بالذل والا عتراف بالنقص ، لذلك قد يركع الإنسان ويسجد بجسده لكن النفس تأبى أن تركع وتسجد أي تأبى أن تقر بـ الذل وتعترف بالنقص ، وركوع الجسد عندئذ وسجوده لا قيمة له ، والإنسان يظن أنه هو الذي جلب هذه النعم لنفسه لذلك فهو يخضع لنفسه وهواه : ((أَرَأَيتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنت تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[1] .

ـ الإنسان ليس صاحب النعمة ولا الذي أنعم بها علي نفسه ، فالإنسان قد يظن أنه هو الذي جلب النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه كما قال قارون : ((إِنمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندِي))[2] كالمال والمسكن والعمل والجاه و السلطان فيظن أنها ملكا له وأنه مستحق لها ، لذلك عند الموت فلا يريد أن يترك النعم كالمال والمسكن و الزوجة والأولاد والجاه والسلطان أو نعم كالعين والأنف والصحة ...الخ ، ولأنه يظن أنها ملكا له ولا يحق لأ حد أن يأخذها وإلا كان ظالما ولذلك عند الموت تخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم ، ويكره مَنْ يقبض روحه لأنه لا يشعر بأنها أمانة أو عارية يستردها صاحبها (وهو الله سبحانه) ، ولا يشعر أنه هو نفسه ملك لله تعالى ، ولذلك علمنا الرسول صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ أن نقول إذا توفي أحد : ((لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده إلى أجل))[3] .

ـ فيجب أن يشعر الإنسان بقيمة الماء الذي يشربه فهو محض نعمة عظيمة من الله على العبد ولكننا لا نشعر بعظمة النعم واحتياجنا إليها وأنها محض تكرم من الله وأنها ليست ملكا لنا ولا حقا لنا ففي الحديث : ((لما نزلت { ثم لتسألن يومئذ عن النعيم } قال الزبير وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء قال أما إنه سيكون))[4] أي سيكون من النعيم أن تسأل عن هذا التمر والماء ، وفي الحديث : ((يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا فيقول لا ، فيقول له اليوم أنساك كما نسيتني))[5] ، وفي حديث آخر : ((... فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى أي رب ، فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا ، فيقول إني أنساك كما نسيتني ...))[6] .

ـ والإنسان يظن أن ما به من روح هو أمر عادي وأن هذه الروح ملكا له وبها حياته الخاصة .

ـ المالك يعني أن الله له ملكية كل شيء ، فإذا ما تنازل الإنسان عن كل ما يملك وعن نفسه لينسب ذلك إلى الله المالك الحقيقي فيشعر أن ذلك محض تكرم وإنعام من الله فيحبه ويذل لعطاءه مدين له بالولاء مرهونا وأسيرا لفضله منكسر النفس غير حر لأنه عنده النقص والعوز معترفا بذلك غير قادر على أن يقيت نفسه (فالله هو المقيت أي الذي يعطيه القوت) والله يمده باللقمة التي يأكلها وهو أسير وعبد لإحسانه منكسر المشاعر يشعر بالعجز أمامه ويشعر بأنه ما له حول ولا قوة ، ومن هنا يحدث كمال الحب والخضوع لله ، كما

---

(1) الفرقان : 43
(2) القصص : من الآية 78
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبو داود ج : 3 ، ص : 193 ، برقم 3125)
(4) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجة ، ج : 2 ، ص : 1392 ، برقم 4158)
(5) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع : برقم 7997)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع : برقم 7032)

أن المالك يفعل فيما يملك ما يشاء فله حق الأمر والنهي ، وقد جاء في تفسير معنى (إنا لله) في الآية : ((الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ))[1] أي : (({ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ **وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ** يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ))[2] وبالتالي الخضوع لأمر الله ونهيه .

ـ صعوبة الشعور بأن الله هو المالك (صعوبة الشعور بالخضوع) :

ـ ما يملكه الإنسان من ممتلكات يمثل حياة الإنسان وراحته ويجد فيها متعه وشهواته ، وبالتالي أصعب شيء على الإنسان هو أن يتجرد من كل ما يملك لينسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه (أي الشعور بأن الله هو المالك) كما يتجرد من كل الصفات التي يعتز بها كالقوة والإرادة والسمع والبصر لينسب كل الأ شياء إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه ، أي ينسب الإنسان لنفسه كل صفات النقص والعوز والعجز و الحاجة والضعف ، وينسب كل صفات الكمال لله ، وهذا معناه النقص والضعف والاحتياج إلى الله ، والنفس لا تريد أن تكون تابعة لغيرها ، تريد أن تكون مستقلة متحررة ذاتية معتمدة علي نفسها لا معتمدة علي غيرها (الله سبحانه) فلا تريد أن يكون فيها نقص أو عوز ، كما تريد أن تكون مالكة تدير نفسها وترزق نفسها ، والإنسان يظن أنه غير محتاج لغيره ، والله هو الصمد أي الذي يحتاجه الناس ، والنفس لا تريد أن تخضع وتركع لمن يمن عليها ولمن له قدرة عليها كما ترفض أن تعترف بعجزها أمام من هو أقوى ، فالنفس تريد أن تتصرف كما لو كانت هي التي أوجدت نفسها أو أنه لا أحد أوجدها ، رغم أنه في الاقتناع النظري تعلم بأن لها خالق : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ))[3] ، فالنفس تريد أن ينصرف الذهن والقلب لها لا لغيرها ، والإنسان يظن أنه هو الذي يملك ويظن أنه هو العليم الحكيم الذي يستطيع أن يدير نفسه بنفسه ، ولا يحتاج لعلم غيره وهو بذلك لا يشعر بأن الله هو الصمد (الصمد أي الذي يحتاج إليه الناس في كل شيء) .

ـ الله هو المالك سواء في الدنيا أو في الآخرة فهو المالك دائما وأبدا ((مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ))[4] ، ((فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى))[5] ففي الآخرة أيضا لا أحد يملك شيئا فالجنة والنار ملك لله تعالى ، وما يعطيه الله لأهل الجنة هو عطاء من عنده وليس ملكا لهم وليس يأخذونه كحق لهم ليملكوه نظير عملهم ، والله يفعل بملكه ما يشاء ، فانظر إلى الآيات : ((أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ))[6] فالجنة رزق ومحض إنعام وتكرم ، وفي الحديث : ((لن يدخل أحدا عمله الجنة ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته))[7] ، ولن يأتي أحد في الجنة ويقول هذا القصر إنما أوتيته علي علم وهو ملك لي ، فإنما هو نعمة من الله وملك لله ، وبالتالي فأصحاب الجنة يظل عندهم الخضوع والحب والذل لله مثل الملائكة وكل شيء ، أما أهل النار فلم يكن عندهم الحب والخضوع لله تعالي فهذا جزاؤهم .

ـ من أهم المشاعر الناشئة عن اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك هو عدم الخوف من أي ابتلاء ولو فقد كل شيء دفعة واحدة لأن الإنسان إذا فقد شيئا لا يخصه ولا يملكه لم يبكي عليه ، فما عنده من أمانة يأخذها صاحبها وليست تضيع منك ، لأنها تكون تحت تصرف صاحبها سواء بقيت معك أو أخذها منك .

****

ـ الشعور بأن الله هو المتكبر والعزيز والقوي والكبير المتعال

ـ الخالق لابد أن تكون له صفات الكمال في القدرة والقوة والعلم ، والمخلوق له صفات الضعف والعجز ، فصفات النقص تعني أن الإنسان خاضع ذليل ، وصفات القوة للخالق تعني أنه هو العزيز الذي يذل له الناس

(1) البقرة : 156
(2) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية - بيروت (1 / 338)
(3) الطور : 35
(4) الفاتحة : 4
(5) النجم : 25
(6) الصافات : 41
(7) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5222 في صحيح الجامع)

والمتكبر الذي يخضع له الناس .

ـ العلاقة بين الذليل والعزيز ، أو العلاقة بين الضعيف والقوي ، أو العلاقة بين العاجز والقادر ، أو العلاقة بين العبد والسيد ، أو العلاقة بين الخاضع والمتكبر ، أو العلاقة بين الفقير والغني ، أو العلاقة بين المملوك و المالك ، أو العلاقة بين الذي لا ينفع ولا يضر والنافع الضار هي علاقة خوف وخضوع وتعظيم وحب إعجابا بقوته ورجاءا واستعانة به وتوكلا عليه وطاعته ، فإذا شعر الإنسان بقوة الله وضعف نفسه شعر بالخوف و الخضوع والتعظيم والحب والرجاء وتوكل على الله وأطاعه ، وإذا لم يشعر الإنسان بقوة ما هو قوي وضعف ما هو ضعيف ففي عقله خلل ، هذا الخلل هو عدم مقدرته على الشعور بقيمة الأشياء ، وإذا فقد الإنسان الشعور بقيمة الأشياء رأى القوة والعظمة في المال أو الجاه أو الشهوات ولم يشعر بقوة الله وعظمته فكان خوفه وخضوعه وتعظيمه وحبه ورجاءه في الدنيا وتوكله عليها وعمله من أجلها فهذا هو عبادة الهوى .

ـ فاليقين الحقيقي بـالله يتحقق عندما يشعر الإنسان بقوة الله وقدرته وعظمته وضعف نفسه ، وينشأ عن ذلك الحب والخضوع والخوف والرجاء والطاعة ، واليقين الحقيقي بالآخرة يتحقق عندما يشعر الإنسان بخطورة الآخرة وضآلة الدنيا ، وينشأ عن ذلك خوف المهابة من أهوالها وخوف العقاب والشعور بالغربة و الطاعة .

ـ ولاحظ أن البشر ليس فيهم ضعيف وقوي ، فجميعهم ضعفاء والله وحده هو القوي : ((القُوّةَ لِلهِ جَمِيعاً))[1] ، وما عند الناس من صور القوة ما هي إلا عطاء من الله إليهم وليست ملكا لهم ، فالقوي بحق هو الذي يمتلك صفات القوة والقدرة ، فليس لأحد أن يتكبر على أحد أو يستعبده أو يستذله ، والله وحده هو المتكبر المعظم الذي يأمر الناس بأن يذلوا له ويركعوا له ويخضعوا له ويسجدوا له ويعيشوا عبيدا أذلاء لسيدهم رب العالمين ، وهذا شرف لهم وعزة لهم .

ـ عكس التكبر الخضوع وعكس العزة الذل وعكس القوة الضعف ، فالذي يكون متكبرا عزيزا قويا بحق يكون إلها ، والذي يكون خاضعا ذليلا ضعيفا يكون عبدا .

ـ فـالله هو القهار المسيطر ، والعبد يكون مقهورا واقعا تحت سيطرته ، والله يكون قادرا والعبد لا يقدر على شيء ، فالذي يستطيع أن يسيطر على غيره ويقدر عليه ، ويستطيع أن يعطيه أو يمنعه ويحرمه فهو قوي مسيطر والآخر ضعيف خاضع ، فـالله هو الملك على كل الناس وكل شيء ، والمسيطر على كل الناس وكل شيء ، ويستطيع أن يهلك الناس أو يعطيهم أو يمنعهم ، وهذا يستلزم قدرة وعلم على عمل ذلك الأمر .

ـ فالكبرياء والعزة من أخص خصائص الإله ، فالإله هو الذي يكون فيه هاتين الصفتين ، والعبد هو الذي تكون فيه صفة الخضوع والذل ، ففي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه : ((قال الله عز وجل : الكبرياء ردائي والعزة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار))[2] .

ـ إذن فالإله هو الذي تخضع له لأنه يقدر عليك فأنت ضعيف وهو قوي : ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً))[3] .

ـ الإنسان إما أن يعترف بضعفه أو يدعي القوة ، ويكون ذلك كالتالي :

1ـ إما أن يدعى القوة فهو يدعي أنه يملك أسباب القوة من مال وجاه وسلطان وشهوات ، بحيث يكون هذا ا لأمر في شعوره فهو بذلك يدعي بمشاعره وليس بلسانه أنه ليس عبدا وإن كان على يقين تام بأنه عبد لله .

2ـ أو يعترف بضعفه ويعترف بأن الله هو صاحب القوة ، فهو يستمد العزة من انتسابه إلى الله ، وهذا هو الذي يعبد الله تعالى .

(1) البقرة : من الآية 165|
(2) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 2 ، ص : 79 ، برقم : 541)
(3) البقرة : من الآية 165|

ـ مفهوم العزة والقوة :

ـ العلم والمال وكل ما عند الإنسان من مميزات وشهوات وقدرات كالعقل والإرادة هو مصدر عزة وقوة له ، فمن يشعر بأنه يمتلك هذه الأمور فإنه يشعر بأنه قوي وليس بضعيف وبالتالي لا يخضع لأحد ، أما الذي يشعر بأنه لا يملك شيئا وإنما كل هذه الأمور هي عطاء من الله ملكا لله وليست ملكا للإنسان فيشعر بأنه ضعيف وفقير وأنه مدين لإحسان من أحسن إليه ، فيشعر بأنه ضعيف وبالتالي فإنه يخضع لله القوي العزيز .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بأن الله هو العزيز :

ـ الإنسان يستمد القوة والعزة من القوي والعزيز ، فلجوء الضعيف واستعانته بقوة القوي هو قوة له ولكنها ليست قوة نابعة من ذاته ، فهو ذليل في ذاته لا قوة له ، وعنده عزة بما يستمده ويستعين به من قوة القوي العزيز ، لذلك فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فمن يعلم بوجود العزيز فإنه يستمد منه العزة .

ـ كل الناس يعلمون أن الله هو العزيز والقوي وأن غير الله ذليل وضعيف : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ))[1] ، لكن بعض الناس لا يعقلون ما يعلمونه فكأنهم لا يعلمون أن الله هو العزيز والقوي : ((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[2] ، أي لا يعلمون أن العزة لله ولمن يستمد منه العزة .

ـ فعلمهم بأن الله هو العزيز هو علما نظريا فقط وليس علما حقيقيا لأنهم لم يستمدوا العزة منه وإنما استمدوها من الأصنام ، لذلك فالكفار يتخذون أصناما لتكون لهم عزا ، ويبتغون العزة في أصنامهم : ((وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا))[3] ، ((الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً))[4] .

ـ أما اليقين الحقيقي بأن الله هو المتكبر والعزيز يؤدي بالضرورة إلى الخضوع وخوف المهابة والحب لله تعالى .

ـ كما أن اليقين الحقيقي بأن الله هو المتكبر والعزيز والقوي يؤدي إلى حب الانتساب إلى الله لينال العزة ، فيذل أمام الله ولا يذل لغيره ، أي اختار أن يكون الله سيدا له ، أي اختار أن يكون عبدا لله حبا لينال العزة فيشعر بالعزة بالله (فإن القوة عند سيدك قوة لك والعزة عند سيدك عزة لك) ، والشعور بالعزة هو شعور بالانتماء والانتساب إلى شيء يجد فيه النفع له ومصلحته ويستمد منه ما ينفعه ويعلي من شأنه ، فإن كان يشعر أن غير الله لا ينفع ولا يضر ويشعر أن الله وحده هو النافع الضار فلن يرتكن ويلجأ وينتسب إلى غير الله ، وعندئذ يشعر بالعزة بالله .

ـ أنت لا تستطيع أن تضرب طفلا لأن أبوه قوي ينتقم منك ، فالطفل ليست له قوة ولكنه يستمدها من أبوه ، فالطفل يشعر بالعزة ويكون شجاعا أمام الأقوياء لأن أبوه أقوى منهم رغم أنه ضعيف ، فكذلك العزة عند المؤمنين يستمدونها من انتماءهم لله ، فجميع الناس في ذاتهم لا قوة لهم ولا عزة لهم والقوة كلها لله والعزة كلها لله تعالى : ((فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً))[5] ، ((فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا))[6] ، ((إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا))[7] .

ـ ادعاء الإنسان بأنه عزيز وقوي ومتكبر وليس بذليل وضعيف وخاضع :

ـ الإنسان يقول بمشاعره وتصوراته ما لا يقوله باقتناعه النظري ، فهو مقتنع نظريا أن الله هو العزيز القوي المتكبر ، لكنه يتجاهل ويتناسى عزة الله وقوته وكبرياءه ويشعر بأنه عزيز وقوي ومتكبر ، ونوضح ذلك ك

---

(1) الزخرف : 9
(2) المنافقون : 8
(3) مريم : 81
(4) النساء : 139
(5) فاطر : من الآية 10
(6) النساء : 139
(7) يونس : 65

التالي :

ـ أسباب القوة والعزة والكبرياء هي ملك لله وليست ملكا للإنسان ، وبالتالي فالله هو القوى العزيز المتكبر وليس الإنسان ، فالإنسان يعتز بما عنده من مال أو جاه أو سلطان .. الخ ، والله صاحب كل النعم فهو العزيز والناس أذلاء ، والإنسان يظن أنه غني بما عنده من مال أو جاه أو سلطان ... إلخ ، والله صاحب كل هذه النعم فهو الغني والناس الفقراء ، والإنسان يتكبر علي غيره بما عنده من مال أو جاه أو سلطان .. فالله صاحب كل هذه النعم ، فالله هو المتكبر والناس جميعا عبيد إحسانه أذلاء إليه فقراء إليه محتاجون إليه .

ـ إن كل ما ينفع الإنسان فهو نعمة والله صاحب كل النعم ، إذن غير الله لا ينفع ولا يضر ، فالله هو النافع الضار ، والإنسان يعتز بما ينفعه ولا ينفعه إلا الله ، إذن لا يعتز الإنسان إلا بالله وبدينه ، وقال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله ، فينبغي أن ينظر المرء إلى الناس بقدر اتصالهم بالله فينظر إلى الإنسان الذي يرى أنه موصولا بالله باحترام وتوقير وحب في الله وإن كان لا يملك من الدنيا شيئا ، وينظر إلى صاحب الدنيا (من مال وجاه ... الخ) الذي يبدوا عليه أنه بعيد عن الله بغير احترام ولا تقدير في نفسه ، كما ينظر بعزة إلى الإنسان البسيط الذي لا يملك قدرات أو كفاءات أو خبرات ، ينظر إليه باعتزاز إذا كان يراه يتجه بقلبه إلى الله ويعيش من أجل الآخرة ، كما يعتز الإ نسان بدينه فيشعر بأن اكتسابه للحسنات أفضل من الدنيا وما فيها .

ـ إن العزيز هو الذي تستمد منه العزة والفخر لتجد فيه عزتك ، فمن الناس مَنْ يجد عزته وفخره بما عنده من مال أو جاه أو سلطان أو وضع اجتماعي .... الخ ونبين ذلك كالتالي :

ـ قد يعتز المرء بنفسه (عزة النفس أو كرامة النفس أو الكبر) ، وطالما أن الإنسان هو نفسه ملك لله تعالى ف لا يجب أن يعتز بنفسه ، وإنما يعتز بالله ، فالإنسان لا يجب أن يغضب لنفسه أو ينتصر لنفسه ولكن يغضب لله وينتصر لله ، وقد يعتز بالمكان أو الوطن أو الزمان أو العصر الذي يعيش فيه ، فالزمان والمكان مخلوقين وملك لله تعالى ، وقد يعتز المرء بالأصحاب وإن الأصحاب نعمة وملك لله تعالى ، فالله مالك كل شيء ، إذن لا يأنس المرء إلا بالله .

ـ وقد تعتز المرأة بجمالها ، فالجمال نعمة وملك لله تعالى ورزق من الله ، فلا معني لأن يعتز المرء بما لا يملك ، وقد يعتز المرء بقوته أو صحته أو ما يصنعه من تكنولوجيا ومخترعات فكل ذلك ملك لله تعالى (راجع الشعور بأن الله هو المالك) .

ـ الانتماء إلى الوطن أو القومية أو حضارة معينة كالفرعونية أو الجنس أو النسب أو العائلة أو المكانة الا جتماعية أو الشهادات العلمية والألقاب أو فريق كوره ... الخ بحيث يستمد الإنسان شرفه وعزه وفخره في هذه الأشياء وينسب نفسه إليها فذلك ذنب من الذنوب قد يصغر فيصبح صغيرة من صغائر الذنوب ، وقد يكبر حتى يصبح ابتغاء للعزة في هذه الأشياء واتخاذهم آلهة ليكونوا لهم عزا ، وذلك رغم اليقين التام بأن الله وحده هو العزيز وأنهم لا يجدون العزة إلا في الله ولكن كل ذلك يقين نظري وليس حقيقي .

ـ وكذلك من يعتز بما معه من مال ، أي يفرح بما معه من مال ، أي يحس في نفسه بالسعادة بما يمتلك من المال وذلك مثلما فعل قارون : ((إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ))[1] ، وكذلك من يفرح في نفسه بما معه من الدنيا والشهوات أو بالابتلاءات التي تحدث لغيره من الناس ، ((إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)) .

ـ وكذلك من يعتز بقوة جسمه أو بما عنده من علم وخبرة أو بجماله أو بمظهره أو بما يمتلك من حطام الدنيا الفانية أو بآباءه أو أقاربه بما عندهم من سلطان وجاه وبما لهم من صلاحيات وقدرات ، وكذلك التشبه بممثلين أو مغنيين أو لاعبين اعتزازا بهم وتفاخرا بالانتماء إليهم ...... الخ ، فكل ذلك ذنوب تصغر لتصبح من صغائر الذنوب وقد تكبر لتصبح طلبا للعزة من غير الله .

(1) القصص : من الآية 76

ـ وكذلك من يعتز بعقله ورأيه فيرفض أن يّخضع عقله لله تعالى وأوامره ، فالإنسان عليه أن ينفذ أوامر الله حتى ولو لم يفهم ويدرك الحكمة منها لأن عقله قاصر وعلمه ناقص وعلم الله تام ، والإنسان إذا أراد أن يعرف الحكمة فليس لذلك علاقة بتنفيذ الأمر أو عدم تنفيذه وإنما يتعرف على الحكمة إن استطاع ليزداد إيمانا .

ـ وكذلك الانتساب إلى الآخرين ومودتهم لما عندهم من أسباب القوة كالشهرة أو المال أو القدرة على الحرب أو الجاه أو السلطان كموالاة المشركين ومودتهم لما عندهم من قوة ابتغاء العزة بهم ونصرتهم .

ـ ولأن كل أسباب القوة من مال وجاه وسلطان ... الخ هي ملك لله فلا يحق لأحد أن يدعي العزة عنده أو عند غيره من الناس ، فالعزة كلها لله لأن القوة كلها لله تعالى .

ـ وكذلك من يعتز بما اكتسبه من خبرة في عمله ، أو بما اجتازه من نجاحات أو عقبات مرت به في حياته ، أو من علم ، فيشعر أن الفضل يرجع له ، خاصة عندما تكون له كفاءات ليست عند غيره من الناس ، ويشعر أن ما يتميز به عن غيره من الكثير من الناس أو بعضهم هو من كده وتعبه والفضل يرجع لذكائه مثلا أو لقدراته أو لخبرته ، والمشكلة من ناحيتين هما أنه يضخم من حجم هذه الأمور الدنيوية البسيطة ، وأنه يشعر بأن الفضل يرجع له ، ويغتر بما عنده من قدرات ، فينسى الإنسان قدره الحقيقي ، وينسى ما كان عليه قبل أن يحقق هذه الأمور سواء من نجاحات أو اجتياز عقبات ، وينسى أن ما في الدنيا من سعادة أو شقاء ليس بشيء لأن السعادة أو الشقاء إنما هي في الآخرة والدنيا زائلة بما فيها من سعادة أو شقاء ، فلا يفرح الإ نسان بشيء من الدنيا ، فمشكلة قارون أنه كان يفرح ويعتز بما عنده من مال ويظن أنه من كسب يده وبفضله هو : ((إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي))[1] ، فكل ما يعمله الإنسان أو يصنعه من تكنولوجيا مثلا أو يكتسبه من خبرة أو علم هو من الله ففي تفسير الطبري: ((وقوله { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل إبراهيم لقومه: والله خلقكم أيها القوم وما تعملون ، وفي قوله { وَمَا تَعْمَلُونَ } وجهان: أحدهما: أن يكون قوله"ما" بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم ، والآخر أن يكون بمعنى"الذي"، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه: أي والذي تعملون منه الأصنام ، وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم ، وهذا المعنى الثاني قصد إن شاء الله قتادة بقوله: الذي حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } : بِأيْدِيكُمْ))[2] أي الله خلقك وخلق ما تعمله أنت بيدك ، فليس لك فضل في شيء ، فالأمر كله لله والفضل كله لله تعالى ، فلابد ألا ينسى الإنسان الحكمة التي تقول : (رحم الله إمرءا عرف قدر نفسه) .

ـ ورغم أن الإنسان مطالب بالأخذ بالأسباب إلا أنها لا تنفع ولا تضر ، فمن ناحية أنها لا تنفع ولا تضر فهي لعب ولهو ، لأن الشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو لعب ولهو ، ولكن الله أمر بها كنوع من الاختبار ليرى هل سيفرح الإنسان بها ويعتز بها فتجعله يغفل عن الله أم يعملها وهو يعلم أنها لهو ولعب لا تجلب رزقا ولا تقدم ولا تؤخر ؟ .

ـ وكذلك الشعور بالمهانة والذل بسبب الفقر أو عدم وجود المكانة الاجتماعية أو الشهادة العلمية ... الخ ، فهو بذلك يرى العزة في هذه الأمور الدنيوية رغم أنه لا يملك شيئا منها ، والتحسر عند ذكر أصحاب الثروات أو النفوذ أو الدنيا ، ويرى في نفسه الأنفة والكبر عن أن يصاحب فقراء أو من هم أقل منه في المكانة الا جتماعية ، ويتبرأ من الأصحاب الذين هم أقل من مستواه الدنيوي ، ويشعر بالخزي والعار إذا كان له أقارب فقراء أو لا يملكون شيئا من حطام الدنيا ، وهكذا ، وفي تفسير ابن كثير : ((وقوله : { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض { لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } وذلك أن

(1) القصص : 76 ـ 78

(2) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (21 / 70)

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه في أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء و العبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قومُ نوح لنوح : { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } الآية [هود : 27] ، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له : فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم فقال : هم إتباع الرسل ، والغرض : أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرا – ويدعنا ، كما قالوا : { لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ } [الأحقاف : 11] ، وكما قال تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا } [مريم : 73] ، قال الله تعالى في جواب ذلك : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا } [مريم : 74]))[1] ، وفي تفسير ابن كثير أيضا : (({ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } والملأ هم : السادة والكبراء من الكافرين منهم : { مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا } أي : لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحي إليك من دوننا ؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا))[2] .

ـ فمقياس القوة والضعف عند المؤمن هو مقدار ما عنده من إيمان بـالله وانتساب إليه وليس بامتلاك أمور الدنيا ، فالقوة والعزة والعلو عند المؤمن هي قدر الإيمان عنده ، والكافر والمنافق ضعيف ذليل لأنه لا إيمان عنده : ((وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))[3] ، ((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ))[4] ، ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا))[5] ، فالمسلم يستمد العزة من العزيز ويستمد العلو من الأعلى ، لذلك فالمؤمن ينظر إلى الكافر على أنه ضعيف مسكين وإن كان يمتلك كل الدنيا ، كما ينظر إلى حاله في الآخرة فيراه مسكين قد أهلك نفسه .

ـ العزة نوعين إما عزة بـالله أو عزة بالدنيا :

ـ من الناس من يفرح بأنه متدين لأنه يرى الدين أمر عظيم فيحبه ويحب أن ينسب نفسه له ويؤيده ويعتز بانتسابه له ، فلا يرى الدين أعباء ولكن يراه خير له وكنز عظيم .

ـ ومن الناس من يفرح بأصحاب الثروات أو المناصب أو الشهوات أو يفرح بالثروات والمناصب والشهوات ، لأن يرى أن هذه الأمور عظيمة القدر فيحبهم ويحب أن ينسب نفسه إليهم ويؤيدهم ويعتز بانتسابه لهم .

ـ سبب العزة بغير الله هو التزيين والغرور :

ـ الإنسان يشعر بالانتماء إلى القومية أو الحضارة أو التكنولوجيا أو المال أو الشهوات أو الكورة .... الخ ، وذلك لأن الشيطان يزين للإنسان أن هذه الأمور ذات قيمة كبيرة في حين أنها ذات قيمة صغيرة ، كما يجعل الإنسان يتناسى قدر الله .

ـ فالعزة معناها الفرح ، فهناك من يفرح بالمال إذا زين له الشيطان أن فوائد المال عظيمة : ((إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ))[6] ، وهناك من يفرح بـالله عندما يشعر بفضله وبرحمته : ((قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ))[7] .

ـ فالعزة بـالله من أهم موجبات حب الله تعالى ، فالإنسان بفطرته يحب أن يكون فيه صفات الكمال و الجمال فإذا لم تكن فيه أحب الانتماء إلى من له هذه الصفات فيعتز ويفرح بانتمائه إليه ولأنه يرى قوة القوى قوة له ولأنه يستمد منه العزة والقوة .

---

(1) تفسير ابن كثير دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 3 ، ص : 261)
(2) تفسير ابن كثير دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 4 ، ص : 316)
(3) آل عمران : 139
(4) المنافقون : 8
(5) فاطر : 10
(6) القصص : من الآية 76
(7) يونس : 58

ـ الضعيف يحتمي بالقوى ويعتبر ذلك قوة له ضد غيره ممن لا يحتمي بهذا القوى ، فإذا أراد أن يعتدي عليه أحد لجأ إلى القوى الذي يحتمي به لينصره عليه ، فهو يخضع للقوى ويخاف من مهابته ويحبه في نفس الوقت .

ـ أما الذي يرى نفسه قويا فهو لا يحتاج إلى أحد فهو لا يخضع لأحد ، فإذا لم يتحقق في نفسه الشعور بـ الخضوع لله فهو بذلك يرفض الخضوع رغم وجود اليقين النظري التام بأنه عبد خاضع لله تعالى : ((وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً))[1] .

****

ـ الشعور بصفات الإنعام

ـ لو أن رجل يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات ، ودخل بيته ذات مره فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سرير موضوع في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت ، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب الكرة وينام على السرير دون أن يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادى ، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو ، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام ، فهذا حـ ال الإنسان الذي لا يعقل .

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلا ورأى ذلك فإنه يفاجئ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا .

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان ، والأنهار تحمل المياه العذبة له ، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارا وليلا ، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها لنفسه ، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام ! ، أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان ، وكأن الماء والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه ، ففي تفسير روح المعاني : (({ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } [الطور : 35 ، 36] ، { بَلْ لَا يُوقِنُونَ } أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له))[2] .

ـ كل الناس يعلمون أن الله هو الذي يرزقهم لكن أكثرهم لا يعقلون ما يعلمونه ، فعلمهم بأن الله هو الرزاق هو علم نظري فقط وليس علما حقيقيا : ((قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[3] .

ـ ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[4] .

ـ الأخذ بالأسباب والرزق :

ـ ظاهر الأمر أن ما يكسبه الإنسان من عمله هو من كسب يده ، وحقيقة الأمر أنه رزق الله إليه ، ونوضح ذلك الأمر كالتالي :

---

(1) فصلت : من الآية 15
(2) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (27 / 38)
(3) سبأ : 36
(4) يونس : 31

ـ كل ما يحتاجه الإنسان من طعام وشراب ومسكن ووسائل تعينه في حياته وضعه الله للإنسان وتكفل به ، فالطعام يصنعه الله للإنسان من الأرض ، وخلق له الأنعام تنمو وتأخذ طعامها من نبات الأرض ، وما يفعله الإ نسان من سقي النبات أو وضع النبات للحيوان ليأكل ليس إيجادا للنبات أو الحيوان ولكن ذلك من تسخير الأ شياء للإنسان لتستجيب لما يفعله من أمر بسيط ، وكذلك الأسماك في البحار فالإنسان ليس عليه إلا أن يصطادها ، ووضع الله البترول والمعادن في باطن الأرض وسخر الله الأشياء للإنسان ، وكذلك إقامة المصانع والمباني هي من تسخير مواد الأرض للإنسان ، وإذا ترجمنا كل هذه الأمور إلى أموال فالمفترض أن يتم توزيع هذه الأموال على البشر بالتساوي ، فهذا المال موضوع للإنسان ولم يأتي به أحد من البشر وهو موضوع كرزق للبشر ، ولكن الذي يحدث أن بعض الناس يظلمون غيرهم فيأخذون حقوق غيرهم في هذا المال .

ـ إذن فالمال الذي يحصل عليه الإنسان من العمل وغيره ليس إلا نصيب من هذا المال العام الموضوع في الأ رض وهو لم يُنشئ هذا المال ويصنعه بعمله ولكنه رزق من الله إليه ، لذلك قد يكون عمل الإنسان بسيط جدا أو ليس فيه أي جهد لكنه يحصل منه على مال عظيم أو العكس ، فذلك المال هو المقدار الذي قدره الله له من توزيع هذا المال العام .

ـ ولكن الإنسان مغرور بجهده الذي يبذله في العمل وهو في حقيقته ليس بشيء رغم أنه مأمور بالقيام به ، فـ المال مال الله : ((وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الذِي آتَاكُمْ))[1] .

ـ فعندما يتصور الإنسان ذلك يشعر بأن ما يأتيه هو قادم إليه من عند الله على وجه الحقيقة وليس مجازا فيشعر من داخله بالشكر والحب لله تعالى على نعماءه ، وينشغل هم الإنسان بمدى كرم الله وإحسانه على عباده رغم أنهم لا يستحقون ورغم ظلمهم وقدرته على أن يهلكهم .

ـ أما مجرد الاقتناع النظري فقط بأن كل شيء يأتيك هو من عند الله فلا قيمة له ، حيث يكون حقيقة شعور الإنسان من الداخل أنه يحصل على المال والطعام والشراب من تعبه وكده وأنه لولا تعبه وكده ما حصل على شيء ، فعندئذ لن يتحقق اليقين الحقيقي بصفات الإنعام للخالق سبحانه .

ـ لكي يتحقق اليقين الحقيقي بأن الله له صفات الإنعام لابد من تحقيق ثلاثة أمور هي :

1ـ التصور لمعنى النعم : أي تصور معنى أن كل شيء مسخر وفيه فوائد للإنسان وبالتالي هو نعم للإنسان ، وتصور مدى فائدة النعم للإنسان واحتياجه إليها وأنه بدونها لا تقوم حياته ، وبالتالي الشعور بلذة التمتع بها ، والشعور بألم الخوف من فقدها ، ولا يشعر الإنسان بقيمة النعمة إلا إذا فقدها .

2ـ الشعور بأن هذه النعم ليست ملكا للإنسان وليست موجودة بذاتها وأن الإنسان لا يستحقها وأنه لم يأتي بها من كده وتعبه .

3ـ والشعور بأن هناك من خلقها بشكل معين بحيث يقصد أن يكون فيها النفع للإنسان .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بأن الله له صفات الإنعام :

ـ كل الناس يعرفون نعم الله تعالى ويوقنون بها ، لكنها معرفة نظرية ويقين نظري عند البعض ، حيث يتجاهلون ويتناسون ويتغافلون عن فوائد هذه النعم واحتياجهم إليها ، كما يتجاهلون ويتناسون ويتغافلون عن أنها ملكا لله وليست ملكا لهم ، ويشعرون كأنهم هم الذين يرزقون أنفسهم بكدهم وعملهم .

ـ اليقين الحقيقي بصفات الإنعام لله تعالى يؤدي إلى الخضوع والحب لله تعالى ، فمن علم أنه لا يملك شيئا وأنه في أشد الحاجة إلى من يمده بما يحتاجه فإنه يذل نفسه لمن عنده النعمة ليعطيه ، وهو أيضا ذليل لمن يعطيه لأن الحاجة ضعف والعطاء قوة فهو عبد لإحسان الله إليه ، وفي نفس الوقت هو محب لمن يعطيه

(1) النور : 33

لعطائه بغير استحقاق فهو محض فضل من الله ، فكان من الممكن أن يوجدك الله ويتركك بلا عطاء فتهلك ولكن أنعم عليك .

ـ العطاء والكرم صورة من صور القوة :

ـ العطاء والكرم صورة من صور القوة ، والاحتياج والعوز صورة من صور الضعف ، فالذي يعطيك من غير أن تستحق فهو متكبر عليك بحق وأنت مستذل وذليل له بحق ، فالمذموم هو التكبر بغير حق ، ولأن القوة كلها لله فهو المتكبر ، والضعف كله للمخلوقات فهي الذليلة ، ففي تفسير الرازي : ((واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم ، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقص في حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً ، فكان ذلك مذموماً في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم قال : { سبحان اللَّه عَمّا يُشْرِكُونَ } كأنه قيل : إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم ، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي ، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة ، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال ، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق))[1] ، وفي تفسير الطبري : ((ويعني بقوله : " القاهر" المذلِل المستعبد خلقه))[2] .

ـ لا يعرف النعمة إلا من فقدها :

ـ إذا لم يشعر الإنسان بفوائد وأهمية النعم له ، فهو لا يعرف شيء اسمه (نعمة) أصلا ، وبالتالي لن يشعر بحب الخالق والخضوع لإنعامه .

ـ وأيضا إذا لم يشعر بمدى احتياجه إلى هذه النعم وأن حياته لا تقوم بغيرها ، فلا تهمه النعم فهو مستغني عنها ، وبالتالي لن يشعر بحب الخالق والخضوع لإنعامه .

ـ والنعم لها فوائد عظيمة جدا ولكن لا يشعر بها إلا من فقدها ، فمثلا الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى ، وهكذا ، فالإنسان لا يشعر بقيمة قطرة المياه إلا إذا حرم منها ، فالأصل أن الإنسان محروم من كل النعم ثم أعطاه الله هذه النعم ، وإذا حرم الإنسان من كل النعم فهو ميت أو عدم لأن كل شيء هو نعم للإنسان : ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ ثُمّ إليه تُرْجَعُونَ))[3] ، فالأصل أنك أعمى ثم أبصرت ، فانظر كيف يشعر إنسان أعمى إذا أبصر ، إنه عندئذ فقط يشعر بنعمة البصر ، ويشعر بحب عميق جدا لمن أنعم عليه بأن جعله يبصر ، وهكذا .

ـ فيتحقق الشعور بأن الله هو المالك وأن له صفات الإنعام بأن يشعر الإنسان بعظمة نعم الله عليه ، وبمدى احتياجه إلى هذه النعم وأنه لا تقوم حياته بغيرها وأنه غير مستحق لأي منها ، وأنه لم يحصل عليها لا من كسب ولا كد ولا تعب فهذه مجرد أسباب وإنما هذه النعم هي محض تكرم وإنعام من الله العظيم إلى العبد الفقير المعدوم الذي لا يملك حتى نفسه .

ـ ومن نعم الله أن سخر له كل شيء كالشمس والقمر والهواء ، وتسخير الأشياء ينشأ عنها التقدم العلمي و التكنولوجي لراحة الإنسان .

ـ أنت إذا طُلِب منك أن تبيع عينك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق ؟ طبعا لا ، وإذا طلب منك أن تبيع سمعك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق ؟ طبعا لا ، وهكذا ، إذن أنت تملك مئات الآلاف من الجنيهات ، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها .

---

(1) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 29 ، ص : 514)
(2) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 11 ، ص : 288)
(3) البقرة : 28

ـ فالذي يفقد النعمة يعرف قيمتها ويعرف أنه خاضع لله لكنه عندما تعود إليه مرة أخرى يعود فيتناسى قيمتها : ((فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ))[1] ، وكم مر على الإنسان من محن كثيرة في كل مرة كان يدعو الله أن تمر بسلام فينقذه الله ولكن الإنسان يعود فينسى ، بل إنه ينسى أصلا أنه مر في حياته محن كثيرة ومواقف صعبة كثيرة ومشاكل كثيرة منها أعباء الحياة وهمومها كان يدعو الله أن يعبر منها بسلام فلما مرت بسلام نسي أصلا أنه كان قد تعرض لمحن ومواقف صعبة وأعباء ! : ((وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إليه ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))[2] ، ((هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[3] .

ـ كل النعم هي ملك لله تعالى لأن كل شيء هو ملك لله تعالى ، والنعم واسعة جدا حتى أن كل شيء هو نعم للإنسان لأن كل شيء فيه فوائد للإنسان وما فيه فوائد فهو نعم : ((أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً))[4] .

ـ هناك فرق بين صفات العبد وصفات الرب ، فالفرق بين كرم العبد وكرم الرب أن الله يكرم فيما يملك أما العبد فلا يملك شيئا وهكذا .

ـ لو لم يكن الله الرزاق لأتى العبد يوم القيامة وقال يا ربي انشغلت بجلب الرزق وغلاء المعيشة عن معرفتك وعبادتك فتكون له حجة ، ولكن الله هو الرزاق فلا حجة لأحد بأن يعيش حياته في جلب الرزق .

ـ نسيان نعم الله هو نسيان للمنعم والرزاق فهو نسيان لله لأن كلمة (الرب) تعني أساسا صفات الإنعام و الرزق وأن الله هو الوكيل والكفيل وكلها صفات عطاء ونعم للإنسان .

ـ عندما يكون الإنسان في محنة ثم ينجو منها ينسى عطاء الله عليه ، فإذا نسي هذه النعمة ونعمة أخرى وثالثة ورابعة فينسى نعم الله جميعا بكل صورها وعندئذ يكون يقينه بأن الله هو الرزاق والوكيل والكفيل هو مجرد اقتناع نظري ولم يتحقق في المشاعر .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان أنه يأخذ ما هو في أمس الحاجة إليه حيث لا تقوم حياته بغير نعم الله عليه ، وأن ما يأخذه ليس حقا له وإنما محض مَن وتكرم ، فلم يشعر بقيمة اللقمة التي يأكلها ويقنع بها ويحب الرزاق ، فهو لا يشعر عندئذ بأن الله له صفات الإنعام وإن كان على يقين نظري تام بذلك .

ـ إذا لم تكن تملك شيئا على الإطلاق من طعام أو شراب وأتاك أحد بشربة ماء فأنت حينئذ تكون ممتنا شاكرا ، وهذا الماء بالنسبة لك هو نعيم ونعمة كبيرة لأنه جاءك ولم تكن تستحقه وهو ذو قيمة كبيرة واحتياج كبير لك ، فلابد أن تشعر بأنك تعيش في نعيم مهما كان حالك من الفقر والمرض ، ولذلك عندما يسألك أحد : " كيف حالك ؟ " ، فتقول : " الحمد لله " ، أو تقول : " في نعمة والحمد لله " مهما كان حالك ، ولكن يجب أن تقول ذلك بلسان مشاعرك أيضا ، وهذا هو مفهوم الرضا القلبي .

ـ الشعور بعدم ملكية النعم (الشعور بالخضوع) :

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز و النقص والخضوع ، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف

(1) الزمر : 49
(2) الزمر : 8
(3) يونس : 22، 23
(4) لقمان : 20

والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكا له ، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئا ، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له ، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالي بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل ، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقا لهذا العطاء ، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له .

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق ، فهذا معناه أنه يشعر بأنه مالك لهذه النعم وأنه حصل عليها بكده وتعبه ، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها أو تجاهل الشعور بقيمة ملكيتها لله تعالى ، أي أن الإنسان يقول عندئذ بمشاعره أن الله ليس هو الرزاق الكريم المنعم الوهاب ، وإنما هذه النعم ملكا للإنسان .

ـ ولا يمكن أن يتحقق الشعور بضعف الإنسان وخضوعه وتوكله وحبه لله بغير أن يتحقق الشعور بأن الله هو المالك للنعم وكل شيء .

ـ الشعور بقدر صفات الإنعام يؤدي إلى حب الله تعالى :

ـ تصور لو أنك ذهبت إلى مكان ما وقيل لك أن مصاريف الإقامة والطعام والشراب والملبس علي حساب فلا ن ، تصور فعلا أن إقامتك في هذه الدنيا مدفوعة الحساب (فأنت لا تملك أن تدفع حساب شربة ماء واحدة) إذا لماذا لا تحب الله ؟ ولماذا تتوكل علي غير الله كأن تعتمد علي نفسك ؟ ، ولماذا يكون كل همك في إحضار الرزق ؟ .

ـ استشعار الملكية لله يؤدي إلى الشعور بقدر صفات الإنعام ، فأنت إذا أكلت أكلة أو شربت شربة فإنك تستشعر أن هذه الأكلة أو هذه الشربة هي ملك لله ليس لك فيها حق ، ولم تستطع أن تأكل اللقمة أو تشرب الشربة إلا بعد أن أذن الله لك بذلك ، وكذلك تستشعر أن السكن الذي تسكن فيه ليس خاص بك وملكا لك وإنما هو ملك لله ومحض تكرم من الله عليك ، بل إن يدك وجسمك ليس ملكا لك وإنما هو ملك لله تعالى وكونه معك فهو محض تكرم من الله عليك (راجع الشعور بأن الله هو المالك) .

ـ ومن نعم الله رعاية الله لك ورحمته بك ، وأنه يسترك وأنت تعصيه رغم أنه يستطيع أن ينتقم منك وينسفك نسفا إذا عصيته ، فإذا به يغفر لك ذنبك إذا تبت واستغفرت ، ويتودد إليك ويرشدك إلى طريق السعادة ، وييسر لك : ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ))[1] ، ((وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا))[2] ، ومن نعم الله أن القرآن مليء بضرب الأمثال والإيضاحات التي تذلل لك العقبات وتوضح لك الطريق ، بل إن الله أخبرك بما يكون في المستقبل من أمر الآخرة حتى تكون على بصيرة ، كما أرسل رسولا من البشر ليكون نموذج إرشادي تطبيقي عملي يواجه نفس ما يواجهه البشر ، كما أن الله يعطي للبشر حقا عليه أن يدخلهم جنات بها نعيم بلا حدود إذا لم يشركوا به ويعطيهم لذة الإيمان في الدنيا التي هي أعظم من كل لذات الدنيا ، رغم أنه ليس لبشر حق على الخالق إلا أنه حق أخذه الله على نفسه ، كما يبارك لهم في أرزاقهم ويجيب دعاءهم ، كما أنه يجيب دعوة المضطرين ويفرج الكربات ، ويعطي الناس من كل ما سألوه : ((وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ))[3] ، فكل هذا رحمة من الله تعالى ويجعلك تحب الله تعالى .

ـ أهم المشاعر التي تنشأ عن الشعور بصفات الإنعام هي الشعور بحب الله تعالى ، فإذا لم يشعر الإنسان بحب الله تعالى فهذا يعني عدم شعوره بأن له ربا (فإن كلمة رب تعني صفات الإنعام والخالق والمالك والعزيز ... أي الربوبية) ، ومن هنا نعرف الفرق بين اقتناع المرء نظريا بأن له ربا وشعوره بأن له ربا ، كما ينشأ عن الشعور بقدر صفات الإنعام الشعور بالخضوع والتوكل على الله لأنه الرزاق والكريم والوهاب ولا أحد غيره

(1) البقرة : من الآية 185
(2) النساء : 27
(3) إبراهيم :34

يرزق أو ينفع أو يضر .

ـ اليقين الحقيقي بصفات الإنعام يؤدي إلى الشعور بالحياء من الله :

ـ عندما يشعر الإنسان بكرم الله وفضله عليه فإنه يستحي أن يعصيه أو يفعل ما يغضبه ، فيعبد الله حياءا منه ، وفي الحديث : ((استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله قال ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولتذكر الموت و البلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء))[1] ، فالإنسان يترك الذنب خشية أنه عندما يقف أمام الله فماذا يقول له ؟ فهو يستحي أن يضع نفسه في هذا الموقف المخجل حيث يأكل من رزق الله ويعيش على أرضه وينعم بنعمه ثم يقف أمامه وقد عصاه فما يقول له ؟! .

****

ـ الشعور بأن الله وحده هو النافع الضار

ـ لكي يتحقق الشعور بأن الله هو النافع الضار لابد من تحقيق ثلاثة أمور هي :

1ـ الشعور بقيمة النفع أو الضرر ، فيشعر بأهمية ما عنده من نعم كالماء والهواء ويشعر بخطورة سلب هذه النعم ، والنفع والضر في الدنيا ضئيل ، وأكبر النفع وأكبر الضرر هما الجنة والنار .

2ـ الشعور أن ذات الشيء لا يضر ولا ينفع ، والله هو الذي وضع فيه خاصية النفع أو خاصية الضرر ، فالنار لا تضر من ذاتها ولكن الله وضع فيها خاصية الضرر ، لذلك فالخوف لا يكون من ذات النار ولكن الخوف من الله الذي يعاقب بالنار ، وحب الجنة ليس لذاتها ولكنه حب لله لأنها من ثواب الله والله جعلها تنفع ، لذلك ف الخوف من الآخرة هو خوف في الله ، فالمؤمن لا يخاف إلا من الله .

3ـ الشعور بأن النفع أو الضرر ليس من صنع الإنسان ولا يحدث من تلقاء نفسه وليست الأسباب هي التي تحدث النفع أو الضرر ولا الأيام ولا الزمان ، فكل ما سوى الله لا ينفع أو يضر أحد فضلا عن أن ينفع أو يضر نفسه ، ولكن الله وحده هو النافع الضار ، فما يكون من نفع فمن فضل الله وليس بسبب طاعة الطائع ، وما يكون من ضرر فهو عقاب من الله على تقصير العبد أو اختبار له .

ـ اليقين الحقيقي بأن الله وحده هو النافع الضار يؤدي إلى كمال الخضوع وكمال الحب وكمال الخوف وكمال الرجاء :

ـ الشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء ليس له قيمة فهو أمر تافه سواء كان شيئا معنويا أو شيئا ماديا ، فلا يهتم به أحد ولا ينشغل به ولا يتأثر به أحد .

ـ إذن كل شيء سوى الله لا قيمة له فيجب أن لا تتعلق به مشاعر الإنسان ، ولكن ذلك ينطبق على ذات الشيء وليس على ما يستمده من الله ، فمثلا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عظيم القدر لارتباطه بالله ولأن الله أرسله ولإيمانه وتقواه ، فلا يحب لذاته إلا الله تعالى ، فحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حب في الله ، وكذلك العزة بالله ، فالمؤمن يستمد عزته من اتصاله بالله والدين ، فالمؤمن لا يحب شيء ولا يكره شيء ولا يخاف من شيء إلا في الله (يستثنى المشاعر الفطرية التي لا دخل للإنسان فيها) .

ـ إذن المؤمن ينظر إلى صاحب الصولجان والجاه والسلطان في الدنيا على أنه تافه لا قيمة له ما لم يكن متصلا بالله فيحب ما فيه من صلة بالله وليس يحب ذاته .

ـ إذن فالمؤمن لا يحب إلا الله ولا يخاف إلا من الله ولا يخضع إلا لله ولا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا على الله ، وهذا من كمال الإيمان ، فإذا أحب شيئا غير الله (ولكن كان حبه لله أكبر) فذلك من ضعف الإيمان وضعف

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 637 ، برقم 2458)

اليقين الحقيقي بأن الله هو النافع الضار .

. فاليقين الحقيقي بأن الله وحده هو النافع الضار يؤدي إلى الشعور بالتسليم والخضوع حيث يعلم الإنسان أنه ضعيف لا يملك لنفسه حول ولا قوة ولا يملك لنفسه نفع ولا ضرر .

ـ كما يؤدي إلى التوكل على الله والشعور بالاحتياج إليه والاعتماد عليه لأن الإنسان لا يستطيع أن يجلب لنفسه النفع ويبعد عن نفسه الضر ويحتاج إلى من يجلب له النفع ويبعد عنه الضرر .

ـ كما يؤدي أيضا إلى عدم وجود مشاعر أو هموم أو أهداف متعلقة بالدنيا أو أي شيء غير الله ، لأن الشيء الذي لا ينفع ولا يضر لا قيمة له ولا يهتم به أحد ، فلا يخاف من بطش أحد .

ـ كمال اليقين يؤدي إلى كمال المشاعر :

ـ كلما زاد اليقين الحقيقي بصفات الله كلما زادت المشاعر المتعلقة بالله وكلما ابتعدت المشاعر عن التعلق بـ الدنيا ، وكلما ضعف اليقين الحقيقي بصفات الله كلما ضعفت المشاعر المتعلقة بالله وكلما زادت المشاعر المتعلقة بالدنيا .

ـ المطلوب من المؤمن أن يصل إلى كمال اليقين وكمال الإيمان ، وبالتالي الوصول إلى الكمال في المشاعر المتعلقة بالله وانقطاع المشاعر عن غير الله تماما إلا في الله (باستثناء المشاعر الفطرية الخارجة عن إرادة الإنسان) .

ـ عدم وصول المشاعر المتعلقة بالله كالشعور بالخضوع والحب والخوف من الله إلى درجة الكمال ووجود مشاعر متعلقة بغير الله دليل على ضعف اليقين الحقيقي وضعف الإيمان (أي لم يصل اليقين الحقيقي والإ يمان إلى درجة الكمال) .

ـ وغياب المشاعر المتعلقة بالله كالشعور بالخضوع والحب والخوف من الله تماما دليل على غياب اليقين الحقيقي بصفات الله ووقوع الإنسان في النفاق الأكبر ، وعندئذ تكون كل المشاعر متعلقة بالدنيا وغائبة تماما عن الله وما يتصل به (كحب الرسول صلى الله عليه وسلم والخوف من الآخرة) .

****

ـ الشعور بأن الله هو الملك

ـ المحافظ يقوم بإدارة شئون محافظته ، ورئيس الدولة يقوم بإدارة شئون الدولة ، ولكن هل هناك من يقوم بإدارة شئون الكرة الأرضية جميعها ؟ ، الله وحده هو الذي يقوم بإدارة شئون جميع الناس على الأرض وإدارة شئون جميع الحيوانات والنباتات ، ويتكفل بتوزيع الأرزاق عليهم وإمدادهم بما يحتاجونه ، وكل الناس يعملون عند الله ، وهذا العمل يشمل كل شيء وليس فقط العمل لكسب المال ، فالإنسان يعيش حياته كلها كموظف وظيفته أنه عبد لله ، ورؤساء الدول والمحافظين ومديري الشركات والمؤسسات وكل إنسان مسئول هو في حقيقته موظف عند الله وظيفته المطلوبة منه هو أنه عبد لله ، فلا يجب أن يكون للإنسان هدف آخر غير أنه عبد لله : ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ))[1] ، فالعمل لكسب الرزق ليس هدفه وإنما هو عبادة مطلوب منه القيام بها ، فليس يعمل حبا في المال ولجلب المال ولكن تنفيذ لأمر من أوامر الله .

ـ ولكن هناك من يعي ذلك وهناك من ينسى ذلك ويظن أنه يعمل تحت سلطة البشر الذين يديرون الشركات و الهيئات والبلاد ، فوجود قيادات من البشر هو وجود مجازي فقط ، فكما أن الله هو المالك وحده فهو وحده المدبر المتصرف في الأمور الذي يدير أمور الكون كله ، وليس أحد بيده شيء والأمر كله بيد الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع ، إذن فالعاقل يعيش وهو يعلم أنه يعيش في أرض الله تحت سلطة الله وليس لأحد

(1) الذاريات : 56 - 58

سلطة فوقه غير الله سبحانه ، لذلك عندما يحتاج الإنسان أمرا يطلبه من المدبر الحقيقي لأمر كل الشركات والبلاد ، وهذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب .

ـ فالقيادة لها صور مختلفة فقد يكون الإنسان رئيسا أو زعيما أو ملكا من ملوك الدنيا أو مديرا لشركة مثلا أو حتى مسئولا عن أسرته وأولاده ، وفي الحقيقة فإن كل صور القيادة بين الناس هي مجازية فقط ، وجميع صور القيادة على وجه الحقيقة هي لله ، فالله وحده الذي يعطي هذا ويمنع هذا ، وهو وحده الذي يتكفل بأمر كل شيء ، وهو وحده الذي يأمر وينهى (وإنما طاعة الرسول وأولى الأمر تابعة لطاعة الله) ، وكما أن القيادة يكون لصاحبها شرف وعزة ومكانة ، فلا أحد له شرف أو عزة أو مكانة أو كبرياء ، فالعزة كلها و الكبرياء كله لله ، وجميع الناس أذلاء فقراء مقهورين ضعفاء .

ـ فإذا تصورنا أن الكرة الأرضية عبارة عن دولة واحدة لها ملك واحد ، وهذا الملك له كل الصلاحيات وكل السلطات وجميع المناصب وهو الذي يدير كل شيء ويدبر كل شيء في مملكته ، فهذا التصور يليق بالبشر فقط أما الله فليس ملكا على الأرض فحسب ولكن على الكون كله وبيده الأمر كله ، وهو أيضا المالك الحقيقي لكل شيء في الأرض من مال أو مساكن أو متاجر أو شركات أو جبال !! .

ـ ومن هنا تفهم أيضا أن " لا إله إلا الله " تعني سلب كل صفة حميدة من الإنسان وإثبات كل الصفات الحميدة والكمال فيها لله ، وما عند الإنسان من صفات حميدة إنما هو مما أعطاه الله له ، فالإنسان لا قدرة له ولا علم له ولا إرادة له ولا شيء له إلا مما أعطاه الله إياه ، وما أعطاه الله للإنسان لا يساوى قطرة من محيط مما عند الله ، كما أنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمر الله تعالى ، فلا يستطيع أحد أو شيء أن يعتمد على نفسه في حركته أو سكونه فيحتاج إلى الله ليتحرك ويحتاج إلى الله ليسكن ، والنفس الذي تتنفسه هو من عند الله والماء الذي تشربه هو من عند الله تعالى .

ـ ولذلك عندما يمرض الإنسان فإن الله وحده هو الذي يشفي فيكون توكل الإنسان على الله ولجوءه إلى الله ثم يأخذ بالسبب طاعة لله ، وكذلك إذا احتاج أمرا من رئيسه مثلا فإنه يلجأ إلى الله ويدعوه أولا لأن رئيسه لا يملك نفعا ولا ضرا فلا يتوكل عليه أو يخاف منه ، ومن هنا تفهم مدى أهمية الدعاء ففي الحديث : ((الدعاء هو العبادة ثم قرأ { وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين }))[1] .

ـ فالذي يوقن يقينا حقيقيا بأن الله هو الملك لكل العالم ولكل شيء فإنه يشعر بالخضوع له والخضوع لأمره والتوكل عليه ويشعر بالخوف من مهابته والخوف من عقابه والرجاء في عطاءه والحب لما أعطاه وحب الا نتساب إليه والعزة به.

ـ فمعنى أنك توقن أن لك ملكا له السيادة الكاملة عليك ، فهذا معناه أن له وحده حق الأمر والنهي ، وهذا معناه أنك تعيش خاضعا لأمره تبعا لما يريده هو ، ولست تعيش تبعا لما تريده أنت وترغبه ، وليس تبعا لما يريده أي أحد آخر ويرغبه ، وحيث أنه يرعاك ويحميك ويعطيك وأوامره فيها النفع لك في الدنيا والآخرة وهو سبحانه لا يستفيد لنفسه شيء من هذه الأوامر فهو الغني عن الناس وكل شيء فأنت تحبه وتحب أوامره ، فغياب الشعور بأن الله هو الملك المسيطر المهيمن تؤدي إلى عدم المبالاة بأوامر الدين وعدم أخذها بجدية والتفريط فيها .

****

الفصل السادس

التعامل مع الدنيا على أنها دار سفر ودار اختبار وليست دار إقامة

(1) قال الشيخ الألباني : حسن

ـ المؤمن يتعامل مع الدنيا على أنها مؤقتة عابرة وأنها دار سفر ، أما الكافر والمنافق فيتعامل مع الدنيا على أنها داره ومقامه كأنه خالد فيها ومستقر فيها رغم اليقين النظري التام بأن الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار إقامة .

ـ كل الناس مسافرون إلى الآخرة ولقاء الله تعالى رغما عنهم سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا ، وكل الناس ذاهبون إلى الموت رغما عنهم ، والفرار من الآخرة ومن لقاء الله ومن الموت وتناسي ذلك وتجاهله لن يفيدهم شيئا .

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة وبلقاء الله وبالموت هو الشعور بذلك ، أي الشعور بأنك مسافر إلى الآخرة وإلى لقاء الله وإلى الموت ، ومن شعر بذلك فإنه يعيش معيشة المسافر المستعد للرحيل : ((فَفِرُّوا إلى اللهِ إنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ))[1] ، أي حاله حال الذي يسارع ويفر إلى لقاء الله تعالى .

ـ فالدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا ، فنحن الآن مسافرون سفر العودة و الرجوع وليس سفر الذهاب بعيدا عن الوطن والأهل ، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا ، فمثلا الذي يسافر من بلده مصر إلى السعودية هو سفر ذهاب بعيدا عن الأهل ، وهو لا يريد السفر إلى السعودية إلا مؤقتا وفي ذهنه العودة إلى أهله ، أما سفر العودة والرجوع هو أنه موجود في السعودية ويريد أن يسافر سفر العودة إلى مصر حيث بلده وأهله ، وهذا هو السفر المقصود ، ففي تفسير البغوي : (({ إنّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى } أي المرجع في الآخرة))[2] .

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن إنسانا ركب سيارة أجرة ليصل إلى مكان ما ، دخل السيارة فوجد فيها ركاب آخرين مثله ، ربما يتحدث معهم أو يتعرف على أحد منهم ، وعندما يصل إلى المكان الذي يريده ينزل من السيارة ويترك الركاب الموجودين فيها ، فالركاب الموجودون داخل السيارة هم الناس الموجودون في الدنيا ، والإنسان مهما تعامل معهم فليسوا أهله ولكنهم غرباء مسافرين مثله ، وعندما ينزل من السيارة لا يشعر بألم الفراق لأنه لا تربطهم به سوى أنه تقابل معهم أثناء الطريق .

ـ فينبغي أن تشعر أنك الآن في دار الغربة ، والأصح أن تشعر بأنك الآن أثناء السفر منتقلا من دار الغربة إلى مكان الإقامة والمعيشة فأنت عابر سبيل ، ففي الحديث : ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور))[3] ، و(أو) في الحديث بمعنى (بل) للإضراب أي كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل .

ـ التعامل مع الدنيا على أنها دار سفر وليست دار إقامة :

ـ أولا : عمل العقل : وهو أن يعقل الإنسان حقيقة أنه مسافر أي لا يتناسى أنه مسافر رغم اليقين النظري التام بأنه مسافر ، ويشمل ثلاثة أمور هي :

1ـ التصور : تصور قيمة الدنيا باعتبار أنها دار سفر .

2ـ الشعور بالقيمة : ويشمل الشعور بخطورة أننا مسافرون والشعور بمعني الخلود في الآخرة والشعور بأن الدنيا دار مؤقتة والشعور بأن الدنيا دار تعب وشقاء والشعور بالموت والشعور بلقاء الله ومحاسبته للعبد و الشعور بخطورة اقتراب الآخرة واقتراب الموت وقصر الحياة في الدنيا .

3ـ انشغال الهموم : ويشمل الشعور بالترقب والشعور بالغربة والشعور بأننا نعيش تحت المراقبة .

---

(1) الذاريات : 50
(2) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (5/ 281)
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم : 2333)

ـ **ثانيا : عمل المشاعر** : ويشمل الشعور بخوف المهابة من اقتراب الرحيل عن الدنيا واقتراب الآخرة ، و الشعور بخوف المهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد والشعور بخوف المهابة من الموت .

ـ ويشمل أيضا الشعور بخوف المهابة من أننا نعيش تحت المراقبة ومن خطورة أن الدنيا دار اختبار ومن خطورة الامتحان ومن خطورة الدنيا على أنها فرصة ذهبية لا تعوض لتحصيل الزاد .

ـ **ثالثا : عمل الجوارح** : فيكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب الذي يعيش وسط غرباء في بلد الغربة ، أو يكون عمله مثل عمل عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل وهو أثناء سفره يتقابل مع غرباء مسافرين مثله ، فيعيش الإنسان معيشة الغريب أو المسافر أو عابر السبيل ، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم .

ـ ونوضح هذه الأمور كالتالي :

****

ـ أولا عمل العقل

1ـ التصور

ـ أنت الآن في مكان غير المكان المعد لمعيشتك ، فقد نزل آدم إلى الأرض ليعيش هو وأبناؤه معيشة مؤقتة عابرة للاختبار ، أما معيشتك المعدة لك هي في الآخرة ، فيجب أن تعيش على أساس أن حياتك في الآخرة وليست هنا فتعيش معيشة المسافر الذي يستعد للرحيل .

ـ نحن مسافرون من كوكب الأرض في المجموعة الشمسية إلى أرض المحشر حيث نترك هذه الحياة المؤقتة على كوكب الأرض إلى الحياة الجديدة والإقامة الدائمة وتبدأ الرحلة من حيث الموت ! ، وتنتهي بالوصول إلى أرض المحشر ثم الانتقال إلى عالم المتع والشهوات (الجنة) أو المعيشة الدائمة داخل نار محرقة .

ـ قيمة هذه الحياة الدنيوية بين إنسان عاد من الآخرة إلى الدنيا وبين من يعيشون في الدنيا اليوم :

ـ تصور لو أن رجلا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم ؟ إنه سوف يجد الناس يعتبرون هذه الحياة الدنيوية معيشتهم وأن حياتهم هنا في هذه الحياة ، ويجد أمورا يراها الناس عظيمة جدا مثل أمور التقدم والتكنولوجيا الهائلة لكنه يراها لعب بالمقارنة بأمور الآخرة .

ـ تصور قيمة الحياة الدنيوية وما بها في نظر أهل الآخرة :

ـ الإنسان عندما يذهب إلى الآخرة فيعيش حياة القبر ثم يعيش أهوال يوم الحساب ثم يعيش الحياة في الجنة أو في النار ، الإنسان في أي مرحلة من هذه المراحل يرى أيام عمره في الحياة الدنيوية ضئيلة وحقيرة ويندم على ما كان عليه من اهتمام بهذه الحياة المؤقتة وهي لا تساوى شيئا ويتحسر على تفريطه .

ـ كل ما في الدنيا من أمور هامة وخطيرة ومشاغل كبرى وانجازات رهيبة ومسئوليات وتبعات ونظم إدارية ضخمة وشهوات وأموال ومتع ورفاهيات وتكنولوجيا رهيبة ومدنية حديثة فكل ذلك لا قيمة له بالمقارنة با لآخرة ، ففي الحديث : ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء))[1] ، وفي الحديث : ((ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع))[2] ، وفي حديث آخر : ((إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[3] .

ـ كما أن متع الدنيا هي بالخصم من رصيدك في الآخرة ففي الحديث : ((ما من غازية أو سرية تغزو فتغتنم

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5292 في صحيح الجامع)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1376 ، برقم : 4108)
(3) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم 2195)

وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم))[1] ، وفي رواية أخرى : ((ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون غنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم))[2] .

ـ والعكس صحيح فالابتلاءات هي تكفير للذنوب ، وفي الحديث : ((يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَا ءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ))[3] .

ـ قيمة الحياة الدنيوية بين من يعيش في الدنيا من أجل الآخرة وبين من يعيش في الدنيا من أجل الدنيا :

ـ المؤمن يعيش الحياة الدنيوية وكل نظره على الآخرة وكل شيء يقيسه على أساس قيمته في الآخرة ، فهو يرى المتمتع بهذه الحياة ويعيش في شهواتها على أنه غير متمتع بل أنه يورد نفسه موارد الهلاك لأن هذه المتع تنقلب عليه عذابا فضلا عن أنها في حقيقتها متع ضئيلة زائلة مؤقتة ، وهو يرى المعصية التي فيها لذة هي في الحقيقة فيها عذاب لأنها تجره إلى ألم شديد في الآخرة .

ـ المؤمن يحدث دائما في ذهنه تصور عن الآخرة ، فهو مشغول بالآخرة باستمرار ، فالمؤمن يعيش الآخرة وهو في هذه الحياة المؤقتة ، أما الذين يعبدون هذه الحياة المؤقتة ويعبدون أهواءهم فيحدث دائما في ذهنهم تصور عن هموم هذه الحياة المؤقتة ومشاغلها وما يتعلق بالمال أو الشهوات أو المظاهر ، فهو مشغول بهذه الحياة المؤقتة باستمرار .

****

2ـ الشعور بالقيمة

ـ هناك فرق بين نظرة الإنسان إلى الدنيا على أنها مجرد معبرة وقنطرة إلى الآخرة وبين نظرته على أنها مغنم يريد أن يتحصل عليه ، وكذلك هناك فرق بين النظر إلى مشاكل الدنيا على أنها أمور مؤقتة لأنها تزول بزوال الدنيا وبين النظر على أنها هي القضية والشغل الشاغل ، فالمشكلة الحقيقية في نظر الإنسان العاقل ليست مشاكل الدنيا وإنما هي كيف يصل الإنسان للجنة ؟ .

ـ الشعور بخطورة أننا مسافرون :

ـ هل على الإنسان أن يعيش طوال عمره يعد نفسه للرحيل ، أي يعيش منتظرا يوم موته ؟! ، إن هذه الحياة التي نعيشها ما خلقت إلا لهذا الغرض ، فالدنيا ما هي إلا طريق للآخرة ، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يبني سكنه في الطريق أو الشارع الذي يسير فيه الناس ويعيش ويقيم في طريق المارة ، فلا تصلح المعيشة في الطريق ، إنما هو مجرد سفر أي معيشة مؤقتة عابرة لضرورة الترحال ولإعداد الحقائب .

ـ لو قيل أن بعض الناس يستعدون للسفر إلى كوكب آخر عبر الفضاء لكان ذلك العجب والدهشة ، فهل تتصور أننا مسافرون لما هو أعجب من ذلك وأبعد من ذلك إلى الدار الآخرة ؟! ، فهل أنت في انتظار حياة غير الحياة التي تعيشها الآن وطعاما غير الطعام الذي تأكله ؟! ، وسكنا غير السكن الذي تسكن فيه ؟! ، وهل تشعر أن البيت الذي تسكن فيه ليس هو بيتك ، إنما بيتك هناك ، وأن هناك مَنْ ينتظرك الآن من الحور العين (إن شاء الله تعالى) ؟! ، هل في شعورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت ، وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت ، أم أنك تشعر أنه سكن دائم ؟! ، إن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق ، وإنما هو يأخذ زاد المسافر ، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها ، وقد كان الإ مام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[4] ، فهل تشعر ب الترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك ؟! ، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا) ؟! ،

---

(1) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم 3812)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبي داود ، ج : 3 ، ص : 8 ، برقم : 2497)
(3) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 603 ، برقم 2402)
(4) صيد الخاطر ـ دار القلم - دمشق (1 / 447)

وهل عندك شعور بأنك مفارق الناس وكل ما تملك ؟ ، وهل تشعر بالترقب والانتظار لمجيء اليوم الذي تصل فيه إلى بيتك بعد سفر طويل ؟! ، إن الذي يشعر فعلا بعالم الغيب فإنه يشعر بالموت علي أنه مجرد مرحلة ينتقل به إلى حياة أخري فلا يكره الموت ولا يكن مرعوبا منه ، وعندما يأتيه الموت فإنما يأتيه مَنْ كان ينتظره علي موعد وأنه ليس النهاية وإنما هو البداية للحياة الحقيقية ، أما الذي لا يشعر بعالم الغيب فإنه يعيش كأنه لن يموت ، فالموت عنده مجرد اقتناع نظري ، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية ، ولا يريد أن يموت ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، لأنه يرى الدنيا دار سعادة ويرى في الموت النهاية وليس بداية الحياة الحقيقية (في الآخرة) وهذا يمثل الحقيقة الموجودة في مشاعره ، وإن كان في اقتناعه النظري عكس ذلك تماما فهو على يقين تام بأن الدنيا فانية ضئيلة وأن الموت مجرد انتقال إلى الحياة الباقية لكنه يقين نظري فقط .

ـ فالدنيا هي دار فرار والآخرة هي دار القرار : ((فَفِرُّوا إلى اللهِ إنّي لَكُمْ مِنْهُ نذيرٌ مُبِينٌ))[1] ، فالمسلم يعيش حياته مثل الهارب الذي يفر من العدو الذي يطارده ويلاحقه ويتربص به فهو دائما في حالة فرار إلى الله ، إذن أنت واقع الآن في خطر وعليك أن تفر من هذا الخطر ، والفرار هو الجري السريع بعيدا عن العدو في خوف لأنه لو أدركك لقتلك ، فأنت واقع في خطر هو الشيطان والدنيا ، وعليك أن تفر أيضا من الله إلى الله لأنه شديد العذاب لأنه لن ينجيك من عذابه ومن الشيطان ومن الدنيا إلا الله سبحانه ، وعن مالك بن دينار قال : ((إن الله جعل الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر فخذوا لمقركم وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ، ففي الدنيا حييتم ولغيرها خلقتم ؛ إنما مثل الدنيا كالسم أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه ، ومثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل يحذرها ذوو العقول ويهوي إليها الصبيان بأيديهم))[2] ، ولاحظ أن الآية لم تقل واجه العدو ولكن قالت : (فَفِرُّوا إلى اللهِ) ، فلا تكن من المتنافسين على الدنيا المتهالكين عليها ودعهم يتنافسون عليها ، فهؤلاء مثل الكلاب المسعورة تتنافس على جيفة قذرة ! ، ففي تفسير البحر المديد : ((الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هي الغيبة عنه في ذكر الله أو شهوده ، فلا ينجح في دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن ، قال تعالى : { ففروا إلى الله } ، فإن الشيطان كالكلب ، كلما اشتغلت بدفعه قوي نبحه عليك ، فإما أن يخرق الثياب ، أو يقطع الإهاب ، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك ، وقد قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه : عداوة العدو حقًا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو ، فاتتك محبة الحبيب ، ونال مراده منك))[3] ، وفي تفسير اللباب : (({ ففروا إلى الله } أي فاهربُوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : فروا منه إليه واعملوا بطاعته ، وقال سهل بن عبد الله : فروا ممّا سوى الله إلى الله))[4] .

ـ الشعور بمعني الخلود في الآخرة :

ـ قارن بين قصر العمر في الدنيا وطول العمر الأبدي في الآخرة ((أَفَرَأَيتَ إنْ مَتّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمّ جَاءَهُمْ مَا كانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كانُوا يُمَتّعُونَ))[5] ، فالعمر ما هو إلا يومان يوم ذهب وباقي يوم وفي الحديث : ((الجَنّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[6] .

ـ الخلود في الآخرة ليس أمر بسيط يمكن أن نمر عليه مر الكرام ، فالخلود في النار معناه أن يظل الإنسان في العذاب داخل النار ليس لمدة ساعة ـ وإن كان ذلك مروع جدا ـ وليس لمدة يوم كامل ، ولا لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة ولكن للأبد من غير أن يموت ، فمقارنة ذلك بأيام الدنيا وآلا مها تكون الدنيا لحظات ، حتى لو عاش الإنسان في الدنيا مائة عام تكون لحظات تمضي سريعة ، وكذلك الخلود في نعيم الجنة وملذات الجنة ليس لمدة يوم ـ وإن كان ذلك غاية في المتعة ـ وليس لمدة شهر ولا

---

(1) الذاريات : 50
(2) صفة الصفوة ـ دار الحديث، القاهرة (ج : 2 ، ص : 168)
(3) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (ج : 3 ، ص : 163)
(4) اللباب في علوم الكتاب ـ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان (ج : 18 ، ص : 103)
(5) الشعراء : 205 ـ 207
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)

سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة ولكن للأبد من غير أن يموت ، فمقارنة ذلك بأيام الدنيا ومتاعها الضئيل تكون الدنيا لحظات ، حتى لو عاش الإنسان في الدنيا مائة عام تكون لحظات تمضي سريعة ، لذلك من شعر بمعنى الخلود في الآخرة لم يهتم بالدنيا وما فيها وانصرف همه عنها ولم يعبأ بما يلقاه فيها من ألم أو نعيم ، ولذلك من انشغل همه وفكره ومشاعره بالدنيا على حساب انشغال همه وفكره ومشاعره با لآخرة فهو لا يؤمن بالخلود في الآخرة إيمانا حقيقيا ، وإيمانه بالآخرة عندئذ هو إيمان نظري فقط ، لأنه لو شعر بالخلود في الآخرة لما انشغل بالدنيا عن الآخرة ، وكذلك الحال لمن شعر بالمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وبين آلام الدنيا وآلام الآخرة فإنه عندئذ لا يعبأ بآلام الدنيا ولا بنعيمها .

ـ إن كل شيء منتهي فهو ضئيل ، وكل شيء خالد فهو عظيم ، فالدنيا زائلة ومنتهية وليس فيها خلود ، و المتع والشهوات التي تنتهي لا قيمة لها ، ولكي يشعر الإنسان بذلك يسال نفسه : وماذا بعد أن يأكل ويشرب وينام ويعمل ويتمتع ويقوم بأمور الدنيا ؟ ، فالإجابة أن كل ذلك إلى زوال وبعد ذلك القيامة .

ـ قال مالك بن دينار : ((لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى ؟))[1] .

ـ فمهما حقق الإنسان في الدنيا من طموحات ، ومهما حصّل من نعم في الأموال وفي المناصب وفي المتع و الملذات فكل ذلك ضئيل القيمة لأن كل ذلك مصيره إلى الزوال ويُحرم الإنسان منه بعد ذلك ، فعلى الإنسان أن يسال نفسه : وماذا بعد أن يحقق الطموحات ؟ إن كل شيء سوف يفنى ، فالشيء الذي يفنى مهما كان عظيما فإنه ضئيل القيمة لأنه يفنى ، أما المتع في الآخرة فهي باقية ، ولو عاش الإنسان في الدنيا ألف سنة فلا تعادل لحظة من عمره اللا نهائي في الآخرة .

ـ وكذلك فآلام الدنيا ضئيلة لأنها فانية ، وآلام النار في الآخرة عظيمة وخطيرة لأنها أبدية .

ـ كما أن نعيم الدنيا ليس فقط يفنى بالموت ولكن قد يفنى لأي سبب آخر كمرض أو ابتلاءات .

ـ الشعور بأن الدنيا دار مؤقتة :

ـ هذه الحياة التي نعيشها هي حياة كاذبة وخادعة وليست بحياة وإنما هي طريق والناس في الطريق ليس لهم بيوت يسكنونها أو حياة يعيشونها وإنما هم يأكلون في السيارة التي يسافرون فيها وينامون فيها وهم جالسون على الكراسي داخل السيارة ، فليست لهم سرائر ينامون عليها وليس لهم متسع من المكان أو متسع من الوقت ، لكن الأحمق يعيش في السيارة كأنها بيته وكأن مَنْ فيها أهله رغم أنهم مجرد مسافرين مثله تقابل معهم .

ـ إن الذي يوقن يقينا حقيقيا بالآخرة فإنه يرتب أموره على أساس أنه سيموت ، فيرتب ترتيبات الموت ، أي يعيش حياته الدنيوية في الإعداد لما بعد الموت وتجهيز حقائبه للسفر ويستعد نفسيا لاستقبال الحياة الجديدة الحقيقية لأنه يوقن بأن هذه الحياة الدنيوية ما هي إلا مرحلة انتقالية لا أكثر ، فينصب همه في إعداد الزاد الذي ينفعه في الآخرة ، أما المئونة التي يحتاجها أثناء الطريق فهي كيفما اتفق .

ـ الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة ، وأن الستين سنة (مثلا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة ، وينسيه الموت ، فيزين له الدنيا كأن فيها الخلود وأن فيها السعادة : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[2] .

ـ قد يتكاسل الإنسان عن إعداد نفسه للآخرة ويترك الدنيا تشغله رغم أن الهدف من وجوده في الدنيا هو أن يعد نفسه للآخرة ، وسوف يظل حاله غدا مثل حاله الآن ، فالسنين تسرق عمره دون أن يدري والدنيا ستظل تشغله ، وسيبقى الوضع الذي هو عليه الآن كما هو بعد عشرين سنة ، فلابد أن توقف الآن انشغال مشاعرك بـ

(1) أضواء البيان ـ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ـ بيروت ـ لبنان (ج : 8 ، ص : 504)
(2) طـه : 120

الدنيا ، وتسأل نفسك هل أنت مستعد الآن لو جاءك الموت للقاء الله ؟ .

ـ من الناس مَنْ يأكل ويشرب ويتمتع بقدر ما يستطيع لأنه إذا فاته الطعام والشراب والمتع فلن يجد طعاما غيره ولا متعا غيرها حيث لا يشعر أن هناك طعاما آخر ومتعا أخرى وحياة أخرى في الآخرة ، وفي الحديث : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1] ، ولذلك يقول ابن مسعود : ((الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له))[2] ، وكما يقولون في المثل : (الدنيا أشغال شاقة وآخرتها الإعدام) ، فهو لا يشعر أن الطعام والمتع والحياة الحقيقية في الجنة ، ولا يشعر أن هذه الحياة التي نعيشها كاذبة : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[3] ، " الحيوان " أي الحياة الحقيقية وفي الآية : ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[4] أي لحياته في الآخرة ، فإن الآخرة هي الحياة الحقيقية ، أما الحياة الدنيوية التي نعيشها الآن فهي حياة مؤقتة ، ويمكن تسميتها بمرحلة ما قبل الحياة ، أو بالمرحلة التي يعيشها عابر السبيل ، أما الذي يشعر أن الآخرة هي الحياة الحقيقية فإنه لا يكون حريصا علي ألا يفوته طعام الدنيا أو متعها لأنها مؤقتة ، وإن فاتته فهناك في انتظاره طعام آخر ومتع أخري ، فالذي يشعر أن الدنيا مؤقتة يكون طعامه وأمور دنياه كيفما اتفق ، فمن الناس مَنْ كل همه أن يكون حريصا علي ألا يموت ، وكل همه صحته ومتعته ودنياه ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[5] وكلمة (حياة) نكرة تدل علي أنهم يبحثون عن أي حياه .

ـ إن الذي لا يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش دنياه ، وتأخذه أمور الحياة وما بها ويطمئن بها ، ويغفل عن الآخرة : ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[6] ، ((بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً))[7] ، ((إنهم كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً))[8] .

ـ فالدنيا لا تصلح لأن تكون دار إقامة لأننا لا نرى فيها الجزاء لمن عبد الله والعقاب لمن عصى الله فلابد من دار فيها الثواب والعقاب ، والله يرزق المؤمن والكافر ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، فلابد من دار للثواب والعقاب : ((وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))[9] .

ـ آيات القرآن تبين ضآلة الدنيا لأنها مؤقتة تمر سريعا : ((إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنهم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[10] ، ((وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا))[11] .

ـ الدنيا عبارة عن حياة مؤقتة فهي (لعب ولهو) مثل لعب ولهو الأطفال أما الحياة الحقيقية الجادة فهي في الآخرة : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[12] ، ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[13] ، ((إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[14] ، ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)
(2) الزهد ـ ابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص : 29)
(3) العنكبوت : 64
(4) الفجر : 24
(5) البقرة :96
(6) يونس : 7 ، 8
(7) الفرقان : من الآية 40
(8) النبأ : 27
(9) آل عمران : من الآية 191
(10) يونس : 24
(11) الكهف : 45
(12) العنكبوت : 64
(13) الأنعام : من الآية 32
(14) محمد : من الآية 36

لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[1] ، ورغم أن اليقين النظري بأن الحياة الدنيا ليست حياة هامة وخطيرة وحاسمة وجادة لأنها حياة مؤقتة فهي مجرد لعب ولهو كما تبين الآيات إلا أن مشاعر الإنسان وهمومه وأهدافه قد تكذب آيات القرآن وتقول عكس ذلك تماما .

ـ فالدنيا مثل الطعام لا يمكث إلا قليلا ثم يصير براز ، ففي الحديث : ((إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[2] ، وفي حديث آخر : ((عن الضحاك بن سفيان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : يا ضحاك ما طعامك ؟ ، قال : يا رسول الله اللحم واللبن ، قال : ثم يصير إلى ماذا ؟ ، قال : إلى ما قد علمت ، قال : فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا))[3] .

ـ وفي الحديث : ((عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا : يا رسول الله لو أتخذ لك وطاء فقال : ما لي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل شجرة ثم راح وتركها))[4] .

ـ فالدنيا أشبه بحلم في المنام ثم يفيق منه الإنسان ، ((عن يونس بن عبيد ، قال : ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب ، فبينما هو كذلك إذ انتبه ... قيل لبعض الحكماء : أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال : « أحلام النائم »))[5] ، وفي إحياء علوم الدين أيضا : ((وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام))[6] .

ـ ولقد أحسن من قال : إنّ لله عباداً فطنا .... طلقوا الدّنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمّا علموا .... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجّةً واتخذوا ..... صالح الأعمال فيها سفنا

ـ الشعور بأن الدنيا دار تعب وشقاء :

ـ كل شيء حلو في الدنيا هو مر في الآخرة ، وكل شيء مر في الدنيا هو حلو في الآخرة ، ففي الحديث : ((حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة))[7] ، وفي الحديث القدسي : ((قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي))[8] ، وفي حديث آخر : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[9] ، وفي حديث آخر : ((إن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا))[10] ، وفي رواية أخرى : ((تجشأ[11] رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة))[12] ، وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلأن هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لا مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلا ءا ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلأن هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلا ءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلا بَلا ءٌ))[13] .

ـ فالدنيا دار تعب ، ومتعها قليلة وبها كدر ، وهذا من رحمة الله ، فلو جعل الله الدنيا مليئة بالمتع ورفع عنها التعب لفسد الناس جميعا : ((وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ

---

(1) الحديد : من الآية 20
(2) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم 2195)
(3) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ، ج : 2 ، برقم 2151)
(4) حديث صحيح بشواهده (رياض الصالحين ، ص : 230 ، برقم : 490)
(5) الزهد لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص : 31 ، 32)
(6) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة - بيروت (4 / 455)
(7) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3155 في صحيح الجامع)
(8) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 4332 في صحيح الجامع)
(9) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)
(10) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 7 ، برقم : 3372)
(11) هو خروج صوت من الحلق يدل على الشبع وبالعامية أي (تكرع)
(12) قال الشيخ الألباني : حسن (ج : 4 ، ص : 649 ، برقم : 2478)
(13) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)

بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ))[1] ، ((وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ، وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخرة عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ))[2] ، ومعنى (أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي في الكفر ، أي يكفر جميع الناس عندما يجدوا أن مَنْ يكفر يكون له هذا النعيم في الدنيا (وهم لا يشعرون أن نعيم الدنيا زائل ولا قيمة له) ، ولذلك ففي الحديث : ((تنزل المعونة من السماء على قدر المئونة وينزل الصبر على قدر المصيبة))[3] . 31

ـ فهذه الحياة هي حياة مؤقتة عابرة وليست دار إقامة ومعيشة ، وهذه الحياة غير مصممة وغير صالحة لتكون دار إقامة واستقرار ومعيشة لكي يبحث الإنسان فيها عن السعادة ، فالله خلقها بحيث تكون مرحلة مؤقتة وجيزة جدا (رغم أن الإنسان يحسبها طويلة جدا) ، لذلك فسباق الدنيا سباق خاسر لأنك مهما حاولت البحث عن السعادة فلن تجد ، فلقد شاء الله أن تكون الحياة كلها تعب وليس فيها راحة : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[4] أي أن الله يبين أن الدنيا دار تعب ونصب ولكنك تريد أن تجعلها دار سعادة وتبحث فيها عن السعادة ! ، فمهما حاولت أن تجمل في الدنيا وتدعي أن فيها سعادة فهي دار تعب ولن تستطيع أن تجعلها دار سعادة ، واسأل مَنْ جمعوا الأموال لم تحقق لهم السعادة ، ومهما حاولت أن تجعل الدنيا دار إقامة فلن تستطيع ، وإنك تجد من يبحث عن الاستقرار فليس هنا دار استقرار فإنها دار مؤقتة ، وكذلك تجد مَنْ يكون همه في أن يبحث عن الراحة وفي أن يتخلص من تعب ومشاكل وأعباء الدنيا وتكاليفها المعيشية ولن يجد الراحة لأن الله قال : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ)) ، فإنك لن تسعد مهما أكلت أو شربت أو تنعمت بالدنيا ، فالله حكم أنها دار شقاء وتعب وليست دار سعادة ، ولكن هناك من لا يزال يتسابق في جمع الدنيا من الأموال والأولاد والمناصب والشهوات ، فهو كمن يخبط رأسه في الحائط لأ نه لن يجني شيء ، أما دار السعادة فهي في الآخرة ، إن الذي يشعر بأن الدنيا دار مؤقتة والآخرة دار إقامة وأنه يعيش في غربة يرضي بما عنده من طعام وشراب ومسكن .... الخ ويقنع به ولا يكون عنده طول أمل وطموحات في جلب المزيد من الطعام والشراب والسكن والمتع والشهوات لأنه في غربة ، فالذي يعيش مغتربا في بلد ما فإنه لا يبالى بالطعام والشراب ..الخ ، فيكون طعامه وشرابه كيفما اتفق لأن طعامه وشرابه ومتعه عندما يعود إلى وطنه ومسكنه في دار الآخرة .

ـ فالذي يبحث عن شهوة النساء الفاتنات لا يجب أن يبحث عنها في الدنيا وإنما يبحث عنها في الجنة ، و الذي يتطلع إلى مسكن فاره أو قصر مشيد يتطلع إلى ذلك في الجنة ، والذي يتطلع إلى أن يشرب الخمور ويرقص مع النساء يتطلع إلى ذلك في الجنة ، وهكذا ، إذن فالإسلام جميل جدا ولذيذ وليس أعباء وتكاليف ويحقق للإنسان السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة حيث السعادة النفسية وراحة البال في الدنيا مع الحياة الطيبة ففي تفسير ابن كثير : (({ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار ا لآخرة))[5] .

ـ الشعور بأن الآخرة خير وأبقى :

ـ الإنسان يعيش الحياة مرتان أو يعيش حياتان : ((قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ))[6] ، ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ))[7] ، ((وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ

(1) الشورى : 27
(2) الزخرف : 33 ـ 35
(3) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 3001)
(4) البلد : 4
(5) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 4 ، ص : 601)
(6) غافر : من الآية 11
(7) البقرة : 28

ثمّ يُمِيتُكُمْ ثمّ يُحْيِيكُمْ إنّ الإنسان لكَفُورٌ))[1] ، ولابد من الشعور بأن الحياة في الآخرة أفضل ((قُلْ مَتَاعُ الدُنْيَا قَلِيلٌ وَالآخرة خَيْرٌ لِمَنِ اتقى))[2] ، ((وَمَا الحَيَاةُ الدُنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِلَذِينَ يَتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[3] ، ((وَلَأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ لِلَذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَقُونَ))[4] ، ((وَالآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى))[5] .

ـ إذا كان الإنسان يوقن يقينا حقيقيا بأن الحياة الأخروية خير وأبقى من الحياة الدنيوية فلابد أن يكون تعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالآخرة أكبر من تعلقها بالدنيا ، وإذا شعر الإنسان أن هناك حياة أفضل بديلة عن هذه الحياة الدنيوية فلن يتشبث بها ، فمن أثر ذلك مثلا أن الإنسان إذا أيقن يقينا حقيقيا بالحور العين وأن ذلك قريبا فلن ينظر إلى العاريات ويصبر عن النظر إليهن لأن هناك البديل الأفضل القريب المنال ، وإذا أيقن يقينا حقيقيا بأن كل ما في الدنيا من متع مجرد أسماء فقط وأن المتع الحقيقية إنما هي في الجنة فلن يلهث وراء متع الدنيا وسيصبر عنها ولن يعبأ بها لأنه قريبا سيصل إلي البديل الأفضل قريبا جدا ، ولذلك نجد الآية مقترنة بالصبر : ((فَاصْبِرْ صَبْرا جَمِيلا ، إنهم يَرَوْنَهُ بَعِيدا ، وَنَرَاهُ قَرِيبا))[6] .

ـ ((وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[7] فما أوتيت من مال وصحة وهواء ومال وعقارات ومظاهر ومناصب ... الخ فمتاع الحياة الدنيا الضئيلة الزائلة ، وما عند الله خير وأبقى .

ـ إن الدنيا ليست بشيء ، ولو كانت الدنيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى لكان العاقل اللبيب هو من يفضل الخزف الباقي على الذهب الفاني ، فكيف والدنيا خزف يفنى والآخرة ذهب يبقى؟! ، كيف يفضل الخزف الفاني على الذهب الباقي ؟! ، كيف نتهالك على الدنيا ونحن راحلون عنها ؟! ، ذلك لأن الشعور بخطورة الآ خرة غير موجود عندنا .

ـ لا يتحقق الإيمان حتى يكون الشعور بقدر الله أكبر من الشعور بقدر الدنيا ، وحتى يكون الشعور بقيمة الآ خرة والنفع فيها أكبر من الشعور بقيمة الدنيا والنفع فيها ، فـالله في الاقتناع النظري أكبر وأعظم من كل شيء ، وكل إنسان يفهم ذلك جيدا ، لكن في المشاعر فقيمة الدنيا والنفع فيها أكبر ، كذلك لا يتحقق الإيمان عند الإنسان حتى يكون الله والآخرة أكبر أهدافه وطموحاته وحتى يكون الله والآخرة لهما وجود في همومه ، فما بالك إذا لم يكن الشعور بقدر الله موجود أصلا ولم يكن الله والآخرة ضمن أهدافه أصلا .

ـ الشعور بضآلة الدنيا أمام الآخرة :

ـ إذا شعر الإنسان بأن الآخرة هي داره ومستقره وأن الدنيا ليست إلا ممر فيزول تعظيم الدنيا والمال و الشهوات من عقله وقلب ، لأنه لا وجه للمقارنة بين الدنيا والآخرة ، فمن عرف حقيقة الآخرة وحقيقة ما بها من نعيم فإنه بالضرورة ينظر إلى شهوات الدنيا والأموال نظرة احتقار ، وطالما أن الإنسان لا يزال ينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة فهذا يدل على أن يقينه الحقيقي بالآ خرة لم يتحقق ، لأن من يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فإن الدنيا تصبح لا قيمة لها في عينه .

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئا بالمقارنة بالآخرة ، فمن يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئا ، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها وشهواتها على أنه عنده قدر كبير من الطين ، فـ لا ينظر له نظرة انبهار ، وينظر إلى الفقير المعدوم على أنه عنده قدر قليل من الطين ، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسكين قد أتعب نفسه وأخذ منه قدرا من الطين ، وهذا لا يمنع من أن يطالب بحقه ، أما الذي لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فإذا كان مظلوما أو فقيرا فإنه يكون دائم

(1) الحج : 66
(2) النساء : من الآية 77
(3) الأنعام : 32
(4) يوسف : 57
(5) الأعلى : 17
(6) المعارج : 5 ـ 7
(7) القصص :60

التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدا ، وإذا كان ظالما أو غنيا فإنه يكون دائم التهلل والفرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره ، والذي لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فهو خائف خوف شديد جدا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنه لا يريد أن يموت ، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوته أو ينقص منه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة كبيرة جدا على أن يفقد غيره من الناس متع الدنيا وألا يحصلوا على شيء من متعها حتى يكون هو الأعلى ، وذلك لأن الدنيا ومناصبها وأموالها وشهواتها هي في نظره عظيمة وكبيرة جدا ويوم القيامة يفاجئ بأن كل ذلك كان مجرد طين وأنه كان حريصا على جمع الطين ! ، فالناس أمامهم جبل من الذهب الحقيقي وجبل من الطين ، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها ، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم .

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء لأن الدنيا ليست إلا طينا ، فالظالم أخذ كثيرا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين .

ـ اليقين الحقيقي بالشيخوخة والتعرض للأمراض والمحن :

ـ إن كل إنسان عنده اقتناع نظري تمام وبلا أدنى شك أنه قد يصل إلى سن الشيخوخة وتضعف قواه أو أنه قد يتعرض لأمراض أو محنة ، لكن بلسان المشاعر فكأنما يقول : لن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة أو لا أريد أن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة ، فهذا في لغة المشاعر هراء ولا يمكن أن يحدث أبدا ! ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[1] ، إن الإنسان لو انتبه فعلا لأنه قد يتعرض للمرض والمحن لشعر بالخوف والقلق وشعر بمدي ضعف الإنسان وشعر بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء ، وشعر بالخضوع لهذه القوة ، ولتغير حاله تماما ، ولذلك من الناس من إذا وصل إلى سن الشيخوخة ، أو من النساء من إذا وصلت إلى سن اليأس ، أو إذا تعرض لمرض أو محنة فإنه يستنكر ذلك ولا يسلم به ويحدث له اكتئاب شديد لأنه لا يريد لنفسه أن يمرض ولا يريد أن يموت رغم أن الناس من حوله يمرضون ويموتون ، فهو بمشاعره يعترض أولا على إمكانية حدوث المرض أو المحنة ، وينشأ عن ذلك أنه يعترض أيضا بمشاعره على الله وأن ذلك مقدر أو بأن هذا ظلم وتعدي من الله عليه بدون وجه حق ، ونفس الشعور قد يحدث له عند خروج الروح لأنه يُسلب كل شيء .

ـ اليقين الحقيقي بالموت :

ـ قد يذهب الإنسان إلى المقابر أو يرى قريبا له وهو يغسل فيهتز وجدانه وتتأثر مشاعره ، فيعلم عندئذ فقط ماذا يعني الموت ، أي يتصور ويدرك ويعي معنى الموت وأنه نهاية كل شيء في الدنيا ، فينشأ عن ذلك أن لا يسعى للدنيا لأنها تفنى سريعا في لحظة فتلك تجارة خاسرة .

ـ وقد يفعل إنسان آخر نفس الشيء لكن لا يعتبر ولا يفهم معنى الموت ، فهذا هو الفرق بين من يوقن يقينا حقيقيا بأنه سيموت ومن يوقن يقينا نظريا فقط بأنه سيموت .

ـ من كان يشعر بأن الموت هو النهاية فهذا معناه أن لا يوقن بالآخرة ولقاء الله يقينا حقيقيا ، أما من كان يشعر بأن الموت هو مجرد انتقال وسفر إلى مرحلة أخرى فهذا معناه أن يوقن بالآخرة ولقاء الله يقينا حقيقيا ، وبالتالي يكون الأول مرعوبا جدا من الموت وقد يحسب أن الله يظلمه بإماتته ، أما الثاني فليس مرعوبا من الموت ولكن يخاف من مهابة الانتقال إلى مرحلة شديدة الخطر مجهولة لا يدري ما يناله منها .

ـ الموت معناه تسليم الأمانة لصاحبها ! ، فالله هو المالك لكل شيء ، فأنت تعيش في ملك الله وعلى أرض الله ، والهواء الذي تتنفسه ملك لله ، والشقة التي تسكن فيها هي ملك لله ، وأنت نفسك وجسمك ويدك وزوجتك وأولادك ملك لله تعالى ، وكل ذلك أعطاك الله إياه كأمانه يستردها في موعد محدد ، هذا الموعد

(1) البقرة : 96

هو الموت ، فالموت هو سلب لكل النعم ، والابتلاء هو سلب لبعض النعم ، فالموت معناه أن تترك كل شيء مالك وأهلك ووظيفتك وأعضاؤك وروحك التي تجعلك تتحرك ، وكل ذلك ليس ملكا لك وإنما أمانة يستردها الله منك ، فهذا هو معنى الموت ، فمن عرف معنى الموت معرفة حقيقية فإنه لا يفزع من الموت لأنه إعطاء الأمانة لصاحبها وأنت محبا له لأنه جعلك تستفيد منها طوال هذه المدة التي عشتها في الدنيا .

ـ ولا يتحقق الإيمان بغير الإيمان بالموت ففي الحديث : ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره))[1] .

ـ إن كل إنسان عنده اقتناع نظري تمام وبلا أدنى شك أنه سيموت ويترك كل شيء ، لكن بلسان المشاعر فكأنما يقول : لن أموت أو لا أريد أن أموت ، خاصة إذا كان صاحب جاه ومنصب ودنيا وممتلكات فكون أنه يموت ويكون تحت التراب فهذا في لغة المشاعر هراء ولا يمكن أبدا ! ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[2] ، إن الإنسان لو شعر فعلا بالموت لشعر بالخوف والقلق وشعر بمدي ضعف الإنسان وشعر بأن هناك قوة أعلي من الإنسان هي التي تميته وتفعل به ما تشاء هي قوة الله تعالى ، وشعر بالخضوع لمن له هذه القوة ، ولتغير حاله تماما ، كما أن الناس لو شعروا بالموت لما نظروا إلى أصحاب الجاه والمناصب و الممتلكات نظرة تعظيم ، ولكن الموت في مشاعر البعض كلمة عادية روتينية فلا يشعر بما تعنيه الكلمة من خطر ، حيث كلمة الموت في لغة المشاعر تعني فقدان كل شيء وتعني ذهاب عن الدنيا بلا رجعة ، إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرنا بالذهاب إلى المقابر لا لنعرف ونقتنع بأننا سنموت فكل إنسان علي اقتناع نظري تام بالموت ولكن لنشعر بالموت ونتصوره ، إن الشعور بخطورة الموت يؤدي إلى شعور بضآلة الدنيا وشعور بغباء مَنْ يسعى لها ، فأيهما يفضل الإنسان ويريد ؟ حياة الدنيا أم حياة الآخرة ؟ : ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى))[3] ، كما أن الذي يشعر بالموت لا يهمه كل مصائب الدنيا لأنها أقل من مصيبة الموت ، ولأن مصائب الدنيا تعني ترك جزء مما تملك من صحة أو مال أو ممتلكات .. إلخ ، أما الموت فهو ترك كل شيء ، إذن سواء تركت شيئا مما تملك في حياتك أم لم تترك فالنهاية واحدة هي أنك تترك كل شيء عند الموت ، فهذا يعني عدم الاكتراث وعدم السخط والغضب علي مصائب الدنيا ، والذي يوقن يقينا حقيقيا بالموت فإنه يعيش حياته يعبد الذي يميته : ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ))[4] ، فهناك من وضع للإنسان شيء اسمه الشيخوخة لكي يعلم الإنسان أنه لا يمكن أن يخلد في الدنيا وأن هناك من قدّرَ عليه الموت : ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ))[5] ، ومهما حاول الإنسان التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضي أم لم يرضى ، شعر بذلك أم لم يشعر ، وقد سبقه الكثير إلى هناك ولكن من عنده مشاعر يحس بها ؟ ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ))[6] ، وإنه غدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟ . !

ـ والموت يسمى هاذم اللذات لأن من يشعر بأنه سيموت يوما ما فإن حياته وما فيها من متع ولذات سوف تتكدر ، وفي الحديث : ((أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت))[7] ، فكيف يفرح الإنسان بشيء هو مفارقه ، فهو مفارق لكل النعم ، يقول الشيخ أبو حامد الغزالي : ((ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد له من مفارقته ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته))[8] ، وفي الحديث : ((استحيوا من الله حق الحياء قال قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم 7584)
(2) البقرة : 96
(3) النازعات : 37
(4) يونس : من الآية 104
(5) يٓس : 68
(6) قٓ : 37
(7) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع : برقم 1210)
(8) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة - بيروت (ج : 4 ، ص : 452)

لله قال ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى **ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا** فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء))[1] ، وفي الحديث : ((اذكر الموت في صلاتك فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته وصل صلا ة رجل لا يظن أنه يصلي صلاة غيرها وإياك وكل أمر يعتذر منه))[2] ، وفي الحديث : ((اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك واحسب نفسك مع الموتى واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة))[3] ، وفي رواية أخرى : ((اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى))[4] ، وفي الحديث : ((ما حق امرئ مسلم تمر عليه ث لاث ليال إلا وعنده وصيته ، قال عبد الله بن عمر : ما مرت علي منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا وعندي وصيتي))[5] ، ولذلك يقول تعالى : ((إنك ميت وإنهم ميتون))[6] ولم يقل إنك ستموت وإنهم سيموتون حتى يعد الإنسان نفسه من الموتى .

ـ ورد عن حذيفة بن اليمان أنه كان يقول : ((ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي : يا أيها الناس الرحيل الرحيل ، وإن تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : (إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم) قال : في الموت (أو يتأخر) قال : في الموت))[7] .

ـ فالموت عند المؤمن هو اليوم المنتظر ، فهو يعيش عمره ينتظر هذا اليوم الذي بعده السعادة الأبدية ، أما المنافق فيتجاهل ذلك اليوم ، ففي مشاعره أن لقاء الله أمر لا وجود له لأنه لا يشعر له بقيمة ، فهو بذلك لا يريد لقاء الله رغم اليقين النظري التام بأنه سوف يلقى الله : ((إِنّ الّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدّنْيَا وَاطْمَأَنّوا بِهَا وَالّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولئِكَ مَأْوَاهُمُ النّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[8] ، ((بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً))[9] ، ((أنهم كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً))[10] .

ـ فنسيان الموت وتجاهله مثل نسيان الآخرة ونسيان الله ، فإن جميع الناس يؤمنون بالموت ويوقنون به تماما لكن لا يتأثرون بالموت مطلقا كأنه شيء غير مؤثر وكأنه غير موجود ، كذلك اليقين بالله وبالآخرة موجود لكنه يقين نظري بلا أثر في النفس أو الهم أو المشاعر ، بل إن البعض قد يعجب : وهل معرفة الإ نسان بالله والآخرة أمور مؤثرة ؟!! وكأن عظمة الله الهائلة وقدرته الفائقة وعلمه الهائل وأهوال القيامة ونعيم الجنة كل ذلك مسألة معلومات يقتنع بها الإنسان فحسب !! .

ـ بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدا مات فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون ، خاصة لو كان صديقا حميما وكان شابا صغيرا .

ـ كل الناس يحبون المال ويكرهون الموت وهذا أمر مذموم ، ولكن تزيد محبة المال وتزيد كراهية الموت حتى تصبح ذنبا عظيما ، وهو ما يقع فيه الناس اليوم ففي الحديث : ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله وما الوهن قال **حب الدنيا وكراهية الموت**))[11] ، وحب الدنيا قد يكبر ليصبح عبادة للدنيا ، وكراهية الموت قد تكبر لتصبح كفرا بالموت .

ـ فالإنسان يعيش ولا يريد أن يموت كأنه سيخلد في الدنيا ويحب المال حبا كبيرا ففي الحديث : ((يهرم بن آدم ويشب منه اثنتان الحرص على العمر والحرص على المال))[12] ، وفي تفسير الخازن : (({ وتحبون

---

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 637 ، برقم 2458)
(2) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم : 849)
(3) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم : 1037)
(4) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم : 1038)
(5) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 6 ، ص : 239 ، برقم : 3618)
(6) الزمر : 30
(7) الزهد ـ لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص : 44)
(8) يونس : 7 ، 8
(9) الفرقان : من الآية 40
(10) النبأ : 27
(11) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبي داود ، ج : 4 ، ص : 111 ، برقم : 4297)
(12) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ، ج : 4 ، ص : 570 ، برقم : 2339)

المال حباً جمّاً } أي كثيراً ، والمعنى يحبون جمع المال ، ويولعون به وبحبه ، { كلا } أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ، من الحرص على جمع المال وحبه))[1] ، فهذه الآيات والأحاديث لا تبين أن حب الدنيا وكراهية الموت طبيعة فطرية في الإنسان معذور بها ، ولكن تبين أن هناك مرضا خطيرا متفشي بين الناس وهو الحرص على العمر وحب الدنيا حبا جما وكراهية الموت إلى درجة الرعب : ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّه مُلَاقِيكُمْ))[2] ، وهؤلاء عند احتضارهم أو عند الشدائد تجد عندهم رعب شديد من الموت ، فهو لا يريد أن يموت ، وربما كان سبب موتهم هو رعبهم من الموت ، في حين تجد الصالحين عند احتضارهم يتقبلون أمر الموت وقد تجد ذلك في حديثهم عند الاحتضار .

ـ فالموت عند البعض هو الطامة الكبرى وهو نهاية الحياة ، أما المؤمن فالموت عنده هو بداية الحياة الحقيقية وهو مجرد مرحلة ينتقل بها إلى الدار الآخرة ، وهو مجرد ألم مؤقت عليه أن يتحمله ثم بعده يحيا مرة أخرى ، وذلك لأن الآخرة هي حقيقة واقعة في ذهن المسلم وفي شعوره ، فالأرواح لا تموت و الجسد يتم تشكيله من جديد بشكل آخر ، أما عند البعض فهي مجرد قناعات ومعلومات نظرية لا يحمل لها هما ولا ينشغل بها باله .

ـ من الآثار التي تدل على عدم وجود اليقين الحقيقي بالموت ، هو أن البعض يعيش حياته كأنه لن يموت ، فيهتم بمسكنه الذي يسكن فيه اهتمام من هو خالد فيه كأنه دار إقامته غير مبالي أن داره ليست هنا ، ويهتم بصحته اهتمام من هو خالد كأنه لن يموت ، ويهتم بممتلكاته اهتمام من هو خالد كأنه يأخذها معه عند رحيله من الدنيا ، ويهتم بأمور الدنيا اهتمام من هو خالد فيها كأن الدنيا هي دار إقامته ، ولذلك ففي تفسير الرازي : (({ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } المصانع مآخذ الماء ، وقيل القصور المشيدة و الحصون { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد ، وفي مصحف أبي : (كأنكم) ، وقرأ (تخلدون) بضم التاء مخففاً ومشدداً ، واعلم أن الأول إنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف ، أو على الخيلاء ، والثاني : إنما صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر))[3] ، أما الإنسان الذي يوقن يقينا حقيقيا بأنه سيموت ويلقى الله فإنه يعيش مثل الذي يعيش في غربة في بلد ما ، فليست قضيته واهتمامه الأكبر أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب ، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه ، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضي بأي شيء يؤدي الغرض ، فإن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق ، وإنما هو يأخذ زاد المسافر ، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها ، ففي الحديث : ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا فقال : ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[4] ، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لم يكن يرفض التكنولوجيا والعلم الحديث والذي كان يتمثل في عهده في فراش لين بدلا من الحصير ، لكن ذلك ليس الذي يشغل همه وفكره ومشاعره ، وإنما الهم الأكبر الذي كان يشغل همه وفكره ومشاعره هو الآخرة ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[5] ، وفي الحديث : ((إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب))[6] ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[7] .

ـ لكن الإنسان يعيش حياته وهو يتناسى الموت ويتغافل عنه ويتجاهله ويتشاغل ويتلهى عنه كأنه لن يموت ، رغم اليقين النظري التام بالموت .

---

(1) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 6 ، ص : 262)
(2) الجمعة : من الآية 8
(3) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب ـ التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 24 ، ص : 523)
(4) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3283)
(5) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2384 في صحيح الجامع)
(7) صيد الخاطر ـ دار القلم - دمشق (1 / 447)

ـ الشعور بخطورة اقتراب الآخرة واقتراب الموت وقصر الحياة في الدنيا :

ـ الإنسان منذ أن يولد يبدأ العد التنازلي ، فكلما مرت ساعة نقص من عمره ساعة ، والعد التنازلي مستمر فأنت توشك أن تبلغ ، فأنت منذ ولدت تقطع الطريق إلى الله توشك أن تبلغ ، فكل يوم يمر من عمرك هو اقتراب من أجلك لتصل إلى لقاء الله تعالى ، وفي حلية الأولياء : ((قال فضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة ، قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ ، فقال الرجل : يا أبا علي إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال له الفضيل : تعلم ما تقول ؟ قال الرجل : قلت إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال الفضيل تعلم ما تفسيره ؟ ، قال الرجل : فسره لنا يا أبا علي ، قال قولك إنا لله ، تقول : أنا لله عبد وأنا إلى الله راجع ، فمن علم أنه عبد الله وأنه إليه راجع ، فليعلم بأنه موقوف ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابا ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال : تستره ، قال : ما هي ؟ قال : تحسن فيما بقى يغفر لك ما مضى وما بقى ، فإنك أن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وما بقى))[1] ، فإنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل .

ـ فالدنيا هي وقت وجيز جدا ويمضي سريعا ، وعمر الإنسان في الدنيا إلى عمره في الآخرة يكاد يكون صفرا ، وما يتبقى من عمر الإنسان ليصل إلى الآخرة هو وقت وجيز جدا وسريع جدا ، وهناك فرق بين اليقين النظري بضآلة قيمة الوقت الذي يقضيه الإنسان في الدنيا وسرعة مروره وبين شعوره بخطورة ذلك الأمر ، فيشعر باقتراب الآخرة كأنها غدا ولا يبالي كثيرا فيما يحدث في هذا الوقت الوجيز لأنه يمضي سريعا .

ـ فمن عرف قصر حياته في الدنيا عرف اقتراب الآخرة ، ومن عرف ضآلة الدنيا عرف خطورة الآخرة ، ومن قصر أمله في الدنيا عرف الخلود فيها ، ومن عرف ضآلة نفسه عرف عظمة ربه ، ومن عرف في نفسه صفات النقص والضعف عرف صفات الكمال في الله تعالى .

ـ الشعور باقتراب الآخرة معناه الشعور كأن أهوال القيامة تهجم علينا ، وتعنى أننا الآن في حالة استعداد وتأهب للقائها كاستعدادنا لحرب عدو قادم إلينا ففي تفسير الطبري : ((يعني تعالى ذكره بقوله (اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ) : دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة ، وقوله (اقْتَرَبَتِ) افتعلت من القُرب ، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمر لهم **بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم ، وهم عنها في غفلة ساهون**))[2] .

ـ لو أن إنسان محكوم عليه بالإعدام وهو ينتظر تنفيذ الحكم وينتظر لقاء الله عن قريب ، ماذا يمكن أن يفعل ؟ وكيف يكون شعوره بالدنيا ؟ ، هل يظل قلبه متعلقا بالدنيا وبما فيها ؟ ، أم أنه سوف لا يتعلق قلبه إلا بالآخرة وما هو صائر إليه ؟ ، إن جميع الناس في الدنيا محكوم عليهم بالإعدام بالفعل وليس على سبيل البلاغة ، مع اختلاف كيفية الموت هل بالمرض أم حادثة أم بالقتل أم موت فجائي ، إن عمر الإنسان في الدنيا ولو كان مائة سنة فهي سنوات قليلة وأيام معدودة لمن يعقل سواء في مرورها سريعا أو بالمقارنة بالخلود في الآخرة ، إذن فالإنسان ينتظر قريبا تنفيذ الحكم بموته وانتقاله إلى الدار الآخرة فلابد أن يكون حاله مثل حال الإنسان المحكوم عليه بالإعدام وهو ينتظر تنفيذ الحكم بل أشد لأن تنفيذ الحكم هنا في أي لحظة مفاجئة دون معرفة الوقت المحدد لتنفيذ الحكم ، فمن كان يوقن يقينا حقيقيا باقتراب الآخرة فإنه يوقن يقينا حقيقيا بقصر العمر في الدنيا وأنه على وشك الوصول إلى الآخرة ، ومن كان يوقن بذلك فلن تتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالدنيا إلا مثل عابر السبيل أو المسافر الذي يستعد للرحيل والعودة إلى بلده ، خاصة وأن الدنيا ليست إلا دار تعب ونصب ، لذلك في المثل : (الدنيا أشغال شاقة وآخرتها الإعدام) .

ـ فالحياة في الدنيا قصيرة : ((قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ))[3] ، ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 8 ، ص : 113)
(2) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 22 ، ص : 565)
(3) المؤمنون : 113

يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ))[1] ، ((وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ))[2] ، ((كأنهم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ))[3] ، ((كأنهم يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا))[4] فالدنيا يومين يوم مضى وبقي يوم .

****

3ـ انشغال الهموم

ـ الهدف (الهم) الأكبر والأهداف (الهموم) المؤقتة :

ـ الدنيا ليست إلا وسيلة يستعين بها المؤمن كما يستعين عابر السبيل أثناء سيره بشجره يستظل بها أو بشربة ماء يشربها أو بلقمة تسد جوفه ، فالمال والعمل للكسب والزواج والطعام والشراب وتوفير المسكن وامتلاك وسائل التكنولوجيا وغيرها من أمور الدنيا ليست إلا وسائل تعين الإنسان في سفره ، ولكن من الناس من تكون هذه الوسائل هي أهدافه فيعيش لجمع المال والطعام والشراب أو يعيش من أجل تربية أولا ده مثلا فيكون ذلك هدفه الذي يعيش من أجله أو يعيش من أجل أن يتسلى بأي أمر من الأمور أو بهواية أو غير ذلك ، وفي النهاية لا يحصد شيئا فيكون كالتائه الذي ضل الطريق .

ـ الإنسان الذي يريد أن يسافر إلى مكان ما ، فهذا هو هدفه ، ولكن أثناء سيره إلى ذلك المكان يريد أمور أخرى فهو يريد أن ينزل في استراحة يستريح فيها ويصنع كوخا مؤقتا يستظل به إلى أن يقوم ، ويريد أن يأكل ويشرب ، ولكن كل هذه الأهداف مؤقتة وعابرة وبسيطة ولا ينشغل بها كثيرا فهدفه الأكبر هو أن يصل إلى حيث يريد .

ـ فكذلك الهدف الأكبر الذي يسعى إليه الإنسان ويرجوه هو دخول الجنة والنجاة من النار ، ولكن هناك أهداف أخرى دنيوية ولكنها عابرة ومؤقتة ولا ينشغل بها كثيرا ، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[5] .

ـ فالمسافر الراحل من بلد الغربة ليس عنده طول أمل فيها ، والجاهل يلهيه طول الأمل عن سفره : ((ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))[6] .

****

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة ولقاء الله واقترابهما يؤدي إلى انشغال الهم بذلك ، وانشغال الهم بالآخرة ولقاء الله واقترابهما يتمثل في الشعور بالترقب والشعور بالغربة ، ونوضح ذلك كالتالي :

1ـ الشعور بالترقب والانتظار للقاء الله والآخرة (الاستعداد النفسي والتأهب والتطلع إلى الآخرة)

ـ لو قيل لك أنه قد تحدد لك موعد سفرك من أرض الدنيا إلى أرض المحشر بعد شهر من الآن ، وأن جواز سفرك قد تم التأشير عليه بالهجرة بلا عودة من الدنيا ، إن هذا الأمر عندئذ سوف يشغل تفكيرك ليلا ونهارا ، سوف ستظل تفكر في لقاء الله وتتهيب الأمر حيث تقف أمامه لتجيب عليه وهو يسألك عن أعمالك ، وسوف تتعامل مع أهلك والناس تعامل المودع لهم الراحل عنهم ، إنه تفكير دائم وشعور بالتهيب من الأمر (خوف المهابة من فراق من اعتدت على رؤيتهم في الدنيا وخوف المهابة من الوصول إلى لقاء الله نفسه) .

---

(1) يونس : من الآية 45
(2) الروم : من الآية 55
(3) الأحقاف : من الآية 35
(4) النازعات : 46
(5) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)
(6) الحجر : 3

ـ إنه بالفعل قد تحدد لك موعد سفرك وهو قريب جدا ولكن لم يتم إعلامك به ، فلماذا لا يتوجه تفكيرك إلى هذا الأمر ولماذا لا تتهيب الأمر طوال وقتك ؟ ، ذلك لأنك تبعد تفكيرك عن هذا الأمر وتتناساه وتتجاهله وتتغافل عنه كأنك لن تسافر وترحل ولن تقابل الله نفسه سبحانه ، فأصبح يقينك بالموت والآخرة والسفر للقاء الله هو مجرد يقين نظري فقط وليس يقينا حقيقيا ، فأصبح ذلك السفر وأصبحت الآخرة لا قيمة لها في نظرك .

ـ كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفه أو اليوم الذي يحدث فيه أمر خطير فيظل همه منشغلا بهذا اليوم ، فالطالب يترقب يوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج ، والعاقل الذي يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبا يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلا بـ التطلع إلى يوم اللقاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها ، والشعور بالترقب مثل شعور الإنسان الذي يقف ينتظر أحدا على موعد .

ـ فالشعور بالترقب معناه الاستعداد النفسي بانشغال الهم بالأمر فلا يكون مفاجئا عندما يأتي ، وعدم وجود الشعور بالترقب معناه أنه يتناسى ذلك الأمر ولا يشغل باله به رغم يقينه النظري به فيكون الأمر مفاجئا له عندما يأتيه .

ـ المؤمن يعيش حياته يعد نفسه للآخرة على أمل أن يلقى الآخرة فيجد الثواب ، فعندما يذهب إلى الآخرة لا يكون الأمر مفاجئا له وإنما هو أمر كان يتوقعه وينتظره طوال عمره ، فهو يعيش حياته رجاء الآخرة ، أي من أجل الآخرة ، فهو يعيش حياته وعنده رجاء وأمل وتوقع وانتظار اللحظة التي يصل فيها إلى الآخرة ، فهمه مشغول باليوم الذي يلقى فيه الله تعالى والآخرة ، فذلك هدفه .

ـ وفي تفسير السعدي : ((يقول تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به { وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } بدلا عن الآخرة ، { وَاطْمَأَنُّوا بِهَا } أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها ، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون ، {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود ، { أُولَئِكَ } الذين هذا وصفهم { مَأْوَاهُمُ النَّارُ } أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها))[1] .

ـ والشعور بترقب لقاء الله والآخرة ورد في القرآن بمعنى الرجاء للقاء الله والآخرة ، ففي التفسير المنير : (({ مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ } أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة))[2] ، وفي تفسير أبي السعود : (({ وارجوا اليوم الاخر } أي توقّعوه وما سيقعُ فيه من فنون الأهوالِ))[3] .

ـ وعدم الشعور بترقب لقاء الله والآخرة يعبر عنه بعدم الرجاء : ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[4] ، ((وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا))[5] .

ـ الناس صنفين هما :

1ـ الصنف الأول : هم الذين يتطلعون ويترقبون وينتظرون ويتوقعون ويرجون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى :

---

(1) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 358)
(2) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (20/ 186)
(3) تفسير أبي السعود [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] دار إحياء التراث العربي - بيروت (7/ 39)
(4) الفرقان : 40
(5) الفرقان : 21

ـ فهؤلاء يعيشون في الدنيا معيشة من يقف في مكان ما ينتظر أحدا على موعد لمقابلته وهو قلق ينظر في الساعة دائما ويتلفت يمينا وشمالا لعل من ينتظره قادم الآن ، فلحظات الانتظار هذه هي فترة عمره يبقى طوال حياته الدنيوية في حالة ترقب وانتظار وتوقع مجيء الموت والآخرة ولقاء الله في أي لحظة وإعلان النتيجة لما يصنعه في الدنيا ، فطالما تحقق اليقين الحقيقي بأن الآخرة دار استقرار فلابد من وجود الشعور بقلق الانتظار .

ـ وهؤلاء يعيشون سنوات عمرهم في حالة تأهب وترقب واستعداد نفسي متطلعين إلى اليوم المحتوم الذي يعيشون من أجله منتظرين مجيء اليوم الذي يصلون فيه إلى بيتهم بعد سفر طويل ! .

ـ وهؤلاء يعيشون حياتهم معيشة المسافر عابر السبيل الذي ينظر إلى الحياة الدنيوية على أنها مؤقتة فانية وأنه راحل إلى حياة الخلود حيث داره وأهله ومعيشته .

ـ وهؤلاء عندهم شعور بالترقب والانتظار والتطلع والطموح إلى الآخرة ولقاء الله ، فذلك هدفهم وغايتهم التي يعيشون من أجلها .

ـ وهؤلاء يريدون الآخرة ولا يريدون الدنيا ، يعيشون معيشة المتوقع المنتظر مجيء الموت والآخرة ولقاء الله .

ـ وهؤلاء يعيشون في حالة قلق وإشفاق وخوف من الآخرة ، ويستمر ذلك طوال حياتهم وأثناء أداءهم للأعمال ، وبالتالي عندهم صبر على ما في الدنيا من آلام أو من ترك الشهوات انتظارا لشهوات أخرى بديلة هي أعظم ولا تنتهي .

ـ فاليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي إلى شعور باقتراب الآخرة وشعور بالترقب والانتظار والتطلع إلى الآخرة ولقاء الله ، وهذا الانتظار فيه قلق وإشفاق وخوف وفيه أيضا طموح وأمل في الجنة ، ويكون عنده استعداد نفسي وتأهب للموت واستعداد نفسي لترك الأهل والمال والطعام والشراب ، ويكون عنده خوف من الآخرة وحب للجنة وخوف من النار .

ـ وهؤلاء عندهم صبر طويل ، فهم يصبرون على الدنيا منتظرين الآخرة ، والصبر على الدنيا معناه أن يصبر الإنسان مدة الستين سنة أو أكثر أو أقل حسب عمر الإنسان باعتبار أن هذه السنوات ما هي إلا لحظات منتهية ضئيلة في عمر الآخرة ، فالذي يوقن فعلا بالآخرة ويشعر بها فإنه يصبر على أيام هذه الدنيا حتى تنقضي ، لأن الإنسان منشغل عن الدنيا بانتظار الآخرة ، ولأنه يشعر بأن الدنيا عابرة وتمر سريعا : ((فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلا ً ، إنهم يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً))[1] .

ـ وعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة معناه عدم وجود اليقين الحقيقي باقتراب الآخرة .

ـ وفي تفسير أبي السعود : ((وارجوا اليوم الأخر أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته))[2] .

ـ ((فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))[3] ، ((مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإِنّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السّمِيعُ العَلِيمُ))[4] .

2ـ الصنف الثاني : وهم الذين لا يتطلعون ولا يترقبون ولا ينتظرون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى ، فيعيشون حياة التلهي بالدنيا والاندماج والاطمئنان بأمور لعبها ولهوها :

---

(1) المعارج : 5 ـ 7
(2) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (7 / 39)
(3) الكهف : 110
(4) العنكبوت : 5

ـ من الناس من عنده طول أمل وطموحات في أمور الدنيا لكن ليس عنده أي أمل أو طموح في الآخرة فليست الآخرة من أهدافه فلا يرجوها رغم أنه مصدق بالآخرة .

ـ فهؤلاء لا يريدون أن يموتوا فيعيشون كأن الموت لن يأتيهم ، وهم مشغولون بالدنيا لا يترقبون الآخرة .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ إِنّ الذِينَ لا يرجون لقاءنا } أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة ، { ورضوا بالحياة الدنيا } أي بدلا ً عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة ، { واطمأنوا بها } أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها ، { والذين هم عن آياتنا غافلون } لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها ، { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النّارُ بِمَا كانُوا يَكسِبُونَ }))[1] ، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل : ((إن الذين لا يرجون لقاءنا ... وقيل (لا يرجون) لا يتوقعون أصلا ولا يخطر ببالهم ، (ورضوا بالحياة الدنيا) أي قنعوا أن تكون حظهم ونصيبهم ، (واطمأنوا بها) أي سكنت أنفسهم عن ذكر الانتقال عنها والذين هم عن آياتنا غافلون))[2] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ إن الذين لا يرجون لقاءَنا } أي : لا يتوقعونه))[3] .

ـ ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيّنَاتٍ قَالَ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بِقرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدّلْهُ))[4] ، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[5] ، ((أنهم كانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا))[6] ، ((مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا))[7] .

ـ وعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة يعني عدم وجود الشعور بقدر الآخرة ، وفي تفسير القرطبي : ((والذين كفروا عما أنذروا معرضون مولون لاهون **غير مستعدين له** ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم))[8] ، وفي تفسير الطبري : (({ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون } .... يقول وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنو محاسبته إياهم منهم واقترابه لهم في سهو وغفلة وقد أعرضوا عن ذلك **فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب** جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال))[9] .

ـ الشعور بترقب الموت (الشعور بأن الموت متوقع في أي وقت الآن) :

ـ هناك فرق بين المعرفة النظرية بأن الموت يأتي بغتة في أي لحظة وبين الشعور بذلك ، فالشعور بأن الموت يأتي بغتة في أي لحظة يعني شعور مستمر بالقلق والخوف وتوقع الموت في أي لحظة ، وبالتالي القلق و الخوف من أنك تنتقل إلى الآخرة في أي لحظة ، فالإنسان بطبيعته يحب الحياة والموت مخيف بالنسبة له ، والآخرة مخيفة أكثر ، ويقول أبو حامد الغزالي : ((قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا .... ، وقال إبراهيم التيمي : شيئان قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل ، وقال كعب : **من عرف الموت** هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها))[10] ، وأنت تسمع كل يوم أن مات فلان ومات فلان وسوف يأتي اليوم الذي ينادى فيه باسمك !! .

ـ عندما يمرض الإنسان لا يخطر على باله أنه من الممكن أن يكون ذلك مرض الموت ، ويظل يدعو الله ويصلي من أجل أن يشفيه الله فقط وليس من أجل الآخرة ، فإذا انتهى ذلك المرض بالموت فعندما يوشك على الموت فإنه يكره الله لأنه لم يشفيه ولأنه يرى أن الموت هو النهاية وليس انتقال للآخرة ، فقد أخذ يدعو الله ويخلص له من أجل الدنيا فقط : ((فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدّينَ فَلمّا نَجّاهُمْ إلى البَرّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ))[11] .

---

(1) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (2/ 450)
(2) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (1 / 353)
(3) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (2 / 452)
(4) يونس : 15
(5) الفرقان : 40
(6) النبأ : 27
(7) نوح : 13
(8) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 16 ، ص : 179)
(9) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 17 ، ص : 1)
(10) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة - بيروت (ج : 4 ، ص : 451)
(11) العنكبوت : 65

****

2ـ الشعور بالغربة (عدم الرضا والاطمئنان بالدنيا)

ـ هو شعور بالغربة في ابتعاده عن أهله ووطنه (في الآخرة) .

ـ معنى أن الإنسان اعتاد على أمر ما أي أنه رضي به واستقر فيه ، وعندما يترك الإنسان شيئا اعتاد عليه وألفه يشعر بالحزن والضيق ، وعكس ذلك عندما يكون الإنسان في أمر طارئ مؤقت عابر ، فإنه عندما يترك هذا الأمر لا تتأثر مشاعره ولا يحزن ولا يهتم لأنه كان أمرا طارئا ، فمثلا الإنسان يقابل آخرين في المواصلا ت ولكن عندما ينزل من السيارة لا يشعر بالفراق والحزن لفراقهم ، ولكن عندما يكون له صديق عاش معه سنوات طويلة ثم يفارقه لموت صديقه مثلا أو لسفره فإنه يشعر بالحزن لأنه ألفه واعتاد عليه ، وكذلك الذي يعمل في شركة سنوات طويلة ثم يتركها لفصله من العمل أو لإحالته على المعاش مثلا فإنه يحزن لأنه اعتاد عليها واعتاد أن يقوم كل يوم ثم يذهب للعمل ويؤدي أعمالا معينة ثم يعود ، ولكن بعد تركه للعمل تغير حاله الذي اعتاد عليه فشعر بالكآبة ، وهكذا .

ـ فمعنى أن الإنسان رضي بالدنيا واطمئن بها أي ألفها واعتاد عليها ورضي بها وطنا له ومستقرا له ، ففيها يقيم ويسكن وفيها أهله وفيها آماله وطموحاته ورغباته ، وهو لا يشعر أن وطنه وأهله وداره في الآخرة وليس في الدنيا .

ـ فالدنيا في نظر المؤمن ليست كذلك فهي مجرد حياة مؤقتة وجيزة تمضي سريعا وكل شيء فيها مؤقت فهي مجرد ممر يسير فيه ليصل إلى الآخرة فهو لا ينظر إليها ولكن ينظر إلى ما هو ذاهب إليه فلا يبالي زادت أم نقصت .

ـ فالدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه ، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته ، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت .

ـ والإنسان الذي ألف الدنيا واعتاد عليها ورضي بها عندما يشعر باقتراب الموت أو قبل موته يحدث له اكتئاب شديد وخوف وهلع لأنه لا يريد أن يترك ما اعتاد عليه .

ـ الفرق بين الغربة التي هي شعور من المشاعر والغربة التي هي عمل من الأعمال :

ـ هناك فرق بين أن يشعر الإنسان كأنه غريب وأن يعمل كأنه غريب ونوضح ذلك كالتالي :

ـ الشعور بالغربة هو ما يشعر به الإنسان الذي يعيش في بلد الغربة ، وهو شعور بالقلق أو عدم الاطمئنان أو عدم الاستقرار أو عدم الارتياح أو عدم الانسجام أو عدم الاندماج أو عدم الأنس بالمكان وبالناس الموجودون حوله وبالأوضاع التي تحدث من حوله ، وبتعبير آخر هو شعور الإنسان بأنه مسافر ومرتحل ومنتقل أو أنه مستعد نفسيا للسفر متأهب ومترقب ومنتظر ومتطلع إلى موعد السفينة أو الطائرة التي سوف تنقله إلى وطنه وبلده وأهله .

ـ وعكس هذا الشعور هو شعور بالرضا والاطمئنان والتأقلم والتعايش والأنس بالدنيا ، أي هو ينظر إلى الدنيا كأنها داره ومقامه وسكنه ووطنه وبيته وفيها أهله وأصحابه وحياته وماله وعمله ومكان إقامته الدائمة ، فهو لا يتطلع ولا ينتظر ولا يترقب ولا يرجو الحياة التي في الآخرة لأنه يتغافل عنها كأنه لا يسافر إليها ، وهذا معناه أن الآخرة غير موجودة في مشاعره ، إذن هذا الإنسان لا يرجو الآخرة ولذلك فهو راض ومطمئن بالدنيا على أنها داره ومقامه وهذا نفاق أكبر : ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا

بِهَا وَالذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[1] .

ـ أما الغربة في عمل الإنسان هي أن يكون سلوك الإنسان وعمله مثل سلوك الإنسان المقيم في بلد الغربة أو الذي يستعد للسفر أو المسافر أثناء وجوده في السفينة أو الطائرة التي تنقله إلى بلده ، فمثلا يكون طعامه وشرابه كيفما اتفق ، وهذا العمل هو أثر طبيعي لشعوره بالغربة لكن عدم وجود هذا العمل ليس من النفاق الأ كبر .

ـ فالغربة في عمل الإنسان أن يكون التعامل مع أمور الدنيا والناس كأنك غريب ، أي التعامل مع الناس كأنهم كم مهمل (وهذا لا يعني عدم احترامهم) ، بمعنى التعامل معهم بالجوارح من غير تفاعل المشاعر بهم إلا في الله ، وكذلك حال المؤمن في طعامه وشرابه وأمور حياته فيعيش الإنسان مثلما يعيش الإنسان الغريب عن أهله ووطنه فيكون سلوكه وعمله وتصرفاته كأنه غريبا عن أهله وبلده أو كالمسافر أو كعابر السبيل ، فيأخذ من الدنيا زاد المسافر .

ـ فلابد أن يكون عمل الإنسان كأنه غريب ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ : ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ **غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))[2] ، وفي حديث آخر : ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا فقال ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[3] .

ـ معني الرضا والاطمئنان بالدنيا :

ـ قد يصنع الإنسان لنفسه تصورا وهميا ويعيش فيه ويندمج فيه ويطمئن به ، فقد يتصور أن المتع والآلام إنما هي في الدنيا ، ويتصور أنها عظيمة ، فيعيش في الدنيا ويطمئن بها (رغم أنها ليست دار معيشة وحياة يطمئن فيها الإنسان لأن دار الإنسان وحياته الحقيقية في الآخرة) ، فلا يحزن إلا لألم دنيوي ولا يفرح إلا للذة أو خير دنيوي ، وذهنه لا ينشغل إلا بالتعامل مع مفردات الحياة ومشاغلها ، فهذا هو الرضا والاطمئنان بـ الدنيا : ((إِنَّ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[4] .

ـ فيحدث اندماج وتعايش وتأقلم ورضا بقوانين العادات والتقاليد وما تعارف عليه الناس ، أي أنه يشعر بالا ستقرار في الدنيا فهو بذلك جعل الدنيا دار مقر وليست دار ممر وارتحال ، فهو بذلك لا يرجو الآخرة ولا يخافها ولا يحمل هم لقاء الله ، أما المؤمن فيشعر بأنه غريب عن هذه الحياة لأنها ليست وطنه فهو غير مطمئن بها ولا يألف المعيشة فيها لأنه يعيش بين غرباء ينتظر الرحيل إلى وطنه وأهله .

ـ الحالة النفسية للشعور بالغربة :

ـ أنظر إلى الحالة النفسية والحالة المزاجية والعاطفية لشخص مغترب يريد العودة إلى أهله وزوجته وأولا ده ووطنه ، أنظر إلى شعوره بالحنين والشوق للعودة ومدي انشغال باله وتفكيره في يوم العودة ، إن هذه الحالة النفسية هي التي تسمي شعور بالغربة ، فإذا لم يكن عندك هذه الحالة النفسية فإن الآخرة والذهاب إليها لا وجود لها في مشاعرك ، إن الشخص الذي في غربة ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام و الشراب ، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه ، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضي بأي شيء يؤدي الغرض ، فهل في شعورك أن الطعام الذي تأكله

---
(1) يونس : 7، 8
(2) حديث صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم 2333)
(3) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3283)
(4) يونس : 7 ، 8

هو طعام مؤقت وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت أم أنك تشعر أنه سكن دائم ؟ ، وهل تشعر بأنك مسافر بلا رجعة أي بعدم الرجوع إلى الدنيا ؟ ، هل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده ، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك ، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة ؟ ، وهل تشعر بـ الترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك هناك في الآخرة ؟ ، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا) ؟ ، إذن فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ، ولكننا في غفلة ، وليس للإنسان أن يجرب أو يتغافل فنحن ضيوف على وجه هذه الكوكبة الأرضية ، إذن يتضح الآن أن عالم الغيب في نظرك ليس إلا اقتناع نظري وليس له وجود في مشاعرك ، إن الذي لا يشعر بأنه مقبل على عالم آخر فإنه يعيش كأنه لن يموت ، فالموت عنده مجرد اقتناع نظري ، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية ، ولا يريد أن يموت ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس ، لذلك أنظر هل عندك فعلا شعور بالغربة والحنين ؟ ، أم أنك تدعي ذلك ؟ ، والشعور بالغربة أمر خطير لأن عدم وجود الشعور بالغربة يعني أن الذهاب إلى الآخرة لا وجود له في مشاعرك .

ـ أنظر إلى الحالة النفسية لشخص سجين ، إنه يشعر بالحنين إلى أهله ووطنه ، ويشعر بالضيق مما هو فيه ، فهذا حال المؤمن ففي الحديث : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1] ، فهل تشعر في نفسك بالغربة مثلما يشعر الإنسان الغريب أو عابر السبيل أو المسافر أو السجين ؟! .

****

ـ ثالثا : عمل المشاعر

ـ الشعور بخوف المهابة من اقتراب الرحيل عن الدنيا واقتراب الآخرة :

ـ الشعور باقتراب الآخرة والترقب والانتظار والتطلع إلى الآخرة ولقاء الله فيه قلق وإشفاق وخوف وفيه أيضا طموح وأمل في الجنة ، ويكون عنده استعداد نفسي وتأهب للموت واستعداد نفسي لترك الأهل والمال والطعام والشراب .

ـ إن الذي ينتظر أحدا في موعد ، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقا ، ويزيد ذلك القلق إذا كان لقاء هام جدا يترتب عليه مصير الإنسان ، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط ، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدا ، ويزيد القلق إذا لم يكن يعلم هل نتيجة هذا اللقاء تؤدي إلى الشقاء والمصائب أم إلى السعادة والراحة ، وهل سيلقى الترحيب بهذا اللقاء أم الزجر والويل والثبور ، كما يزيد القلق إذا علم أن من سيقابله له مكانة كبيرة مثل ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الله ولقاء الآخرة والحساب الذي ينبني عليه الشقاء الأبدي أو السعادة الأبدية ، فلابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقا على ما ينتظره وما يحدث له من أهوال ومخاطر قادمة حتمية وقريبة .

ـ وكذلك الذي ينتظر لقاء محبوبته الجميلة ، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقا ، ويزيد ذلك القلق إذا كان لا يعلم هل ستأتي أم لا ؟ ، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط ، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدا ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الحور العين وملذات الجنة ، فلابد أن يعيش المؤمن حياته في انتظار الحور العين وفي انتظار النعيم المقيم ، ولابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقا على ما ينتظره وما يحدث له هل سيصل إلى الحور العين أم إلى الجحيم !! .

ـ وكذلك لابد أن يعيش المؤمن حياته من أجل الإعداد ليوم ينادى فيه على الموتى ويحمل على الأعناق ويذهب به إلى لقاء الله تعالى ، فالمؤمن يعيش حياته وفي ذهنه ترقب وانتظار وتطلع إلى لقاء الله : ((مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ))[2] ، ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)
(2) العنكبوت : 5

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))[1] ، وعدم وجود ذلك القلق والترقب والانتظار يعني أن لقاء الله والآخرة هو مجرد يقين نظري فقط .

ـ وفي الحديث : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا))[2] .

ـ الشعور بخوف المهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد :

ـ لو قيل لك أن لديك موعد قريب تقابل فيه رئيس الدولة شخصيا ، فإنك تشعر بخوف المهابة من هذا اللقاء ، فما بالك برب العالمين ولماذا لا تشعر بخوف المهابة من هذا اللقاء ، فذلك لأن لقاء الله لا وجود له في مشاعرك أو أنه في مشاعرك مثل لقاءك لأي إنسان تقابله في الطريق فتلقي عليه السلام ! .

ـ وكذلك لو قيل لك إنك على موعد في محكمة من المحاكم مع قاضي من القضاة ليناقشك فيما عملته ويقول حكمه على ما فعلته بماذا تشعر ؟ ، ولماذا لا تشعر بهذا الشعور من لقاء الله ليحاسبك على ما فعلت ؟ ، وبماذا تشعر لو علمت أن هذا الموعد اقترب وينعقد في أي لحظة ؟ ، وبماذا تشعر عندما تعلم أن الأمران معا ، فأنت تقابل رب العالمين وهو سبحانه الذي يحاسبك ؟ .

ـ الشعور بخوف المهابة من الموت :

ـ الموت مرحلة خطيرة جدا ينتقل فيها الإنسان من دار إلى دار ، فهي تستدعي خوف المهابة من ذلك ، وليس خوفا من أن الموت نهاية للحياة لأن الموت بداية للحياة الحقيقية ، وليس خوفا من ترك الأحباب لأن المؤمن يعيش غريبا في الدنيا وأحبابه وأهله في الآخرة ، وذلك بحسب قوة الإيمان وضعفه .

ـ ولا يتحقق اليقين الحقيقي بأن الموت يأتي في أي وقت بغير توقع وترقب حدوثه في أي وقت ، فيعد الإ نسان نفسه من أهل القبور ، فيقول تعالى : ((إنك ميت وإنهم ميتون))[3] ، وهذا التوقع والترقب لابد أن يكون فيه خوف المهابة ، وهو شعور بالخوف والإشفاق من هيبة الفراق ومن ترقب يوم الفراق حيث يسلب من الإنسان كل شيء ، وهذا الشعور هو المميز لوجود اليقين الحقيقي بالموت .

ـ فإذا لم يشعر بالهيبة من خطورة الأمر ، فهذا يعني أنه مطمئن بالدنيا ، وأن يقينه بأنه سيموت هو فقط يقين نظري وليس حقيقي ، فالمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء ، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة .

ـ أنواع خوف المهابة من الموت :

ـ هناك خمسة أنواع من خوف المهابة المرتبط بالموت هي :
1ـ خوف المهابة من مفارقة هذه الحياة ، فهناك قدر من الحب الفطري في الإنسان بالمال والأهل والدنيا ، فمفارقة ذلك أمر خطير يستدعي خوف المهابة .
2ـ خوف المهابة من ألم الموت وسكرات الموت .
3ـ خوف المهابة من أن الموت يأتي في أي وقت .
4ـ خوف المهابة من الذهاب إلى حياة أخرى ، فذلك أمر خطير يستدعى خوف المهابة .
5ـ خوف المهابة من لقاء الله ، فذلك أمر رهيب يستدعي خوف المهابة .

ـ الشعور بأننا نعيش تحت المراقبة :

---

(1) الكهف : 110
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 620 ، برقم : 2431)
(3) الزمر : 30

ـ هو شعور مخيف ومرعب فنحن نعيش في حالة اختبار ، وكل شيء مراقب ومحسوب عليك طوال حياتك ، فما نعيشه ليس حياتنا ولكنها حياة اختبار .

ـ إن كل إنسان على اقتناع نظري تام بأن هناك رقيب وعتيد يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه ، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله ، وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل ، فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودان في مشاعره ، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه خوف المهابة ، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير فهذا يؤدي إلى خوف المهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر تسجيلهما لكل شيء .

ـ تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك ، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته ، فوجود الملكين الرقيب والعتيد أخطر من ذلك .

ـ الشعور بأننا نعيش الآن في حالة امتحان :

ـ الحكمة من وجود الدنيا هي أن الله جعل الأرض مكان معد لاختبار الإنسان .

ـ فإذا لم نشعر بأننا نعيش الآن في حالة امتحان فهذا معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بالآخرة ، وهذا معناه أن الإنسان يقول بمشاعره أن الله خلق البشر وتركهم يفعلون ما يشاءون فهو خلقهم عبثا ، فالذي يصنع شيئا ثم يتركه فهو قد صنعه عبثا ، فالله لم يخلقنا ثم يتركنا يعيش كل واحد كيفما يريد وكل واحد يفعل ما يريد ، ولم يخلق الله الناس ويحدث ما يحدث بينهم ويتركهم وشأنهم ، فالله صنع الإنسان من الطين ولكن ليس ليتسلى بهم كما يتسلى الإنسان بالدمى التي يصنعها وإنما خلقهم لحكمة وغاية هي أن يعيشوا وفق ما يريده الله أي لعبادته : ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ))[1] .

ـ إن الدنيا مزرعة للآخرة ، فإن السبب من وجود هذه الحياة في الدنيا هو ابتلاء واختبار ، ونحن نعيش هذه الحياة من أجل هذا الاختبار ، فالدنيا كلها بمثابة امتحان ، فلم تخلق الدنيا لتكون مناسبة لنعيش ونقيم فيها ونبحث فيها عن السعادة وإنما هي دار اختبار ، فيكون هم المؤمن وشعوره طيلة حياته مثل شعور الطالب قبل الامتحان بل أعظم بكثير ، فنحن نعيش الآن في مرحلة اختبار هي أيام عمرنا في هذه الحياة ، و المطلوب تحديدا حتى نكون من أهل الجنة هو النجاح في اختبار الدنيا .

ـ فالحياة التي نعيشها في الدنيا هي حياة أوجدها الله للاختبار فقط وليست حياة يقيم فيها الإنسان ويعيش حياته ، والاختبار يشمل كل ما تفعله وتقوله وتشعر به منذ أن بلغت حتى اللحظة التي تموت فيها ، فالاختبار يشمل كل الأعمال الظاهرة والباطنة طوال الحياة الدنيا .

ـ لابد أن يشعر الإنسان أنه داخل في مسابقة لها جوائز ، ولكن وجه الاختلاف عن مسابقات الدنيا أن كل ناجح في المسابقة ينال جائزة كبيرة ، وكل خاسر عليه عقاب شديد ، وأن هذا السباق ينتهي فجأة ، فمرحلة الدنيا هي مرحلة سباق وتنافس في تحصيل الإيمان وجمع الحسنات : ((سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ))[2] ، ((وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ))[3] .

ـ الإنسان أثناء السباق أو أثناء الامتحان لابد أن يشعر بالقلق والترقب ، ولابد أن يشعر بالتحمس والتحفز كلما قطع خطوات ، ويشعر بالضيق كلما أخطأ ، وهذا السباق خطير ومصيري لأنه يترتب عليه العذاب الأليم أو النعيم المقيم ، وبالتالي إذا لم يشعر الإنسان بالقلق وبالمشاعر التي يشعر بها أي إنسان أثناء الاختبار فهذا معناه أن اليقين بأنه يعيش حياته الآن في مرحلة اختبار غير موجود ، وبالتالي فاليقين الحقيقي بالآخرة

---

(1) المؤمنون : 115
(2) الحديد : من الآية 21
(3) المطففين : من الآية 26

غير موجود ، وعدم شعور الإنسان بأنه في حالة اختبار فهذا معناه أنه يقول بمشاعره أننا خلقنا عبثا رغم وجود اليقين النظري التام بأن الدنيا دار اختبار .

ـ وسواء رضينا أم لم نرضي ، وسواء شعرنا بذلك أم لم نشعر ، فنحن دخلنا الآن في لجنة امتحان منذ سن البلوغ ، ونحن واقعين الآن وفي أثناء هذه اللحظة وفي كل اللحظات تحت رقابة تامة ومتابعة تامة لما يحدث في عقولنا من التفكير والتصور وما يحدث في مشاعرنا وما يحدث في أعمال الجوارح ، وهذه الرقابة التامة من الخالق نفسه ومن الملكين الرقيب والعتيد ، ويتم تسجيل كل شيء بمنتهى الدقة ، ومدة ا لامتحان هي كل فترة عمرنا في هذه الدنيا ، وينتهي الامتحان فجأة في أي لحظة ويبدأ بعدها فورا الحساب حيث احتساب الدرجات والنتيجة .

ـ إن البعض قد يرى منافسة ما في مباراة كرة أنها مصيرية وحاسمة فتحوذ على اهتمامه وتؤثر على أعصابه ومشاعره ، ألا يرى هؤلاء أننا نعيش في حالة منافسة مصيرية أشد من هذه المباراة هي الامتحان الذي نعيشه في الدنيا والذي ينتهي بالخلود في الجنة أو الخلود في النار فكيف لا يؤثر ذلك على أعصابهم ومشاعرهم ، فأي المنافستين أشد وأخطر وأهم ؟! .

ـ الشعور بخطورة الامتحان :

ـ وقت الامتحان وجيز جدا ، لأن عمر الإنسان في الدنيا لا يساوى شيء أمام عمره في الآخرة ، كما أن الا متحان ينتهي في أي لحظة ، ولا يوجد إعادة في امتحان آخر ، فنحن في سباق ومسارعة ، وهذا الامتحان خطير جدا ومصيري لأنه يترتب عليه أن يوضع الإنسان داخل نار هائلة لمدة أكبر من ملايين السنين هي الخلود في النار ، أو أن يعيش في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في شباب دائم ومتع دائمة وشهوات لا تنقطع هي الخلود في الجنة ، كما أنه امتحان صعب لأن النفس تميل للشهوات ، وفي الحديث : ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[1] .

ـ الشعور بأن الدنيا فرصة ذهبية لا تعوض :

ـ الإنسان طالما لا يزال حي في هذه الدنيا فالفرصة لا تزال قائمة أمامه ليغير من مساره ويعمل لإنقاذ نفسه من النار ويتزود من الطاعة وللفوز بالجنة ، فالذين ذهبوا للقبور يتمنون لحظة واحدة ليعودوا ويعملوا أي شيء لعله ينقذهم من النار أو يرتقي بهم درجات أعلى في الجنة فلا يسمح لهم .

ـ فتخيل أنك قد جاءت لحظة موتك وذهبوا بك للقبور ، فطلبت من الله أن يعطيك فرصة لتعود ، وها أنت ا لآن قد عدت للدنيا وأمامك الفرصة فماذا أنت صانع ؟ .

ـ وكل إنسان أمامه واحد من أمرين لا ثالث لهما هو إما أن يفوز بما هو أكبر من كأس العالم وإما أن يتم تعذيبه بالحرق في النار ، فكلما نظر إلى الأول اشتاق وازداد حماسا ، وكلما نظر إلى الآخر خاف ، فهو يؤدي هذه المنافسة وشعوره بين الخوف والرجاء .

ـ خوف المهابة من خطورة أن الدنيا دار اختبار :

ـ عدم وجود الحالة النفسية للطالب في الامتحان معناه عدم وجود اليقين الحقيقي بأن الدنيا دار اختبار ، فإذا لم نكن نشعر بما يشعر به الطالب وهو في لجنة الامتحان ، فهذا يعني عدم شعورنا بأننا نعيش في حالة امتحان ، وهذا يعني عدم شعورنا بمجيء الآخرة وأنها دار الجزاء على امتحان الدنيا .

ـ وكذلك إذا لم نكن نشعر بما يشعر به الطالب وهو في لجنة الامتحان من وجود مراقبين ولجنة تصحيح تحدد له الدرجات لكل شيء فهذا يعني عدم شعورنا برقابة الله والملكين .

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3147 في صحيح الجامع)

ـ وحيث أن هذا الامتحان خطير جدا ، فلابد أن يكون شعور الطالب في لجنة الامتحان رهيب من القلق و الحرص على وضع الإجابات الصحيحة ، فإذا لم نكن نشعر بما يشعر به الطالب وهو في لجنة امتحان يترتب عليه مصيره ، فهذا يعني عدم شعورنا بأننا نعيش في حالة امتحان ، وهذا يعني عدم وجود الشعور بخطورة الآخرة ، رغم وجود المعرفة النظرية التامة بأن الدنيا دار اختبار ، ورغم وجود اليقين النظري التام بالآخرة .

ـ فالإنسان الذي يوقن يقينا حقيقيا بأنه في حالة اختبار فإنه يكون منتبها لذلك ومنتبها لرقابة الله والملكين فهذا التصور لا يفارق ذهنه ، وينشأ عن ذلك مشاعر الخوف والقلق والترقب ، ويشغل ذلك الأمر همه ولا يكون همه الأكبر لأمور الدنيا ، ويكون هدفه الأكبر النجاح في الاختبار وليس تحصيل أمور الدنيا ، وتكون مشاعره وهمومه وأهدافه المتعلقة بهذا الاختبار أكبر بكثير من مشاعره وهمومه وأهدافه المتعلقة بالدنيا ، وينشأ عن ذلك أن يهتم بكل ما يخص هذا الاختبار عن كيفيته ومعرفة خطورته ولا يهتم بكل ما يلهي الإ نسان عن هذا الاختبار ، ويحب كل ما يعينه على هذا الاختبار ، ويحب كل من يسعون للنجاح فيه ، وينشأ عن ذلك أن يسارع الإنسان في الخيرات لأن كل شيء يتم تسجيله فورا ، وطالما أن هذا الامتحان واقعا الآن وما زال مستمرا الآن وفي كل لحظة فلابد أن يستمر الخوف من مهابة الامتحان والخوف من نتيجته ورجاء النجاح فيه .

****

ـ ثالثا : عمل الجوارح

ـ يكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب الذي يعيش وسط غرباء في بلد الغربة ، أو يكون عمله مثل عمل عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل وهو أثناء سفره يتقابل مع غرباء مسافرين مثله ، فيعيش الإنسان معيشة الغريب أو المسافر أو عابر السبيل ، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم في بلده ، فمثلا الشخص الذي يعيش في غربة في بلد ما ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب ، فإنه ينتظر الراحة والطعام و الشراب عند العودة إلى وطنه ، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضي بأي شيء يؤدي الغرض ، فإن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق ، وإنما هو يأخذ زاد المسافر ، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها ، ففي الحديث : ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا فقال ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[1] ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ ، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ((مَا أرَى الأمر إلا أعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[2] ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول : ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[3] .

****

الفصل السابع

تناسى حقيقة اليقين بالآخرة

ـ الزلازل والبراكين والابتلاءات هي صور من قوة الله تعالى ، والآخرة هي صورة من أعظم صور قوة الله

(1) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3283)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1393 ، برقم : 4160)
(3) صيد الخاطر ـ دار القلم - دمشق (1 / 447)

تعالى ، فهي ثوابه وعقابه الهائل ، فاليقين الحقيقي بالآخرة يعني الخضوع لقوة الله تعالى والخوف من عقابه ورجاء ثوابه ، والخوف من الآخرة هو خوف من قوة الله تعالى ، والإنسان يتناسى حقيقة الآخرة حتى لا يخضع رغم يقينه بها .

ـ نسيان الآخرة معناه أن الإنسان يتناسى حقيقة يقينه بالآخرة لأنه لو عقل حقيقة الآخرة لخضع وهو لا يريد الخضوع .

ـ المؤمن يتعامل مع الآخرة على أنها حقيقة واقعة وجد لا هزل فيه وخطر محقق ، والكافر والمنافق يتعامل مع الآخرة كأنها لعب أو أمر غير مهم ولا يأخذها مأخذ الجد ويتغافل عنها رغم اليقين النظري التام بها .

ـ عدم التصور وعدم الشعور بخطورة الآخرة وعدم شغل الهم بها وعدم تأثر المشاعر بها هو نسيان للآخرة :

ـ نسيان الآخرة معناه عدم التصور وعدم الشعور بخطورة الآخرة وعدم شغل الهم بها وعدم تأثر المشاعر بها ، فهذا هو مفهوم الغفلة والنسيان للآخرة :

ـ ((فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[1] ، ((إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))[2] ، ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ))[3] ، ((وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[4] .

ـ ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ))[5] ، ((وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ))[6] ، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))[7] ، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[8] ، ((لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[9] .

ـ وسبق أن أوضحنا خمسين دليلا تبين صور النسيان والغفلة والبعد عن الله والآخرة ، وأيضا الأدلة على أن عدم تأثر المشاعر بالله والآخرة هو نسيان لله والآخرة (راجع الفصل الثالث) .

ـ فلا يتحقق اليقين الحقيقي بالآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهن المؤمن يشعر بخطورتها وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه لأنها الخطر المترقب والحياة المنتظرة .

ـ تصور لو أن رجلا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم ؟ ، إنه سوف يقول للناس : ليس أمامكم إلا ثواني معدودة والعد التنازلي مستمر ، فأنتم مقبلون على خطر هائل جدا من أشد ما يمكن ويوشك أن تلحقوا بالآخرة فأدركوا أنفسكم ، لكنه سوف يجد الناس هادئين تماما ويعتبرون أن هذه الحياة التي يعيشونها سنوات طويلة وعمر مديد وليست ثواني معدودة ، ويعتبرون الذهاب إلى الآخرة مثلما يتسلى الإنسان بلعبة مملة قد مل منها ، إنه سوف يجد الناس يعيشون في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله ، رغم أن هذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم وهم مقبلون عليه رضوا أم لم يرضوا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[10] ، فهم يعيشون في غيبوبة مثل السكران الذي لا يدري ما الذي ينتظره ، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدا مع خطورة الحدث ، فينظر إلى الآخرة بفتور شديد ومشاعر باردة ، رغم أن الآخرة هي الحقيقة الكبرى

---

(1) الأعراف : 51
(2) ص : 26
(3) السجدة : 14
(4) الجاثية : 34
(5) الروم : 7
(6) مريم : 39
(7) الأنبياء : 1
(8) الأنبياء : 97
(9) ق : 22
(10) ص : 67 ، 68

المرعبة : ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[1] ، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا .

ـ إن الآخرة فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من كابوس مرعب وأشد رعبا من رؤية أشباح وأعجب من السحر ، لكن الآخرة في مشاعر البعض هي عالم عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه مثل حواديت ، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء ، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار : ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[2] .

ـ عندما يرى الإنسان كابوس مرعب فإنه قد لا ينام عدة أيام فإنه كلما نام رأى الكابوس ، ويكون في حياته قلقا متوترا خائفا منزعجا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها ، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس لأن فيها أهوال أشد من أي كابوس ، فضلا عن أنها حقيقة وليست كابوسا ، فالذي يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا لا تفارق صورة الآخرة ذهنه : ((كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ))[3] .

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بالآخرة رغم ما بها من أهوال وأنها المصير لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بالآخرة ؟! ، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للهم بالآخرة ! ، فهو في غفلة تامة عن الآخرة فلا يوجد أي تأثر بالآخرة سواء سلبا أو إيجابا فلا يخاف الآخرة ولا يكرهها ولا يحبها لأنه لا يشعر بها أصلا وكذلك كل الغيبيات ، وهذا هو نسيان الله والآخرة ، فإن الشيء الذي تهتم به فإنه يشغل همك ولا تنساه ، فمعني عدم انشغال الهم بالآخرة عدم الاهتمام بشأنها كأنها أمرا غير مهم ، إذن فنسيان الآخرة ليس نسيان وجودها ولكن نسيان ما تعنيه من الأهمية والخطورة فلا تشغل البال ، وكذلك نسيان الله لا يعني نسيان وجوده فالكفار يعلمون وجوده ، ولكن يعني عدم شغل الهم بعظمته وقدره وقدرته ، فلا ينشغل البال أو المشاعر بأمر الله والدين ، ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[4] ، ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[5] .

****

ـ الدنيا هادئة تماما ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل :

ـ رغم أن الدنيا عبارة عن طريق قصير يوصل إلى الآخرة ، فكل الناس مقبلون على هذا الخطر الهائل ، ورغم ذلك أراد الله أن تكون الدنيا معزولة تماما عن الآخرة وحجب عنا رؤية الآخرة ، والإنسان له أن يعمل ما شاء في الدنيا ولا يحاسبه أحد ، فالحساب في الآخرة ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

ـ فالعاقل هو الذي لا ينخدع بهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به ، ويسارع بالفرار قبل الكارثة والطامة الكبرى .

ـ الدنيا لها ظاهر وباطن والآخرة كذلك ، والظاهر عكس الباطن تماما ، فظاهر الآخرة أننا لا نراها ، وظاهر الدنيا زينة هائلة توحي بأن الدنيا عظيمة في متعها وآلامها ، والعاقل هو الذي لا ينخدع بالظاهر ويفكر في الباطن ليعرف حقيقة الشيء .

ـ فمثلا لو كان في يدك ظرف فارغ لا شيء فيه ومكتوب عليه مليون جنيه ، فالذي ينظر إلى المكتوب على ظاهر الظرف ولا ينظر إلى حقيقة ما بداخله فهو أحمق لا عقل له ، فالمكتوب على الظرف هو زينة الدنيا ، وما بداخل الظرف هو حقيقة الدنيا ، والعكس لو كان في يدك ظرف مكتوب عليه صفر ولكن بداخله مليون

---

(1) الحج : 2
(2) يس : 51، 52
(3) التكاثر : 5 ، 6
(4) التوبة : من الآية 67
(5) السجدة : 14

جنيه فالعاقل هو الذي ينظر إلى داخل هذا الظرف ليعرف حقيقته ، فالدنيا والآخرة كاذبتان تقولان عكس ما بداخليهما تماما .

ـ الآخرة خطر هائل لا تراه ، فمن كان تفكيره في ظاهر الأمر فهو لا يرى شيئا ولا يفكر في حقيقتها ليشعر بخطرها الهائل جدا ، فهي في نظره لا قيمة لها كأنها لعب ولهو ، وهو لا عقل له ، وعلى العكس فالدنيا أنت تراها بعينك وهي مزينة بزينة خادعة جدا تجعل الإنسان يظن أن متعها عظيمة جدا وألمها عظيم جدا ، فمن كان تفكيره في ظاهر الأمر فهو ينخدع بزينتها ولا يفكر في حقيقتها ليشعر بأنها لعب ولهو ، وهو لا عقل له .

ـ أراد الخالق سبحانه أن نعرف الآخرة بطريقة غير مباشرة ، فنحن لا نرى الجنة والنار رغم أنهما موجودتان ا لآن في الدنيا ، ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من مركبات الفضاء أن يصل إلى الجنة أو النار ليراهما ، ولكن الله سبحانه مكن الرسول صلى الله عليه وسلم من الوصول إلى الجنة ورؤية ما فيها وهو لا يزال في الدنيا ، فأراد الله أن نعرف الجنة والنار والآخرة بطريقة غير مباشرة من خلال آيات الكون ودعوة الرسل ، والعاقل يؤمن بالآخرة طالما أن الأدلة موجودة في آيات الكون ودعوة الرسل .

ـ فرغم علم الإنسان بأن الدنيا إلى زوال وأنها لا قيمة لها وأن الآخرة هي الخطر الكبير والحياة الأبدية فإنه يبعد نظره عن حقيقة الدنيا ويوجه نظره إلى ظاهرها متناسيا حقيقتها ، وكذلك يبعد نظره عن حقيقة الآ خرة وخطورتها ويوجه نظره إلى ظاهرها من حيث أننا لا نراها وأنها غير قائمة الآن متناسيا حقيقتها وخطورتها .

ـ فالذي يبحث عن الدنيا وشهواتها هو يبحث عن السراب والوهم ، لأن الدنيا وزينتها عبارة عن غلاف يلمع مثل الذهب وبداخله هواء ، فالإنسان الذي لا عقل له ينظر إلى ظاهر هذا الغلاف فينخدع به والعاقل هو الذي يعقل حقيقة ما بداخله .

ـ فالإنسان يعيش وحوله النار والجنة فهو يعيش في رعب وقلق واضطراب ، ولكن يحيط به جدار رقيق جدا يعزله عن الجنة والنار ، ويعزله عن أهوال القيامة التي ستحدث بعد ثواني ، فيجعله ذلك الجدار في هدوء تام فهو لا يرى الجنة ولا النار ولا أي ضجيج أو شيء يدعو للإزعاج ، ففي ذلك خدعة كبيرة جدا لمن لا عقل له فهو لا يرى شيء إلا الدنيا ، أما العاقل فهو ينظر إلى ما وراء هذا الجدار حيث الجنة والنار الموجودتان الآن ، وينظر إلى القنبلة الموضوعة تحت قدميه والتي سوف تنفجر بعد ثواني لتنقله إلى أهوال القيامة فورا ، فهو يعيش في حالة عد تنازلي وترقب لانفجار هذه القنبلة (الموت) .

ـ فقط الذي يفصل بين الإنسان والآخرة صيحة واحدة مفاجأة : ((إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ))[1] ، فهي لحظة مباغتة فورا : ((قَدْ خَسِرَ الذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا))[2] ، ((وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ البَصَرِ أَو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[3] .

ـ فيفتح الإنسان عينيه فلا يجد بيته الذي كان يسكن فيه وعمله الذي كان يعمل فيه وأهله وأصدقاءه الذي ألف المعيشة معهم ، فجأة يفتح عينه ليجد كل شيء قد تغير في لحظة : ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ))[4] .

ـ أراد الله أن تظهر الأمور على عكس حقيقتها تماما ، والحكمة من ذلك هو اختبار الإنسان ، فالاختبار هو إما أن ينخدع الإنسان بظاهر الأمر أو يعمل عقله فيكتشف حقيقة الأمر ، فمثلا الإنسان أمامه صورتين من الشهوات هما شهوات الدنيا وشهوات الجنة ، شهوات الدنيا هي في حقيقتها ضئيلة جدا ووقتية وتفنى

---

(1) يس : 53
(2) الأنعام : 31
(3) النحل : 77
(4) يس : 51 - 52

سريعا ولكنها خادعة جدا تبدو كأنها المتع واللذات الهائلة والتي لا تفنى فلا يستطيع أن يقاومها الإنسان أبدا إلا إذا أعمل عقله فعقل حقيقتها فلم ينخدع بها ، وشهوات الجنة لا يراها الإنسان فتبدو كأنها وهم وسراب لمن لا عقل له ، أما إذا أعمل الإنسان عقله فتصور حقيقتها وتصور مدى تحقق أدلتها وتصور مدى ما فيها من النعيم الهائل الخالد فلم ينخدع بعدم رؤيتها فهو الذي ينجح في الاختبار ، ومن الاختبار أن يجعل الله الشيطان يوسوس للإنسان ليزين له شهوات الدنيا على أنها شجرة الخلد وملك لا يبلى : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))(1) .

ـ وكذلك الإنسان أمامه صورتين من الآلام هما آلام الدنيا وآلام النار وأهوال القيامة ، آلام الدنيا هي في حقيقتها ضئيلة جدا ووقتية وتفنى سريعا ولكنها خادعة جدا تبدو كأنها الآلام الهائلة والتي لا تفنى فلا يستطيع أن يتحملها الإنسان أبدا إلا إذا أعمل عقله فعقل حقيقتها فلم ينخدع بها ، فهو مطالب بتبعات كثيرة جدا من مشاغل الحياة اليومية وأعباءها ورفع الظلم عن نفسه وعن غيره والفقر والمرض وقلة المئونة و العمل للكسب وغير ذلك ، وإذا قصر في أمور الدنيا يعاقب عقابا شديدا ، بينما النار لا يراها الإنسان فتبدو كأنها وهم وسراب لمن لا عقل له ، أما إذا أعمل الإنسان عقله فتصور حقيقتها وتصور مدى تحقق أدلتها وتصور مدى ما فيها من العذاب الهائل الخالد فلم ينخدع بعدم رؤيتها فهو الذي ينجح في الاختبار .

****

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي إلى الخضوع لله تعالى وخوف المهابة من الله وحبه وخوف عقابه ورجاء ثوابه :

ـ الآخرة هي ثواب الله وعقابه الهائل فمن أيقن بها يقينا حقيقيا خضع لقدرة الله الهائلة ، وخاف من مهابة قدرته المتمثلة في الجنة والنار وأحب الله إعجابا بمدى قدرته المذهلة ، والإنسان الذي لا يريد الخضوع يتناسى الآخرة حتى لا يخضع ، ومهما جاءته الأدلة على الآخرة فسوف يتجاهلها ويتناساها ويعطل عقله فلا يعقلها ، لدرجة أنه لو ذهب إلى الآخرة ورآها بعينه ثم عاد إلى الدنيا فسوف يتناسى الآخرة ويتناسى ما رآه بعينه : ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ))(2) ، ولا يفعل ذلك إلا من لا عقل له ، فهؤلاء مصيرهم النار لأنهم عطلوا عقولهم فلا يعقلون : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))(3) .

ـ فهو يعطل عقله عن التفكير في حقيقة اليقين بالآخرة ويتناساها .

ـ إن الإنسان عندما يشعر بالآخرة فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تماما ، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته ، لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة ويشعر بأن السعادة إنما هي في الجنة ، فتكون الجنة هدفه وطموحه وغايته ومستقبله ، لأنه سوف يشعر بأن الحياة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من الأعمال الضخمة هي حياة كاذبة ومجرد لعب ولهو مثل لهو ولعب الأطفال : ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))(4) ، فالمكان الطبيعي لمعيشة البشر ليس الكرة الأرضية وإنما هو الآ خرة ، والكرة الأرضية ليست إلا مكان هبط إليه آدم ليتم اختباره وذريته ثم يعودون إلى حيث ديارهم وأهليهم وأوطانهم في الآخرة ، أما إذا ظل الإنسان غافلا تلهيه الدنيا فغدا سوف يشعر بالآخرة حين لا ينفع الندم : ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))(5) .

****

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياته من أجل الإعداد للآخرة ، فتكون حياته كلها ك الذي يرتب أموره ويعد حقائبه ويجهز نفسه ويستعد للرحيل .

---

(1) طه : 120
(2) الأنعام : 28
(3) الملك : 10
(4) العنكبوت :64 ، ومعنى (الحيوان) أي الحياة الحقيقية .
(5) الفجر : 24 ، ومعنى (لحياتي) أي حياته الحقيقية في الآخرة .

ـ فلا يعيش حياة المقيم وإنما حياة الإعداد والترتيب والاستعداد النفسي والتأهب للمرحلة القادمة الخطيرة .

****

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة) !! :

ـ إذا أخبرت إنسانا أنه مقبل على خطر ما ولم يشعر بالخطر فهذا معناه أنه لم يوقن بما أخبرته ، رغم أنك أتيت له بالأدلة على صدق كلامك فهو يوقن بصدق كلامك نظريا من حيث صحة الأدلة .

ـ فكذلك الرسل جاءت لتنذر الناس بالخطر العظيم الذي هم مقبلون عليه ، فمن شعر بالخطر تحقق عنده اليقين بالآخرة ، ومن لم يكن عنده أي قدر من الشعور بالخطر فيقينه نظري فقط وليس يقينا حقيقيا بالآ خرة ، فاليقين الحقيقي بالآخرة معناه الشعور بخطورة الحياة الآخرة : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[1] ، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[2] .

ـ مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم .

ـ فنحن مقبلون على خطر عظيم وحدث هام جدا ، والعد التنازلي مستمر الآن ، ويوشك أن نلحق بالآخرة ، لكننا لا نشعر بذلك ، ونظن أن الأيام طويلة والعمر مديد ، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآ خرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدا مع خطورة الحدث .

ـ فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين الدنيا والآخرة ، فعندئذ تشعر بمدى خطورة الآخرة ومدى ضآلة الدنيا فتشعر بالخوف من ذلك الخطر العظيم (الآخرة) .

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا ، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا .

ـ الألم واللذة في الآخرة شديد جدا وفوق كل التصورات وواقع متحقق وشيك جدا ودائم ، بينما الألم واللذة في الدنيا ليس إلا لعب ولهو بالمقارنة بالآخرة ، ومهما وصف لك حجم الألم واللذة في الآخرة فلن تشعر بـ الحجم الحقيقي للخطر الهائل واللذة الهائلة ، ولو أدرك الإنسان واحد على مليون من معنى ألم النار أو لذة الجنة لهانت عليه الدنيا بكل ما فيها من ألام ولذات .

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا ، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره ومشاعره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا .

ـ ورغم ذلك فطبيعة تفكير البعض ومشاعرهم تقول عكس ذلك تماما ، فطبيعة تفكيرهم ومشاعرهم تقول أن الألم واللذة إنما هو الذي نعايشه في الدنيا ولا لذة أو ألم غير ذلك ، وذلك رغم اليقين النظري التام بألم النار ولذات الجنة الهائلة لكن شعور الإنسان بهذا الخطر كأنه غير واقع .

ـ فلو أن رجلا عاد إلينا من الآخرة ، ماذا يمكن أن يقوله ؟ ، إن هذا الكتاب عبارة عن تصور لما يمكن أن يقوله ذلك الرجل ، إنه سوف يجد الناس علي يقين واقتناع نظري تام بـالله واليوم الآخر وكل ثوابت الدين ، وربما عندهم تفاصيل قد أيقنوا بها أكثر منه هو ، ورغم ذلك فـالله والآخرة ليس لهما وجود في شعور البعض ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم ، إنه سوف يَعجب من هذا الانفصام التام الذي يتمثل في وجود مسلمين يقرون بالغيبيات ، ولكنهم علمانيين في شعورهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم حيث أن الغيبيات

(1) ص: 67 ، 68
(2) الطارق : 13 ، 14

غائبة تماما من شعورهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم ، فكيف يوقن الإنسان بالآخرة التي هي المستقبل والمصير ثم لا يشعر بخوف المهابة وخوف العقاب وكيف لا يشعر بالغربة وهو مسافر إليها ؟! ، وكيف يوقن ا لإنسان بالله الذي صنع بقدرته كل البشر والكون وهم مقهورون تحت قدرته ثم لا يشعر بخوف المهابة و الحب إعجابا بقدرته والخضوع وخوف العقاب ورجاء الثواب ؟! ، ذلك لأن هذا اليقين نظري فقط .

ـ نحن نعيش في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله ، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[1] ، إنك مهما حاولت التغافل و الهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضيت أم لم ترضي شعرت بذلك أم لم تشعر وقد سبقك الكثير إلى هناك ، فكل الناس سوف يذهبون إلى الآخرة ، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن الذهاب إلى الآخرة إن استطعت ! ، فيجب عليك أن توقن بالآخرة يقينا حقيقيا ، فالقضية حاسمة وخطيرة و لا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟! .

ـ نحن نعيش في غيبوبة مثل السكْران الذي لا يدري ما الذي ينتظره ، ففي تفسير زاد المسير : ((... { إنهم لفي سكرتهم يعمهون } ، وفي المراد بهذه السكرة قولان : أحدهما : أنها بمعنى الضلالة ، قاله قتادة ، و الثاني : بمعنى الغفلة ، قاله الأعمش))[2] ، وفي تفسير فتح القدير : ((ومعنى { إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } : لفي غوايتهم يتحيرون ، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة))[3] ، وفي تفسير التحرير والتنوير : (((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (لاهية قلوبهم) حال من المبتدأ في جملة (وهم يلعبون) وهي احتراس لجملة (استمعوه) أي استماعا لا وعي معه))[4] .

ـ الإنسان لا ينكر وجود الآخرة ، لكنه قد يتجاهل ما بها من ألم وخطر وأهمية فتصبح كأنها لا قيمة لها ، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره ، وهو بذلك قد أفرغ الكلمة من محتواها ، مثل الطفل الذي في يده أسد مصنوع من البلاستيك فهو يلعب به رغم أنه يوقن تماما أنه أسد لكنه مسلوب القوة .

ـ وكل إنسان حر له أن يفعل ما يشاء ، فإما أن يتجاهل الآخرة وذلك بتجاهل ما بها من ألم ، وإما أن يعترف بذلك في نفسه فيشعر بما في الآخرة من ألم وخطر ، ولكن تجاهل الإنسان للآخرة وألمها لن يغير من حقائق الأمور شيء ، فالآخرة قادمة وشيكة والألم شديد والموت قادم ، فهو عندئذ مثل النعامة التي تضع رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء ، أي كأنها تقول لنفسها أنه طالما أنها لا ترى الأعداء إذن فهم غير موجودون ولا أحد يطاردها ! .

ـ لا يصح اليقين بالآخرة بغير وجود خوف حقيقي من مهابة الآخرة ، لأن عدم الخوف من الآخرة دليل على غياب الشعور بحقيقة الآخرة بدليل ما جاء في تفسير ابن كثير : ((وقوله { إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } أي : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح))[5] ، وفي تفسير زاد المسير : (({ إنما أنت منذر من يخشاها } وقرأ أبو جعفر « منذر ٌ » بالتنوين ، ومعنى الكلام : إنما أنت مُخَوِّفٌ من يخافها ، والمعنى : إنما ينفع إنذارك من يخافها))[6] .

ـ الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة : ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ))[7] ، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا ، ورغم ذلك فإن مشاعر الناس تجاه الآخرة وأمور الدين فاترة باردة ، في حين تتفاعل مشاعرهم وانفعالاتهم

---

(1) صّ : 67 ، 68
(2) تفسير زاد المسير ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 2 ، ص : 538)
(3) فتح القدير ـ دار ابن كثير - دمشق، بيروت (ج : 3 ، ص : 166)
(4) التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر - تونس (ج : 1 ، ص : 2691)
(5) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص 318)
(6) زاد المسير ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج : 4 ، ص : 398)
(7) الحج : 2

تجاه أمور الدنيا الفانية ، فالآخرة أمر جاد جدا وخطير جدا ولا يحتمل التراخي ، ونحن نتعامل معه بلا مبالا ة وفتور شديد بغير جدية وإدراك لخطورته ، هذا معناه أن هناك غفلة تامة عن الخطر العظيم الذي نحن مقبلون عليه ، إن الآخرة هي خطر عظيم جدا نحن مقبلون عليه حتما بعد وقت ضئيل جدا يمر سريعا دون أن ندري ، إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس لينذرهم ويحذرهم ، ويمكن تشبيه ذلك بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم ، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم ، فكان طائفة منهم عندهم لا مبالاة ولم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب ، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا وكأن شيئا لم يكن وكأنهم لم يسمعوا وكأنهم كالحائط الذي لا يحس ، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم ، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم ، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولا ذوا بالفرار فنجو من الجيش ، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي الحديث : ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[1] ، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب على المنبر فذكر الآخرة تحركت مشاعره وانفعل بشدة ففي الحديث : ((وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم))[2] ، فقد جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس ليقول لهم (أيها الناس : أنقذوا أنفسكم من النار !!) وهذا ما جاء في الحديث : ((لما نزلت { وأنذر عشيرتك الأقربين } جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فخص وعم فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا ، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا و لا نفعا ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا ، إن لك رحما سأبلها ببلالها))[3] ، وفي حديث آخر : ((مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[4] ، وعن ابن عباس قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأ قربين) صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فجعل ينادي : ((يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب)))[5] ، وفي رواية : ((يا بني عبد مناف يا بني عبد مناف إني نذير إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف يا صباحاه يا صباحاه أُتيتم أُتيتم))[6] ، وفي حديث آخر : ((خذوا جُنّتكم ! ، قالوا يا رسول الله عدو حضر قال لا ولكن جنتكم من النار قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات))[7] وفي الحديث : ((الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[8] ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا ؟ ، فقلنا : قد وَهَى فنحن نصلحه ، قال : ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[9] أي ا لآخرة قريبة ووشيكة حتى كأنه لا وقت للانشغال بشيء غيرها .

---

(1) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج :1، برقم 148، وهو أيضا في صحيح الجامع برقم 5860)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 188 ، برقم 1578)
(3) حديث صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 338 ، برقم 3185)
(4) حديث صحيح (صحيح الجامع برقم 5858)
(5) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5372)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 7901)
(7) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 2 ، برقم : 1567)
(8) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع) ا
(9) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 568 ، برقم : 2335)

ـ وكان أبو الدرداء يقول : ((لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ، ما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة أبداً ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل))[1] ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ((ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه))[2] ، ورغم ذلك فلا يزال البعض يتغافلون عن الآخرة ، فمتى تزول الغشاوة عن هذا الخطر القريب الخطير ؟! .

****

ـ الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه :

ـ مهما أصابك من الملل أو الغضب أو الضجر ومهما ضعف إيمانك ومهما كانت أسباب انشغالك بالدنيا ومهما حدث فالآخرة واقع قادم والسفر لا اختيار فيه فهو إجباري رغما عن أنفك وموعد السفر قد تحدد وهو في وقت قريب جدا ، وإذا جاء موعد السفر فلا رجعة سواء كنت مستعد للرحيل أم غير مستعد ولا انتظار ولو ثانية واحدة وانتهت القضية وقد اقفل دفتر حياتك : ((إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ))[3] .

ـ فهل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده ؟! ، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك ، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة ، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟ ، إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس ، يتضح الآن أن عالم الغيب في نظرك ليس إلا اقتناع نظري وليس له وجود في مشاعرك ، فمشاعرك تقول أننا لسنا في دار غربة ولسنا علي سفر ، ومشاعرك تقول : ((إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[4] رغم أن الاقتناع النظري تام بالآخرة .

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضيت أم لم ترضي أعجبك الأمر أم لم يعجبك شعرت بذلك أم لم تشعر ، ومهما كانت الظروف والأوضاع من الفقر أو الغنى ، من الراحة أو التعب من طاعات أو معاصي ، ومهما تبدلت الظروف والأوضاع فذلك لن يغير من حقائق الأمور شيء ، وقد سبقك الكثير إلى هناك والدور في انتظارك قد أوشك فعلا وتكاد تصل ، وهذا التغافل والتعامي لن يغير من حقائق الأمر شيء فالملكين من حولك والله ناظر إليك والآخرة أمامك سواء رضيت أم لم ترضى سواء أخذت تبرر لنفسك ما تفعل أم لم تأخذ ، فالحقائق الغيبية التي نعيش فيها والتي في انتظارنا رهيبة ولكن أين مَنْ عنده مشاعر يحس بها : ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[5] ، فإنك تظن أنك تفر من الموت بأن تتغافل عن أن تشعر به وإن كنت مقتنعا به تماما وأنه ملاقيك ، ففي الحديث : ((أتاني جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس))[6] .

****

ـ الشعور بمدي الخطر في الآخرة :

ـ إن كلمة الآخرة تعني المصير المرعب والمخيف الذي أنت مقبل عليه ، وتعني الأهوال العظيمة ، فلماذا لا تشعر بخوف المهابة والقلق من أهوال القيامة ؟ ، فمن أسماء الآخرة (يوم الحسرة) و(يوم الزلزلة) و(يوم تشخص فيه الأبصار) ، و(الغاشية) وفي تفسير البحر المحيط : (({ هل أتاك حديث الغاشية } والغاشية :

---

(1) تزكية النفوس ـ دار العقيدة للتراث - الإسكندرية (1 / 114)
(2) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة - بيروت (4 / 163)
(3) الطور : 7، 8
(4) المؤمنون : 37
(5) قَ : 37
(6) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 73 في صحيح الجامع)

الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة))[1] ، وهو ((يَوْماً يَجْعَلُ الوِلدَانَ شِيباً))[2] ، إن الآخرة هي أخطر شيء في حياة الإنسان ، وأهوال القيامة من أشد ما يمكن ومن أخطر ما يمكن ، وما نشعر به من ذلك الخطر لا يساوي واحد علي مليون أبدا ، فالأمر يقابله البعض ببرود في حين أن أي أمر من أمور الدنيا تجد المشاعر تتفاعل والخوف شديد ، وأنظر إلى شدة خوف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة و التابعين والصالحين من الآخرة ، فلو جاء إلينا إنسان من الآخرة فرأي حالنا لأصابته سكتة قلبية من حال البعض وبرود أعصابهم تجاه هذا الخطر المحدق ، أنظر كيف يعبر القرآن عن هذا الخطر ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[3] ، فهل رأيت إنسان أصابه السكر من شدة العذاب ، إن الذي يقول أن ما يحدث في الآخرة هو خيال لا يصدق هو أفضل حالا من الغافل عن الآخرة ، وإن الذي يشعر بخطورة الآخرة علي أنها فيلم مرعب يثير الفزع والرعب من أفلام السينما فهو رغم خطأه الفادح أفضل حالا ممَنْ تكون الآخرة في شعوره عادي ! ، فلابد أن تشعر بمدي ما أنت مقبل عليه ، وكيف لا يهتم إنسان بأن يشعر بما هو مقبل عليه .

ـ إن الآخرة التي في مشاعر البعض تختلف عن الآخرة الحقيقية ، فإن الآخرة التي في مشاعر بعض الناس اليوم هي آخرة أليفة ودودة لا مشكلة فيها ولا خطر فيها ، وإن شعورهم بالآخرة مثل شعورهم بأي شيء عادي ! ، إنك لو قارنت بين خطر الآخرة وبين أي أخطار أو مخاوف في الدنيا فسوف تجد أن الآخرة لا تمثل في مشاعرك خطر حقيقي أو أهمية حقيقية مثل أي خطر تواجهه أو تتعرض له في الدنيا ، فتجد المشاعر متفاعلة به والبال مشغول ، وذلك رغم الفارق العظيم بين كل أخطار ومخاوف الدنيا وبين خطر الآخرة ، إن الذي لا يتأثر بشيء مؤثر جدا فإنه لا يعي ولا يشعر بحقيقة ما في هذا الشيء من خطورة ، فهو لا عقل له ، إن الآخرة أمر مؤثر جدا وخطير جدا ولكن لا يوجد تأثر بها !! .

ـ فكلمة (الآخرة) عند من لم يشعر بخطورتها تختلف عن كلمة (الآخرة) عند من يشعر بخطورتها وأنها أمر فعلي حقيقي وحقيقة ماثلة فعلا ، فالأول يراها أمرا عاديا ومجيئها لا يمثل خطورة والثاني خائف منها : ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا **وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا** وَيَعْلَمُونَ أنها الْحَقُّ إلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ))[4] ، والأول سوف يفاجئ المفاجأة الرهيبة بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يعرفها كأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة ، أما الثاني فكان يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجئ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى .

****

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بالآخرة :

ـ إن الآخرة تعني الأهوال والمصير والمستقبل ، فكيف لإنسان عاقل يصدق بهذا ولا تنشغل همومه ومشاعره بمصيره ومستقبله ، ذلك لأن الآخرة ليس لها وجود حقيقي في همومه ومشاعره ، إن الذي يعرف أن هناك آخرة هي مستقبله ومصيره وأنه مسافر إليها ثم لا يشعر بالغربة لأنه مسافر إلى الآخرة ولا يشعر بالخوف و القلق في حين تتعلق مشاعره بالدنيا مع علمه بفنائها وضآلتها فهذا الإنسان لا يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا ، ف الذي يقول بأن الدنيا ضئيلة فانية والآخرة هي الحياة والمتع الحقيقية ثم تجد مشاعره منقطعة عن الآخرة ومتجهة إلى الدنيا فهو كذاب ، ولو كان صادقا فيما يقول لتعلقت مشاعره بالآخرة ، لأن الدنيا في مشاعره هي الحياة والمستقبل والمصير ، ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى الصدق الحقيقي (صدق المشاعر) ، فإن اقتناعه بأن الدنيا ضئيلة فانية والآخرة هي الباقية هو اقتناع كاذب ، وإنما هو يقول بمشاعره : ((إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[5] رغم أن الاقتناع النظري تام بالآخرة إلا أنه اقتناع كاذب ، فالآخرة في الاقتناع النظري عنده خطيرة ومصيرية لكنها في المشاعر ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها

---

(1) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (ج : 10 ، ص : 480)
(2) المزمل : من الآية 17
(3) الحج : 2
(4) الشورى : 18
(5) المؤمنون : 37

تأثير حقيقي علي المشاعر ، وغدا سوف يفاجئ بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يعرفها كأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة ، لأن الذي يشعر بخطورة الآخرة يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجئ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى .

ـ عالم الغيب فوق مستوى الخيال وأشد رعبا من كابوس مرعب وأشد رعبا من رؤية أشباح وأعجب من السحر :

عالم الغيب عالم رهيب وعجيب وخطير جدا لكنه في المشاعر عالم عادي جدا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه ، إن عالم الغيب في مشاعر البعض مثل حواديت ، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء ، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار : ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[1] ، لذلك قد تستخدم عبارة "النار" لتخويف الأطفال ، أما مثل هؤلاء الكبار فلا تستخدم عبارة "النار" لتخويفهم لأنهم ناضجين لا تتأثر مشاعرهم بهذه الأساطير ؟!! ، فهؤلاء مشاعرهم تقول : ((إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ))[2] وإن كان عندهم اقتناع ويقين تام وجازم بكل الغيبيات ولكنه اقتناعا ويقينا نظريا فقط .

ـ ربما تسمع من أحد الناس عن وجود أشباح وعفاريت في مكان ما فعلت كذا وكذا ، فهذه أسطورة وخرافات وخزعبلات ، والذي يؤمن بهذه الأسطورة قد يكون خائفا ولا يستطيع النوم ، إن الآخرة أشد رعبا من هذه الأسطورة وهي حقيقة وليست أسطورة ورغم ذلك قد يتعامل الإنسان معها بمشاعره كأنها أسطورة من الأساطير .

ـ عندما يرى الإنسان كابوس مرعب فإنه قد لا ينام عدة أيام فإنه كلما نام رأى الكابوس ، ويكون في حياته قلقا متوترا خائفا منزعجا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها ، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس لأن فيها أهوال أشد من أي كابوس ، فضلا عن أنها حقيقة وليست كابوسا ، فالذي يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا لا تكاد تفارق صورة الآخرة ذهنه : ((كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ))[3] .

ـ والساحر يسحر لك أشياء تدعو للدهشة والعجب وقد تكون أشياء مخيفة أو مرعبة ، أما عالم الغيب فهو أعجب من ذلك لأنه أشد غرابة من السحر فضلا عن أنه حقيقة وليس سحرا .

ـ الفرق بين اليقين النظرى واليقين الحقيقى بالبعث :

ـ لو أن إنسان مات منذ سنين وبلي جسمه ثم أخبروك أنه سوف يقوم حيا يسعى إليك وتراه وتتحدث معه ، إنه أمر مرعب يجعلك ترتعد وتخاف ، وسبب هذا الرعب أن ذلك الأمر خارق للأسباب ، إن هذا الأمر سوف يحدث بالفعل لجميع الناس ولكن أنت ستكون واحدا من هؤلاء الذين يقومون بعد أن ماتوا وفنيت أجسامهم ، إن هذا الأمر حقيقة فعلية وقادمة قريبا فلماذا لا تصاب بالخوف من مهابة هذا الأمر ولماذا لا تنشغل به ؟ ، ذلك لأن قضية البعث ليس لها قيمة في مشاعرك فأنت غافل عنها كأنها لن تحدث على وجه الحقيقة .

ـ بل إنك كنت ميتا ثم أحياك الله ، فكنت نطفة ميتة لا روح فيها في رحم أمك ثم نفخ الله فيك الروح فأصبحت حيا ، وهذا ما تراه كل يوم لجميع الناس حيث يخلق الله الأطفال في الأرحام وينفخ فيها الروح ، إن ذلك أشد عجبا وغرابة وليس سحرا ولكنه حقيقة وخرق للأسباب ، فلماذا لا تشعر بالتحير والتعجب من مدى عظمة الخالق وقدرته فتشعر بالاستسلام والخضوع لقدرة الله : ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا

---

(1) يس : 51 ، 52
(2) المؤمنون : من الآية 83
(3) التكاثر : 5 ، 6

فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ ثُمّ إليه تُرْجَعُونَ))[1] ، وتشعر بضعفك وضآلتك حيث يفعل الله بك ما يشاء فيحييك ثم يميتك ثم يحييك : ((قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ))[2] .

ـ والزروع تراها أمام عينك بذور ميتة تتحول إلى أشجار حية تتنفس وتكبر ثم تموت ، فإذا لم يؤثر كل هذا في الإنسان فيشعر بالرهبة من أمر البعث وخطورته ويشعر بالخضوع والاستسلام لله ، فهذا معناه أن الإيمان بالبعث هو إيمان نظري فقط وليس إيمانا حقيقيا .

ـ فلو أن إنسان وضع في يده حفنة من التراب ثم قال لك انظر إلى هذا التراب فلما نظرت إليه وجدته يتحول إلى برتقالة ! ، إنك تقول إن هذا الإنسان ساحر ، إن هذا الأمر يحدث بالفعل ولكن الساحر هنا ليس إنسان ولكنه بذرة البرتقال حيث تستطيع بذرة شجرة البرتقال أن تستخدم تراب الأرض وتحوله إلى برتقال ! ، وهكذا كل النباتات والزروع ، وفي الحقيقة فإن بذرة البرتقال ليس لديها القدرة على عمل ذلك ولكن هناك قوة خارجية خفية هي التي تمكن بذرة البرتقال من هذا العمل .

ـ فالبذرة هي جماد تحول إلى كائن حي (نبات) : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزّلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ))[3] .

ـ إذا لم يتحير ذهن الإنسان من مدى قدرة الله على إحياء الأموات ويشعر بالرهبة من البعث ويتأثر همه بهذا الحدث المنتظر القريب الهائل حينما يقوم من موته ويقوم معه كل الناس فهذا معناه أنه يقول بمشاعره وهمومه : (لا يستطيع أحد أن يعيد الإنسان بعد أن أصبح ترابا إلى الحياة وما الجنة والنار إلا أساطير) .

****

ـ الشعور بوجود الجنة

ـ كل الناس يحبون الشهوات ويحبون النظر إلى العورات ، ولكن هناك من يحبون شهوات الدنيا ويحبون النظر إلى نساء الطين ، فهؤلاء لا عقل لهم لأن ذلك ليس إلا لعب ولهو لأن متع الدنيا ضئيلة وفانية ، وهناك من يحبون شهوات الجنة ويتصورون في عقولهم الحور العين وجمالهن ويشتاقون لها ويعدون المهر الذي يصلون به إلى الحور العين بالإيمان والتقوى ، وهؤلاء هم العقلاء .

ـ شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر :

ـ كل ما يمكن أن تتخيله من المتع والشهوات من نساء فاتنة ساحرة وخمور وكل ألوان الطعام والشراب وكل ألوان المرح والترفيه فشهوات الجنة أكبر من ذلك ، وكل شيء بمجرد أن تتمناه يتحقق لك كأنه سحر لكنه حقيقة ، وكل هذا موجود الآن في الجنة : ((وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذّ الْأَعْيُنُ))[4] ، ((وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ))[5] ، ((وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ))[6] ، ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[7] ، وفي الحديث القدسي : ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون }))[8] .

ـ والساحر يسحر لك أشياء تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر ، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر فضلا عن أنها حقيقة وليس سحرا ، فلماذا لا يحدث خوف من

(1) البقرة : 28
(2) عبس : 17 ـ 19
(3) العنكبوت : 63
(4) الزخرف : 71
(5) الأنبياء : 102
(6) فصلت : 31،32
(7) ق : 35
(8) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 346 ، برقم : 3197)

مهابة الأمر ؟ ، ولماذا يحدث الحب والرجاء لشهوات الدنيا ونساءها ، في حين لا يحدث ذلك لشهوات الجنة التي هي أعظم بكثير ، ذلك لأن اليقين الحقيقي بالجنة وما بها غير موجود مطلقا .

ـ الشعور بوجود الجنة :

ـ تصور لو أن هناك كوكب آخر في السماء غير الأرض عليه سكان من البشر يعيشون حياة غاية في التطور و الرفاهية ، فمن يعيش على هذا الكوكب يعيش في متع متناهية لا حد لها ، وينال كل ما يشتهي ويتمنى ولا يتعب ولا يعمل ، ولكن تركيبة البشر هناك مختلفة عن تركيبة البشر على الأرض ، فهم في شباب دائم وصحة دائمة وأجسادهم مصممة بحيث أنها غير قابلة للمرض أو الموت وهم يأكلون ويتنعمون كيفما شاءوا وكل ما يريدونه يتحقق فورا وكأنه سحر ، لذلك من أراد الوصول إلى هذا الكوكب من سكان الأرض فلابد أن يتغير جسده ويتكون من جديد حيث يموت أولا ثم يتشكل جسده من جديد ثم يصعد به إلى هناك بدون مركبة فضائية .

ـ فكذلك الجنة موجودة الآن ، وسكانها الآن هم الحور العين ، ومن يصل إليها هم المؤمنون ، وفي كتاب لوامع الأنوار البهية : ((والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها العرش ، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد))[1] .

ـ أنت إذا نظرت إلى أعلى فإنك ترى الله وترى الجنة لولا أن عين الإنسان فيها مشكلة تجعلها غير قادرة على رؤية الله ورؤية الجنة ، فالجنة موجودة الآن فوق السماء ، وحجمها ضخم جدا حتى أن عرضها يبلغ السماوات والأرض ، وهناك عالم آخر كامل من المعيشة في حياة الخلود في هذه الجنة ، ففي الجنة الآن الحور العين وهن ينظرن إليك ويرونك الآن لأن أعينهن ليس فيها هذه المشكلة التي تمنع من الرؤية ، ففي الحديث : ((لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا))[2] .

ـ اليقين الحقيقي بمتع وملذات الجنة :

ـ تخيل لو أن رجل أخبرك بأنه على موعد مع فتاة جميلة ولكنها تسكن في مكان ما فوق السحاب ، وأنه لن يصعد إليها بطائرة ، ولكنه سوف يصعد إليها بعد أن يموت ! ، لأنه سوف تحل الروح في جثته ثم يطير فوق السحاب ليلقاها ! ، إنك سوف تقول أن هذا هراء وأساطير وخرافات ، فما بالك أن وجود الحور العين أمر أعجب من ذلك ، فأنت فعلا علي موعد مع فتيات حسناوات جميلات في مكان آخر غير العالم الذي نعيش فيه ، وسوف تلقاهن بعد أن تموت ويتحلل جسدك في التراب ، ثم تحل فيك الروح وتذهب للقائهن إن كنت من أهل الإيمان ، وهذا الأمر قريبا جدا فما العمر في الدنيا إلا لحظات ؟! ، فإذا لم يشعر الإنسان بخوف المهابة من هذا الأمر العجيب فهذا يعنى أنه لم يدرك ويعقل هذا الأمر فيقينه به نظريا فقط .

ـ تخيل رجل يحب امرأة جميلة ، ويشتاق إلى لقاءها بماذا يشعر ؟ ، فإن الحور العين أجمل من ذلك بكثير و اللقاء بهن حق ، فلماذا لا تشعر بالحب للحور العين ؟ ولماذا لا تشتاق وتحلم بلقائهن ؟ ولماذا لا تسبح بخيالك مع فتاة أحلامك من الحور العين فإن كل محبوب يفكر في محبوبه ؟ أليست الحور العين حقيقة أم أنها مصنوعة من البلاستيك ؟ ، وأليس الوصول إليهن قريبا جدا ؟ ففي الحديث : « الجَنّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنّارُ مِثْلُ ذَلِكَ »[3] ، وإذا كانت حور الطين يلهث وراءها الكثيرون ويعيشون من أجلها فما بالك بحور العين ، إن لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فهل تشعر أن الحور العين الآن تشتاق إليك وتنتظرك إلى أن تلقاها ، إن كلمة (الحور العين) هي كلمة موجودة وراسخة في الاقتناع النظري لكن في المشاعر لا يوجد شيء اسمه الحور العين .

---

(1) لوامع الأنوار البهية ـ مؤسسة الخافقين ـ دمشق (2 / 239)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 7192 في صحيح الجامع)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)

ـ تخيل مكانا ما به كل ألوان المتع والملذات من نساء وخمور ورقص وطعام وشراب ، فإن الجنة بها أعجب من كل ذلك ، فلماذا لا تشعر بجب الجنة وتشتاق للوصول إلى متعها ؟ ، أين الرغبة الحقيقية والشوق إلى الجنة ؟ ، ففي الحديث القدسي : ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون }))[1] .

ـ تخيل لو علم الناس بوجود كنز كبير يمكن الوصول إليه ، تصور كيف ستكون مشاعرهم متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز ، وسوف يشغل ذلك الكنز بالهم وأكثر همهم ، فالجنة كنز حقيقي هائل لا ينفد فلماذا لا تتجه إليه المشاعر والتطلعات مثلما تتجه لكنز من كنوز الدنيا ؟ ، ذلك لأن ذلك الكنز الحقيقي (الجنة) في مشاعر البعض إنما هو كلاما نظريا فقط كأساطير الأولين !! .

ـ تخيل أن العلم توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ، فسوف تجد الناس يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم ، فالإنسان في يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله في جنات النعيم ، ورغم ذلك لا تجد أي شعور أو رغبة أو انشغال الهم بهذا الإعجاز الهائل القريب جدا ، ذلك لأن الجنة مجرد يقين نظري وليست يقينا حقيقيا .

ـ وفي الحديث : ((إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع حاجة أحدهم عرق يفيض من جلده فإذا بطنه قد ضمر))[2] ، وفي حديث آخر : ((يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء))[3] ، فالجماع في الجنة مائة ضعف الجماع في الدنيا وهو في ريعان الشباب (في سن 33 سنة) ويستطيع الإنسان ذلك لأنه يعطى قوة مائة ففي حديث آخر : ((يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قيل يا رسول الله أويطيق ذلك قال يعطى قوة مائة))[4] ، وفي حديث آخر : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا وذلك قول الله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون))[5] ، وفي حديث آخر : ((... قال فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن))[6] ، لماذا لا تشعر بالحب لأن تكون كذلك ، إن الإ نسان الذي يعيش للدنيا هدفه أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ، وكذلك الإنسان الذي يعيش للآ خرة يريد أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ولكن أي طعام وأي متعة ، إنه يريد المتع الحقيقية التي لا تفني والتي لا يحيطها مخاوف بالمرض أو الشيخوخة أو الموت أو سلب النعمة ، إنه يريد المتع الدائمة والشباب الدائم وحياة لا يموت فيها ولا يمرض ، وحياة بها الفاتنات الحسناوات من الحور العين ، ومن أدعية الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ : ((... وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بـ القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ...))[7] ، إذن فأي عاقل مَنْ يعيش لذة المتع الضئيلة الفانية في الدنيا ، فالذي يؤثر الدنيا هو إنسان غبي لا يشعر بخطورة الآخرة : ((فَأَمّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُنيَا ، فإن الجَحيمَ هِيَ المَأوَى ، وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النّفسَ عَنِ الهَوَى ، فإن الجَنّةَ هِيَ المَأوَى))[8] ، فالذي يشعر بنعيم الجنة وألوان المتع فيها لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤثر متع الدنيا الفانية ، وفي الحديث : ((مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى))[9] ، وفي الحديث : ((ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا))[10] فمن أراد الآخرة فإنه تلقائيا يترك زينة الدنيا ، وعن وهب بن منبه قال : ((مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان ، إن أرضى إحداهما

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 346 ، برقم : 3197)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1627 في صحيح الجامع)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 8106 في صحيح الجامع)
(4) قال الشيخ الألباني : حسن صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 677 ، برقم : 2536)
(5) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ـ رقم : 3771)
(6) متفق عليه (مشكاة المصابيح ج : 3، رقم : 4628)
(7) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 55 ، برقم 1306)
(8) النازعـات : 37 ـ 40
(9) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3247)
(10) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 637 ، برقم 2458)

أسخط الأخرى))[1] ، وفي الحديث : ((التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة))[2] ، ويقول علي رضي الله عنه : ((إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة إلا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل))[3] .

ـ تأمل قوله تعالى : ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[4] ، فكل ما تتمنى يتحقق فورا وتراه حقيقة وليس سحرا ، فقد ورد أن رجلا من أهل الجنة اشتهى أن يزرع فبذر فنما الزرع سريعا وكان كالجبال ففي الحديث : ((إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له ألست فيما شئت قال بلى ولكن أحب أن أزرع فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال فيقول الله دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء))[5] ، وفي حديث آخر : ((المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي))[6] .

ـ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة نظرت من نافذة مثلا وهي في الجنة إلى الأرض فإن نور جمالها سوف يضيء الدنيا ورائحة العطر الذي فيها سوف يملأ الدنيا عبقا والزينة التي تظهر على رأسها أجمل من كل الجمال الذي في الدنيا ، ففي الحديث : ((ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))[7] ، فأين الذين يبحثون عن الشهوات ؟ ، فهذه هي الشهوات الحقيقية .

ـ تخيل أننا الآن في الجنة ونذكر أيام الدنيا وما كان فيها ، فما قيمتها وما قدرها عندئذ ؟ ، إنها كانت أيام قليلة وحياة ضئيلة انتهت ولا قيمة لها ، أما نحن الآن (في الجنة) فهذه هي حقا الحياة نعيش فلا نموت و لا نمرض ونتمتع كيفما نشاء .

ـ أنظر إلى مدي لذة النظر إلى الله تعالى التي هي أعظم من كل لذات الجنة ، فهل من مشتاق إلى الجنة من أجل أن يستمتع بلذة النظر إلى وجه الله تعالى .

ـ إن الجنة هي المتع والشهوات لمَنْ لا يفهمون إلا لغة المتع والشهوات ، وإن الجنة هي التجارة الرابحة لمَنْ لا يفهمون إلا لغة التجارة والمكسب والخسارة ، وهناك فرق بين مَنْ يقتنعون بأنها المتع وبأنها تجارة ، وبين مَنْ يشعرون بأنها فعلا شهوات مثل شهوات الدنيا ولكنها الشهوات الحقيقية وبلا حدود وتجارة مثل تجارة الدنيا ولكنها التجارة الرابحة وبلا حدود : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[8] ، إن متع الدنيا تجد المشتاقون إليها فأين المشتاقون إلى الجنة ؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر ، ومَنْ يدعي أنه يشتاق إلى الجنة وليس عنده نفس الحالة النفسية لشخص يشتاق إلى محبوبه فهو كذاب .

ـ إذا نظر الإنسان إلى منزل جميل واسع أو شقة جميلة واسعة بها كل أدوات الترفيه والراحة أو إذا نظر إلى سيارة فارهة أو قصر مشيد أو .... الخ ، فإن الإنسان قد يحدث عنده شعور بالانبهار والإعجاب والشوق لأن يكون عنده مثل ذلك ، وقد يسعى سنوات طويلة وعنده طول أمل أن يحصل على سيارة فارهة أو شقة واسعة أو ...... الخ ، إذن هذا الإنسان بداخله أمل وشوق وشعور بالإعجاب والانبهار ، فإذا كانت الجنة أفضل من الشقة الواسعة أو السيارة الفارهة أو ...الخ ، فلماذا لا يشعر الإنسان بهذا الإعجاب وهذا الأمل والشوق للوصول إليها ؟ ، ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر ، ففي المشاعر هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع

---

(1) الزهد لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج : 1 ، ص 49)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبو داود ج : 4 ، ص : 255 ، برقم 4810)
(3) صفة الصفوة ـ دار الحديث، القاهرة (1 / 120)
(4) قٓ : 35
(5) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2080 في صحيح الجامع)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6649 في صحيح الجامع)
(7) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5116 في صحيح الجامع)
(8) الصف : 10،11

من البلاستيك لا معنى له ، أو شيء بعيد الاحتمال تماما أو كلاما نظريا فقط كأساطير الأولين ، رغم وجود ا لاقتناع النظري التام واليقين النظري التام بوجود الجنة ، فذلك اقتناع كاذب ويقين كاذب بوجود الجنة و الوصول إليها .

ـ نعيم الدنيا مجرد تشابه في الأسماء ، ففي الحديث : ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأ سماء))[1] ، أما النعيم الحقيقي فهو في الجنة : ((وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أنّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))[2] .

ـ إن شهوات الدنيا ضئيلة حتى وإذا حاول الإنسان أن يكثر منها فإن اللذة منها تقل عندئذ حتى تنتفي كأن يكثر من الطعام أو الشراب أو الجماع أو ينظر إلى عورات النساء ، بل يتعرض عندئذ للأمراض ، كما أن المتع تقل مع كبر عمر الإنسان خاصة عندما يصل إلى الشيخوخة ويعود إلى الضعف مثلما كان طفل ضعيف ، ولذلك يقول تعالى : ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أفَلا يَعْقِلُونَ))[3] ، أما في الجنة فلا يحدث أن تقل اللذة مهما أكثر الإنسان من ألوان المتع : ((لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ))[4] ، إن شهوات الدنيا كما أنها ضئيلة فليست سهلة المنال أيضا ولابد من السعي والتعب ، فالحصول على الدنيا ليس أمرا سهلا ، فإن المتنافسين على الدنيا كثير وطلاب الدنيا كثير ، وهم يتقاتلون ويتشاحنون عليها ، ويتشبثون بها بأيديهم وأسنانهم ، ومن يأتي بينهم ليتنافس على الدنيا لا يرقبون فيه إلا ولا ذمة فيأكلوه ، ورغم أن متاع الدنيا قليل لكن الشيطان يزين للإنسان كل ما هو حرام لكي يجره إلى أن يقع فيه فيصور له أن في ذلك نفع عظيم له أو متعة عظيمة له كما فعل مع آدم عليه السلام : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[5] ، ومهما فعل الإنسان فالدنيا دار شقاء : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[6] ، أما شهوات وطعام وفواكه الجنة ((لا مَقطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ))[7] ، وفي الحديث : ((قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت قال إني رأيت الجنة أو أريت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا))[8] .

ـ فلا يتحقق الإيمان حتى يزول تعظيم قيمة المال وقيمة الشهوات الدنيوية وقيمة الطعام والشراب الدنيوي في نظر الإنسان ، وحتى تكون شهوات الجنة لها قيمة حقيقية في النفوس وقدر وأهمية ، بمعنى أن تكون قيمة شهوات الجنة وما فيها من نعيم دائم أعظم بكثير من قيمة ما في الدنيا من شهوات فانية ، فيؤدي ذلك إلى أن يكون تعلق المشاعر بـالله والآخرة أكبر ، فهو بذلك يرى الآخرة أفضل وأدوم : ((وَلَلآخِرَةُ أكبر دَرَجَاتٍ وَأكبر تقضيلا ً))[9] ، ((وَالآخرة خَيْرٌ وَأبْقَى))[10] .

ـ لا يتحقق الشعور بقدر عظم السعادة في الجنة وعظم الألم في النار إلا إذا تحقق الشعور بقدر ضآلة متع الدنيا وضآلة آلام الدنيا ، أي ضآلة حجم شهوة المال وضآلة حجم شهوة النساء وضآلة حجم شهوة الطعام و الشراب وضآلة حجم شهوة الزعامة والمناصب والمظاهر وهكذا ، وكذلك ضآلة حجم أي آلام أو متاعب أو مشاكل أو ضيق في الدنيا ، إذن الشعور بقدر خطورة الآخرة لا يتحقق إلا إذا تحقق الشعور بقدر ضآلة الدنيا وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِأنْعَمِ أهْلِ الدُّنيَا مِنَ الكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ في النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثمّ يُقَالُ لهُ أي فُلأن هَلْ أصَابَكَ نَعِيمٌ قطُّ ، فَيَقُولُ لا َ مَا أصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأشَدِّ المُؤْمِنِينَ ضُرّا وَبَلا َءاً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الجَنّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لهُ أي فُلأن هَلْ أصَابَكَ ضُرٌّ قطُّ أو بَلا َءٌ فَيَقُولُ مَا أصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلا َ بَلا َءٌ))[11] ، وبالتالي من عرف حقيقة الدنيا فقد عرف حقيقة

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5410 في صحيح الجامع)
(2) البقرة : 25
(3) يـس : 68
(4) الواقعة : 19
(5) طـه : 120
(6) البلد : 4
(7) الواقعة : 33
(8) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 3 ، ص : 146 ، برقم : 1493)
(9) الإسراء : من الآية 21
(10) الأعلى : 17
(11) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)

الآخرة ، ومن عرف حقيقة نفسه فقد عرف الله ، أي من عرف ضآلة نفسه عرف عظمة ربه ، ومن عرف ضآلة الدنيا عرف خطورة الآخرة ، وطالما أن الإنسان لا يزال مغرورا بألوان السعادة في الدنيا ويظن فيها سعادة كبيرة وتنشغل بها أكبر همومه ومشاعره فهو لا يزال لا يوقن يقينا حقيقيا بالآخرة وبعظمة الله وخطورة أن الله مطلع عليه .

ـ الإنسان يحب متع النساء والخمور والقصور ويعيش لذلك ، فمن الناس من يرى أن هذه المتع في الدنيا فيعيش لها ، فهو الكافر أو المنافق ، أما المؤمن فيرى أن هذه المتع في الجنة فيعيش لها وقلبه يشتاق إلى نساء الحور العين وجمالهن وحلاوة جماعهن ولذة الخمور وفخامة القصور .

ـ وهنا ينكشف اليقين الحقيقي بالجنة ، فالذي لا يشعر بأي قدر من حب الجنة والشوق لها والتعجب (خوف المهابة) من مدى ما فيها من ألوان النعيم هو في حقيقته يقول بمشاعره أن الجنة أساطير الأولين وحواديت الشاطر حسن ! ، رغم اليقين النظري التام بالجنة ، فالحور العين بالنسبة له كأنهن نساء خيالية وليست نساء حقيقية فيها لذة أمتع من كل نساء العالم ! ، فلو كان موقنا بهن حقا لعاش من أجل الوصول إليهن وزهد في نساء الطين ! .

ـ الشعور بمعنى الخلود في الجنة :

ـ إنها السعادة الأبدية في متعة ولذة بلا حدود وإلى الأبد ومع الجميلات الفاتنات الساحرات من الحور العين ليس مائة سنة ولا ألف ولا مليون ولا مليار سنة ، إنها حياة بلا نهاية ، قارن هذا أمام السنوات الحقيرة المعدودة في الدنيا ، فلا وجه للمقارنة أصلا ، فإنك في الجنة سوف تبقي شباب للأبد بلا مرض ولا ضعف ولا موت مع كل ألوان المتع .

ـ الشعور بأن الجنة هي المستقبل القريب والطموح والأمل :

ـ لماذا تؤمل في متع من الدنيا ضئيلة وتنتظرها وتفكر فيها في حين أنك قريبا جدا تصل إلى متع بلا نهاية بلا حدود ، فالجنة بعد لحظات ولكنك لا تدري فما سنوات العمر إلا لحظات ففي الحديث : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[1] ، فابقي كما أنت تؤمل في متع وملذات ولكن في متع وملذات الجنة ، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : ((مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ ، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : مَا أَرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[2] .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بالجنة :

ـ كل الناس يوقنون نظريا أن جميع متع وملذات الدنيا ليست بشيء أمام متع وملذات الجنة ، لكن البعض لا يتصور هذه المتع ولا يشعر بمدى قيمة هذه المتع ومدى تحققها ، فلا يشعر بالشوق والحب لمتع الجنة ولا ينشغل باله بلقائه بزوجته من الحور العين ، في حين تتعلق مشاعره وتتأثر بمتع وملذات الدنيا فقط ، فحقيقة ما في شعوره أن المتع والملذات إنما هي في الدنيا فقط أما متع الجنة فهو آمر كلامي بعيد المنال في شعوره ومشاعره ، فحقيقة أمره أنه لا يوقن بالجنة رغم وجود اليقين النظري التام بالجنة .

ـ المشاعر الناشئة عن الشعور بوجود بالجنة :

ـ الشعور بخوف المهابة من مدى ما في الجنة من متع ولذات عجيبة جدا ومذهلة وتفوق كل التصورات والا نبهار بها والشعور بالشوق والحب للجنة والشعور بالأمل والرجاء فيها والشعور بالخوف من فواتها ، والشعور بالصبر والترقب والانتظار للوصول إليها .

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 3115 في صحيح الجامع)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 2 ، ص : 1393 ، برقم : 4160)

ـ فعندما يسمع الإنسان أن هناك شيئا فيه ألوان هائلة من المتع ، فإنه يحب ذلك الشيء ، فالجنة فيها كل ألوان المتع والملذات فإذا لم تشعر بلذة الحب للجنة ، فهذا معناه أن اليقين الحقيقي بوجود الجنة غير موجود .

ـ الحالة النفسية للحب والشوق والرغبة في الجنة :

ـ الحب صورة من صور الشعور باللذة ، فإذا لم يشعر الإنسان باللذة فهو لا يحب ، فالحب عبارة عن متعة ولذة ، فمن لم يجد في محبة الجنة متعة ولذة فهو لا يحب الجنة .

ـ وكثيرا من الناس يدعون حب الجنة والشوق إلى الحور العين فهل عندك نفس الحالة النفسية التي عند محب يشتاق إلى محبوبته ؟ ، إذن فالحور العين لا وجود لها في مشاعرك ، إنما هي في الاقتناع النظري فقط وليست في الشعور ، كأنها مصنوعة من البلاستيك وليست نساء جميلات .

****

ـ الشعور بوجود النار

ـ لا يمكن لعاقل أبد يوقن بالنار أن ينسى النار ، ذلك المصير المرعب الذي يخشاه كل عاقل ، فالعاقل يكون دائم التفكير في ذلك الخطر الهائل وكيفية تفاديه .

ـ الشعور بوجود النار :

ـ إن الغرض الأصلي من وجود النار في الدنيا هو أنها تذكرة لنار الآخرة : ((نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ))[1] ، ولو كانت نار الآخرة كذلك لكفت ، ففي الحديث : ((ناركم هذه التي توقدون جزء واحد من سبعين جزءا من حر جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها))[2] .

ـ لو كانت الشمس هي نار الآخرة لكانت كافية ، فيمكن أن نتخيل أن الشمس هي نار الآخرة ، فإذا رأينا مدى حجمها وشدة نارها بحيث أنها يمكن أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك من حجمها سوى واحد على مليون من حجمها ، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية ، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها ، فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام ، فإذا ما تصورنا حجم هذه النار ووجودها وأننا ندور حولها وأثرها الواصل إلينا فيمكننا أن نتصور مدى خطورة نار الآخرة الأكثر شدة و التهابا .

ـ وحيث أن وجود هذه الشمس التي هي نار معلقة في الفضاء أمر عجيب وخارق للأسباب حيث أنها لا تقع وحيث أنها بهذه الشدة والالتهاب وحيث أنها ما زالت موقدة ولم تنطفئ على مدى مليارات السنين من قبل خلق البشر أساسا ، فما بالك إذن بنار الآخرة .

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء ، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات ، وهذه النجوم ما هي إلا عبارة عن زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى .

ـ ونار الآخرة موجودة الآن وبالطبع هي أضخم من كل هذه النجوم .

ـ الشعور بمدي عذاب وألم النار :

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم ، بماذا تشعر ؟ ، وهذا

(1) الواقعة : 73
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 709 ، برقم 2589)

بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحداً يحترق ، وما بالك إذا كنت أنت المصاب في هذه الحادثة ؟ ، إن أهل النار يسمع لجلودهم أزيز من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتشوي ، فما بالك لو أنك أنت في مكان هذه الدجاجة ، إذا لم يتحقق عندك الشعور بالخوف من مهابة النار ومن الوقوع فيها فإن النار في مشاعرك لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإن نار الآخرة في الاقتناع النظري عذابها شديد أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية ا لإحراق ، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض .

ـ ومما ورد في عذاب أهل النار ما جاء في تفسير ابن كثير : (((ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) .. قال ابن عباس : { فاسلكوه } تدخل في أسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى))[1] ، وفي تفسير القرطبي : ((وقال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، وقال كعب إن حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى { ذرعها سبعون ذراعا } أن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا ، فاسلكوه قال سفيان بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه))[2] ، وفي الحديث : ((لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه))[3] ، وفي الحديث : ((إن في النار حيات أمثال أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا ، إن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا))[4] ، وفي الحديث : ((لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه))[5] .

ـ الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار :

ـ إن نار الآخرة أمر أبعد من كل تصوراتنا وخطر من أشد ما يمكن ، وإذا وضعت مقارنة بين نار الآخرة وكل مخاوف الدنيا وآلامها فانها لا تساوي شيئا ، وفي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أَيْ فُلاَنُ هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلاَءً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أَيْ فُلاَنُ هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أَوْ بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))[6] ، إلا أنك إذا قارنت بين الحالة النفسية للخوف من أي أمر دنيوي وبين الحالة النفسية للخوف من الآخرة والنار تجد حالة خوف حقيقية هائلة في النفس من الأمر الدنيوي في حين لا تجد أي شعور نفسي حقيقي عند مَنْ يدعي الخوف من النار ، وإذا افترضنا أنه وُجد فلا يساوي واحد علي ألف من أقل شيء مخيف في الدنيا .

ـ فلا ألم في ألم بعده الجنة ولا راحة في راحة بعدها النار ، لذلك فالعاقل يستوي عنده ألم الدنيا مع نعيمها : ((لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ))[7] ، فقارن بين مخاوف الدنيا الفانية وبين الشقاء إلى الأبد فتعيش في عذاب بلا حدود وإلى الأبد ، فإن كل آلام الدنيا وهمومها وأحزانها ومشاكلها ليست بشيء أمام آلام النار .

ـ ومن لم يشعر بالفارق بين آلام الدنيا وألم النار باع إيمانه مخافة آلام الدنيا وسقط في اختبار الابتلاءات : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ))[8] ، أما من شعر بهذا الفارق لم تهمه آلام الدنيا ، وفي الحديث : ((لو أن رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))[9] .

---

(1) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص : 216)
(2) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 18 ، ص : 272)
(3) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3668)
(4) حديث صحيح (السلسلة الصحيحة برقم 3429)
(5) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5250 في صحيح الجامع)
(6) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)
(7) الحديد : 23
(8) العنكبوت : من الآية 10
(9) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5249 في صحيح الجامع)

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة ، فمن كان يشعر بألم الكراهية والضيق لآلام الدنيا ومشاكلها وهمومها وخطورتها ولا يشعر بألم الكراهية والضيق والاشمئزاز لآلام النار في ا لآخرة (خوف المهابة من شدة النار وخوف الوقوع فيها) فذلك لأن النار في مشاعره خيال وأساطير الأ ولين ! .

ـ المشاعر الناشئة من الشعور بوجود النار :

ـ خوف المهابة لمدى عظم حجم النار وعظم آلامها ، والشعور بالكراهية الشديدة للنار والاشمئزاز والضيق وا لألم والنفور عند تذكرها ، والشعور بخوف العقاب من دخول النار ، والشعور بالأمل والرجاء في النجاة منها ، فمن لم يشعر بهذه المشاعر فهو لا يوقن يقينا حقيقيا بوجود النار .

ـ فأنت إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالتألم من فظاعة ومن مهابة الأمر ، رغم أن الأمر لم يحدث لك أنت وليس فيه ضرر عليك ، وكذلك إذا سمعت عن حادثة مروعة فيحدث تألم وخوف من رهبة الأمر وفظاعته ، فإذا لم يحدث هذا التأثر فهذا معناه أنك لا تعي ولا تدرك حقيقة ما رأيت أو سمعت كأنك لم تسمعه ولم تعلمه .

****

الفصل الثامن

تناسي حقيقة اليقين بالملائكة والقرآن والرسل

ـ أولا : تناسي حقيقة اليقين بالملائكة

ـ قوة الملائكة مرعبة فما بالك بقوة الخالق :

ـ هناك عالم آخر هائل من الملائكة التي تعيش معنا على الأرض ، وهم يروننا ونحن لا نراهم ، والناس يعيشون هادئين تماما لأنهم معزولون عن رؤية الملائكة ، والملائكة ممنوعة من أن تتعرض للناس فتفتك بهم وتهلكهم إلا إذا أمر الله ، ولو رأى الناس الملائكة وهي حولهم وتعيش معهم لصعقوا جميعا من هول المنظر وضخامة أجسامهم وقوتهم الهائلة ، فالذي يعيش هادئا وحوله كل هذا الخطر هو لا يعقل ، أما العاقل فيشعر بخوف المهابة من عظمة الملائكة ، ويشعر بخوف أشد وأعظم من مهابة الذي له القدرة والقوة على إيجاد هذه المخلوقات الهائلة .

ـ ربما تسمع أساطير عن إنسان رأى عفاريت وأشباح أو أن مكانا معينا مسكونا بالعفاريت ، هذه أمور مرعبة ، فالملائكة والجن من حولنا الآن أشد رعبا من هذه العفاريت فضلا عن أنها حقيقة ، فأي عاقل يوقن يقينا حقيقيا بأنه يعيش وحوله كائنات أكثر رعبا من العفاريت ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابتها ، وأي عاقل يوقن يقينا حقيقيا بأنه سوف يرى هذه الملائكة ويرى الأهوال ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابة الأمر .

ـ قوة الملائكة هائلة جدا وأعظم من قوة البشر أجمعين ، وأعظم من قوة الجن بكثير ، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان : { أَنَا آتِيكَ بِهِ } [النمل:39] أي: بعرش بلقيس { قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل:39-40] بعد ذلك رآه مستقراً عنده، قال العلماء: لأن هذا الرجل دعا الله فحَمَلَتْه الملائكة، فجاءت به إلى سليمان في الشام من اليمن ، وهذا أمر لا يمكن أن يتصوره إنسان .

ـ وفي الحديث : ((إنما ذلك جبريل ما رأيته في الصورة التي خلق فيها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض))[1] . |

ـ اليقين الحقيقي بالملائكة يعني الشعور بمدى قوتها وبالتالي الشعور بمدى قوة الخالق التي هي أعظم ، وبالتالي الخضوع للخالق ، والإنسان يتناسى حقيقة اليقين بالملائكة حتى يهرب من الخضوع .

ـ التخفي وراء الحجج المصطنعة :

ـ رغم أن الله سبحانه أعطانا الأدلة على وجود الملائكة من خلال دعوة الرسل وما أتوا به من المعجزات كإعجاز القرآن والسنة ، فالإنسان يتخفى وراء حجة أنه لا يرى الملائكة ، ولو رأى الملائكة لقال أنها سحر ، فهو يتهرب رغم اليقين النظري بوجود الملائكة ، ففي تفسير البحر المحيط : (({ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [الحجر: 14، 15] .. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي فَظَلُّوا يَعُودُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ لِقَوْلِهِمْ : { لَوْ مَا تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ } أَيْ : وَلَوْ رَأَوُا الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ وَتَنْصَرِفُ فِي بَابٍ مَفْتُوحٍ فِي السَّمَاءِ لَمَا آمَنُوا.))[2] ، ((وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ))[3] .

ـ الفرق بين اليقين النظري واليقين الحقيقي بوجود الملائكة والجن معنا :

ـ إذا نظر الإنسان حوله فإنه يتصور وجود ملكين ملازمان له في كل وقت ويتصور وجود الشياطين والملا ئكة من حوله ، وإذا نظر إلى أعلى أيضا يتصور وجود ملائكة تصعد وتهبط من السماء ووجود ملائكة تملأ السماء فما من موضع أربع إصابع إلا وعليه ملك ففي الحديث : ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا ملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، و الله لوددت أني شجرة تعضد))[4] وذلك لأنه منظر مخيف جدا ومرعب أن ترى ملائكة فوقك تملأ السماء ، ف لابد أن تشعر بخوف المهابة من وجود الملائكة والجن حولك .

ـ فلابد أن يشعر الإنسان بأن وجود الجن والملائكة حقيقة واقعة حوله الآن في هذه اللحظة وفي كل وقت ، ولا يمكن لإنسان عاقل أن تغيب صورة هذه الملائكة والشياطين وهي تعيش معه وتلازمه عن ذهنه أبدا .

ـ إن كل إنسان على اقتناع نظري تام بأن هناك رقيب وعتيد يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه ، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله ، وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل ، فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودان في مشاعره ، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه خوف المهابة ، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسهما بحيث لا يراهما أحد ، ولهما قدرة هائلة أعظم من كل قدرات البشر ، فهذا يؤدي إلى خوف المهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر تسجيلهما لكل شيء .

ـ تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك ، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته ، فوجود الملكين الرقيب والعتيد أخطر من ذلك .

ـ وكيف تكون حياة الناس لو أن الله جعل الناس يرون الرقيب والعتيد وهما يسيران مع كل واحد في كل لحظة ؟! ، وهل رؤية الناس لهم تغير من حقيقة وجودهم معنا شيء ؟ ، ولكن المشاعر تكذب بوجود شيء اسمه الملائكة رغم وجود الاقتناع النظري التام بوجودها ، وماذا أيضا لو أن الله كشف الحجب فرأي الناس

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2362 في صحيح الجامع)
(2) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (6/ 470)
(3) الأنعام : 111
(4) التخريج : حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3380)

الله وهم في الدنيا ، وهل هذا يغير من حقيقة وجود الله معنا في كل لحظة ويراقبنا ويري ما يخطر في بـ الـنا شيء ؟ ولكن المشاعر تكذب بوجود الله رغم وجود الاقتناع النظري التام بوجوده .

ـ تصور لو أن الناس ترى الملائكة حولها وفي الطرقات لصعق الناس جميعا وماتوا من هول ما يشاهدونه ، ففي تفسير الخازن : ((ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا ً ، يعني ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة رجل وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين ، وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ، ولما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه))[1] ، وفي تفسير القرطبي : (((ولو أنزلنا ملكا لقضى الأ مر) قال ابن عباس : لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته))[2] ، وفي تفسير الثعالبي : ((لماتوا من هول رؤية الملك في صورته))[3] ، وفي تفسير روح المعاني : ((ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر أي أمر هلاكهم لعدم قدرتهم على تحمل مشاهدته))[4] ، أي يموت الإنسان من شدة الرعب والفزع من رؤية هذه المخلوقات المرعبة جدا الهائلة في ضخامة خلقتها .

ـ لو قيل لرجل إن الشقة التي تسكنها هي شقة مسكونة ، تسكنها الأشباح والأرواح ، بماذا يشعر ؟ ، إنه يشعر بالخوف والرعب ، وإذا كان مضطرا للبقاء في هذه الشقة فكيف يعيش حياته وهو مقتنع ومصدق بأن هذه ا لأشباح والأرواح تعيش معه في شقته ؟ ، إن وجود الملائكة أعظم وأعجب وأغرب من ذلك وهي تعيش معك الآن ، فإذا كنت تدعي أنك تشعر بوجود الملائكة فلماذا لا تشعر بنفس هذا الشعور لهذا الرجل ؟ ، إن البشر ليسوا هم فقط سكان هذه الأرض ، ولكن تعيش معهم كائنات هائلة لا نراها هي الملائكة ، بل إنه لكل إنسان اثنان رقيب وعتيد يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه ، وهذا يعني شعور بمراقبة واصطحاب هذين الملكين لك في كل لحظة ، يا ترى ماذا كتبوا لك في صحيفتك بالأمس ؟ ، إن كل خطوة خطوتها وكل كلمة قلتها بالأمس تم نسخها وتسجيلها : ((هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[5] ، وبماذا تعد نفسك ليكتبوه في صحيفتك هذه الليلة ؟ ، فإذا لم تشعر بشيء من ذلك فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودان في مشاعرك .

ـ يدور في خيال بعض الناس أن هناك كائنات فضائية علي كوكب آخر وصلت لتكنولوجيا هائلة وتأتينا إلى ا لأرض ، ماذا لو كان هذا حقيقة ؟ ، وماذا لو تصورنا أن هناك كائنات فضائية غير مرئية نزلت على الأرض وهي تسير بيننا ومعنا ونحن لا نراها ؟ ، ألا نشعر أن هناك كائنات حقيقية أعظم وأعجب من هذا وهي حولك الآن من الملائكة والجن فلماذا لا تشعر بالخوف ؟ إنك أنت الآن يتم تسجيل ما تقرأه في هذا الكتاب ، ألا يدعو ذلك لحدوث مشاعر ، لو أن إنسان يسير ومعه اثنان ملازمان له في كل لحظة من حياته مهمتهما مراقبته وتسجيل كل شيء عنه وهما في حالة اختفاء فلا تراهما ، فهل يمكن أن ينساهما أو لا يؤثر ذلك في مشاعره شيئا ؟ ، إن معك رقيب وعتيد ليسوا من البشر ولكن من خلق آخر هائل الخلقة لا تراهما ، ألا يدعوا ذلك إلى أي شيء من الإحساس أو الشعور بالقلق ، ولو أراد الله أن تزول الموانع من رؤية الملائكة لرأي الناس كلهم الملائكة وهي تسير حولنا ومعنا في الطرقات الآن ، وعلي المرء أن يتصور ويشعر بأن هذه الموانع غير موجودة فيشعر أنه يري الملائكة ، وبغير هذه المعرفة الحقيقية لا تستطيع أن تشعر أن الملائكة موجودة وتراك وتسمعك ولا تستطيع أن تشعر بصفات الملائكة وخلقتهم الهائلة ، فإنك عندما تسير في الطريق لماذا لا تشعر أنهما يسيران معك ؟ أليس هذا حق ؟ ، فبماذا تشعر تجاه الملائكة وهي تراك الآن وأنت لا تراها ؟ ، إن هذا تصور بسيط جدا ، وهذا واقع الآن وليس من الغيبيات المستقبلية ، ولكنك تجد هذا الكلا م مستغربا رغم أنه الواقع ، وإذا لم تشعر بالملائكة الموجودة الآن معك فكيف تشعر بما هو أبعد من ذلك بالآ

---

(1) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (2 / 120)
(2) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (6 / 393)
(3) تفسير الثعالبي ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 21 ، ص : 447)
(4) تفسير روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 7 ، ص : 107)
(5) الجاثـية : 29

آخرة التي لم تقع بعد والتي هي أعجب وأغرب وأخطر .

ـ أيهما أصعب الشعور بوجود الملائكة وهي حولك ، أم الشعور بوجود الله ؟ ، طبعا الشعور بوجود الله أصعب ، فإننا لو رأينا الملائكة لصعقنا من خوف المهابة ، ولو رأينا الله لصعقنا من خوف المهابة ، ولكن خوف المهابة من الله أعظم بكثير لأنه هو الذي خلق الملائكة ، فإذا لم تكن تشعر بوجود الملائكة وهي حولك ، فهذا يعني أنك لا تشعر بوجود الله ، كما أن الشعور بمراقبة الملكين لك أسهل من الشعور بمراقبة الله لك ، فإذا لم تكن تشعر بمراقبة الملكين لك ، فهذا يعني أنك لا تشعر بمراقبة الله لك .

ـ تصور لو قيل أن القيامة تقوم الآن أو هذه الليلة ، وتخيل حالة الرعب والفزع والاستعداد السريع والتأهب ، وتصور لو قيل لك أنك ستموت الآن أو الليلة ، وتخيل الشعور بفراق كل شيء في الدنيا والشعور بالفزع و الرعب ، وتصور لو رأى الناس الملائكة عيانا لتكدرت حياتهم ولتركوا متع النساء ولخرجوا إلى الصعدات يجأرون إلى الله ففي الحديث : ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله))[1] ، هنا تعرف حجم الفارق الكبير بين مجرد اليقين النظري بوجود الملائكة معنا واليقين الحقيقي بذلك .

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن هذه الحقيقة فأنت مراقب شعرت بذلك أم لم تشعر ، فيجب عليك أن توقن بذلك يقينا حقيقيا ، فالقضية خطيرة ولكننا في غفلة .

ـ لقد صنع الله مخلوقات من النار ومخلوقات من النور ومخلوقات من الطين هم الجن والملائكة والإنسان ، وأنت واحد من هذه المخلوقات ، فلابد أن يشعر الإنسان أنه ليس وحده في هذا الكون بل هو مخلوق ضعيف بين هذه الكائنات الهائلة ، ولابد أن يشعر الإنسان بمدى قدرة الله على إيجاد مخلوقات مختلفة عن بعضها تماما ، فيشعر أنه ضعيف وأن الله هو القوي ويعترف بضعفه ، ويشعر بمدي قوة الله .

ـ لماذا تخاف الملائكة من الله ؟ ، إنها تخاف من هيبة الله تعالى : ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[2] ، وكيف أن هذا الخوف يؤدي بهم إلى عمل دائم هو أنهم يسبحون الله تعالي ، وفي الحديث : ((مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس[3] البالي من خشية الله))[4] ، إن الملائكة عرفت عظمة الله وعظمة قدره وعظمة قدرته معرفة حقيقية أدت إلى خوف المهابة والحب لله ، وأنت أيضا إذا كنت تعرف قدرة الله معرفة حقيقية فلابد أن ينشأ عن ذلك خوف المهابة والحب لله تعالى .

ـ أثر اليقين الحقيقي بالملائكة :

1ـ خوف المهابة من الملائكة ومن تسجيل الملكين الرقيب والعتيد .

ـ الإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه خوف المهابة ، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسيهما بحيث لا يراهما أحد ، فهذا يؤدي إلى خوف حياء ومهابة من الملكين الرقيب و العتيد .

2ـ الشعور بأننا نعيش في حالة اختبار حيث يتم تسجيل كل عمل نعمله وتحديد الدرجات عليه والنتيجة يوم القيامة : ((يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))[5] ، وهذا يؤدي إلى الحرص والانتباه إلى خطورة الأعمال بتحري الطاعات و البعد عن المعاصي .

---

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 556 ، برقم 2312)
(2) الرعد : من الآية 13
(3) الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج
(4) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم: 5864 في صحيح الجامع)
(5) الزلزلة : 6- 8

****

ـ ثانيا : تناسي حقيقة اليقين بالقرآن

ـ وصول كلام إلى البشر من الخالق هو أعظم دليل على الخالق ، وذلك يوجب على الإنسان الخضوع ، لذلك يتناسى الإنسان أن للخالق كلاما ، ويتناسى كلامه ، والإنسان يعلم أنه ليس من كلام البشر لكنه يتناسى ما فيه من إعجاز حتى يتناسى أنه كلام معجز ليس من كلام البشر ، كما يتناسى ما فيه من إعجاز ويتناسى ما يصل إلى علمه من إعجاز القرآن والسنة .

ـ أهل الكتاب يوقنون بأن الرسول حق ولكنه يقين نظري فقط ، فهم يتجاهلون ما يوقنون به ويتغافلون عنه كأنهم لا يعلمون وكأنهم لم يسمعوا عنه : ((وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[1] .

ـ التخفي وراء الحجج المصطنعة :

ـ رغم أن الله سبحانه أعطانا الأدلة على أن القرآن حق من خلال الإعجاز البلاغي للقرآن بحيث لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل بلاغته ، وأيضا صور الإعجاز الأخرى للقرآن وإعجاز السنة ومعجزات الرسل ، فالإنسان يتخفى وراء حجة أن القرآن لم ينزل إليه بصورة مباشرة ، ولو رأى القرآن ينزل إليه في صحيفة من السماء لقال أنها سحر ، فهو يتهرب رغم اليقين النظري بوجود بأن القرآن هو كلام تعالى ، ففي تفسير البحر المحيط : (({ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً } [المدثر: 52]: أَيْ مَنْشُورَةً غَيْرُ مَطْوِيَّةٍ تُقْرَأُ كَالْكُتُبِ الَّتِي يُتَكَاتَبُ بِهَا، أَوْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاءِ نَزَلَتْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ سَاعَةَ كُتِبَتْ رَطْبَةً لَمْ تُطْوَ بَعْدُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَنْ نَتَّبِعَكَ حَتَّى يُؤْتَى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ عُنْوَانُهُ: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، يُؤْمَرُ فِيهَا بِاتِّبَاعِكَ، وَنَحْوُهُ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقْرَؤُهُ))[2] ، وفي التفسير المنير : (({ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا } [الفرقان: 21] هلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أي أرسلوا إلينا، فيخبروننا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أَوْ نَرى رَبَّنا فيأمرنا بتصديقه واتباعه ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي لقد تكبروا في شأن أنفسهم))[3] .

ـ ولو استجاب الله لطلبهم لما آمنوا أيضا لأن القضية أنهم لا يريدون الخضوع وأي شيء يأمرهم بالخضوع يهربون منه ويتناسونه ويدعون الحجج الواهية ، ففي تفسير البحر المديد : (({ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } يقول الحق جلّ جلاله : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ يا محمد كِتاباً مكتوبًا فِي قِرْطاسٍ أي: رَقّ، فرأوه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم بعد ذلك: إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتًا وعنادًا، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا: إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا، وتقييده بالأيدي لدفع التجوز، فإنه قد يُتَجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ ، ثم اقترحوا معجزة أخرى، وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يكلمنا أنه نبي، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو شهيدًا له بالرسالة))[4] .

ـ التعامل الصحيح مع القرآن :

ـ إذا كنت لا ترى الخالق بعينك فأنت تسمع قوله بأذنيك عن طريق غير مباشر (القرآن) ، فعندما تقرأ القرآن فأنت تسمع كلاما للخالق يصل إليك من فوق سبع سماوات ، وهذا أمر رهيب لمن يعقل ، وكذلك الذي يعقل الكلام يجده أنه ليس كلاما بشريا لما فيه من البلاغة والإعجاز ، فذلك أمر عجيب مدهش مبهر لمن يعقل :

---

(1) البقرة : 101
(2) بحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (10/ 340)
(3) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (19/ 43)
(4) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (2/ 99)

((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا))[1] ، ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ))[2] ، ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ))[3] ، لكن التعود على القرآن من غير نظر لما فيه من الإبهار والعظمة هو من نقص العقل .

ـ الأدلة على غياب اليقين الحقيقي بالقرآن بعدم تعقله كالتالي :

ـ عدم تعقل كلام الله معناه عدم تصور أنه كلام من الخالق يراه أمام عينه، ويقرأه بلغته واضحا بينا ، فهو أمر ملموس بين يديه ، وعدم الشعور بخطورة أن يصل إليه كلام من الخالق ، وعدم انشغال البال بهذا الأمر الخطير ، وبالتالي عدم المبالاة به :

ـ ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ))[4] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[5] ، ((الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[6] ، وقال الكفار لشعيب : ((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ))[7] مع أن شعيبًا خطيب الأنبياء ، ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا))[8] .

ـ فهم يسمعون القرآن أو يقرأونه ويفهمون معاني كلماته لكن لا يعقلونه (غياب التصور والشعور بالقيمة وعدم شغل البال بالأمر) ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وفي الصحيحين ... { ... ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌ ... }[9] . فهذا قارئ القرآن يسمعه الناس وينتفعون به وهو منافق ، وقد يكون مع ذلك عالمًا بتفسيره وإعرابه وأسباب نزوله ، إذ لا فرق بين حفظه لحروفه وحفظه لمعانيه، لكن فهم المعنى أقرب إلى أن ينتفع الرجل به، فيؤمن به ويحبه ويعمل به، ولكن قد يكون في القلب موانع من اتباع الأهواء والحسد والحرص والاستكبار، التي تصدُّ القلب عن اتباع الحق، قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }[10] ، فهؤلاء لا خير فيهم يقبلون الحق به إذا فهموا القرآن، فهو سبحانه لا يُفهمهم إياه، ولو علم فيهم خيرًا لأفهمهم إياه، ولمّا لم يكن فيهم خير فلو أفهمهم إياه لتولوا وهم معرضون، فيحصل لهم نوع من الفهم الذي يعرفون به الحق، لكن ليس في قلوبهم قصدٌ للخير والحق وطلبٌ له، فلا يعملون بعلمهم ولا يتبعون الحق))[11] .

ـ وقد يعبر عن عدم تعقل القرآن بالتناسي أو التغافل أو التعامي أو الإعراض :

ـ التناسي كما في قوله : ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ))[12] ، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي))[13] ، ((كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا))[14] ، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[15] .

ـ والتغافل والغمرة[16] كما في قوله : ((وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[17] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

---

(1) الجن : 1
(2) الزمر : من الآية 23
(3) الأنفال : من الآية 2
(4) الأنعام : 25
(5) محمد: 16
(6) الكهف : 101
(7) هود : 91
(8) الجمعة : 5
(9) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5840 في صحيح الجامع)
(10) الأنفال : 22، 23
(11) جامع المسائل لابن تيمية - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (1 / 130 ، 131)
(12) الأعراف : 53
(13) المؤمنون : 110
(14) طه : 126
(15) الفرقان : 18
(16) الغمرة أي الغفلة
(17) يونس : 92

بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ))[1] ، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[2] ، ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[3] .

ـ والتعامي كما في قوله تعالى : ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى))[4] ، ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ))[5] .

ـ والإعراض والصدف[6] : كما في قوله : ((وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ))[7] ، ((وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ))[8] ، ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي))[9] ، ((بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ))[10] ، ((وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا))[11] ، ((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا))[12] .

ـ التولي : كما قوله تعالى : ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[13] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[14] .

ـ وعدم التدبر : كما في قوله : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[15] ، ((أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ))[16] .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلا كانوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } وما يأتي هؤلاء المُشركينَ ، الذين يُكذِّبُونكَ ، شيءٌ من عندِ الله ِ يُذكِّرهُم بالدّين الحَقّ ، إلا أعْرَضُوا عن اسْتِمَاعِهِ وترَكوا إعْمَالَ الفِكرِ فيهِ ، ولمْ يُوَجّهُوا هَمّهُمْ إلى تدبُرِهِ))[17] ، وفي تفسير ابن كثير : (({ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } أي : لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينساك { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } [الأعراف : 51] فإن الجزاء من جنس العمل))[18] .

ـ القرآن هو أصل الدين :

ـ فأصل قضية الدين هو أن رجلا جاء إلى الناس وقال لهم لقد سمعت كلام الخالق وأنا مكلف بتبليغه إليكم ، وهذا الكلام هو القرآن ، فالقرآن هو أصل قضية الدين ، ومعرفة الإنسان بالغيبيات وأوامر الدين جاءت منه ، وبدون القرآن لا يعرف الإنسان شيئا وهو معذور بجهله غير محاسب ، ومن بلغه نزول كلام من الخالق إلى البشر ولم يمنعه شيء من معرفة كلام الخالق فقد قامت عليه الحجة .

ـ لذلك فالتغافل عن القرآن هو تغافل عن الدين .

ـ الشعور بخطورة وصول كلام من الخالق :

ـ كيف نتصور أن يصل إلينا كلام من الخالق من فوق سبع سماوات إلى البشر ؟ ، وهل ينزل بلغة البشر ؟ ،

---

(1) الأعراف : 146
(2) الكهف : 28
(3) المؤمنون : 63
(4) الرعد : 19
(5) الزخرف : 36
(6) الصدف معناه الإعراض
(7) الجن : 17
(8) الشعراء : 5
(9) طه : 124
(10) الأنبياء : 42
(11) طه : 99 ، 100
(12) الأنعام : 157
(13) النجم : 29
(14) لقمان : 7
(15) محمد : 24
(16) المؤمنون : 68
(17) أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 2819)
(18) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة (5 / 324)

وكيف ينزل هذه الكلام وكيف يمكن استقباله ؟ ، إنه أمر عظيم يشتاق إليه الإنسان ليعرف كلام الخالق وماذا يريد منا ؟ ، تخيل حال الناس بغير أن تنزل الكتب السماوية أو يأتي الرسل إنهم سوف يتمنون أن يرسل الخالق إليهم رسالة يعرفهم بمراده ويقسموا أنهم سيكونون في قمة الخضوع والشكر لذلك .

ـ إن القرآن هو رسالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فهو بين أيدينا الآن نقرأه في عالم الشهادة ، لو كان القرآن الذي بين أيدينا الآن هو كلام لرجل في عالم الغيب ينصحنا فيه ويعرفنا بما يكون من أمر الآخرة لكان له شأنا عظيما ، فما بالك وهو كلام الخالق وهو يخبرنا بما يكون من أمر المستقبل في الآخرة .

ـ تصور رسالة نزلت إلينا من السماء مكتوب فيها : " من الله تعالى إلى الناس ......" مثلا فكيف تشعر بكلام الله وكيف تتعامل مع كلام الله من العظمة ؟ ، فإن إنزال القرآن من عند الله ليس أمر عادي وإنما يدعو إلى الشعور بالانبهار والوجل والتعظيم .

ـ إنك إذا نظرت إلى ساحر مثلا فيأخذك العجب وتتفاعل مشاعرك بما يصنع ، فماذا لو كان سحره هذا حقيقة ؟ ، فما بالك والقرآن أعظم معجزة فهو أعظم من معجزات كل الأنبياء ، فهل تنظر إلى القرآن بين يديك علي أنه معجزة فتتفاعل مشاعرك بما فيه من إعجاز ؟ .

ـ إذن فالشعور بوصول كلام من الخالق يعني الشعور بخوف المهابة والحب لأن الإنسان يحب الشيء العظيم القيمة الهام .

ـ ولكنك تجد أن القرآن نزل علي الإنسان فلم يتأثر به في حين لو نزل القرآن علي جبل لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ : ((لوْ أنْزَلْنَا هَذَا القرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ))[1] ، وما أكثر ما ورد عن الصحابة والتابعين عن تأثرهم بالقرآن لمجرد أنهم شعروا أنه كلام الخالق العظيم سبحانه إلى العبيد من البشر .

ـ إن الذي يحمل مصحفا ولا يدري مدى خطورة ما يحمل وقيمته وما يعنيه من الأهمية وبالتالي لا يعمل بما فيه هو كالحمار : ففي تفسير ابن كثير : ((يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا أي كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملا حسيا لا يدري ما عليه وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالا من الحمير لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)))[2] .

ـ تخيل لو أن هناك كنز عظيم جدا يطمح إليه كل الناس لكن لا أحد يعرف مكانه بالضبط وكيفية الوصول إليه ، فإذا وجدت خريطة مكتوب فيها مكان الكنز وكيفية الوصول إليه كيف يكون فرحك وحبك لمدى أهمية وخطورة هذه الخريطة ، إن هذا الكنز حقيقي فعلا وأعظم من كل الكنوز التي يتخيلها الإنسان وهو الجنة وهذه الخريطة هي القرآن ، أو تخيل لو أن هناك كارثة متوقعة سوف تهلك الناس ولا أحد يعرف كيفية الخلاص فإذا وجدت خريطة مكتوب فيها كيفية الخلاص من هذه الكارثة فكيف يكون فرحك وحبك لهذه الخريطة ، إن هذه الكارثة حقيقية فعلا وهي النار ، وهذه الخريطة هي القرآن ، أو تخيل أننا نعيش من غير رسل فلا أحد يدرى ما سر الحياة وما سر الأشياء ولماذا خلقنا ثم عثرت على مخطوطة قديمة تكشف لنا هذه الأسرار فكيف يكون فرحك بها وحبك لها ، إن هذه المخطوطة هي القرآن ، فلابد أن تشعر بالرهبة من عظمة كلام الملك والشوق لسماع كلامه : ((اللهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكرِ اللهِ))[3] ، ((إنمَا المُؤْمِنُونَ الذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ

---

(1) الحشر : من الآية 21
(2) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 8 ، ص : 117)
(3) الزمر : من الآية 23

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ))[1] ، ((وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً))[2] .

ـ إذا ألقى أحد الرؤساء أو الزعماء أو القادة خطبة فإنك تجد اهتمام الناس والإعلام بكلام وتصريحات الرؤساء والزعماء وتحليل أقوالهم ، وذلك لأنه طالما أن الكلام صادر عن مسئول كبير أو عن عظيم فكلامه مهم وعظيم يهتم به الناس ، وإذا أهمل الناس وتجاهلوا كلام زعيم من الزعماء فهذا يعني أن ذلك الزعيم ليس ذو أهمية في نظرهم ، إذن عظمة الكلام تأتي من عظمة قائلها ، فالقرآن هو خطاب الله إلى البشر ، ودعوة الرسل هي إخبار الناس بوصول هذا الخطاب إليهم ، فإذا كنت لا تشعر بقدر وعظمة القرآن ، فإن القرآن في مشاعرك هو كلام عادي مثل كلام أي شخص عادي ، وإن كان في الاقتناع النظري هو كلام الله العظيم وهو القرآن العظيم ، وهذا هو الفرق بين الاقتناع النظري والشعور بقدر القرآن .

ـ إذا جاء إليك طفل من أولادك وتحدث إليك في موضوع ما ، فأنت تشعر أن الطفل وكلامه ليس له قيمة ، ولكن إذا جاء إليك مديرك في العمل وتحدث إليك في أمر ينبني عليه ترقيتك إن أديته أو فصلك من العمل إن فشلت فيه ، فأنت تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام ، فإذا لم تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام فكأنك مجنون كأنك لا تعرف أن المتكلم هو مديرك في العمل وكأنك لم تسمع كلامه ، فلا قيمة للسماع عندئذ ، فمعرفتك بأن هذا الرجل هو مديرك في العمل وبأن هذا الموضوع خطير هي معرفة نظرية فقط .

ـ فالله يدعو الناس إلى دار السلام ، فإذا لم يشعر الإنسان بقدر الكلام ولا بقدر المتكلم فأصبح سماع الكلام لا قيمة له في شعوره فكأنه لا يعرف الله وكأنه لم يسمع كلامه .

ـ وكذلك الرسل تدعو الناس إلى الله ، فإذا لم يشعر الإنسان بقدر الكلام وخطورته ولا بقدر المتكلم فأصبح سماع الكلام لا قيمة له في شعوره فكأنه لا يعرف الرسل وكأنه لم يسمع كلامهم .

ـ عندما تقرأ القرآن لابد أن تشعر بأن هناك متحدث ومخاطب وخطاب ، المتحدث هو الله سبحانه الله يكلمك أنت ، والمخاطب هو أنت ، وهذا الخطاب موجه إليك من فوق سبع سماوات ، وإلا فأنت لا تشعر بمَنْ هو قائل هذا الكلام ولمَنْ يقوله ، فلابد أن تشعر بالمتكلم (الله سبحانه) وتشعر بالمخاطب وهو أنت أو الناس ، فيكون هذا صلة مادية محسوسة تزيد من شعورك بوجود الله وصفاته .

ـ من المشاعر الناشئة عن الشعور بقدر القرآن :

1ـ الشعور بخوف المهابة والرهبة والوجل والتعظيم لأن عظمته من عظمة الله .

2ـ حب القرآن : الشعور بحب القرآن لأنه عظيم القدر من عظمة الله سبحانه ، ولأن القرآن هو كلام وصل إليك من حبيبك فأنت تحبه ، ولأنه يدلك على طريق الهداية ، فلو أن إنسان دلك علي طريق مضمونة تكسب بها مليون جنيه ! ، بماذا كنت تشعر حينئذ ؟ ، إنك كنت ستحبه حبا جما ويكون عندك ذو قدر عظيم ، فما بـ الك والقرآن قد دلك علي طريق السعادة الأبدية في جنات النعيم ودلك علي طريق النجاة من نار الجحيم : ((وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[3] ، فالقرآن مليء بضرب الأمثال والإيضاحات لتحقيق مراد الله من الناس ، وذلك رحمة من الله بالناس ، بل إن الله قد أخبر الناس بما سيحدث في الآخرة ، وأوضح لهم كل العقبات التي يمكن تعوق تحقيقهم لمراد الله حتى العقبات التي في داخل أنفسهم ، فأقام عليهم الحجة دامغة .

2ـ الشعور بالراحة والسعادة والاطمئنان عند ذكره كما يشعر المحب عند ذكر المحبوب : ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ إِلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))[4] .

****

---

(1) الأنفال : من الآية 2
(2) الإسراء : من الآية 59
(3) الشورى : من الآية 52
(4) الرعد : 28

ـ ثالثا : تناسي حقيقة اليقين بالرسل

ـ اليقين بالرسل نقصد به الجانب الغيبي أي اليقين بنزول الوحي عليهم ، واليقين الحقيقي بالرسل هو الشعور بخطورة إرسال الوحي إلى بعض البشر .

ـ دعوة الرسل تأمر بالخضوع ، والإنسان يتناسى دعوة الرسل حتى لا يخضع .

ـ الشعور بخطورة معني (رسول الله) :

ـ عندما يعلم الناس بكسوف الشمس فإنهم يجتمعون ويرصدون الأمر بالكاميرات ، فماذا لو علم الناس بنزول الوحي من السماء وأنهم سيرونه بأعينهم وهو ينزل من السماء إلى الأرض برسالة الله إلى البشر ؟ ، إن هذا ا لأمر حدثَ على وجه الحقيقة ولكن الفرق الوحيد هو أن البشر لم يروا الوحي وهو ينزل إلى البشر ليستلموا منه رسالة الله ، فيستلمها نيابة عن الناس أحدهم فيكون مكلفا بإبلاغ رسالة الله إلى الناس .

ـ فعندما يأتي أحد الناس فيخبرهم بأن رسولا أرسله الله إليه (الوحي) حاملا رسالة الله إلى الناس فمنهم من ينكر ذلك بلسانه ومشاعره ، ومنهم من ينكر ذلك بمشاعره فقط فلا يشعر بأهمية وخطورة ذلك الأمر ولا يشعر بخوف المهابة من عظمته ويتناساه كأنه لم يكن ، فهو بذلك يقول بمشاعره : ((مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ))[1] رغم أنه على يقين نظري تام بصدق دعوة الرسل .

ـ إن الرسول هو الذي ينقل رسالة من شخص إلى شخص ، ورسول الله أي الذي ينقل رسالة من الله إلى الناس ، وهذا يعني أن يشعر الإنسان بوصول رسالة من عالم الغيب إلى أحد البشر ليكون بذلك رسولا إلى الناس ، فإذا لم يشعر الإنسان بتلك الصلة بين أحد البشر وبين الغيب فإن الرسول في مشاعره سوف يكون رجل عادي أتى برسالة عادية من شخص عادي ، وإن كان في الاقتناع النظري هو رسول الله أتى برسالة عظيمة من العظيم سبحانه ، وهذا هو الفرق بين الاقتناع النظري والشعور بقدر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ـ إن إنزال الوحي من السماء من عالم الغيب إلى واحد من البشر في عالم الشهادة أمر عجيب ويحتاج إلى تصور وشعور ، فمثلا لو قال أحد رواد الفضاء أنه وصلته رسالة من كائنات فضائية علي كوكب لنجم آخر في السماء فلابد أن يحدث العجب والانبهار ، فالشعور بقدر كلمة (رسول الله) يعني الشعور بكيفية وصول رسالة من أحد لا نراه وليس من البشر ، وليس الأمر فقط كذلك بل إنه من الخالق العظيم ومن فوق سبع سماوات تنزل رسالة إلى واحد من سكان الكرة الأرضية (تلك الهباءة المعلقة في الفضاء) ليبلغ رسالة الخالق العظيم إلى العبيد .

ـ إن الذي خلق الإنسان وكل هذا الكون لا يمكن أن يتركهم دون يعرفهم بمَنْ هو ولماذا خلقهم ، ولكي يعرفهم بذلك ، فإما أن يكلم هو الناس فيسمعه كل الخلق ، فبماذا يشعر الناس عندئذ ؟ ، إنه شعور رهيب ، أو يُنزل إليهم أحدا من الملائكة فينزل من عند الله ويهبط إلى الناس من السماء فيخبرهم ، وتصور ذلك عندما ينزل إلى الناس ملك من الملائكة يمشي بين الناس ويكلمهم وهو علي هيئته الهائلة المرعبة ويراه الناس ويكلمونه ويرد عليهم ، ويخبرهم أنه جاءهم من عند الله ، بماذا يشعر الناس عندئذ ؟ ، إنه أيضا شعور رهيب ، إن ذلك يزيد من شعورهم بالله أي يزيد من شعورهم بوجوده وصفاته لأن أمامهم مَنْ جاء إليهم من عنده ، ومن رحمة الله أنه أنزل الوحي على بعض البشر ليكونوا رسلا إلى الناس لأن الناس لو رأوا ملك من الملا ئكة لصعقوا من خوف المهابة .

ـ تصور أنه يأتي إليك رجل فيقول لك : أنا قدمت الآن من كندا (مثلا) وكنت مع أخيك في السفر ، وهو بخير ويخبرك بكذا وكذا ، إن هذا الرجل هو رسول لك من عند أخيك ، فكذلك فإن رجلا جاء إلى الناس

---

(1) المؤمنون : 24

وقال لهم إني رسولٌ إليكم من عند الله ، إن الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ لم ينزل من السماء إلا أنه يستطيع أن يستقبل الرسائل (الوحي) من عند الله ، فينزل الوحي من عند الله حاملا الرسالة إلى الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ، فإن جبريل هو رسول بين الله ومحمد صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ .

ـ مما سبق يتبين ماذا يعني أن يكون هناك رسول من عند الله إلى الناس فتشعر بوجود صلة محسوسة تربط بين الناس وبين الله فتشعر بمَنْ أرسله إليك فتخضع له وتخضع لأمره .

ـ الشعور بقدر الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ وحبه :

ـ الرسول يأخذ قدره من قدر من أرسله ، ويأخذ حبه من حب مَنْ أرسله ، فإذا جاءك من حبيب فأنت تحبه وتكرمه وتحتفي به ، وإذا جاءك من عدو فأنت تكرهه ، والرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ جاءك من عند مَنْ تحب ، فهو ليس رسولا يأتيك برسالة من أي شخص في الدنيا ولو كان ملكا ، إنه يأتيك برسالة من عند ملك الملوك ، ولابد أن تعرف قدر الله سبحانه وعظمته وقدرته أولا فتشعر بعظمة الرسول ليس لذاته ولكن لكونه رسولا للعظيم سبحانه .

ـ الذي يدلك على طريق الكنز أو ينبهك من خطر يهلكك ويدلك على طريق النجاة منه فكأنما هو يعطيك هذا الكنز أو كأنما هو ينجيك من هذا الخطر لأنه إذا لم يدلك على طريق الكنز لم تحصل عليه وإذا لم ينبهك للخطر ويدلك على طريق الهرب والمفر منه وقعت في هذا الخطر ، فأنت تحب الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ في الله لأنه يدلك على طريق الجنة والنجاة من النار ولأنه أفضل الناس إيمانا ، فأنت تحبه حتى يكون أحب إليك من نفسك ومالك ففي الحديث : ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَى أَكُونَ أَحَبّ إليه مِنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَالنَاسِ أَجْمَعِينَ))[1] .

ـ إن مغالاة بعض الناس في حب الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ وتقديره خطر عظيم ، ولكن الأخطر أن البعض لا تجد عندهم شعور حقيقي بحب الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ وتقديره ، وإن كانوا على اقتناع نظري تام بقدر الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ .

ـ إن الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ليس مجرد مرسال أو ناقل لتوصيل القرآن وإن كان في ذلك شرف كبير ومنزلة كبيرة للرسول توجب محبته ، فإن حياة الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ نفسها هي رسالة مثل أن القرآن رسالة ، فالرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ مشرع وعبارة عن رسالة عملية إلى الناس ولكن في صورة بشر ولم ينزل الله ملكا حتى يكون الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ نموذج عملي بشري تطبيقي بلغة الناس ولسان الناس وإمكانياتهم ، وهذا يعني حبه وتقديره : ((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ))[2] ، ((يَا أَيُهَا النَاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً))[3] .

ـ أثر اليقين الحقيقي بالرسل :

ـ حب الرسول حبا حقيقيا ، فالحب فيه شوق ولذة وارتياح وإعجاب ، حبه لأنه يحمل إليك رسالة ممن تحب ، وحبه لأنه يرشدك إلى ما فيه النفع لك وسعادتك ، وحبه لإيمانه وتقواه ، وحبه لأن الله أمر بحبه ، فمن أمر الله بحبه فذلك كافي لأنه يستحق الحب .

2ـ اتخاذ الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ مثلا أعلى والإقتداء به والعمل بما جاء به .

3ـ الشوق إلى لقاءه ، فالذي يشعر بقدر الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ يشعر بالاشتياق للقائه قريبا على الحوض وفي الجنة إن شاء الله تعالى .

****

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 8 ، ص : 115 ، برقم : 5014)
(2) المائدة : من الآية 15
(3) النساء : 174

الفصل التاسع

تناسي ضعف الإنسان

ـ ضعف الإنسان يدل على الخضوع ويوجب على الإنسان الخضوع .

ـ التناقض بين ظاهر الشهوات وحقيقتها :

ـ شهوة الطعام والشراب وشهوة الجماع هي في حد ذاتها ضئيلة لأن قدرة الإنسان على الانتفاع بها ضئيل جدا ، وجعل الله للشهوات زينة خادعة تجعل الإنسان يظنها شهوات عظيمة ، فالذي ينظر إلى الشهوات وضخامتها ويتناسى أن قدرته عليها محدودة هو لا يعقل وهو مغرور بالشهوات ولن يستطيع أن يحصل منها فوق طاقته المحدودة ، فالذي يسعى للشهوات لن يجنى شيئا فوق طاقته .

ـ وجعل الله في الإنسان رغبة شديدة تدفعه لكي يأكل ويشرب ويتناسل حتى لا يموت وحتى تستمر الذرية ، فالإنسان أمامه رغبة هائلة وشهوات تبدو هائلة وقدرة محدودة ، فمن عقل ذلك لم يجري وراء الشهوات .

ـ فالجائع الجاهل يخيل إليه أنه يستطيع أن يتلذذ بألوان الطعام ، فإذا أكل لا يجد لذة بعد شبعه ، وهذه اللذة للجائع تتم ولو بالخبز ، وكذلك الذي يريد شهوة الجماع ، فشهوة الطعام ليست إلا ملئ البطن ولو بـ الخبز وشهوة الجماع ليست إلا إخراج المني .

ـ ورغبة الإنسان للطعام والجماع تذهب وتنطفئ ثم تعود ، فالجائع إذا أكل شبع ولا يحتاج لطعام فترة ، ثم بعد فترة طويلة يعود فيجوع فإذا أكل شبع ، وكذلك الجماع ، وهذا أيضا يدل على أن قدرة الإنسان محدودة .

ـ أما في الجنة فقدرة الإنسان لا حد لها .

ـ الدنيا مثل لعبة الكراسي الموسيقية ، في المنتصف يوضع الشهوات والمناصب والأموال ، والناس يدورون حولها كأنهم يطوفون حولها ، كل واحد يريد أن يأخذ من هذه الكومة الموضوعة في المنتصف ، ولكن العاقل ينظر إلى هذه الكومة فيراها كومة من الطين فلا يدور معهم .

ـ حقيقة قدرة الإنسان على الشهوات قليلة ومحدودة ، وما أباحه الله للإنسان من الشهوات الحلال يكفي لكي يسد هذه الحاجة للشهوات عند الإنسان ، فمن أراد الاستزادة من الشهوات بأن أقبل على الشهوات الحرام فقد أسرف وهو غبي لأنه لن يجنى فوق قدرته التي خلقه الله بها ، فمن أكل فوق طاقته أو تعدى إلى الزنا والشهوات الحرام أو أفرط في الجماع أو أفرط في تحصيل رفاهيات الحياة فقد أسرف ، فما يحتاجه ا لإنسان لا يزيد عن مكان آمن يبيت فيه وأن يكون معافى وعنده قوت يومه والاستزادة لا تفيده في شيء لمن يعقل وربما تضره ، وكذلك الاستزادة من الطعام أو الجماع تضره ، والاستزادة من الشهوات الحلال فوق الطاقة تضره ، فإذا كانت قضية الإنسان في حياته هي الاستزادة من الشهوات فهو غافل عن حقيقة ضآلة قدرته على الشهوات وغافل عن آيات الله التي تدل على ضآلة الإنسان أمام عظمة الله وضآلة الشهوات أمام شهوات الجنة وخطورة العقوبات على الشهوات الحرام ، فهو أسرف لأنه غافل عن آيات الله تعالى ، ففي التفسير الواضح : (({ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ } [طه: 127] ومثل ذلك نجزى من أسرف على نفسه ، وانهمك في الشهوات والبعد عن آيات القرآن ولم يؤمن بها الإيمان الصحيح))[1] .

(1) التفسير الواضح ـ دار الجيل الجديد - بيروت (2 / 511)



ـ وبدل أن يشكر الإنسان الله أن أذن له أن يأكل ويقضي شهوته بالحلال وأعطاه النعم يتنعم بها فإنه يكفر بنعمة الله تعالى حيث يستصغرها ويرجو الاستزادة .

ـ أراد الله أن تكون الدنيا والشهوات على عكس حقيقتها ، فيكون لها ظاهر يوحي بأنها متع هائلة في حين حقيقة ما فيها من المتع ضئيل ، وذلك للاختبار فمن استعمل عقله نظر إلى حقيقتها فلم ينخدع بها ، ومن عطل عقله وتناسى حقيقتها انخدع بها وغرته بزينتها الظاهرية الواهية ثم لا يجد فيها متاعا .

ـ تناسي حقيقة ضعف الإنسان :

ـ الإنسان ضئيل القيمة أوله نطفة مذرة (أي نطفة لا قيمة لها ولا حياة فيها) وآخره جيفة قذرة ، وهو بين ذلك يحمل العذرة (أي يحمل في أمعاءه البراز النتن أثناء حياته) ، ((كما ورد أن بعض الأمراء لقي بعض البله في طريق فلم يفسح له ، فغضب وقال : كأنك ما تعرفني ؟ فقال بلى والله ! إني لأعرفك ، أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة))[1] ، ((فتفكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين فلو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ ، فقال له الرشيد : بملكي كله ، قال : يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدي من ذلك ؟ ، قال : بملكي كله ، قال ؟ يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء !))[2] ، ويقول الشاعر : نسي الطين يوما أنه طينا ...... فصال تيها وعربدا .

ـ فالإنسان ضعيف : ((أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أنا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ))[3] ، ((هَلْ أَتى عَلَى الإ نسان حينٌ مِنَ الدّهْرِ لمْ يَكُنْ شيئا مَذْكُوراً))[4] ، ومما يدل على ضعف الإنسان أنه ينام فذلك من صفات النقص .

ـ والإنسان له قدرة محدودة على التمتع بملذات الدنيا ، فمثلا لو أكثر من الطعام والشراب أو الجماع لقلت متعته .

ـ ومن عرف ضآلة نفسه وضآلة الدنيا فقد عرف عظمة الله وعرف خطورة الآخرة ، وفي نظم الدرر للبقاعي : ((رأس الفسق الجهل بـالله ، ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس ، فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه « من عرف نفسه فقد عرف ربه »))[5] .

ـ فالإنسان ضعيف في حد ذاته ، فقليل من المرض يمكن أن يقضي عليه أو يجعله يعيش حياته يعاني من الإ مراض ، والإنسان يحتاج إلى الهواء والطعام والشراب والنوم لأنه بغير ذلك يضعف ويموت ، كما أنه يكون ضعيفا في مرحلة الطفولة وفي مرحلة الشيخوخة ، والإنسان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو أن يمنع نفسه من الابتلاءات والمحن ، فهو يعيش حياته لا يدري ما يصنع به ، أما الخالق سبحانه فلا ينام ولا يحتاج إلى طعام أو شراب ولا يحتاج إلى من يعينه سبحانه ، وذلك قدرة كبيرة لا يستطيعها الإنسان مهما حاول ، ولكن الإنسان يتناسى ذلك ويعيش مغرورا بنفسه وبزينة الدنيا الخادعة ومغرورا بستر الله عليه .

ـ الشهوات ذات متعة ضئيلة لسببين :

1ـ بالمقارنة بشهوات ومتع الجنة فتصبح هذه الشهوات مجرد اسم فقط وليست بشهوات .

2ـ هي في حد ذاتها ضئيلة لأن قدرة الإنسان على الانتفاع بها ضئيل ، وهذه الشهوات مزينة بمظهر خادع جدا بحيث تبدو للناظر على أنها لها متعة هائلة وبالتالي كأن لها قيمة كبيرة ، ولكن إذا كان الإنسان عاقلا ذو بصيرة فإنه يراها على حقيقتها .

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (ج : 6 ، ص : 35)
(2) الأخلاق والسير ـ دار الآفاق الجديدة - بيروت (ج : 1 ، ص : 8)
(3) يـس : 77
(4) الإنسان : 1
(5) نظم الدرر للبقاعي ـ دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (ج : 19 ، ص : 460)

ـ اليقين الحقيقي بضآلة الدنيا :

ـ الإنسان الذي يرى الشهوات ذات متعة كبيرة فينظر لها نظرة انبهار ومهابة وتعظيم وحب ، في حين أنه لا يشعر بقيمة متع الجنة ، فهو إنسان لا يعقل .

ـ الشيطان يزين للإنسان الشهوات أو المظاهر أو المال أو غير ذلك من أمور الدنيا على أنه شجرة الخلد وملك لا يبلى !! : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[1] ، فمثلا المال ليس له عظمة أو قدر كبير ، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن للمال قدر كبير وأهمية وخطورة هائلة ، وأن المال هو الذي تستطيع به شراء كل شيء وشراء سعادتك وفيه كل النفع لك فبه تحيا ومن غيره تموت ، فيصنع للمال عظمة وهمية ، فيشعر الإنسان بعظمة المال ويتعلق قلبه بالمال .

ـ والدنيا مثل النار ، والناس مثل الفراش ، والنار تبدو مضيئة جميلة فيقترب منها الفراش حتى يقعوا فيها فيموتوا ، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشد الناس بعيدا عنها وينذرهم وهم يقعون فيها ، ففي الحديث : ((مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[2] .

ـ فالدنيا في ظاهرها حلوة لكنها في حقيقتها لا تساوى شيئا ، ففي الحديث : ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء))[3] ، وفي حديث آخر : ((ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع))[4] .

ـ فالشهوات ضئيلة القيمة ولكنها مغلفة بغلاف خادع يجعلها تبدو أنها عظيمة القيمة جدا وبذلك تجذب الناس لها فيقعون فيها وحينئذ لا يجدوا غير متع ضئيلة القيمة .

ـ فالدنيا لا قيمة لها ولكنها مزينة بغطاء خادع فتبدو في منتهى الأهمية وذات قيمة عظيمة جدا ، والغيبيات عكس ذلك ، فهي أمور لا نراها وهي من أخطر ما يمكن ، فالإنسان الذي ليس لديه شعور بقيمة وحقيقة الأشياء يكون مخدوعا جدا بالدنيا ولا يرى الآخرة ذات قيمة ، فهذا الإنسان كالسكران أو الميت ، وهذا الإنسان إذا تفكر بحضور قلب اكتشف المفاجئة المذهلة .

ـ فلو عرض عليك إنسان أن تشتري جدي بدرهم واحد فقط ولكن المشكلة أن هذا الجدي ميت فهل توافق ؟ ، طبعا لا لأن هذا الجدي ميت فلا قيمة له ولا فائدة منه فلا تعبأ به لأنه لا قيمة له ولا تتفاعل مشاعرك وهمومك وأهدافك به ، وهذا ما علمه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه ففي الحديث عن جابر بن عبد الله : ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في السوق داخلا من بعض العالية والناس كنفيه فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ ، فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ، قال أتحبون أنه لكم ؟ ، قالوا : لا ، قال ذلك لهم ثلاثا فقالوا لا والله لو كان حيا لكان عيبا فيه أنه أسك ـ والأسك الذي ليس له أذنان ـ فكيف وهو ميت قال فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم))[5] .

ـ فالشهوة لها بريق خادع جدا يصعب على أي إنسان أن يقاومها إلا من أعمل عقله فنظر في حقيقتها ومآلها في الآخرة فانتصر في هذا الاختبار ، فالانتصار على الشهوات هو الجهاد الحقيقي الذي هو أصعب من الجهاد في ميدان القتال .

****

ـ الشعور بضآلة شهوات الدنيا في حد ذاتها

---

(1) طـه : 120
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5858 في صحيح الجامع)
(3) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3240)
(4) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1376 ، برقم : 4108)
(5) قال الشيخ الألباني : صحـيح (الأدب المفرد ج : 1 ، ص : 334 ، برقم : 962)

ـ شهوات الدنيا لها مرحلتان هما :

ـ أولا : مرحلة ما قبل الوصول إلى شهوات الدنيا (شهوة الإغراء والأماني ـ مرحلة التزيين) :

ـ هناك مرحلة قبل الشهوة وهي مرحلة هيجان الشهوة (الزينة الخادعة) ، وهي أخطر من الوقوع في الشهوات ذاتها ، وإذا لم يستخدم الإنسان عقله عند هيجان الشهوة ليتذكر حقيقة ضآلتها فإنه سوف يقع في الشهوات ، وإذا استخدم عقله فسوف ينطفئ هذا الهيجان .

ـ فالشهوات عبارة عن قصر هائل جدا ، تنظر إليه فتراه فخما وهائلا ، ولكن إذا دخلته تكتشف أنه من الخارج فقط فخما لكنه من الداخل عبارة عن مزبلة ، فالشهوات عبارة عن مزبلة أحاطوها بأسوار عالية مثل أسوار القصر الهائل ، والجاهل كلما نظر إلى القصر انخدع به ، فالجائع الذي ينظر إلى ألوان الطعام مخدوع وصورة الطعام عنده كبيرة جدا لكن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا أكل ما يسد جوفه ولو كان خبزا لأدرك حقيقة الطعام ، والذي ينظر إلى العورات مخدوع بصورة الجماع فتبدو في نظره هائلة جدا في حين حقيقة اللذة في الجماع ضئيلة وواحدة تقريبا بين جميع النساء ، وما لذة الجماع إلا مسألة خروج المني ، والفقير الذي ينظر إلى أصحاب الأموال مخدوع بصورة المال التي تبدو في نظره هائلة ، وما حقق المال سعادة لأحد ، ف السعادة النفسية قلما تجدها عند الأغنياء ، والإنسان الذي ليس معه مكانة اجتماعية أو شهادة علمية أو منصب أو جاه ، ينظر إلى أصحاب المناصب والجاه والمكانة على أنهم هم السعداء وما هم بسعداء .

ـ والإنسان العاقل لكي لا تشغله الشهوات فإنه يسدها بالحلال وبغير إسراف ، فشهوة الجوع تنطفئ إذا أكل لقيمات وشهوة الجماع تنطفئ إذا أتى أهله ، فالشهوة مثل الكلب الذي يلاحق الإنسان فإذا ظل يقذفه بـ الطوب شغله ذلك ، فإذا ألقى له لقيمات انصرف عنه الكلب .

ـ حال الإنسان أثناء هيجان الشهوة أو أثناء الجوع أو أثناء الفقر والحرمان يختلف عن حاله بعد الشهوة أو في غير وقت الشهوة ويختلف عن حاله وقت الشبع ويختلف عن حاله في وقت الغنى ، فقيمة الشهوة أو الطعام أو المال عند غيابها تكون كبيرة جدا في نظر الإنسان ولا يعرف قيمتها الحقيقية الضئيلة إلا بعد تحققها ، وفي الحالتين سواء عند وجود الدنيا أو عند غيابها يتناسى الإنسان حقيقة ضآلة الدنيا وأنها لعب ولهو ، ويتناسى أن الأصل أنه فقير وضعيف ولا يملك شيئا وليس له حق في أن يمتلك شيئا من أمور الدنيا أو شهواتها ولو قطرة ماء ولو هواء يتنفسه ، فالله وحده المالك وله كل شيء وما يصل للإنسان من نعم هو محض فضل وتكرم وإنعام بغير استحقاق للإنسان ، ويخدع الإنسان نفسه فيحسب أن الأصل أنه يملك ، فعندما يملك شيئا من الدنيا يحسب أنه ملكه ويغتر به وعندما لا يمتلك يحسب أنه مظلوم وانه قد أعتدي عليه .

ـ فيحدث تزيين حيث يكون هناك تصور وهمي لمدى عظمة هذه الشهوات ، وإذا كان قد حقق هذه الشهوات من قبل فإنه يتناسى ذلك ، لأن الإنسان يشعر بحقيقة ضآلة الشهوات بعد تحقيقها ثم يتناسى ذلك .

ـ وهذه المرحلة فيها متعة وهمية معنوية وليست حسية هي متعة الإغراء ومتعة الإيحاء وهي المتعة التي تسبق الوقوع في شهوات الدنيا ، وهي متعة تجعل الشيء يبدو كأنه كبير في متعته ، وهي تحدث في فترة ما قبل الشهوة حيث يكون الإنسان تحت تأثير هيجان الشهوة وليس عقله ثم يفيق لحقيقة هذه الشهوة في فترة ما بعد الشهوة .

ـ شهوات الدنيا كشهوة النساء أو شهوة الطعام والشراب أو شهوة المظاهر ...الخ لها إغراء وتزيين يوحي بأنها متعة هائلة ويوحي بأن الإنسان يمكن أن يستزيد منها بصورة هائلة في حين حقيقة المتعة الفعلية المتحصلة منها قليلة ولا يمكن تكبيرها أو الاستزادة منها ، لذلك فالقضية في الأصل ليست في الوقوع في ذات الشهوة ولكن في الإغراء والتزيين بحيث تبدوا في النفس أنها ذات قدر كبير وهائل وأن الإنسان إذا حصل عليها فقد حصل على المتعة الهائلة ، هذا التزيين هو تكبير حجم قيمة المتعة الحقيقية أضعاف هائلة ، ويقوم بهذا التزيين الشيطان والأغاني والأفلام التي تعظم من حجم الشهوات وغير ذلك ، وحيلة

التزيين هي التي عملها إبليس مع آدم : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[1] رغم أنها شجرة عادية مثل باقي الأشجار ، كما تلاحظ أن طاقة الإنسان على متعة الطعام أو الجماع محدودة ولكن الشيطان يزين له أنه يستطيع أن يحصل على أضعاف مضاعفة من المتعة ، ومهما استزاد الإنسان من حجم الإغراء بالمتعة فهذا لن يزيد من حقيقة المتعة شيء ، لذلك قد يكون الإ غراء بالشهوة والنظر إلى العورات أشد خطرا من الوقع في الزنا ، لذلك فالشرع لا ينهى فقط عن الزنا ولكن ينهى أيضا عن مقدمات الزنا حتى ولو لم يقع الإنسان في الزنا : ((وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى))[2] .

ـ فشهوات الدنيا ضئيلة ولكنها تبدو كبيرة في ظاهرها ، وفي ذلك خداع كبير لمن ليست له بصيرة ، كما أن الشيطان يزينها في عين الإنسان كما يفعل الساحر حيث يسحر أعين الناس فتبدو الأمور على غير حقيقتها ، إذن التزيين هو تكبير وهمي لحجم الدنيا وقدر الإنسان ، أي هو رؤية الأشياء بحجم أكبر من قدرها الحقيقي فيخدع الإنسان نفسه ، فالإنسان إذا لم ينتبه إلى حقيقة الدنيا فيكتشف حقارتها ، فإنه ينخدع بمظهرها البراق وزينتها الجميلة ، كما أن الشيطان يزين له الدنيا فتكون نظرته إلى الدنيا كبيرة ، وتكون قيمة المال والشهوات في نظره عظيمة ، فيرى حجم السعادة المتحصلة من ذلك كبيرة ، فالشيطان يزين للإ نسان أن قيمة الشهوات من طعام وشراب ونساء وأموال وأولاد ومظاهر ومتع ...الخ يزين له ذلك على أنه ذو قيمة كبيرة جدا وأن فيه سعادة هائلة للإنسان ونفع كبير ، وكل شيء فيه معصية يزين الشيطان للإنسان أن فيه سعادة كبيرة وراحة ونفع كبير .

ـ فالعمى هو رؤية الأشياء على غير قدرها ، والبصيرة هي رؤية الأشياء على قدرها الحقيقي ، فمعنى الشعور بالقيمة أن يتكون عند الإنسان بصيرة يرى بها الأشياء على حقيقتها : ((إِنِ الكَافِرُونَ إلا فِي غُرُورٍ))[3] ، ((زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[4] ، ((أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[5] ، ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ))[6] .

ـ فمثلا الشيطان قد يزين للإنسان أن ما في يد غيره أفضل مما في يده ، ويزين أن ما يفعله غيره أفضل مما يفعله هو ولو كان ما يفعله غيره خطأ ، ويزين له أن الممنوع مرغوب وإن كان لا قيمة له ، ويجعله يتوهم المتعة في أشياء ضئيلة ، فالشيطان يغير من قيمة الشيء في نظر الإنسان ، فقد يجعل الشيء يبدو عظيم القيمة لمجرد أن الناس يقبلون عليه وهكذا .

ـ فقد لا يقع الإنسان في الشهوات ، لكنه يعيش حياته متمنيا لها قريبا منها يدور حولها وإن لم يقع فيها ، فهو ينشغل باله بالشهوات ويسمع عنها ويتكلم بها ، ويجد سعادته في الإغراء بها وتمنيها ، فهو قد لا يكون غنيا لكنه يتمنى أن يصل إلى الغنى ، وقد لا يكون ليس ذو منصب أو جاه لكنه يتمنى أن يكون ذو منصب وجاه ، وقد لا يصل إلى شهوة الفرج لكنه يتمناها وينظر للعورات ويستمع لكلام الشهوات ، أو قد يكون وقع في قليل من الشهوات السابقة لكنه يتمنى المزيد ، ويظل طول عمره يتمنى حتى يموت ، فإذا كان تعظيمه لهذه الأماني أكبر من تعظيمه لله ، وإذا كانت مشاعره متعلقة بهذه الأماني أكبر من تعلقها بالله فهو يعبد الأ ماني ، كما أن هذه الأماني تلهيه وتشغله عن معرفة الله تعالى : ((ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))[7] ، ((يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أمر اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الغَرُور))[8] ، ((ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَاليَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[9] ، ويموت الإنسان ولا يزال عنده تمني ففي الحديث : ((خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط في وسط الخط خطا ، وخط خارجا من الخط خطا ، وحول الذي في الوسط خطوطا ، فقال هذا بن آدم وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي

(1) طه : 120
(2) الإسراء : من الآية 32
(3) الملك : من الآية 20
(4) البقرة : من الآية 212
(5) محمد : 14
(6) فاطر : 5
(7) الحجر : 3
(8) الحديد : 14
(9) الجاثية : 35

في الوسط الإنسان ، وهذه الخطوط عروضه إن نجا من هذا ينهشه هذا ، والخط الخارج الأمل))[1] أي يموت ولا يزال عنده آمال لم تتحقق ، فيظل الشيطان يلهيه حتى يموت .

ـ وربما يعيش بعض الناس حياة القرب من شهوة الزنا ويدورون حولها من قريب أو بعيد دون أن يصلوا إليها ، وذلك لأن شهوة الإغراء بالزنا أكبر من شهوة الزنا لأن الشيطان يزين لهم ويعظم لهم قيمة الشهوات .

ـ والمؤمن يعيش في هذه الدنيا في مرحلة ما قبل تحقيق الشهوة ، ولكن الشهوة هنا هي شهوات الجنة ، فعنده شوق إلى الحور العين .

ـ ثانيا : مرحلة الحصول على شهوات الدنيا (مرحلة الإفاقة لكن مع التجاهل !) :

ـ هذه مرحلة الإفاقة حيث يعي الإنسان حقيقتها بعد أن يعاينها ، والمعاينة أكبر صورة للتصور ، ولكن قد يحدث هنا تجاهل وعدم تدبر لحقيقة هذه الشهوات بعد معاينتها ، لأنه لو تدبر قليلا فإنه يفيق إلى حقيقة ضآلتها ، بل إنه يتجاهل أنه قد حقق هذه الشهوات ويتصور أنه لا يزال لم يصل ويحتاج إلى المزيد منها لأنه لم يحققها ، فيظل يعيش في مرحلة ما قبل الوصول للشهوات حتى يموت .

ـ فمثلا الإنسان الجائع قد يكون عنده تزيين لمدى اللذة في ألوان الطعام والشراب ، ولكن بعد أن يأكل يجد أن القضية هي لقيمات تسد الجوف حيث أن طاقته لا تسمح بمزيد من الطعام وأن لذة الطعام تقل كلما أكل أكثر ، لكنه يتناسى ذلك فكلما جاع اشتهى ألوان الطعام سواء من حيث الكم أو الكيف ، وكذلك الإنسان قبل أن يقضي شهوته ، وكذلك الإنسان قبل أن يصبح غنيا أو قبل أن يحقق المنصب ، فيظل الإنسان دائما يشعر أنه لم يحقق شهوات الدنيا فهو دائما فقير ويحتاج إلى المظاهر ويحتاج لشهوات الطعام والشراب حتى بعد أن يحقق هذه الشهوات ، وفي الحديث : ((... ولو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له واديان لأحب أن يكون لهما ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب))[2] ، فهو دائما يعيش في مرحلة ما قبل الوصول للشهوات .

****

ـ شهوات الدنيا أربعة أنواع :

ـ هي شهوة إخراج المني (شهوة الفرج) وشهوة ملئ البطن وشهوة جمع المال والتنعم بوسائل الراحة وشهوة التعالي بهذه الشهوات على غيره من الناس .

ـ الإنسان يعيش من أجل هذه الشهوات ، أو يعيش في مرحلة ما قبل تحقيق هذه الشهوات ، فمنهم من يريد ذلك في الدنيا ، لأنه يرى أن هذه الشهوات في الدنيا ، فيعيشون في صراع من اجل هذه الشهوات ، ومنهم من يريد ذلك في الجنة ، لأنه يرى أن هذه الشهوات إنما هي في الجنة .

ـ ويتضح ضآلة شهوات الدنيا الأربعة في أربعة نواحي هي :

1ـ لأن شهوات الدنيا محدودة بحد لا تزيد عليه فالإنسان له قدرة محدودة لا يستطيع بعد هذا الحد الا ستزادة منها ، حيث يحدث الملل .
2ـ لأنها وقتية فبعد إشباع الشهوة تنتفي الشهوة سواء شهوة الطعام أو شهوة الجماع .
3ـ أنها تقل مع تقدم العمر أو ضعف الصحة .
4ـ أنها تزول بزوال الدنيا ، ووقت الدنيا محدود .
ـ وأهم من كل ذلك أنها بالمقارنة بشهوات الجنة فهي تساوي صفر .
ـ وفيما يلي نبين كيف يكون الشعور بضآلة شهوات الدنيا الأربعة في حد ذاتها كالتالي :

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 635 ، برقم 2454)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 1781)

ـ أولا : الشعور بضآلة شهوة المال فى حد ذاتها

ـ المقصود بشهوة المال التمتع بما يشترى بالمال مثل التمتع بمسكن مريح وسيارة فارهة وملبس وغير ذلك ، والمقصود به أيضا شهوة جمع المال وكنزه وعدم إنفاقه ولو على نفسه .

ـ التعامل الخاطئ مع المال :

ـ أولا : عمل العقل :
1ـ التصور الخاطئ لقيمة المال أنه يجلب السعادة ، فالإنسان لا يحتاج أكثر من لقمة تسد جوفه وملبس يستر عورته ومكان ينام فيه وما يزيد عن ذلك فهو توسع ليس ضروريا ، كما أن الإنسان مسافر مرتحل وليس مقيما في هذه الدنيا ، والمسافر إنما يقيم خيمة يسترح فيها ليكمل السفر .
ـ والتصور الخاطئ أن المال والرزق يأتي به الإنسان من كده وسعيه وليس رزقا من الله محدد لا يزيد ولا ينقص ، رغم أن الإنسان مطالب بالأخذ بالأسباب .
2ـ الشعور بالقيمة : ينظر إلى المال نظرة انبهار وإعجاب ، وينظر إلى أصحاب الثروات والغنى نظرة انبهار وإعجاب .
3ـ انشغال الهموم : يظل همه مشغول بجمع المال والحصول عليه فيكون ذلك هدفه ، ويكون عنده طول أمل في الحصول على المال .
ـ ثانيا : عمل المشاعر : يتعلق قلبه بالمال ، فيحبه حبا جما ، ويغضب ويحزن ويخاف على فواته .
ـ ثالثا : عمل الجوارح : يكون بخيلا ممسكا (في حين من يشعر بضآلة قيمة المال يكون زاهدا فيه) .

ـ إذن همه مشغول بالمال فعنده طول أمل في جمعه ويقينه بأن رزقه محدد ويأتيه من الله ضعيف أو غير موجود ، فهو يعبد المال ، ولن ينصلح حال الأمة إلا إذا تركت التعلق بالمال الذي أكل عقول الناس وقلوبهم ، ففي الحديث : ((صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل))[1] ، وفي حديث آخر : ((نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل))[2] ، ومعنى الحديث : ((وقال الطيبي : أراد باليقين تيقن أن الله هو الرزاق المتكفل للأرزاق (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) فمن تيقن هذه في الدنيا لم يبخل لأن البخيل إنما يمسك المال لطول الأمل وعدم التيقن))[3] ، وفي حديث آخر : ((إنّ لِكلّ أمّةٍ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةٌ أمتي المَالُ))[4] .

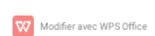
ـ وصعوبة الاختبار أن الإنسان مطالب بألا يكون هدفه جمع المال رغم الحب الفطري للمال فثمن الجنة غالي ، فمن انتصر على محبة المال فهو الفائز ، فالإنسان عنده حرص على المال وعنده طول أمل في جمعه ، ففي تفسير الخازن : (({ وتحبون المال حباً جمّاً } أي كثيراً ، والمعنى يحبون جمع المال ، ويولعون به وبحبه ، { كلا } أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ، من الحرص على جمع المال وحبه))[5] ، وفي الحديث : ((يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل))[6] .

ـ فالسعادة المادية في الدنيا ضئيلة وتتحقق بثلاثة أشياء هي ما جاء في الحديث : ((من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))[7] ، فالإنسان لا يحتاج من الدنيا سوى إلى ثلاثة أمور هي :

1ـ مكان ينام فيه : لأنه لو نام في الشارع لنام وهو قلق غير آمن فقد يدوسه شيء أو يؤذيه حيوان أو يسرقه سارق أو يضره التعرض للهواء المباشر ، لذلك يحتاج لمكان محاط بأسوار وسقف حتى يحميه فيستطيع النوم فيه ، ومهما توسع الإنسان في امتلاك القصور فلا تزيد وظيفة هذه القصور عن أنها مكانا

---

(1) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 3845 في صحيح الجامع)
(2) التخريج : حسن صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3340
(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير - المكتبة التجارية الكبرى - مصر (4 / 229)
(4) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2148 في صحيح الجامع)
(5) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 6 ، ص : 262)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 8173 في صحيح الجامع)
(7) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 6042 في صحيح الجامع)



ينام فيه آمنا .

2ـ لقمة يأكلها : لا يحتاج الإنسان من الطعام سوى لقيمات تسد جوفه ، ومهما توسع الإنسان في ألوان الطعام والشراب من الفواكه والأطعمة المختلفة فجميعها يتحول إلى براز يحمله الإنسان في بطنه وينزل إلى المجاري ، فلو زاد عن ذلك تعرض للأمراض ، وفي الحديث : ((إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[1] ، وفي حديث آخر : ((عن الضحاك بن سفيان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له يا ضحاك ما طعامك قال يا رسول الله اللحم واللبن ، قال ثم يصير إلى ماذا ؟ ، قال إلى ما قد علمت ، قال فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا))[2] ، فالمعدة عبارة عن خزان يمتلئ ليفرغ ويفرغ ليمتلئ ، وهذا ما يؤكده الحديث : ((ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه))[3] ، فالمعدة مجرد وعاء يملأه الإنسان ليفرغ ويفرغ ليمتلئ ، وهو أسوأ وعاء لأنه كلما امتلأ فرغ ما به وتحول إلى براز يحمله الإنسان في بطنه طوال ليله ونهاره ويخرج منه كأقذر شيء ! .

3ـ أن يكون غير مصاب بالأمراض التي تعيقه عن أن يعيش سويا .

ـ فهذا المستوى كافي لأن يعيش الإنسان سعيدا من الناحية المادية ، ولا يحتاج الإنسان أكثر من ذلك ، وفي الحديث : ((إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب))[4] ، والإنسان يتوهم أن الاستزادة و التوسع عن ذلك في وسائل الراحة يحقق له سعادة أكثر ، وفي الحقيقة كلما استزاد لا يشعر بسعادة أكثر ، وا لإنسان ما لم يقتنع بأن هذه الأمور الثلاثة كافية ليعيش سعيدا هو أضاع على نفسه الشعور بهذه السعادة ، لذلك سيظل يسعى طول عمره لمزيد من التوسع من أمور الدنيا ولن يجد السعادة ، لذلك ففي الحديث : ((منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا))[5] ، وفي حديث آخر : ((لو أن لابن آدم واديا من ذهب لا بتغى إليه ثانيا ، ولو أعطي ثانيا لابتغى إليه ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب))[6] ، وفي حديث آخر : ((إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بحقه بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى))[7] .

ـ ومما يبين ضآلة قيمة المال ما جاء في الحديث : ((عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال يقول ابن آدم مالي مالي ، قال وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت))[8] أي لا يحتاج من ماله إلا ما يأكله وما يلبسه وكلاهما يفنى ويترك الإنسان ماله ومسكنه وأهله بعد الموت فما نفعه ذلك بشيء .

ـ لو أن إنسانا جائعا وعريانا ولا يملك شيئا جاءته لقمة فإنه يحس بفضل كبير وسعادة كبيرة ومتعة كبيرة بهذه اللقمة ، ويحس بالشكر والفضل والتوقير لمن أعطاه هذه اللقمة ، وكذلك فالأصل أن الإنسان جائع وعريان ولا يملك شيئا ، وما عنده من طعام وملبس ومسكن جاءه من الله من غير أن يكون مستحقا لذلك ، فهو محض كرم وفضل ومنة من الله ، إذن لابد أولا من الشعور بأن الإنسان جائع وعريان ولا يملك شيئا وأن المالك لما عندك من مأكل ومشرب ومسكن ومال والمالك لكل شيء هو الله تعالى (راجع الشعور بأن الله هو المالك بالفصل الخامس) ففي الحديث القدسي : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[9] ، فمن شعر بأنه جائع وجاءته لقمة أو عطشان وجاءته شربة ماء قنع بها لأن ذلك بالنسبة له خيرا عظيما لم يكن يتوقعه ولم يكن يستحقه وكان محتاجا إليه وأن ذلك أفضل مما كان عليه بكثير ، لذلك فالشعور بالقناعة هي اعتراف بنعم الله فذلك شكر لله تعالي ففي الحديث : ((كن ورعا تكن أعبد الناس

---

(1) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم 2195)
(2) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ، ج : 2 ، برقم 2151)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 5674)
(4) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2384 في صحيح الجامع)
(5) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم 6624)
(6) التخريج : حسن صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 2 ، برقم 1716)
(7) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم 2250)
(8) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 3 ، برقم : 5169)
(9) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4345 في صحيح الجامع)

وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب))[1]،ا ومن هنا تعرف أن القناعة سعادة كبيرة لأنه شعور بـ الحصول على ما لم تكن تستحقه وما لم تكن تتوقعه وبمدى قيمة النعمة وفائدتها لك ولو كانت شربة ماء ، لذلك فالفقر الحقيقي هو انشغال الشعور بالاحتياج ، والغنى الحقيقي هو الشعور بعدم الاحتياج وعندئذ يستمتع الإنسان بما عنده ففي الحديث : ((ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس))[2] ، وفي حديث آخر : ((يا أبا ذر أترى أن كثرة المال هو الغنى إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب ، من كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا ، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا وإنما يضر نفسه شحها))[3] ، وفي حديث آخر : ((سأل موسى ربه .... قال فأي عبادك أغنى قال الذي يرضى بما يؤتى ، قال فأي عبادك أفقر قال صاحب منقوص ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس وإذا أراد الله بعبد خيرا جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه وإذا أراد الله بعبد شرا جعل فقره بين عينيه))[4] ، وفي حديث آخر : ((من كانت نيته الآخرة جعل الله تبارك وتعالى الغنى في قلبه وجمع له شمله ونزع الفقر من بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة فلا يصبح إلا غنيا ولا يمسي إلا غنيا ، ومن كانت نيته الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه فلا يصبح إلا فقيرا ولا يمسي إلا فقيرا))[5] ، وفي حديث آخر : ((من كانت الدنيا همته وسدمه ولها شخص وإياها ينوي جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته ولم يأته منها إلا ما كتب له منها ، ومن كانت الآخرة همته وسدمه ولها شخص وإياها ينوي جعل الله عز وجل الغنى في قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهي صاغرة))[6] .

ـ فمن الناس من تتوافر عندهم أسباب السعادة المادية ورغم ذلك يعيشون حياة الملل وعندهم مشاكل ؟!! ، والذين حققوا كل ألوان السعادة المادية عندهم اكتئاب نفسي وعندهم أكبر نسبة انتحار لأنهم أشبعوا الجسد ولم يشبعوا الروح ، ولأنهم لا يعقلون أنه شاء الله أن لا تكون الدنيا دار سعادة ، ولأن الدنيا منتهية فلا قيمة لما يحصده الإنسان من أمر منتهي ، ورغم أن البعض يعرفون حال هؤلاء الناس الذين حققوا ألوان من أسباب السعادة الدنيوية ولم يشعروا بالسعادة فهم لا يزالون يجرون وراء تحقيق ما حققه هؤلاء الناس !! ، فـ الذي حقق وسائل السعادة المادية من مال وطعام وشراب وملذات يكتشف بعد أن حققها أنها لا تحقق السعادة وأنه كان مغرورا ، وأما الذي لم يحقق هذه الوسائل فهو مغرور يظن أن فيها تحقيق السعادة ويزين له الشيطان ذلك : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[7] .

ـ رغم أن الكثير من الناس على اقتناع نظري تام بأن المال لا يحقق السعادة ، ورغم علمهم بأن بعض الناس الذين جمعوا من المال ومتع الدنيا الكثير لم يجدوا السعادة في ذلك رغم أن كل أسباب السعادة المادية عنده ، فرغم ذلك لا يزال الكثير من الناس يبحثون عن السعادة في المال كأنهم غير مقتنعين بذلك ، فقول أحدهم إن المال لا يحقق السعادة ينشأ عن اقتناع كاذب بذلك ، فالشعور بضآلة قيمة المال يتمثل في عدم الشعور بتمني المال ، ولو جاء المال فلا يتردد الإنسان في إنفاقه في وجوه الخير .

ـ وأنت الآن تستطيع أن تسأل نفسك بصراحة هل تتمنى بشدة وتحلم أن تعثر على كنز ؟ ، وإذا عثرت على كنز هل ستتردد في إنفاقه للمحتاجين أم ستنفقه كله على نفسك في التوسع في أمور الدنيا ؟ ، إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحب أن يكون عنده من الأموال ولو كان مثل جبل أحد ، ولو كان عنده ذلك فلا يأتي عليه ثلاثة أيام حتى يكون قد أنفقه كله في سبيل الله ففي الحديث : ((يا أبا ذر ما أحب أن لي أحدا ذهبا أمسى ثالثة وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، يا أبا ذر الأكثرون هم الأقلون إلا من قال هكذا وهكذا))[8] ، وفي حديث آخر : ((ما يسرني أن لي أحدا ذهبا

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4580 في صحيح الجامع)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (الأدب المفرد ج : 1 ، ص : 105 ، برقم : 276)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع ، برقم 7816)
(4) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 7 ، برقم 3350)
(5) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3169)
(6) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 2 ، برقم : 1707)
(7) طـه : 120
(8) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 7826)

يأتي علي ثالثة وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده لدين علي))[1] ، فالذي يشعر فعلا بضآلة قيمة المال فيسهل عليه إنفاقه للمحتاجين ، فما زاد عن حاجته الضرورية أنفقه لغيره ، ففي الحديث : ((من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل))[2] .

ـ ويظل الإنسان ينتظر أن يحصل على السعادة من تحصيل المال أو من أن يكون له زوجة أو من أن يكون عنده أولاد أو من تدبير أمورهم الدنيوية على أحسن ما يكون أو من شهوات الطعام والشراب أو من شهوات النساء أو من شهوات المناصب والمظاهر أو من البعد عن متاعب الدنيا وآلامها أو من النجاح في الحياة أو من التغلب على مشاغل الحياة اليومية ، أو من البقاء على صحته أو مظهره كأحسن ما يكون ، فيظل ينتظر أن يجني السعادة من هذه الأمور ، ويظل كذلك حتى يموت ولم يجني شيئا من هذه السعادة ، فالله بين أن السعادة في الدنيا مجرد غرور ومتاع قليل : ((وَمَا الحَيَاةُ الدّنيَا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ))[3] ، ((فَلا تغُرّنّكمُ الحَيَاةُ الدّنيَا))[4] ، ورغم الاقتناع التام بأن السعادة في رضا الرحمن وفي الجنة وفي لذة النظر إلى وجه الله الكريم إلا أنه عند البعض هو اقتناع نظري فقط ، أما المؤمن فسعادته في أن يصل إلى رضا الرحمن ويجتنب غضبه ، وسعادته في أن يصل إلى لذة النظر إلى وجه الله الكريم ، وسعادته في أن يصل إلى شهوات النساء الحقيقية التي هي اللذة الحقيقية والكاملة مع النساء التي تحار العيون من جمالهن من الحور العين ، وسعادته في أن يصل إلى متع وملذات حقيقية هائلة في جنات النعيم ، فهذا هو الإنسان العاقل الذي لا يبالي بحياة ضئيلة فانية ، ويصبر قليلا وينتظر حياة الخلود في جنات النعيم ، أما من يبحث عن السعادة في الدنيا فلا عقل له : ((صُمٌ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[5] .

ـ ومن الناس من عنده طول أمل بحيث كلما حقق هدفا دنيويا لم يقنع ولم يحقق له سعادة ، ويستجد له طموحات أكثر وطول أمل أكثر وهكذا يظل يريد أن يصل إلى أهدافه التي يرى فيها الراحة حتى يموت ، فكثير من الناس من يرى الراحة والسعادة حينما ينجح في دراسته ثم ينجح فلا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يتخرج من الجامعة ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يجد عملا ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يتزوج ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في إنجاب الأطفال ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يزوج أبناءه ثم لا يرتاح لأنه يرى الراحة في أن يكون ذو صحة وعافية ولا يرتاح الإنسان ويرضى بما هو فيه من العمل فلا يرى في عمله الراحة ويظن أن عملا آخر أفضل ، ولا يرتاح ويرضى بما هو فيه مع زوجته ويرى أن آخرين يعيشون حياة أفضل ولا يرتاح ولا يرضى بمسكنه ويظن أن غيره أفضل ولا يرتاح ولا يرضى ويظل عنده أمل في تحقيق أشياء كلما تحققت لم يجد فيها الراحة وكان عنده آمال أخرى لا تنتهي حتى يموت وهو على ذلك لم يجد الراحة ، فلا راحة في الدنيا ، إنما الراحة في الجنة ، ومثال ذلك مثال الرجل الذي قيل له اجري في هذه الأرض فكلما قطعت مسافة من هذه الأرض فهي لك ، فكان الرجل كلما جرى مسافة يقول لنفسه : كلما أجرى أكثر آخذ مساحة أكبر من الأرض ويظل هكذا لا يتوقف حتى يقع ميتا ، ولا أحد يعجبه حاله أو يرضى بحاله ويقول الشاعر :

صغير يشتهي الكبرا   وشيخ ود لو صغرا
ورب المـال في تعـب   وفي تعب من افتقرا
وخالى يشتـهي عمـلا   وذو عمل به ضجرا
ويشقى المرء منهزما   ولا يرتـاح منتصـرا
فهل حـاروا مع الأقدار   أم هل حيروا القـدرا

ـ ودائما يجعل الإنسان ما يحتاجه أكثر مما معه من مال ، ويتصور أنه لو جاء إليه قدر معين من المال لحقق ما يريد وارتاح وسعد ، ولكنه كلما زاد دخل الإنسان كلما صنع لنفسه احتياجات أكثر من دخله ، فيظل في احتياج وتطلع وشكوى مستمرة حتى يموت ، فكلما حقق طموحه استجد له طموح آخر ، ودائما يتصور أن ما يطمح إليه هو شيء مهم وضروري لأسباب واهية ، وقد يكون لا داعي له أصلا أو غير مبرر أو لا يحتاج

(1) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 5817)
(2) حديث صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم : 3898)
(3) الحديد : من الآية 20
(4) فاطر : من الآية 5
(5) البقرة : من الآية 171

إليه على وجه الضرورة ، ويظل يعمل طول عمره من أجل مستقبله ولن يأتيه المستقبل حتى يموت ، فهو دائما لا يرضى بحاله والوضع الذي هو فيه ويريد التغيير ولو لمجرد التغيير ، فهو غير راض عن مسكنه أو عن عمله أو عن دخله أو عن زوجته وأسرته ، فيظل دائما يبحث عن السعادة وينتظرها فلا يجدها ولا يصل إليها ، والسبب هو أن الذي يعيش للدنيا كلما حقق طموحا فلابد أن يصنع لنفسه طموحا آخر وإلا فلماذا يعيش وماذا يصنع ؟ فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير طموح وهدف ، وطالب الدنيا ليس له هدف محدد لأن الدنيا ليست شيئا واحدا فهي ألوان من المظاهر والشهوات والأموال والمتاهات ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، أما الذي يعيش للآخرة فطموحه الجنة ، أما الدنيا فهو يعلم أنه عابر سبيل فلا يطمح فيها ، كما أنه يعلم أن رزقه لا يزيد ولا ينقص لا بطموح ولا بغير طموح وأنه لا حيلة في الرزق ، وأن رزقه لن يأخذه غيره لذلك فهو مطمئن سعيد ، ولذلك ففي الحديث : ((انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم))[1] .

ـ إن متاع الدنيا يحدث فيه ملل ، فإذا أكثر الإنسان من طعام معين أو شراب معين أو اعتاد عليه فبعد فترة يمل منه ، وكذلك التعود والتكرار في متع الدنيا المختلفة تؤدي إلى الملل ، بل إن وسائل الرفاهية ووسائل التقدم العلمي ليس كلها خير ففيها الضرر على صحة الإنسان وتلوث وضرر على البيئة ، فمتع الدنيا بها كدر ويصاحبها آلام ومتاعب ومشاكل وليست متع خالصة لأن الله أراد ذلك ، فاللذة الكاملة غير موجودة إلا في الجنة ، كما أن الحصول على متع الدنيا ليس أمرا سهلا لأن المتنافسين عليها كثير ، وهذه المنافسة كالغابة القوي فيها يأكل الضعيف ، أما متع الجنة فلا يمل الإنسان منها أبدا ، ولا يوجد أي شيء يعكر على الإنسان المتعة ففي الحديث : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا وذلك قول الله عز وجل (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)))[2] .

ـ عن لقمان بن عامر أن أبا الدرداء قال : ((أهل الأموال يأكلون ونأكل ، ويشربون ونشرب ، ويلبسون ونلبس ، ويركبون ونركب ، لهم فضول أموال ينظرون إليها[3] وننظر إليها معهم عليهم حسابها ونحن منها براء))[4] .

****

ـ ثانيا : الشعور بضآلة شهوة إخراج المني (شهوة الفرج) في حد ذاتها

ـ ميل الإنسان الفطري إلى شهوة النساء كبير جدا ، وظاهر شهوة النساء يوحي بأنها متعة كبيرة جدا على عكس حقيقتها ، وتزيين الشيطان لها كبير ، وقدرة الإنسان على الانتفاع بشهوة النساء ضئيل جدا ، فحقيقة شهوة النساء أنها ضئيلة جدا في حد ذاتها ، فضلا عن مقارنتها بمتع الجنة فلا تكون بمتعة أصلا .

ـ التعامل الخاطئ مع شهوة إخراج المني (شهوة الفرج ـ شهوة النساء ـ شهوة الجماع) :

ـ أولا : عمل العقل :

1ـ التصور الخاطئ لقيمة شهوة النساء على أنها عظيمة القيمة وذلك لأنه ينظر إلى ظاهر شهوة النساء وينظر إلى ميله الفطري لها بالإضافة إلى تزيين الشيطان لشهوة النساء تحديدا .

2ـ الشعور بالقيمة : ينظر إلى شهوة النساء نظرة انبهار وإعجاب .

3ـ انشغال الهموم : يظل همه مشغول بشهوة النساء وما يدور حولها والحصول عليها فيكون ذلك هدفه .

ـ ثانيا : عمل المشاعر : يتعلق قلبه بشهوة النساء .

ـ ثالثا : عمل الجوارح : ينظر إلى العورات ويكون كلامه حول شهوة النساء ويسلك الطريق نحو الزنا ويقع فيه .

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 1507)
(2) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب : ج : 3 ، برقم 3771)
(3) يريد أنهم لا ينتفعون بها وإنما يقتصرون على النظر إليها ، وليس في النظر نفع على الحقيقة .
(4) الزهد والرقائق لابن المبارك ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 1 ، ص : 210)

ـ النساء كلهن سواء في شهوة الجماع وكذلك الرجال ، مع تفاوت ضئيل جدا رغم أن الظاهر يوحي بعكس ذلك تماما ، والإنسان البصير هو الذي يعلم ذلك ، ومدخل الشيطان أنه يبين للإنسان أن غير زوجته أفضل منها وأن الشيء الحرام أفضل في المتعة والشيطان لا دليل له على ذلك ، وليس الأمر إلا أنه ظل يوسوس ل لإنسان حتى صدقه وأطاعه : ((وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم))[1] .

ـ شهوة النساء متاع قليل وقبل الجماع غرور بمتاع كبير وأثناءه متعة محدودة بوقت قليل وبعده كأن لم يكن شيء ، فشهوات الدنيا ضئيلة ، فالإنسان له قدرة محدودة علي الطعام والشراب والجماع ، بل إنه كلما زاد كلما قلت متعته وربما تعب ، لكن يزين له الشيطان أنها متعة هائلة وأنه يمكن أن يستزيد منها إلى حجم هائل ويزين له أن هذه المتعة تتفاوت بصورة هائلة بين النساء حتى يظل يعيش في مرحلة الغرور بمتاع كبير ، في حين أن هذه المتعة شبه متقاربة بين النساء ، ويقول تعالى : ((وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ))[2] فالشيطان زين له أن هذه الشجرة فيها السعادة والخلود : ((فَوَسْوَسَ إليه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[3] رغم أن أشجار التفاح كلها واحدة متشابهة في طعمها ولكن الشيطان زين لآدم أن هذه الشجرة أفضل ، وكذلك فإن متعة النساء كلها متشابهة ولكن الشيطان يظهر عورات النساء لكي يظن الإنسان أن غير زوجته أكثر متاعا ، فيقول له أن هذه المرأة التي هي غير زوجته هي شجرة الخلد وملك لا يبلى !! ، فإن أي امرأة إذا أظهرت مفاتنها وعوراتها فيبدو كأن فيها متعة أكثر ، ف المظهر خادع سواء بإظهار العورات أو بجمال الخلقة لأن حقيقة المتعة واحدة بين النساء لذلك يقولون : (إذا انطفأ النور تساوت كل النساء) ، فحتى لو كانت المرأة قبيحة لكنها كلما تظهر عوراتها وترتدي ألوان الزينة فتبدوا أنها ذات جمال كبير على عكس حقيقة ما فيها ، فالمرأة القبيحة إذا ارتدت ثيابا تكشف العورات وتضع ما يثير الشهوات فإنها تبدو جميلة وأن فيها متعة كبيرة ، وكما يقولون في المثل الشعبي : (لبّس البوصة تبقى عروسة) ، فمن ينتبه إلى حقيقة الجماع يكتشف أنها قضية ضئيلة تافهة ولذة مؤقتة تزول سريعا ونصيب الإنسان من هذه اللذة طوال عمره شبه ثابت بين الناس لا يزيد ، فلا تستحق أن تشغل الناس كل هذا الانشغال ، ولكن المظهر ووسائل الإغراء توحي بمتعة كبيرة وفي الحقيقة هي متعة ضئيلة وقتية ، لذلك توصف متع الدنيا بأنها متاع الغرور وبأنها متاع قليل ، وهذه حيلة الشيطان : ((يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا))[4] ، فحجم الإغراء كبير لكن حقيقة المتع ضئيلة ، ولذلك يسمى متاع الدنيا بمتاع الغرور لأنه متاع إغراء وليس بمتاع حقيقي : ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ))[5] ، ((فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[6] ، ومن أثر ذلك أن الإنسان رغم اقتناعه النظري بعدم النظر إلى عورات النساء قد ينظر وذلك لأن حقيقة ما عنده في الاقتناع النظري يختلف عن حقيقة ما عنده في المشاعر .

ـ والأدلة على أن المتعة بين النساء متشابهة ما جاء في الحديث : ((عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها))[7] ، وفي حديث آخر : ((إذا رأى أحدكم المرأة التي تعجبه فليرجع إلى أهله حتى يقع بهم فإن ذلك معهم))[8] ، وفي حديث آخر : ((إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن الذي معها مثل الذي معها))[9] ، إذن فمحل الوطء والإصابة متساوٍ بين النساء كلهن لذلك فالعاقل لا ينخدع بظاهر المرأة .

(1) إبراهيم : من الآية 22
(2) البقرة : من الآية 35
(3) طـه : 120
(4) الأعراف : من الآية 27
(5) الحديد : من الآية 20
(6) فاطر: من الآية 5
(7) التخريج : صحيح (جامع الترمذي ج : 3 ، ص : 464 ، برقم : 1158)
(8) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 552 في صحيح الجامع)
(9) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1939 في صحيح الجامع)

ـ إن حجم التزيين يكبر في الإنسان حتى إذا أتى شهوته انطفأ ذلك التزيين واكتشف ضآلة المتعة وأنها متشابهة بين النساء ، ولذلك في الحديث : ((إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة أعجبته فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه))[1] .

ـ فإذا لم يأتي أهله و إذا لم يوقن أن الذي معها من المتعة مثل الذي عند زوجته من المتعة زين له الشيطان الشهوات ووقع في شهوات النساء ثم يشغل ذلك مشاعره حتى يصير عبدا للشهوات ، ولأن المشاعر هي التي تحرك الإنسان للعمل ، فقد يكون عمل الإنسان ومعاصيه تحت تأثير الشهوة أو متأثرا بشهواته ، وذلك إلى أن يقضي شهوته ، فإذا قضي شهوته أفاق واستحقر تصرفاته وعمله ، ولذلك يحث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزوجة والزوج على سرعة قضاء الشهوة ، ففي الحديث : ((إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور))[2] ، والتنور أي " البوتاجاز " ، وفي حديث آخر : ((والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها))[3] ، وفي حديث آخر : ((لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على ظهر قتب))[4] ، أي " وهي تسير على ظهر بعير" أو " ولو حال ولادتها " ، كما يحث الإسلام على الزواج وتيسيره .

ـ فالعاقل لا تغره أشكال النساء ومظاهرهن الخارجية لأن كلهن متشابهات في شهوة الجماع والحديث يوضح ذلك جليا : ((... فإن الذي معها مثل الذي معها))[5] ، والجماع ما هو إلا لذة خروج المني ، والإنسان له قدرة محدودة على مسألة خروج المني ، فعدد مرات خروج المني متشابهة بين الأشخاص من نفس الأعمار ، وإذا حاول الإنسان الاستزادة من عدد مرات الجماع قلت متعته ، فهذه حقائق يعلمها الناس ولكن بطريق المعرفة النظرية ولكن الشيطان يسول لكل إنسان أنه يمكن أن يستزيد من هذه المتعة إلى مالا نهاية ، كما أن المرأة القبيحة إذا تزينت وأظهرت مفاتنها فإنها تبدو كأجمل النساء فينخدع بها الجاهلين ، بل إن جمال المرأة لا يزيد عن كونه تهيئة أو تقدمة لشهوة الجماع في حين أن شهوة الجماع شبه واحدة كما ذكرنا .

ـ فلابد من العلم بطبيعة تركيب الشهوة في الإنسان حيث أنها مثل البالون تظل تكبر وتنتفخ ثم تنفجر وتنطفئ وتنتهي في لحظة كأن لم تكن ، فيتعامل معها الإنسان مثل الكلب الذي يظل يجري وراءه فيشغله ويضايقه من كثرة النباح ، فيلقي له بلقمة حتى يسد فمه ويبعد عنه .

ـ كما أن اللذة التي تنشأ من شهوة النساء تنشأ من أمرين هما الجماع نفسه ـ وهذا هو الأساس في حصول اللذة ـ مع وجود قدر ضئيل من العاطفة كتهيئة لهذا الجماع ، ولكن الناس يضخمون هذا القدر الضئيل من العاطفة ، ويعيشون حياتهم في تضخيم هذه العاطفة تحت إسم (الحب) يقصدون به تضخيم شهوة النساء ، فالله جعل هذه العاطفة من الحب تجاه المرأة مطلوبة ولكننا نضخم من قدر هذه العاطفة ، وهذا كنوع من الاختبار ليرى الله هل يضخم الناس أهمية هذا القدر من العاطفة حتى يكون أكبر مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم ـ رغم أن اللذة محدودة وتنشأ أساسا من الجماع نفسه وبقدر ضئيل من هذه العاطفة ـ أم لا ؟ ، ومن تضخيم هذه العاطفة النظر إلى العورات والحديث حول الجماع ومقدماته وسماع الأغاني التي تضخم محبة المرأة حتى يجعلها المحبوب حياته وأنه لا يستطيع أن يعيش من غيرها وما يدور حول هذا المعنى فيتوهمون في ذلك شهوة كبيرة رغم أنها شهوة ضئيلة ، وهذا التوهم نوع من الهروب لما يعرفونه في قرارة أنفسهم من أن شهوة الجماع وقدرة الإنسان عليها محدودة ولا يستطيع الإنسان أن يستزيد منها فوق ما وضعه الله من قدرة الإنسان على الجماع ، وبدلا من أن يشعر الإنسان أنه لا يستطيع أن يعيش أو يتنفس بغير الخالق فهو الذي يرزقه ويمده بما يحتاجه فيحب الله تعالى ، فهم يستبدلون هذا الحب بحب غير الله من النساء والمخلوقات .

ـ والحكمة من وجود هذا القدر الضئيل من لذة الجماع ولذة الطعام والشراب هو أن الله يجعلك تذوق فقط

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 15 ، برقم 2625)
(2) حديث صحيح (صحيح الجامع برقم 534)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 7080 في صحيح الجامع)
(4) التخريج : حسن صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ، ج : 2 ، برقم : 1939) والقتب هو الرحل الذي يوضع حول سنام البعير تحت الراكب
(5) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1939 في صحيح الجامع) ا

شيئا من طعم اللذة حتى تعرف اللذة الحقيقية التي هي في الجنة ، فاللذة في الدنيا مجرد اسم فقط ، أما اللذة في الجنة هي اللذة الكبرى الحقيقية : ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))[1] ، وبغير هذا القدر الضئيل من اللذة في الدنيا لم يكن يعرف الإنسان ماذا يعني لذة الجنة ، ومن ناحية أخرى فإن لذة شهوة النساء تؤدي إلى الذرية فبغيرها قد يزهد الناس في الجماع ، وهذه حكمة أخرى من عند الله تعالى .

ـ شهوة النساء ليست إلا خروج المني الناشئ من الاحتكاك :

ـ كل النساء سواء لأن اللذة ليست إلا خروج المني ، وبأي طريقة خرج المني حدثت اللذة ، وخروج المني ينشأ من الاحتكاك ، والاستمناء واللواط والشذوذ الجنسي ليس إلا مسألة احتكاك ينشأ عنه خروج المني ، ونفس الأمر عند المرأة ، والشرع أباح خروج المنى الذي يؤدي إلى الذرية والمقيد بالزواج لحفظ الأنساب ونهى عن غير ذلك .

ـ وهناك عامل آخر غير الاحتكاك قد يؤدي إلى الانتصاب والقذف هو التفكير في عملية الجماع وتخيلها ، ولكنه عامل ضعيف جدا ويحتاج الإنسان لتفكير طويل ولا يصل بالإنسان إلى القذف إلا نادرا ، وقد يكون مجرد عامل مساعد قبل الجماع ، لذلك فالذي ينظر إلى العورات أو إلى صور الجماع أو يستمع للكلام عن الجماع هو لا يفقه لأن ذلك عامل نفسي ضعيف جدا فضلا عن أنه حرام .

ـ وكذلك لذة الطعام هي في الأصل ليست إلا امتلاء المعدة ، فالجائع يشعر بلذة الطعام وكلما أكل كلما قلت هذه المتعة ، والفروق بين الأطعمة هي فروق قليلة لمن يعقل .

ـ فالذين يعيشون من أجل شهوات النساء هم على وجه الدقة يعيشون من أجل شهوة إخراج المني ، و المشكلة أن الذي يعيش للشهوات يدور حولها من غير أن يواجه نفسه بأصل ما يريده وهو إخراج المني فهو يتكلم بالشهوات وينظر إلى العورات ، ولو واجه نفسه بأصل ما يريده لارتاح وترك الكلام والنظر والتفكير في الشهوات وترك الشذوذ لأنه عندئذ يعلم بأن الأمر تافه وبسيط وليس إلا مجرد احتكاك .

****

ـ ثالثا : الشعور بضآلة شهوة ملئ البطن

ـ الله جعل في ملئ البطن بقدر ما يسد الجوع لذة حتى يستمر الإنسان حيا فلا يعزف الناس عن الطعام .

ـ الإنسان له قدرة محدودة على تناول الطعام والشراب لا يستطيع أن يستزيد منها ، ولذة الطعام تقل كلما أكل الإنسان أكثر ، فالجائع الذي طال جوعه إذا وجد لقمة من خبز استمتع بطعمها ، والإنسان الذي شبع وامتلأت بطنه إذا أكل ألوان من اللحوم وغيرها فلن يشعر لها بطعم ، كما أن الأمراض تحدث من كثرة الطعام ويصبح الإنسان محروما من بعض الأطعمة حتى يحافظ على صحته ، ولا يستطيع الإنسان أن يأكل طعاما كثيرا يكفيه ليومين مثلا ثم يبتعد عن الطعام يومين ، وبالمثل لا يستطيع أن يكثر من شهوة الجماع ، كما أن شهوة الطعام وشهوة الجماع تقل مع تقدم العمر ، وبالمثل لا يستطيع الإنسان النوم لمدة يومين ثم الا ستيقاظ لمدة يومين ، وإذا أكثر الإنسان من الطعام والشراب أو الشهوات فإنه يمل ، وهكذا تجد أن قدرة الإ نسان محدودة ومقننة بوضع معين في الدنيا أما في الجنة فهذه القيود تزول .

ـ ولذلك فالشرع يأمرنا بألا نفرط في الاهتمام بالطعام والشراب بحيث يكون طعامنا كيفما اتفق ففي الحديث : ((ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه))[2] ، وفي حديث آخر : ((ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن حسب الآدمي

---

(1) البقرة : 25
(2) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 2 ، برقم : 2135)

لقيمات يقمن صلبه فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس))[1] ، وفي حديث آخر : ((إن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا))[2] ، وفي رواية أخرى : ((تجشأ[3] رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة))[4] ، كما أن الإنسان في الدنيا هو عابر سبيل ، وعابر السبيل لا يهتم كثيرا بالطعام و الشراب فالشخص المسافر يأكل (سندوتشات) مثلا أثناء سفره ، ولا يهتم كثيرا بنوعية الطعام أو بترتيبه وإعداده ، فالطعام عنده مجرد لقيمات يسد بها جوعته ، ولذلك ففي الحديث : ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور))[5] .

ـ الشيطان يزين للإنسان بأن الفارق بين الأطعمة المختلفة كبير جدا ، رغم أنه من له بصيرة لا يرى فارق كبير ، كما أن الشيطان يزين للإنسان أن يأكل من أجل اللذة ، أما من له بصيرة فهو يأكل إذا جاع ويأكل فقط ما يسد جوعته لا أكثر .

ـ فالمعدة عبارة عن خزان يمتلئ ليفرغ ويفرغ ليمتلئ ، وهذا ما يؤكده الحديث : ((ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه))[6] فالمعدة مجرد وعاء يملأه الإنسان ليفرغ ويفرغ ليمتلئ ، وهو أسوأ وعاء لأنه كلما امتلأ فرغ ما به وتحول إلى براز يحمله الإنسان في بطنه طوال ليله ونهاره ويخرج منه كأقذر شيء ! .

****

ـ رابعا : الشعور بضآلة شهوة التعالى على الناس

ـ شعور الإنسان بأنه صاحب النعم يجعله يغتر بنفسه ويتعالى على الناس ، وإذا شعر بأن الله هو صاحب النعم فهو لا يملك شيئا يتعالى به على الناس لأن الله هو مالك النعم .

****

الفصل العاشر

التعامل الخاطئ مع النعم (عبادة الهوى)

ـ التعامل الصحيح مع النعم ينبني على أساس تسعة أمور هي :

1ـ الله هو الخالق للنعم ، فهو الذي أوجد النعم .
2ـ الله هو المالك للنعم .
3ـ الله هو الذي يعطى النعم للإنسان وبالتالي التوكل عليه .
4ـ النعم هي رزق مقدر للإنسان لا يزيد ولا ينقص بسعيه .
5ـ وضع الله قيود وضوابط في استخدام النعم فلا يسرف فيها الإنسان أو يتعدى هذه القيود والضوابط .
6ـ الله المتكبر على عبادة بما يملك من النعم التي خلقها للإنسان .
7ـ محبة النعم ومحبة صاحب النعم وشكره .
8ـ مجيء النعم وذهابها هو للاختبار .

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجه ج : 2 ، ص : 1111 ، برقم 3349)
(2) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة ج : 7 ، برقم : 3372)
(3) هو خروج صوت من الحلق يدل على الشبع وبالعامية أي (تكرع)
(4) قال الشيخ الألباني : حسن (ج : 4 ، ص : 649 ، برقم : 2478)
(5) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم : 2333)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 5674)

9ـ النعم تجعل الإنسان يعرف الله فيصبح هدفه رضا الله ونعيم الجنة .

ـ اليقين بهذه الأمور السبعة موجود عند جميع الناس ولكنه عند البعض مجرد كلام ومجرد يقين نظري .

ـ التعامل الخاطئ مع النعم ينبني على عكس الأمور التسعة السابقة كالتالي :

الإنسان يتعامل مع النعم على عكس ما سبق تماما ، فهو يتعامل مع النعم كالتالي :

1ـ الإنسان هو الذي أوجد النعم ، فهو حصل عليها بجهده وسعيه .
2ـ الإنسان هو الذي يملك النعم .
3ـ النعم لم يعطيها أحد للإنسان .
4ـ النعم تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان .
5ـ كلما توسع الإنسان في النعم كلما تمتع أكثر فلماذا يحرم نفسه من المتع .
6ـ الإنسان يتكبر على الله بعدم الخضوع ، ويتكبر على الناس إذا كان عنده نعم ليست موجودة عندهم ، وإذا كان عندهم نعم ليست موجودة عنده فإنه يحسدهم ويحقد عليهم ويتمنى لهم زوال النعم ، ويفرح في مصابهم ويحزن إذا جاءهم خير ، ويسعى ليكون هو الأعلى في النعم وتزول النعم من الناس .
7ـ محبة النعم والغرور بالنفس لأنه يعتبر نفسه هو الذي أوجدها .
8ـ مجيء النعم هو الفوز وذهابها هو الخسارة .
9ـ يصبح هدفه النعم وليس رضا الله ونعيم الجنة فليس أمامه غيرها .

****

ـ الإنسان له قوة والله سبحانه له قوة ، قوة الإنسان تتمثل في النعم التي أنعم الله بها على الإنسان من إرادة وعقل وسمع ومال ومسكن وزروع ... الخ ، الإنسان عليه أن يستسلم لقوة الله لأن قوة الله أعظم من قوة الإ نسان ولأن ما عند الإنسان من قوة هي في حقيقتها نعم من الله وليست قوة له ، فمثلا لو أن إنسانا وجد أمامه جيشا هائلا مسلحا بكل أنواع الأسلحة فإن عليه أن يستسلم ويلقي بسلاحه في الأرض ، ولكن الإ نسان الأحمق يتعامل مع قوة هذا الجيش كأنه لا يراه حتى لا يستسلم فيتناسى وجود هذا الجيش .

ـ وبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان على أنها ملك له وأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له ، لذلك لا يريد أن يستسلم .

ـ مفهوم النعم :

ـ كل شيء مسخر ومفيد للإنسان ، فكل شيء نعم للإنسان ، فالإرادة نعمة والعقل نعمة والروح التي يحيا بها نعمة، والعين نعمة واللسان نعمة والماء نعمة والهواء نعمة ولذة ملئ البطن ليسد جوعته نعمة ولذة إخراج المني نعمة والمال والزوجة والأولاد نعمة وكل شيء هو نعم من الله سبحانه .

ـ أسباب التعامل الخاطئ مع النعم :

1ـ إمتلاك النعم قوة ، وعدم امتلاكها والاحتياج إليها وانتظار من يمدها إليك ضعف ، والضعيف يكون خاضعا للقوي ، لذلك فالإنسان لا يريد أن يكون ضعيفا خاضعا فيدعي القوة بأن يدعي امتلاكه النعم .

2ـ الله وضع لك قيود وضوابط في استخدام هذه النعم لا يجب أن يتعداها الإنسان أو يسرف في استخدام النعم ، ووضع قيود وضوابط معناه الخضوع وعدم الحرية ، كما أن الله جعل الله في الإنسان حب كبير للنعم وذلك ليختبر الإنسان فمن يستطيع أن يتغلب على رغباته فيلتزم بالضوابط فبذلك يكون قد خضع لله تعالى ، كما جعل الإنسان في حاجة إلى النعم لتقوم حياته بها ، ونوضح هذين الأمرين كالتالي :

ـ قوة رغبات النفس :

ـ قوة رغبات النفس تجعله يخرج عن الحدود والقيود التي وضعها الله له في استخدام النعم ، وذلك اختبار له هل ينجح في التغلب على رغباته والخضوع لما وضعه الله من قيود أم أنه يؤثر شهواته ، وقوة رغبات النفس تتمثل في :

1ـ قوة حب الشهوات :

ـ ((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ))[1] ، وفي الحديث : ((لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين في حب الدنيا وطول الأمل))[2] .

2ـ قوة حب المال :

ـ ففي تفسير الخازن : (({ وتحبون المال حباً جمّاً } أي كثيراً ، والمعنى يحبون جمع المال ، ويولعون به وبحبه ، { كلا } أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ، من الحرص على جمع المال وحبه))[3] ، وفي تفسير ابن كثير : ((وَقَوْلُهُ : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } أَيْ: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ -وَهُوَ الْمَالُ- لَشَدِيدٌ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَعْنَى: وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ ، وَالثَّانِي: وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بَخِيلٌ؛ مِنْ مَحَبَّةِ الْمَالِ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ))[4] ، وفي الحديث : ((يهرم بن آدم ويشب منه اثنتان الحرص على العمر والحرص على المال))[5] ، وفي حديث آخر : ((لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب))[6] .

3ـ قوة شهوة النساء :

ـ ففي غرائب التفسير : (({ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } أي لا يصبر عن الجماع))[7] ، وفي الحديث : ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء))[8] ، وفي حديث آخر : ((إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية))[9] ، وفي حديث آخر : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط))[10] .

ـ تزيين الشيطان لشهوة النساء تحديدا : ((الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ))[11] ، ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ))[12] .

4ـ قوة حب النعم : فيغضب على فقدها وإذا جاءته لا يفرط فيها ولا يعطيها لأحد :

ـ ففي التفسير المنير : (({ إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } أي إن الإ نسان جبل على الضجر أو الهلع : وهو شدة الحرص، وقلة الصبر، فلا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، وفسّر ذلك بأنه إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك من الضّر، فهو كثير الجزع أو الحزن و الشكوى، وإذا أصابه الخير من الغنى والسعة أو المنصب والجاه أو القوة والصحة ونحو ذلك من النعم، فهو كثير المنع والإمساك والبخل على غيره))[13] .

ـ احتياج الإنسان إلى الشهوات والقيام بأمور الدنيا :

ـ مما يزيد من صعوبة المعركة أن الإنسان في احتياج إلى الشهوات ومطالب بالقيام بها في حدود الشرع ، فا لإسلام يأمر بالزواج وبالطعام والشراب ولا يمانع أن يكون الإنسان ذا مال وثروة ويأمر بالسعي إلى ضرورات

---

(1) آل عمران : 14
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 7698 في صحيح الجامع)
(3) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 6 ، ص : 262)
(4) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (8/ 467)
(5) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ، ج : 4 ، ص : 570 ، برقم : 2339)
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5288 في صحيح الجامع)
(7) غرائب التفسير وعجائب التأويل ـ مؤسسة علوم القرآن - بيروت (1/ 294)
(8) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5597 في صحيح الجامع)
(9) التخريج : حسن (صحيح الترغيب والترهيب ، ج : 2 ، برقم : 2390)
(10) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1552 في صحيح الجامع)
(11) البقرة: 268
(12) النور: 21
(13) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (29/ 121)

الحياة وهمومها ومشاغلها اليومية ، ولكن بشرط ألا يستحوذ ذلك على تفكير الإنسان ومشاعره رغم القيام بذلك بالجوارح ، فلا يكون شاغل الإنسان هذه الأمور ولكن يكون تفكيره على أن هذه الأمور عابرة وزائلة و لا قيمة لها وأنها عدو له في كونها تشغل الإنسان عن الله والآخرة وأنها ضرر له إذا أسرف فيها حيث ألم العقوبة عليها في الآخرة ، أي يكون همه الأكبر الذي يشغله هو التفكير في مصيره المحتوم يوم الدين والا ستعداد لذلك ومعرفة الله ومعرفة ضآلة الدنيا وفناءها ، وأن تتعلق مشاعره من حب وخوف ورجاء وخضوع بالله والآخرة وليس بشهوات الدنيا ، وهذا أمر صعب على النفس المركبة على حب الدنيا و الشهوات .

****

ـ الصراع ضد الشهوات (محبة النعم) :

ـ الإنسان أمامه أمران إما أن يترك الشهوات (يترك النعم من قلبه) وهذا هو الخضوع وإما يسير مع شهواته ، وأصل الدين الخضوع ، فالذي يسير تبعا للشهوات هو بذلك يسير ضد الدين .

ـ فالإنسان وضع في الدنيا في ميدان حرب مع شهواته ، الإنسان إما أن ينتصر على شهواته أو تغلبه شهواته ، فقد يتجاهل أنه في ميدان حرب مع شهواته ، ويغتر بشهواته رغم ضآلتها ورغم أنها ضرر كبير له من حيث عقوبتها في الآخرة ، أو لا يستطيع التغلب عليها لضعف الإنسان أمام الشهوات فتهزمه ، ونحن خلقنا على هذه الأرض من أجل اختبار الناس من ينجح ومن يرسب في اختبار الصراع مع الشهوات ، وهو اختبار صعب جدا ، فمن رسب فله النار ومن نجح فله الجنة : ((فَأَمّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الحَيَاةَ الدّنْيَا ، فَإِن الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى ، وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفسَ عَنِ الهَوَى ، فَإِن الجَنّةَ هِيَ المَأْوَى))[1] ، فالإنسان يبحث عن السعادة ، والشهوات تبدو في ظاهرها السعادة ولكن حقيقتها الشقاء ، لذلك يسميها الله بالشقوة ، ففي التفسير الواضح : (({ قَالُوا رَبّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } [المؤمنون : 106] غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا فسمى اللذات والأهواء شقوة ... قالوا : ربنا غلبت علينا شهواتنا ، وقادتنا لذاتنا إلى الشقاء ودخول النار ، { وكنا قوما ضالين } غير فاهمين للأمور على وضعها الصحيح))[2] .

ـ الاختبار الذى خلقنا من أجله :

ـ وضع الله اختبار يبرهن به الإنسان على حقيقة يقينه ، فجعل الإنسان لا يرى الله والغيبيات ، وجعل النعم و الشهوات التي في الإنسان والدنيا لها بريق خادع كبير جدا تجعل الإنسان يغتر بنفسه وبالدنيا ، فالخطر تم حجبه كأنه غير موجود ، والإنسان الضعيف والدنيا الزائلة تم تضخيم حجمهما بخداع وهمي ، فإذا كان الإ نسان عنده شعور حقيقي بقيمة الأشياء شعر بخطورة الغيبيات رغم أنه لا يراها وشعر بضعف نفسه وضآلة الدنيا رغم الخداع الوهمي الكبير ، وهذا هو الاختبار ، وهو اختبار صعب وثمنه الجنة .

ـ الدنيا دار اختبار وكل شيء موضوع فيها للاختبار ، فالمال فتنة وشهوة النساء فتنة ، وشهوة الطعام و الشراب فتنة ، والأولاد فتنة : ((وَاعْلَمُوا أَنّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ))[3] ، ((إِنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا))[4] ، بل إن كل شيء فتنة سواء كان خيرا أو شرا : ((وَنَبْلُوكُمْ بِالشّرّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً))[5] ، وفي الحديث : ((إِنّ الدّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا **فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** فَاتقوا الدّنْيَا وَاتقوا النّسَاءَ فَإِنّ أَوّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النّسَاءِ))[6] ، وفي تفسير السراج المنير : (({ وَلَا تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } **{ لنفتنهم فيه } أي : لنفعل بهم فعل المختبر** ، ... وقال أبو الدرداء : الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعن الحسن : لولا حمق الناس لخربت الدنيا ،

---

(1) النازعات : 37 ـ 40
(2) التفسير الواضح ـ دار الجيل الجديد - بيروت (2 / 645 ـ 647)
(3) الأنفال : 28
(4) الكهف : 7
(5) الأنبياء : 35
(6) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم : 3086)

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا داراً ، فتتخذكم لها عبيداً))[1] .

ـ والله أمرنا بالحلال من الشهوات والأعمال الدنيوية والصلة بالناس ليختبرنا هل ستشغلنا عن الله والآخرة أم لا ؟ ، فالله جعل الإنسان في حاجة إلى المال والأولاد وأمور الحياة ، وطالبه بالعمل للكسب وبتربية أولاده وطالبه بأمور تختص بصلته بالناس وأمور الدنيا ، وفي نفس الوقت طالبه ألا يشغله كل ذلك عن ذكر الله : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[2] .

ـ وهذا الاختبار الذي خلقنا من أجله هو اختبار صعب لأن المطلوب من الإنسان أن يسير عكس شهواته ورغباته فيجعل نفسه خاضعة لله ، فالإنسان إما أن يخالف هواه ويتبع الشرع أو يخالف الشرع ويتبع الهوى ، ومخالفة ما تهوى النفس وما تشتاق وما تحب أمر صعب جدا على النفس ولكنه برهان على عدم عبادة الإنسان لهواه وما ترغبه نفسه .

ـ قضية الخضوع :

ـ إذا كان في يدك مليون جنيه لكن هذا المال ليس ملكا لك فأنت فقير ، كذلك النعم موجودة عندك لكنها ملك لله والله أذن لك أن تتمتع بها لفترة ثم يستردها منك ، ووضع لك قيود في استخدام هذه النعم .

ـ الإنسان يتعامل مع النعم كأنها ملكا له لأن في ذلك قوة له ومتعة له ويشعر بأنه له الحق أن يتصرف في النعم كيف يشاء بلا قيود ، وما يدفعه لذلك أن النعم عظيمة القيمة ورغبته فيها كبيرة جدا وهو محتاج لها .

ـ الذي أوجد الشيء ويملكه هو قوي له أن يتعالى بما يملك ، والذي لم يصنع الشيء فلا يملكه هو ضعيف عليه أن يخضع لمالك الشيء .

ـ الإنسان يظن أنه هو الذي أوجد النعم التي يتنعم بها لنفسه ، وأنها ملكا له ، وبالتالي لا يريد الخضوع لمالك هذه النعم .

ـ فالتعامل الخاطئ مع النعم معناه أن الإنسان يتعجل في نظره إلى ظاهر النعم من غير أن يستعمل عقله في حقيقتها ، فالنعم موجودة عنده ومسخرة له ، ولكن هذا لا يعني أنه هو الذي سخرها وأوجدها لنفسه ولا يعني أنه هو الذي يملكها .

ـ فالإنسان يتعامل مع النعم على أنه هو الذي أوجدها لنفسه وأنها ملكا له وبالتالي يستكبر عن الخضوع لمالك النعم رغم يقينه النظري التام بأنها نعم من الله وأن الله هو الذي أوجدها وهي ملك له رغم وجودها مع الإنسان وتسخيرها طوع أمر الإنسان ، أي رغم اليقين النظري التام بأن الله هو الرزاق وهو المالك لكل شيء .

ـ ففي هذا الفصل نبين سبب رفض الخضوع وهو التعامل الخاطئ مع النعم .

ـ فبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة الله والخضوع له يجعلها الإنسان سببا لرفض الخضوع لله تعالى .

ـ التعامل الخاطئ مع النعم :

ـ التعامل مع النعم يشمل ثلاثة أمور هي : عمل العقل وعمل المشاعر وعمل الجوارح .

ـ أولا عمل العقل :

1ـ التصور : (ادعاء القوة ـ الاستكبار ـ رفض الخضوع)

(1) السراج المنير ـ مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة (ج : 2 ، ص : 492 ـ 493)
(2) المنافقون : 9

ـ بدلا من أن تكون النعم آيات تدل على الخالق وعلى كرمه وإنعامه يدعي الإنسان أنه مالكها ويستكبر بها عن الخضوع لله تعالى

ـ القوي لا يخضع ، والإنسان يدعى امتلاك صفات القوة ، وصفات القوة عند الإنسان ليست ملكا له وإنما هي ملك لله وهي نعم من الله على الإنسان ، ولكن الإنسان لا يريد أن يتنازل عن صفات القوة لأنه لا يريد أن يخضع لله .

ـ الإنسان لا يريد أن يعيش معيشة العبيد :

ـ الإله هو الذي يمتلك صفات العظمة والقوة ، ومن يمتلك صفات النقص والضعف فليس بإله ، ومن ليس بإله فعليه أن يخضع ويسجد للإله ، لأن الضعيف عليه أن يسجد للقوي ، والقوى بحق له أن يستكبر على الضعيف ، وإذا رفض أن يشعر باستسلامه فهذا هو كفر الإباء والاستكبار القلبي .

ـ الإنسان يجعل من نفسه إلها ويستكبر أن يخضع ، والاستكبار معناه أن الإنسان يرى نفسه كبيرا وعظيما ويرى ما عنده من شهوات ودنيا كبيرة وعظيمة فيرفض الخضوع لله ، ومعنى أنه يرى نفسه عظيما أي يجعل إلهه هواه : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[1] .

ـ فلا يتحقق اليقين الحقيقي بأن الإنسان عبد لله حتى يزول غرور الإنسان بأنه يمتلك النعم كالعين والعقل و القدرة والحركة والإرادة والمال والشهوات ، وطالما أنه لا يزال الإنسان ينظر إلى نفسه على أنه حر مستقل بنفسه ليس ذليلا لأحد ولا يعيش تحت سيطرة أحد وأنه يمتلك العقل والإرادة والمال والشهوات وأنه يعيش لنفسه وليس تابعا لأحد فهذا يدل على أن اليقين الحقيقي بأنه عبد لله لم يتحقق بعد .

ـ وطالما غفل الإنسان عن قدر المخلوق من الضآلة غفل عن قدر الخالق من العظمة ، فلا يتنبه إلى مدى عظمته وقدرته ، ويزين الشيطان للإنسان أن ينسى قدر الله كأنه ليس ذو قدر عظيم وكبير ، فتكون نظرة الإ نسان للخالق مثل نظرته لأي أحد من البشر من حيث غياب الشعور بمدى قدره ، فلا يشعر الإنسان بقدر الله كأن الله غير موجود أو موجود ولكن ذو قدر ضئيل ، وبالتالي لا تتأثر مشاعره بالخالق .

ـ فالإنسان مخلوق كرمه الله وأعطاه من العقل والقدرة ما يصل به إلى التقدم العلمي والرفاهية ، ولكن الإ نسان قد يعتبر أن هذه المميزات هي من تلقاء ذاته ويقول بلسان المشاعر أن الجنس البشري هو الإله الذي يحكم الأرض ، فكل شيء هو تحته يتحكم فيه وليس شيئا فوقه يحكمه .

ـ ورغم أن الإنسان يعلم ضآلة نفسه وبالتالي عليه الخضوع فإنه يتجاهل ذلك ويصر على أنه ليس بضعيف وبالتالي لا يخضع ، فيصر على أن ما عنده من شهوات ملكا له وليست نعمة من الله ويصر على أن هذه الشهوات عظيمة القيمة رغم أن الله جعلها ضئيلة حتى لا يفتتن بها الإنسان .

ـ فقد تكون مشاعر الإنسان مستكبرة تأبى الخضوع رغم أنه بلسانه وباقتناعه النظري يقول أنه يخضع لله .

ـ فأنت يجب أن تعيش تبعا لمراد الخالق وليس تبعا لما تريده أنت لأنك عبد ولست حرا : ((أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدًى))[2] ، فالإنسان يظن أن الله خلقه ثم تركه يفعل ما يشاء فيعيش تبعا لما يريده الإنسان لنفسه على أنه له شأنه وهو حر مسئول عن نفسه فيفعل ما يشاء لنفسه ولكنه عبد ليس له أن يفعل ما يريده هو لنفسه ولكن يفعل ما يريده سيده منه ، فيعيش تبعا لمراد سيده ، فالذي يعيش تبعا لنفسه هو يعبد هواه ومزاجه : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا))[3] ، فإذا كان الإنسان يعيش وفقا لما يريده هو فهو يعبد نفسه وهواه وإذا كان يعيش وفقا لما يريده الله فهو يعبد الله ، والإنسان يعلم في نفسه هل يعيش وفقا لأيهما ولكنه يتجاهل .

---

(1) الفرقان : 43
(2) القيامة : 36
(3) الفرقان : 43

ـ الإنسان الذي يرفض أن يعيش وفقا لمراد غيره معناه أنه يرفض أن يكون عبدا لأحد ، فهو يعيش وفقا لمراد نفسه ، فهو في الحقيقة يجعل من نفسه إلها ويرفض أن يكون عبدا .

ـ فالإنسان إذا كان هو الذي صنع نفسه بنفسه فأوجد لنفسه عينه وأنفه وأذنيه وأوجد لنفسه ما يمتلك من نعم وأموال وأولاد فهي ملكا له وليس لأحد سلطة عليه أو عطاء أو صنع له شيئا ، ففي هذه الحالة فالإنسان له أن يعيش وفق مراد نفسه وما يشتهيه وهذا حقه فهو حر يفعل ما يشاء ، وهو عندئذ إله .

ـ ولكن الحاصل عكس ذلك فالإنسان هو نفسه عبارة عن مادة مصنوعة يمتلكها من صنعها ، فالإنسان لا يملك شيئا ولا حتى نفسه فكل ما عنده من نعم وشهوات هو محض عطاء من الله فهو ليس إلا سلعة تباع وتشترى ، ففي هذه الحالة يجب على الإنسان أن يعيش وفقا لمراد من صنعه ويمتلكه فيكون محبا لله لما أعطاه خاضعا لله لأنه لا يملك شيئا ولا حتى عقله فكل ذلك من صناعة الخالق .

ـ إن مفهوم الشعور بقدر كلمة "إله" معناه أن يعيش الإنسان حياته خاضعا له ، أي تصبح وظيفته في الحياة ومهمته التي يكرس حياته من أجلها هي أن يعمل عند الله عبدا كما يعمل الخادم عند سيده فيعيش عمره كله على هذا ، فهذا اختار أن يكون عبداً لله ، أما غيره فاختار أن يعيش حرا كأنه لا أحدا يملكه ولا يتبع لأحد وكأنه هو الذي أوجد نفسه أو لا أحد أوجده ، يقول الشيخ صالح بن فوزان : ((الخلق كلهم عبادُ الله كما قال تعالى : { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (93) } ، فكلُّ الخلق عباد الله المؤمن و الكافر ، ولكن العبودية على قسمين : عبوديّة عامّة : وهذه تشمل جميع الخلق المؤمن والكافر كلهم عبادُ لله تعالى ، بمعنى : أنهم مملوكون لله، مخلوقون لله ، يتصرّف فيهم ، ويدبِّرُ أمورهم ، لا يخرُج عن هذا أحد من الخلق ، النوع الثاني : عبوديّة خاصّة : وهي عبوديّة التأله والمحبّة ، وهذه خاصّة بالمؤمنين : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ } ، { يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } ، فهذه عبوديّة خاصّة بالمؤمنين))[1] .

ـ الشعور بقدر ضآلة الإنسان يؤدي إلى الشعور بالخضوع لله تعالى ، وإذا لم يشعر الإنسان بضآلته فلن يشعر بـ الخضوع لله تعالى ، فهو عندئذ عنده إباء واستكبار عن الخضوع لله تعالى ، فالإنسان إما أن يعبد الله أو يستكبر فيعبد نفسه أي يجعل نفسه إلاها .

ـ وأصعب شيء على النفس هو التنازل عن كل الممتلكات والأهل والمال والشهوات وعن النفس والاعتراف بملكية هذه الأمور لصاحبها وهو الله فتصبح هذه الأمور بلا قيمة لأنها ليست ملكا للإنسان ، فلا يتحقق الإيمان حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من عقل وقلب الإنسان : ((إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ))[2] والله لا يرضى بأقل من النفس والمال وإسلام كل شيء لله .

ـ فعندما يغفل الإنسان عن حقيقة نفسه فلا يتنبه إلى ضآلته ، ويزين الشيطان للإنسان أنه ذو قدر عظيم وكبير ، فتكون نظرة الإنسان لنفسه أنه ذو شأن هام عظيم القدر وأن له إمكانيات وقدرات وسيطرة وعلم كبير ، فيغتر بما عنده من عقل ذو قدرات هائلة ، وأنه هو الذي صنع التقدم العلمي الهائل والتكنولوجيا المبهرة ، وأنه يستطيع أن يصنع الأعاجيب ، وأن ما عنده من مال أو صحة أو ممتلكات أو جمال أو نعم فهي من صنع يده ونتيجة لكده وعلمه وخبرته ، وأنه حر وله الحقوق والسيطرة وقدرات كبيرة ، وأنه ليس بضعيف أو ناقص أو يحتاج لغيره فهو يعتمد على نفسه ولا يذل لأحد وليس لأحد عليه سلطان أو مذلة أو حق ، ولا يدري أنه بذلك يتعالى على الله ويستكبر أن يخضع له : ((أنهم كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ))[3] ، فإنه ينسى أو يتجاهل قدر عظمة الله ، وينسى أو يتجاهل قدر ضآلة نفسه ومدى ضعفه : ((أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ))[4] ، فيشعر الإنسان بأنه ذو قدر عظيم ، وتتوجه مشاعره تجاه نفسه فيعبد ذاته ، فيعتز بنفسه ويرى العزة لنفسه وليست لله : ((فَلِلَّهِ

---

(1) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ـ مؤسسة الرسالة (ج : 2 ، ص : 201)
(2) التوبة : 111
(3) الصافات : 35
(4) يّـس : 77

العِزَّةَ جَمِيعاً))[1] .

ـ الإنسان يعطل عقله (يتناسى الله والآخرة) بسبب الاستكبار :

ـ حقيقة الإنسان أنه مخلوق ضعيف من الطين لا حول له ولا قوة ، ولكن ما يبدو من الإنسان عكس ذلك تماما فله قوة تتمثل في أن له إرادة وعقل ويمتلك مالا وجاها وشهوات وكل شيء في الأرض مسخر له يسير طوع أمره ، فينخدع الإنسان ويظن أن هذه المظاهر من القوة تنبع من ذاته فيغتر بنفسه ويستكبر ويقول : " أنا " ولكنها مجرد عطاء من الخالق وأمانة يستردها صاحبها ـ وهو الخالق سبحانه ـ وقتما شاء .

ـ كل شيء هو مسخر للإنسان ، فكل شيء نافع ومفيد للإنسان ، وبالتالي كل شيء هو نعم للإنسان ، وهذه النعم مثل العين والأنف والماء والهواء وما عند الإنسان من مشيئة وروح وإرادة وعقل مبهر والبترول في باطن الأرض وما يصل للإنسان من نور الشمس وما يخرج من الأرض من نبات وتمتع الإنسان بشهوات الطعام والشراب والجماع ، فكل شيء هو في خدمة الإنسان وهو نعم للإنسان .

ـ الإنسان يدعي أنه يمتلك هذه النعم ويدعي أنه هو الذي أوجدها لنفسه ، أي أنه يدعي أنه له القدرة والقوة على إيجادها لنفسه .

ـ فمثلا هو يعتبر أن المخترعات الحديثة تدل على مدى قدرة الإنسان ، ولا ينظر إلى حقيقة الأمر على أنها أشياء مسخرة لخدمة الإنسان وهو لم يصنع شيئا غير أنه اكتشف ما فيها من تسخير ونفع للإنسان ، كما أن العقل الذي يفكر به ليخترع هو ذاته لم يصنعه الإنسان وليس ملكا له ، فالمخترعات الحديثة تدل على مدى قدرة الله وإنعامه على العباد .

ـ وهذه النعم هي أمور مفيدة فهي تعطي من يمتلكها قوة وقدرة ، فمثلا الطعام والشراب يعينه على الحركة والمخترعات الحديثة تعينه على القيام بما يريد وهكذا ، إذن فجميع النعم هي صفات قوة ، والإنسان يدعي أنه يمتلك صفات قوة (يدعي أنه يمتلك النعم) .

ـ إذن الإنسان يدعي أنه قوى وليس بضعيف بما يمتلكه من صفات القوة (النعم) وبأنه هو الذي أوجد هذه النعم لنفسه .

ـ الله سبحانه يطالب الإنسان بأن يعترف بان كل هذه النعم هي ملك لله وان الله هو الذي أوجدها ، وهذا معناه أن يعترف الإنسان بأنه ضعيف لا يمتلك صفات قوة (النعم) ، وهذا معناه أن يخضع لله تعالى لان الضعيف يخضع للقوي .

ـ الإنسان لا يريد أن يخضع لأن الخضوع ضعف ، ويريد أن يستمتع بملكية هذه النعم ليشعر بأن له صفات قوة .

ـ فيستكبر الإنسان ويرفض الخضوع .

ـ ولكن الإنسان يعلم في داخله أنه لا يملك شيئا وأنه لم يصنع شيئا ، وهذا معناه أنه ضعيف وبالتالي معناه الخضوع ، فيلجأ إلى حيلة وهي أن يعطل عقله كأنه لا يعلم أن ملكية هذه النعم لله وان الله هو الذي أوجدها ، ويعيش كأنه يمتلك هذه النعم وكأنه هو الذي أوجدها ، وبالتالي لا يخضع .

ـ إذن أصل قضية الدين هي اعتراف بقوة الله وضعف الإنسان وبالتالي الخضوع ، والإنسان إما أن يعترف فيخضع وإما أن يرفض الاعتراف فلا يخضع ، ونوضح هذا الأمر من خلال هذا الفصل .

ـ الإنسان مطلوب منه أن يخضع ، بمعنى أن يعترف بأن الدنيا وكل ما يتمتع به من مال ومناصب وزوجة وأهل وإرادة وعقل هو ملك لله تعالى ، ولكن الإنسان يقول لا ، لن أترك الدنيا ومالي ومناصبي وما أتمتع به

(1) فاطر : من الآية 10

فهو ملكي ، والمطلوب أن يترك الإنسان الدنيا من تفكيره ومن مشاعره ويكون عمله لها بجوارحه مثل عمل المسافر الذي يتزود من طعام يعينه أثناء سفره إلى الآخرة ولقاء الله تعالى .

ـ معنى الاستكبار أي لا يريد أن يترك صفات القوة :

ـ فأصل القضية هي ملكية النعم ، فالذي أوجدها هو الذي يملكها ، والإنسان يعلم ذلك لكنه يدعي أنها ملكا له ظلما وعلوا .

ـ فالنعم لها قيمة كبيرة إذا كانت ملكا لصاحبها ولا تزول عنه ، وطالما أن لها قيمة كبيرة فهي صفة قوة لصاحبها فهو قوي بها .

ـ الإنسان الظالم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، فهذه النعم رغم أنها موجودة معه لكنها ليست ملكا له ، و الخضوع معناه أن يترك الإنسان هذه النعم التي يريد أن يأخذها ظلما لتكون صفة قوة له فيرفض الخضوع .

ـ وهو يعلم نظريا أن هذه النعم ليست لها قيمة من حيث أنها ليست ملكا له ومن حيث زوالها عنه فيعطل عقله ويتجاهل هذا الأمر ولا يفكر إلا في ظاهر النعم فيغتر بها .

ـ إذن الإنسان يعطل عقله حتى لا يعترف بأن الله هو الخالق والمالك لكل شيء وبالتالي هو القوي ولا قوي غيره وبالتالي يخضع الإنسان له ، وذلك رغم وجود اليقين النظري التام بان الله هو الخالق والمالك لكل شيء وبأنه وحده القوي .

ـ وهو لا يستطيع أن يأخذ شيئا مما يملكه الله ليكون ملكا له ولكنه يدعي أنها ملكا له .

ـ فسبب رفض الخضوع هو الظلم (يريد ما ليس حقه فالنعم ليست ملكا له) والعلو (يرفض الخضوع لأنه لا يعتبر نفسه ضعيف بعدم امتلاك أي شيء) : ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا))[1] .

ـ مفهوم الاستكبار :

ـ الاستكبار هو شعور الإنسان بأنه ليس بضعيف ، فكما أن الله قوي فهو يظن أنه أيضا قوي ، فالاستكبار هو شعور الإنسان بامتلاك صفات القوة كالملكية والإيجاد والحكمة والعلم والقدرة والحرية والإرادة ، أي هو شعور الإنسان بأن ما عنده من صحة ومال وممتلكات وشهوات وأهل وبنين هي ملكه وأوجدها لنفسه ولا يشعر بأنها نعم من الله عليه .

ـ الإنسان مغرور بما أعطاه الله من نعم كالعين والأنف والهواء وبما أعطاه من متع الدنيا كالمال وشهوات النساء والطعام والشراب ، فهو يظن أن كل ذلك ملكا له ويرفض التنازل عنه ، لذلك عندما تأتيه الرسل فتسلب منه حياته التي يعيشها على أنها حياة عابرة والآخرة هي الحياة ، وتسلب منه ما يتمتع به من عين وأنف ومال وممتلكات وشهوات لتنسب ذلك كله إلى الله الذي يملك كل شيء ، وتسلب منه كل شيء فيكون ضعيفا ولله كل صفات القوة ، فيرفض الإنسان ذلك لكنه لا يستطيع أن يمنع عقله من الاقتناع النظري بما جاءت به الرسل فيلجأ إلى حيلة التشاغل بالدنيا والتغافل والتلهي ، فهو لا يقبل أن ينظر إلى الملايين من الأموال على أنها تافهة ، ولا يقبل أن ينظر على متع الشهوات على أنها تافهة ، ولا يوافق على أن كل النعم مجرد عطاء من الله عليه ، رغم أن كل ذلك هو مقتنع به ولكنه اقتناع نظري فقط ، فالإنسان مغرور بنفسه وبالدنيا .

ـ والخضوع معناه أن يتنازل عن كل ما عنده من نعم كالعين والأنف والأذن ، وأن يتنازل عن شهواته وما يتمتع به من مال وممتلكات وأهل وبنين فينسب ملكية كل شيء لله فيصبح عاري من كل شيء متجرد من كل شيء لا يملك شيئا ولا حتى يملك نفسه ، فيصبح ضعيف والله هو القوي ، والضعيف يخاف من القوي ويعجب بقوته فيخضع له خوفا منه وإعجابا به ، ومعنى أن الإنسان يرفض هذا التنازل إذن هو مستكبر لا

(1) النمل : 14

يرضى بالخضوع وأنه مغرور بنفسه وبالدنيا .

ـ فالاستكبار معناه أن الإنسان لا يعترف بضعفه وعجزه وأنه لا يملك شيئا ، وينسب ملكية كل شيء إلى الخالق ، فهو بذلك يستكبر على الخالق ويرفض أن يسجد له بعدم اعترافه بصفات النقص للإنسان وصفات الكمال لله تعالى ، فالاستكبار هو غرور الإنسان بنفسه بما معه من الدنيا .

ـ مالك الشيء له أن يفعل بما يملك ما يشاء ، فما يحدث للإنسان من خير أو شر إنما هو من فعل الله تعالى ، والذي يعلم أن ما يحدث له إنما هو من فعل الله فهو يستسلم لله متقبلا أي شيء يحدث له ، فلا يحزن بشيء ولا يفرح بشيء ، فهو لا يملك شيئا حتى يحزن على فقده ، فالإنسان كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء ، والاستكبار معناه أن الإنسان يرفض أن يكون كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء فلا يريد أن يتحكم فيه احد فيريد أن يكون حرا وليس عبدا .

ـ مفهوم القوة والضعف :

ـ الإنسان يكون قويا إذا كان يمتلك من القدرة أو المال أو الجاه ، أي بما لديه من مميزات وصفات غير موجودة عند غيره فيكون فوقه وأفضل منه ، ويكون ضعيفا إذا كان لا يمتلك شيئا من القدرة أو المال أو الجاه ، أو أي شيء يتميز به عن غيره .

ـ ولكن لا يوجد أحد قوي بحق إلا الله سبحانه ، فجميع الناس متساويين ، وجميعهم ضعفاء لأنهم جميعا لا يملكون شيئا ، والذي لا يملك شيئا فبماذا يدعي القوة إذا ؟ ، فجميع مظاهر القوة لله جميعا ((أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً))[1] .

ـ فالقوة تشمل جميع الصفات الحميدة ، وكمال القوة يعني الكمال في الصفات الحميدة .

ـ فالإنسان إذا كان يدعي القوة فهو ظالم لأنه لا يمتلك القوة بحق .

ـ والقوي بحق لا يحتاج شيئا من الضعيف وبالتالي لا يظلمه .

ـ والقاعدة الفطرية تقول بأن الضعيف يخضع للقوي بحق فيكون تابعا له .

ـ وخضوع الضعيف للقوي هو خضوع احتياج لعطاءه وخضوع من خوف مهابته ومن خوف عقابه وخضوع إعجاب وتعظيم لقدرته (فهو خضوع رجاء وخضوع من خوف المهابة وخضوع من خوف العقاب وخضوع حب) .

ـ أي أن الضعيف يحب القوي لدرجة الخضوع ، ويخاف من هيبته لدرجة الخضوع ، ويخاف من عقابه لدرجة الخضوع ، ويرجوه لدرجة الخضوع ، فالعلاقة بين الضعيف والقوي هي علاقة خضوع ، فإذا لم يتحقق الخضوع فذلك معناه أن الضعيف لا يؤمن بالقوى أي لا يعتبره قويا .

ـ فأصل الدين أن هناك رب وعبد ، أي أن هناك ضعيف وقوي ، فإذا شعر الإنسان بأنه ضعيف والله قوي تحققت مشاعر الإيمان كلها بالضرورة وتحقق الخضوع ، فبمجرد أن يشعر الإنسان بأنه ضعيف مقهور والله قوي مسيطر عليه فإنه يشعر بخوف المهابة من الله والحب والإعجاب بمدى قدرة الله والرجاء في ثوابه و الخوف من عقابه والخضوع له .

ـ فالضعيف يخاف من القوى ويخضع له ، ويشعر باستكانة وأنه مغلوب على أمره (شعور بالخضوع) ، و القوى له السيادة والسلطة والسيطرة والأمر والنهي ، والضعيف مغلوب على أمره مستكين ضعيف مقهور ، فهذا حال الخادم الذي هو سلعة تباع وتشترى في سوق العبيد ويعيش تحت أمر سيده الذي اشتراه ، فكذلك الحال مع الله تعالى ، فالله المتكبر والإنسان الذليل .

(1) البقرة : من الآية 165|

ـ إذن عدم وجود الشعور بالخضوع يدل على أن الإنسان لا يؤمن بوجود قوي أعلى منه ، فهو يظن أنه قوي ، فالإنسان القوي يرفض أن يخضع لإنسان قوي مثله أو أضعف منه ، وكذلك الإنسان الضعيف المخدوع في نفسه ويظن أنه قوي يرفض الخضوع لإنسان أقوي منه لأنه يظن أنه مثله أو أضعف منه ، فالإنسان ضعيف لكنه مخدوع يظن أنه قوى وأن ما عنده من مال وصحة وممتلكات هي ملك له ، كما أنه يتجاهل قوة الله كأنه ليس بقوي أو ليس بأقوى منه فيرفض الخضوع ، أما الإنسان الذي يشعر بضعفه وبقوة الله فإنه يرى أن خضوعه لله هو أمر طبيعي .

ـ الإنسان إما مؤمن (خاضع) وإما مستكبر ؟ :

ـ قضية الدين كله تتلخص في كلمة واحدة هي الخضوع ، وقضية الدين تعني أن أمام الإنسان أمران هما : إما أن تكون له حياته المستقلة به فيدير أموره بنفسه ويفعل ما يريد ويرغب ، فيعيش حياته حرا يفعل ما يشاء ، وإما أن يجعل حياته لأحد غير نفسه ، فيعيش عبدا خاضعا لسيده ومولاه رب العالمين ، فيضع نفسه وما يملك ورغباته وحياته تحت تصرف سيده .

ـ إن أصل كلمة "عبد" و"عبادة" هي الخضوع ، وأصل العلاقة بين العبد والرب هي الخضوع ، وجميع مشاعر ا لإيمان من خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب تؤدي إلى الخضوع .

ـ قبل أن يقبل الإنسان الدين أو يرفضه كان عليه أولا أن يعقل ما هو يقبله أو يرفضه ، فأصل قضية الدين هي علاقة خضوع بين القوي والضعيف ، فالقوى هو الله والضعيف هو الإنسان ، والنفس تستكبر أن تعيش معيشة الخضوع فيدعى الإنسان قبوله للدين وقبوله للخضوع من غير أن يخضع ويمنع عقله من التعرف على الخالق لأنه لو عرف قوته لخضع له وهو لا يريد الخضوع ، فالذي يدعى قبول الدين والخضوع وهو لم يشعر بالخضوع فهو كذاب وهو عطل عقله من العمل .

ـ عبادة الله تعالى هي خضوع العقل وخضوع المشاعر وخضوع الجوارح لله تعالى ، والإنسان إما أن يخضع أو يستكبر عن عبادته سبحانه : ((وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليه جَمِيعًا))(1) .

ـ الإنسان يعرف أن الله هو القوي وحده ويعرف ضعف نفسه ومن عرف ذلك فلابد أن يخضع ، ولكن الإنسان لا يريد أن يخضع فيتجاهل معرفته بربوبية الله كأنه لا يعرف الله لأن هذه المعرفة تؤدي إلى الخضوع ، فتصبح معرفته بربوبية الله هي معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية .

ـ هذا التجاهل هو تعطيل للوظيفة الطبيعية للعقل ، لان العقل وظيفته العلم بالشيء والمعرفة به ، فالكفار يدخلون النار لأنهم عطلوا عقولهم عن معرفة الله متجاهلين ما حولهم من الأشياء (فكل شيء حولهم يعرفهم بالله) ومتجاهلين ما سمعوه من كلام الرسل عن الله : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))(2) .

ـ لماذا لا يريد الإنسان أن يخضع :

ـ الخضوع ضعف ، لذلك فالإنسان يستكبر أن يخضع ، فيلجأ إلى حيلة وهي تعطيل عقله والتلهي بالدنيا حتى لا يتحقق الخضوع .

ـ فسبب أن الإنسان لا يريد أن يخضع هو أن الإنسان له إرادة وقوة وروح وعنده حكمة ، فلا يريد أن يُخضع إرادته إلى إرادة الله ، فهو مغرور بعقله ((فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ))(3) ، فهو مغرور كأنه هو الذي أوجد هذه الأمور في نفسه فلابد أن يركع العقل والقلب ، وكذلك فالنفس فيها الكبر عن أن أحدا غيرها هو الذي يقوم علي أمرها ورعايتها كأنها قاصرة أو عاجزة ، فالنفس تريد أن يكون لها سلطة وزعامة وأن تكون هي

---

(1) النساء : 172
(2) الملك : 10
(3) غافر : من الآية 83

التي تدير نفسها .

ـ فالإنسان له إرادة تجعله يفعل ما يشاء ، فهو يختار لنفسه أن يسير كيفما يشاء ويعمل ما يشاء ، فهو سيدا لنفسه لأنه يتحكم في نفسه كيفما يشاء كلما أحب شيئا قام به ، وهو لا يقبل أن يكون عبدا وتسلب منه حريته وشخصيته ، والعبد ليس له هدف غير إرضاء سيده وقبول كل ما يفعل به سيده ، لذلك فهو يرفض أن يكون عبدا .

ـ فالإنسان لا يريد أن يخضع ، لأن هذا معناه أن يتنازل الإنسان عن كل ما يملك لله الذي يملك كل شيء فيكون كل ما عنده هو محض تكرم وإنعام ومنة من الخالق فيعيش عبدا لاحسان الله (الخضوع رجاءا في الثواب) ، فإما أن يكون محبا شاكرا لله أو يستكبر عن أن يمن عليه أحد بعطاء فيكون مستكبرا كفورا : ((إنّا خَلقنَا الإنسان مِنْ نُطفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، إنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إمّا شَاكِراً وَإمّا كفُوراً))[1] .

ـ فأصعب شيء على النفس هو التنازل عن كل الممتلكات والأهل والمال والشهوات وعن النفس والاعتراف بملكية هذه الأمور لصاحبها وهو الله فتصبح هذه الأمور بلا قيمة لأنها ليست ملكا للإنسان ، فلا يتحقق الإ يمان حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من عقل وقلب الإنسان : ((إنّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أنفسَهُمْ وَأمْوَالهُمْ بِأنّ لهُمُ الجَنّةَ))[2] .

ـ فهناك أمران لا ثالث لهما هما إما تعظيم قدر الله وتصغير قدر النفس ، أو تعظيم قدر النفس وتجاهل قدر الله تعالى كأنه ليس له قدر ، فالأول هو الإيمان والثاني هو الاستكبار ، فالإيمان عكسه الاستكبار ، وهذا الا ستكبار هو رفض للإيمان الحقيقي بالربوبية ، ومعنى أن الإنسان يتغافل عن قدرة الله عليه فهذا لأنه مستكبر على الله .

ـ وبتعبير آخر فالإيمان هو الخضوع والذل والتنازل عن كل شيء ، والاستكبار أنه لا يريد أن يخضع ويذل ويتنازل عن كل شيء ، وهذا الاستكبار هو رفض للإيمان الحقيقي بربوبية الله .

ـ فعكس الإيمان هو الاستكبار ، فالإنسان إما مؤمن وإما مستكبر ولا يوجد شيء ثالث ، وفي تفسير البغوي : (({ وَالّذِينَ كذّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكبَرُوا عَنْهَا } تكبروا عن الإيمان بها ، وإنما ذكر الاستكبار لأن كل مكذب وكافر متكبر ، قال الله تعالى " أنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون"))[3] .

ـ فالاستكبار هو أنه لا يريد أن يخضع ويذل طوال عمره ، ولا يريد أن يتنازل عن ما يملك من الشهوات و النعم ليعترف أن الله هو المالك لكل النعم التي يتنعم بها ، ولا يريد أن يعترف بأن الدنيا لا قيمة لها لأنها إلى زوال وأن الحياة في الآخرة لأنه لو أيقن بضآلة الدنيا فهذا معناه أن يترك حب الدنيا واللهث وراءها وهو لا يريد ذلك ، ولا يريد أن يتحكم أحد فيه ويسيطر عليه ، ويريد أن يعيش حرا مستقلا بنفسه ويشعر أن له إرادة مستقلة فيستكبر .

ـ فالاستكبار هو تكبير قدر النفس وما معها من شهوات مع تجاهل قدر الله تعالى كأنه ليس له قدر: ((وَأنْ لا تعْلوا عَلى اللهِ إنّي آتِيكمْ بِسُلطانٍ مُبِينٍ))[4] فهو لا يريد أن يعترف أمام نفسه بضعفه وعظمة الله وقدرته عليه ، فأصعب شيء على الإنسان هو الاعتراف بضعفه ونقصه وعجزه واستسلامه واحتياجه وانقياده لغيره ، والاعتراف بأنه مقهور ومغلوب وخاضع تحت سيطرة أحدا غيره ، والاعتراف بالذل وأن يعيش عيشة الذل وعيشة العبيد لسيد يملكه ويملك التصرف فيه ، فالإنسان يعرف أن لله كل صفات العظمة والعلو ، وأن الإ نسان فيه كل صفات الضعف والعجز لكنه يأبى أن يشعر بذلك ويتعاظم الأمر في نفسه أن يكون كذلك ، ف الكفار يعلمون الحق ويفهمونه جيدا لكنهم يستكبرون فيتغافلون عنه لأن مشاعرهم تأبى الإذعان والاستسلا

---

(1) الإنسان : 3
(2) التوبة : 111
(3) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (2/ 190)
(4) الدخان : 19

ام لذلك ، وبالتالي فمشاعرهم جاحدة مستكبرة .

ـ فالاستكبار هو أن يؤثر شهواته وحظوظ نفسه على الخضوع لله : ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[1] .

ـ فمثلا رغم اليقين النظري التام بأن الآخرة هي حياتنا ومصيرنا ، لكننا لا نقبل أن نلغي هذه الحياة الدنيوية فنعيش حياة المسافر الذي يستعد للرحيل ، فنحن نهرب من هذه الحقيقة ونعيش كأن الكرة الأرضية هي دار إقامتنا وحياتنا ، فرغم اليقين النظري التام بالآخرة إلا أننا نهرب منها ونتغافل عنها ونتجاهلها .

ـ وكذلك فالله هو الخالق المسيطر علينا ، ورغم اليقين النظري التام بذلك لكننا لا نقبل أن نعيش حياة الذل والاستسلام ولا نقبل أن نعيش معيشة العبيد فنحن نعيش لأنفسنا ولا نقبل أن نعيش حياتنا من أجل أحد غيرنا ، فنحن نهرب ونتغافل عن الله .

ـ فإذا كشفنا عما في قلوبنا وجدنا عدم القبول (الاستكبار) لأن نكون عبيدا أو نعيش تحت أسر الآخرة والإعداد لها ولكننا نخفي هذا الاستكبار في صورة تناسي (تعطيل العقل) كأننا لم نسمع عن الأمر .

ـ إن النفس مجبولة على حب الشهوات والسعادة وما فيه الراحة واللذة وتكره الذلة والانكسار والخضوع لأي أحد أو أي شيء لأن في ذلك ألم لها ، لذلك فالنفس لا تحب الخضوع لله والدين فتريد أن تتحرر من ذلك ، فالنفس من داخلها تتكبر وتأبى أن تستسلم : ((إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ))[2] ، ((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ))[3] ، ومن أثر ذلك أن النفس قد تجد اللذة في المعصية لمجرد أنها ضد الدين ، خاصة لو كانت ذنبا كبيرا لشعورها أنها تتحرر من قيد الخضوع للدين ، كالذي يقع في الزنا ويترك زوجته مثلا ، والذين يحاربون الدين أو يتمنون لأهله ترك الالتزام هم من المستكبرين لأنه لو انتشر الدين لأمرهم بالخضوع وهم لا يريدون أن يسمعوا أحدا يأمرهم بالخضوع لله .

ـ الخضوع عكس الحرية :

ـ وجود الله معناه وجود من هو أقوى من الإنسان ومن هو يسيطر عليه ، وهذا معناه أن الإنسان ضعيف و الله هو القوي ، والعلاقة بين الضعيف والقوي هي علاقة خضوع وذل وتبعية ، فالضعف صفة نقص و الضعيف في احتياج إلى القوي والضعيف يخاف من مهابة القوي ومن بطشه ويرجو منه العون ويحبه إعجابا بقوته ، فالضعيف يخضع للقوي خوفا من مهابته وحبا فيه ورجاءا لأن يعطيه وخوفا من أن يمنعه أو يعاقبه .

ـ إذن وجود الله تعالى يوجب على الإنسان الخضوع ، وكل ما يدل على قوة الله هو يوجب على الإنسان الخضوع .

ـ والإنسان لا يحب الخضوع والذل ، إذن الإنسان يتناسى الله لأنه يريد أن يهرب من الخضوع فالخضوع عكس الحرية ، والإنسان يكره الاستعمار والسجن والرق لان في ذلك إذلال واستعباد للإنسان ، ويحب أن يعيش حرا في عزة وكرامة وإباء واستعلاء ، له رأيه وشخصيته المستقلة ، فلا يريد أن يتحكم فيه أحد أو يجبره أحد على عمل شيء ، فلا يحب أن يعيش مقيدا ، كما يكره الظلم والاضطهاد والإيذاء لأن في ذلك إذلال واستعباد للإنسان ، ويكره أن يعيش فقيرا معدوما محروما وغيره يرتعون في الأموال والنعيم لأن في ذلك ظلم وإيذاء واستعباد لهم .

ـ الله يريد منا أن نعيش حياة ذل وخضوع له ، وهذا ليس ظلما من الله لنا لأن هذا حقه ، فنحن فقراء لا نملك شيئا وضعفاء لا نستطيع أن نفعل شيئا ، وكل شيء هو ملك لله وكل القوة لله .

---

(1) النازعات : 37 ـ 40
(2) غافر : من الآية 56
(3) ص : 2

ـ والخضوع لابد أن يكون لله وحده ، ويرفض الإنسان الخضوع لغير الله ، وإذا تحرر الإنسان من عبودية غير الله فهذا ليس معناه أنه يعيش حرا ولكن ينتقل من عبودية غير الله إلى عبودية الله ، وأشد صور الذل و العبودية هي الذل لله والعبودية له ففيها كمال الذل والخضوع والانقياد والانكسار والانهزام والاستسلام لله ولكن البعض لا يقبلوا أن يعيشوا هذه المعيشة الشديدة الذل ونفوسهم منكسرة فهؤلاء هم أهل النار المستكبرين .

ـ ولذلك ففي الحديث : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1] ، فإما أن يعيش الإنسان في الدنيا معيشة السجين الخاضع لله أو يعيش معيشة الحرية ، إذن إما أن يختار الخضوع وإما أن يختار الحرية ، والاختيار الأول صعب جدا لأن معناه أن يخضع قلبه وتخضع جوارحه ، فينكسر قلبه بحيث يشعر بالذل والضعف طوال عمره .

ـ كيف يهرب الإنسان من الخضوع :

ـ هناك طريقتان للهروب من الخضوع كالتالي :

1ـ الطريقة الأولى : لا يقتنع بوجود الخالق وبقوته فيكون عنده من الأدلة على ذلك ، وهذه الطريقة لا يمكن حدوثها لأن كل شيء يدل على الخالق وقوته سبحانه فهو لا يستطيع أن يمنع عقله من الاقتناع واليقين بوجود الخالق وبقوته عليه ، فيلجأ إلى الطريقة الثانية .

2ـ الطريقة الثانية : التناسي (تعطيل العقل) : وذلك من خلال عدم تصور الأمر وعدم الشعور بقيمته وعدم شغل البال به فيصبح كأنه لا قيمة له فبذلك يتجاهله .

ـ الهروب من الخضوع :

ـ ويتمثل في التالي :

1ـ تناسي (تعطيل العقل) صفات الخالق لأن هذا معناه ضعف الإنسان أمام قوة الخالق ، أي عدم شعور الإ نسان بأنه واقع تحت سيطرة وهيمنة الخالق وبالتالي عدم وجود الخضوع والاستسلام للخالق .

2ـ تناسي (تعطيل العقل) العلاقة بين الضعيف والقوي لأن هذا معناه الخضوع والخضوع ضعف والإنسان يريد أن يعيش حرا وليس عبدا ، فهو بذلك يتجاهل قضية الخضوع .

3ـ تناسي (تعطيل العقل) حقيقة الخضوع : يدعي الإنسان أنه خاضع لله ولا يتصور هل الخضوع موجود في نفسه أم لا ؟ فيتجاهل غياب الحالة النفسية المميزة للخضوع والخوف والحب لله ويتجاهل وجود الحالة النفسية المميزة للخضوع والخوف والحب للدنيا (وقد أوضحنا ذلك بالفصل الحادي عشر) .

ـ قضية الدين (أساس دعوة الرسل) هي الخضوع (العبودية) :

ـ الرسل جاءت تأمر الناس بالخضوع لله فيعيشوا معيشة الخضوع والناس مخدوعون بأنفسهم فلا يحبون الذل وأن يعيشوا مقيدين بالدين ، فيلجأ الإنسان إلى التناسي (تعطيل العقل) حتى لا يخضع ، فيوقن الإ نسان بالله والآخرة والدين ولكنه يتجاهل ذلك كأنه لا يعلمه ، والعلمانية هي صورة من صور رفض الخضوع والتقيد بالدين وأوامره ، وعبادة الأصنام هي صورة من صور رفض الخضوع والتقيد بالدين وأوامره ، والنفاق هو صورة من صور رفض الخضوع والتقيد بالدين وأوامره حيث يعلن الإنسان التزامه بـ الدين لكن قلبه لا يخضع وهذا هو الخطر الواقع في بعض المسلمين اليوم .

فالرسل جاءت تأمر الناس بالعبودية والناس بين أمرين لا ثالث لهما ، منهم من قبل الخضوع ومنهم من رفض الخضوع عن طريق التناسي (تعطيل العقل) .

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 562 ، برقم 2324)

ـ فأصل الإيمان هو الخضوع ، فمن خضع فقد آمن ، ومن لم يخضع فهو منافق أو كافر ، فأصل قضية الإيمان أن هناك قوي وضعيف ، والضعيف يخضع للقوي ، أو رب وعبد ، والعبد يخضع للرب ، فاعتراف الإنسان بأنه عبد وبأن له رب وإله معناه الخضوع لله .

ـ الإنسان يعطل عمل العقل لإخفاء الاستكبار (عدم الخضوع) :

ـ عندما يسمع الإنسان دعوة الرسل يحدث الرفض لدعوة الرسل بإحدى طريقتين هما : إما أنه لا يقتنع بالأ دلة والحجج والدلائل التي جاءت بها الرسل ، وهذا مستحيل لأن الرسل جاءت بالبينات والدلائل والحجج واضحة لأي عاقل تدل على صدق هذه الدعوة ، لذلك فجميع الناس مسلمين وكافرين عندهم تصديق نظري تام بصدق دعوة الرسل ، حتى الملحدين والعلمانيين في ظاهر أمرهم أنهم يجحدون وجود الله والآخرة ولكن في قرارة أنفسهم يقرون بوجود الله والآخرة ، وفي تفسير ابن كثير : (({ وَجَحَدُوا بِهَا } أي : في ظاهر أمرهم ، { وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ } أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، { ظُلْمًا وَعُلُوًّا } أي : ظلما من أنفسهم ، سَجيّة ملعونة ، { وَعُلُوًّا } أي : **استكبارًا** عن إتباع الحق))[1] . ((فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ))[2] .

ـ والطريقة الثانية لرفض دعوة الرسل هو أن يستكبر ، فدعوة الرسل معناها أن يخضع الإنسان لله ، فيستكبر فلا يخضع ، رغم أنه مقتنع نظريا بأن عليه أن يخضع ، لذلك فالإنسان إما مؤمن أو مستكبر ولا يوجد شيء ث الث ، أي إما خاضع أو غير خاضع ، ففي تفسير البغوي : (({ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا } تكبروا عن الإيمان بها ، وإنما ذكر الاستكبار لأن كل مكذب وكافر متكبر ، قال الله تعالى " أنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون "))[3] .

ـ وحيث أن الاستكبار هو رفض للأمر غير مبني على دليل فلا يستطيع أن يواجه الأمر أمام نفسه لأن الإ نسان له عقل لا يوافق على أمر بغير دليل ، فيلجأ إلى حيلة لإخفاء هذا الاستكبار وهي أن يعطل وظائفه ، فتصبح وظائف الإنسان موجودة ولكن معطلة فهي تعمل فقط ظاهريا ونظريا بغير شعور بقيمة الأمر .

ـ بمعنى أن الإنسان يتجاهل الأمر ويتغافل عنه ويتغابى عنه ويتناساه كأنه لم يسمع عنه وكأنه لم يعرفه وكأنه لم يعلمه ، فيكون كأنه غير مصدق ولا مكذب وكأنه غير كافر بالأمر ولا مؤمن به وهذا يسمى كفر التولي القلبي أو كفر الإعراض القلبي : ((وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[4] ، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[5] .

ـ الكفر ثلاثة أنواع : [[**الأول كفر جهلي وسببه الغفلة عن الآيات الدالة على وجود الله تعالى** ، والإعراض عما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام ككفر العوام المشتغلين بالدنيا ..... والثاني الكفر الجحودي العنادي ... والثالث الكفر الحكمي (أي الذي يحكم به على إسلام الفرد الظاهر)]][6] .

ـ الموافقة والرفض :

ـ والإنسان يوافق على ما هو يعلمه نظريا أو يرفضه بأن يعقله أو يرفض أن يعقله بتعطيل عقله ، بمعنى أنه إذا لم يعجبه الأمر لأن فيه خضوع وهو لا يريد الخضوع فيستكبر ويعاند من قبل أن يُعمل عقله في الأمر ويعطل عقله حتى لا يعقله ، لأنه يعلم أنه لو عقله لخضع ، فكل من يُعْمل عقله يؤمن بالضرورة : ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[7] .

---

(1) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 6 ، ص : 181)
(2) الأنعام : من الآية 33
(3) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج : 3 ، ص : 227)
(4) الجاثية : 7 ، 8
(5) لقمان : 7
(6) الكفر والمكفرات ـ أحمد عز الدين البيانوني ـ دار السلام (ص : 6)
(7) الأنعام : 36

ـ فكفر الكافرين هو كفر استكبار وعناد .

ـ الأدلة على أن الإنسان يعطل عقله بسبب الاستكبار ! :

1ـ رفض الخضوع قبل إعمال العقل فيعطل عقله :

ـ الإنسان إذا علم أمرا ما فإنه لا يقبله أو يرفضه حتى يعقله أولا فهذا هو الإنسان العاقل ، فإذا كان الأمر هو خضوع الإنسان وهو لا يحب الخضوع فإما أن يرفضه من قبل أن يعقل الأمر ومن قبل أن يعقل الأدلة على صحة هذا الأمر فهذا هو المستكبر وهو يلجأ إلى تعطيل عقله لأنه يعلم نظريا أنه صحيح ، وإما أن يفكر في الأمر ويعقله أولا فيخضع ، وهذا هو التصرف الصحيح .

ـ ففي حاشية الشهاب : ((المسارعة إلى التكذيب مأخوذة من قوله : (لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) فإن التصديق والتكذيب بالشيء ينبغي أن يكون بعد العلم به والإحاطة بكنهه ومعرفة مآله ومرجعه وإلا كان مسارعة إليه في غير أوانه))[1] .

ـ وفي تفسير روح المعاني : (((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) ذم لهم بالمسارعة إلى تكذيب الحق قبل التأمل والتدبر والاطلاع على الحقيقة))[2] .

ـ وفي تفسير البحر المحيط : (((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) قال الزمخشري : (بل كذبوا) بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويفقهوا تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم))[3] .

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن : ((وفي قوله تعالى : « وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً » إشارة إلى أنهم لم ينظروا في آيات الله ، ولم يعرضوها على عقولهم ، بل واجهوها بالبهت والتكذيب ، ورموها بالسخرية والاستهزاء ، من قبل أن ينظروا فيها))[4] .

ـ وفي التفسير المنير : ((بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أي إن كفار قريش في الحقيقة كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم الثابتة بالمعجزات، أنهم كذبوا (بالقرآن وبالنبوة) بمجرد تبليغهم به من قبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، فهم في أمر دينهم في أمر مختلط مضطرب، يقولون مرة عن القرآن والنّبي : ساحر وسحر، ومرة : شاعر وشعر، ومرة : كاهن وكهانة، فهم في قلق واضطراب ولبس، لا يدرون ماذا يفعلون، كما قال تعالى : إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ [الذاريات 51/ 8- 9]))[5] .

2ـ سبب رفض دعوة الرسل الغرور بالنفس وبالدنيا :

ـ فالإنسان له عقل مغرور به ، فهو يستطيع أن ييسر لنفسه أمور الدنيا ، وهو لا يشعر أن أمور الدنيا مسخرة ل لإنسان جعلها الله تحت طوع الإنسان ، فالإنسان يظن أن البشر هم الملوك على هذه الأرض ، خاصة مع وجود العلم المادي الحديث الذي صنع التكنولوجيا الهائلة وصنع رفاهيات للإنسان وأمور هائلة ما كان يحلم بها ، فالإنسان مغرور بما لديه من علم الطب والهندسة وغيرها ، فقد يظن الإنسان أن هذا العلم هو من عقله وليس لأحد فضل عليه بذلك ، فيظن أنه قوي بما عنده من العلم وليس بضعيف ، والقوي لا يخضع لأحد ، إنما الخضوع يكون من الضعيف للقوي ، لذلك عندما جاءت الرسل لتخبره أن ما لديه من عقل إنما هو ملك لله وليس ملكا له لأن كل شيء ملك لله وخلقه ، وما لدى هذا العقل من قدرة على العلم فالله الذي صنعها ، وبالتالي ما ينشأ عن هذا العلم من خير للإنسان في الدنيا إنما هو نعم من الله على الإنسان ، وبالتالي فالإ نسان لا يملك شيئا وهو عاري من كل شيء فهو ضعيف وعليه أن يخضع لله ويشعر بأن كل شيء هو نعم

---

(1) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ـ دار صادر - بيروت (5 / 29)
(2) روح المعاني ـ دار الكتب العلمية - بيروت (6 / 117)
(3) البحر المحيط ـ دار الفكر - بيروت (6 / 59)
(4) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (10 / 294)
(5) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (26 / 284)

وعطاء من الله ، لكنه اغتر بعقله وبنفسه فرفض أن يشعر بالخضوع والذل لله .

ـ ففي تفسير مفاتيح الغيب : ((فرحوا بما عندهم من العلم ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ [الروم : 7] ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به))[1] ، وفي التفسير القرآني للقرآن : ((قوله تعالى : « ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ » أي ذلكم الذي أنتم فيه من بلاء وعذاب في الآخرة ، هو بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من غرور بما ملكتم فيها ، وزهو وعجب بما بين أيديكم من زخرفها ومتاعها ، فصرفكم ذلك عن أن تنظروا إلى ما وراء يومكم الذي أنتم فيه ، فقطعتم حياتكم في فرح ومرح ، ولهو وعبث))[2] أي فرح غرور بالدنيا كأنهم هم الذين جلبوا متع الدنيا لأنفسهم فهي ملكهم وهو أقوياء بذلك فاستكبروا عن الشعور بـ الخضوع لله القوي فمصيرهم النار باستكبارهم .

ـ إذن سبب الفرح هو شعور الإنسان بأنه مالك الشيء وبأنه هو الذي أوجده وعدم شعوره بأن الله هو المالك لهذا الشيء وهو الذي خلقه وأوجده ، والدليل على ذلك أن قوم قارون عندما قالوا له : (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قال لهم : (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) .

3ـ الذي لم يكن معه مال ثم حصل على مال يظن أنه هو الذي أوجد المال لنفسه بجهده وليس الله ، ويظن أنه هو المالك لهذا المال وليس الله ، وهكذا في باقي النعم ، رغم اليقين النظري التام بأن كل شيء هو من الله وملك له وأنها نعم وبأن الله هو الرزاق والمالك لكل شيء .

ـ ففي تفسير ابن جزي : (({ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي } [فصلت: 50] { لَيَقُولَنَّ هذا لِي } أي هذا حقي الواجب لي، وليس تفضلا من الله ولا يقول هذا إلا كافر، ويدل على ذلك قوله: وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً))[3] ، وفي تفسير القاسمي : (({ لَيَقُولَنَّ هذا لِي } أي حقي نلته بعملي ، لا بفضل من الله جحدا للمنعم))[4] ، وفي تفسير البحر المحيط : (({ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي } أَيْ بِسَعْيِي وَاجْتِهَادِي، وَلَا يَرَاهَا أَنَّهَا مِنَ اللهِ))[5] .

4ـ عكس الخضوع لله الخضوع للنفس (عبادة الهوى) ، والآيات تبين أن الذي يعبد هواه لا عقل له :

ـ فالإنسان يريد أن ينعم بالحرية بمعنى أنه لا يريد أن يعيش ذليلا بالخضوع لأي أحد غير نفسه ، فهو يخضع لنفسه فقط ، والخضوع لشيء ما معناه أنه يعبده ، فإذا كان خاضعا لنفسه فهو يعبد نفسه وهواه ، وإذا كان خاضعا لله فهو يعبد الله ، والآيات التالية تبين أن خضوع الإنسان لنفسه مرتبط بتعطيل الإنسان لعقله : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[6] ، ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً))[7] .

5ـ بدلا من أن تكون نعم الله سببا لمعرفة الله وشكره ومحبته جعلها بعض الناس سببا لرفض دعوة الرسل لأ نهم اغتروا بهذه النعم وحسبوا أنهم أقوياء بها ولم يعتبروها نعم من الله ولكن اعتبروا أنهم مالكوها وصانعوها وأنهم أقوياء بها فرفضوا الخضوع فأهلكهم الله وأهلك النعم التي اغتروا بها :

ـ فقوم عاد كان عندهم من صور القوة والمدنية الكثير : ((فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا

---

(1) مفاتيح الغيب ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 27 ، ص : 535)
(2) االتفسير القرآني للقرآن ـ دار الفكر العربي - القاهرة (ج : 12 ، ص : 1269)
(3) تفسير ابن جزي [التسهيل لعلوم التنزيل] ـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت (2/ 243)
(4) تفسير القاسمي [محاسن التأويل] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (8/ 346)
(5) البحر المحيط في التفسير ـ دار الفكر - بيروت (9/ 316)
(6) الفرقان : 43 ، 44
(7) الجاثية : 23

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ))[1] ، ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ))[2] ، فكان مصيرهم : ((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))[3] ، وهذا هو مصير الذين يغترون بأنفسهم ويدعون القوة بما عندهم من النعم : ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ))[4] ، ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ))[5] ، ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً))[6] ، ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[7] ، ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ))[8] .

ـ وفي تفسير النسفي : (({ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم } كانوا أكثر منهم عددا وأشد قوة بدنا وآثارا في الأرض قصورا ومصانع ، فما أغنى عنهم : ما نافية ، ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون))[9] .

ـ فهؤلاء وقعوا في أمرين هما الكفر بالنعمة أي عدم شكر النعمة وذلك معصية ، وادعوا أنهم مالكوا النعمة وصانعوها فهي قوة لهم فرفضوا الخضوع رغم اليقين النظري التام بأنها نعم من الله وأن الله هو المالك وهو الرزاق ، فالناس قسمين إما شاكر وإما كفور ، ففي التفسير المنير : (({ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } أي بيّنا وأوضحنا له وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر وبصّرناه بعواقب الأمور وعرّفناه منافع الأشياء ومضارّها التي يهتدي إليها بطبعه السليم وكمال عقله فآل أمره إلى أن ينقسم نوع الإنسان إلى قسمين: شاكر لأنعم الله مؤمن به مهتد بهديه ، وكافر جاحد للنعمة معرض عن الطاعة صادّ عن الهدي الإ لهي))[10] .

6ـ لابد أن يخرج تعلق القلب بالدنيا ، أي يبتعد الإنسان عن عبادة هواه ويبتعد عن ادعاءه بأنه قوي بما يتمتع من الدنيا (الاستكبار) فعندئذ يتفرغ الذهن وينتهي ما كان يشغل العقل عن العمل ، فيعقل حقيقة الأ مور فيؤمن : ((فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى))[11] .

ـ إذا عقل الإنسان أن أهدافه الدنيوية عبث تفرغ ذهنه وصفى عقله فعقل حقائق الأمور ، فيقول شيخ الإسلا م ابن القيم : ((اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز و جل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))[12] .

7ـ لقد رفض كفار قريش الإسلام لأنه يسويهم بالعبيد لأنهم لا يريدون أن يتركوا جاههم وسلطانهم فأغلقوا

---

(1) فصلت : 15
(2) الشعراء : 128 ، 129
(3) الحاقة : 7
(4) الروم : 9
(5) الأنعام : 6
(6) مريم : 74
(7) الأحقاف : 26
(8) الفجر : 6 ـ 13
(9) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 4 ، ص : 82)
(10) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (29/ 283)
(11) الجاثية : 23
(12) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (3 / 352)

عقولهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

8ـ الإنسان يدعي أنه مالك النعم وصانعها فإذا سلبه الله من هذه النعم أدرك الحقيقة وشعر بأنه ضعيف لا يملك شيئا وأن الله يقدر عليه فيخضع لله تعالى خضوعا خالصا ، ولكن عندما يزول الابتلاء يتناسى الأمر ويعود ليدعي أنه يملك النعم وأنه صانعها ، فيقول تعالى : ((وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ))[1] ، ((هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[2] ، ((وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إليه ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا ً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))[3] .

****

2ـ الشعور الكاذب بقيمة النعم (الغرور بالدنيا ـ الغرور بالنفس)

ـ النعم عظيمة القيمة ، فهي تدل على عظمة من أوجدها ويملكها ، فمن كان تصوره أن الإنسان لا يقدر على إيجادها ولا يملكها فيتصور مدى قوة الخالق فهو يعرف الله بها ، لذلك هو يعلم أنه لو عبد الله طوال عمره لم يوفه نعمة واحدة مثل نعمة العين مثلا لعظمة هذه النعمة ، فالأصل أنه لا يرى وأنعم الله عليه بنعمة جعلته يرى تكرما من الله ، والرؤية عملية معقدة وقدرة هائلة تدل على مدى قدرة الله على إيجاد هذه الوظيفة ، وهكذا في باقي النعم .

ـ والمشكلة أن الإنسان يتصور أنه هو الذي أوجد هذه النعم وهو الذي يملكها ، فتدل ـ في نظره ـ على مدى قدرة الإنسان وقوته ، فيغتر الإنسان بنفسه ويحسب نفسه قويا ويرفض الخضوع .

ـ فيعتبر النعم مصدر لقوته أو صفات لقوته ، والإنسان نفسه هو عبارة عن مجموعة من النعم (العين والأنف والعقل والروح والإرادة ... الخ) فهو يخضع لنفسه وما يمتلكه ـ في نظره ـ وليس يخضع لله ، فهو يعبد نفسه ، أي يتجه بتصوره ونظرته للنعم وانشغال تفكيره ومشاعره وعمله إلى النعم : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[4] ، فخضوعه للنعم هو خضوع لنفسه .

ـ النظر إلى ظاهر الدنيا يؤدي إلى الشعور الخادع بقيمة الدنيا والغرور بها والعزة بها والشعور بالانبهار و الفرح بها .

****

3ـ انشغال البال بالنعم (التلهي بالنعم وأمور الدنيا)

ـ يشعر بأن هذه النعم هي صفات له ، وكلما استزاد من هذه الصفات دل ذلك على أنه أقوى ، فينشغل همه بـ النعم وتتعلق مشاعره بها ، ينشغل همه بالنعم لا على أنها نعم ولكن على أنها ملكه وكلما زادت دلت على قوته .

****

ـ ثانيا : عمل المشاعر

(1) النحل : 53 ـ 55
(2) يونس: 22، 23
(3) الزمر : 8
(4) الفرقان : 43

ـ تتعلق مشاعره بالنعم والشهوات .

ـ هناك ثلاثة حالات لتعلق عمل العقل وعمل المشاعر بالنعم وليس بالمنعم :

1ـ يكون كل عمل العقل من تصور وشعور بالانبهار بقيمة النعمة وانشغال البال بها وكل عمل المشاعر من حب وخوف ورجاء وخضوع هو للنعم وليس للمنعم ، وهذا عبادة للنعم (عبادة للهوى) .

2ـ يكون أكثر عمل العقل وعمل المشاعر للنعم وليس للمنعم وهذا أيضا عبادة للنعم (عبادة للهوى) .

3ـ يكون أكثر عمل العقل وعمل المشاعر للمنعم وليس للنعم وهذا عبادة لله وكلما زاد عمل العقل والمشاعر للمنعم زاد الإيمان .

ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بالنعم (عبادة الهوى) :

ـ يكون تصور الإنسان أن صاحب النعم هو الإنسان ولا توجد نعم أخرى في الجنة ، فلا يجد شيئا فيه متعة غير النعم الموجودة في الدنيا فيكون هدفه الذي يعيش له هو التمتع بنعم الدنيا ، فيكون كل همه وكل مشاعره متعلقة بالحصول على النعم ولا يوجد أي هم أو مشاعر متعلقة بالله أو بنعم الجنة .

ـ إذا كان في داخل الإنسان قدر من الشعور بأن الإنسان هو صاحب النعم وقدر من الشعور بأن الله هو صاحب النعم فأيهما يكون أعلى من الآخر تكون هذه حقيقة الإنسان .

ـ إذا قارن الإنسان بين ألم الدنيا (غياب النعم في الدنيا) وألم الآخرة (النار وغياب نعيم الجنة) ، وكان خوفه من ألم الدنيا أكبر من خوفه من ألم الآخرة فهذا معناه أن الدنيا عنده أكبر وأعظم من الآخرة ، فهو بذلك يؤثر الدنيا على الآخرة ، وكذلك إذا كانت لذة الحب والشوق لأي شيء في الدنيا أكبر من لذة الحب و الشوق لله فهذا معناه أن ذلك الشيء عنده أكبر وأعظم من الله ، وكذلك إذا كانت أهداف الإنسان واهتماماته وطموحاته المتعلقة بالدنيا أكبر من أهدافه واهتماماته وطموحاته المتعلقة بالآخرة فهذا معناه أن الدنيا عنده أكبر وأعظم من الآخرة .

ـ هناك مَنْ قلبه متعلق بمتع الدنيا فقط ، وهناك مَنْ قلبه متعلق بمتع الجنة والحور العين والنظر إلي وجه الله الكريم ، وأيضا هناك مَنْ هو خائف ويحمل هم متاعب الحياة وهمومها فقط ، وهناك مَنْ هو خائف ويحمل هم نار الآخرة وأهوال القيامة ، فالأول يعبد هواه والثاني يعبد الله ، وكلاهما يريد أن يتمتع ويريد أن يبتعد عن الآلام ، وهنا أيضا يتضح الفرق بين مجرد الاقتناع النظري بمتع الجنة وبين مَنْ هو يشعر بمتع الجنة ، وبين مَنْ هو مجرد مقتنع نظريا بعذاب النار ومَنْ هو يشعر بعذاب النار ، فمن الناس مَنْ يجد عزته وشرفه وحبه وخضوعه ومشاعره للمال أو الشهوات أو المظاهر .... الخ ، أما المؤمن فيجد عزته في الله والا نتساب إليه وليس في عرض زائل من أعراض الدنيا .

ـ الإنسان فطر على حب الزوجة والأبناء ووالديه وذلك حلال وليس بذنب ، وكذلك إذا أحب كسب المال من الحلال وأحب الطعام والشراب وغير ذلك ، فكل ذلك حلال وليس بذنب ، لكن إذا كان حبه لأي شيء سواء كان حلالا أم حراما أكبر من حبه لله فذلك عبادة للهوى .

ـ إن الذين يطوفون بالأضرحة يقعون في الشرك بأنهم يتجهون إليها بالخضوع والحب والخشوع ، فكذلك هناك الذين يطوفون حول المال والشهوات فيركعون ويسجدون للمال والشهوات والدنيا (تركع وتسجد قلوبهم وليس جوارحهم) وكل خوفهم من ضياع المال وكل رجاؤهم في الحصول علي المال والشهوات و المتع ، فهؤلاء يطوفون بالأضرحة دون أن يذهبوا إليها أو يعرفوها أصلا (يطوفون حول إله الشهوة) قال تعالى : ((أَرَأَيتَ مَنِ اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنت تكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[1] ، وفي الحديث : ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط))[2] ، القطيفة أي المظاهر ، وبالتالى فمن

(1) الفرقان : 43
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2962 في صحيح الجامع)

الناس مَنْ يعبد أصناما رغم أنهم ليس عندهم أصنام ولا يعرفونها ، إنها أصنام المال والمزاج والهوي والدنيا من دون الله ، فهم يتجهون بمشاعرهم وهمومهم وأهدافهم إلى الدنيا ، فيكون حبه للدنيا وخوفه عليها وخضوعه لها ، وفي الحديث : ((إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال))[1] ، فاحذر أن تغرك الدنيا وتفتنك : ((فَلا تغرّنّكمُ الحَيَاة الدّنيَا))[2] ، وفي الحديث : ((احذروا الدنيا فانها خضرة حلوة))[3] ، فمن الناس من يأتون يوم القيامة فيكتشفون أنهم كانوا يتناسون أنهم يعبدون فروجهم أو يعبدون المال أو المظاهر أو الطعام والشراب أو كل ذلك أو بعضه أو تدور حياتهم حول ذلك أو بعضه وإن لم يصلوا إليه ، ذلك لأن مشاعرهم وأهدافهم وهمومهم متوجهة لذلك ومنقطعة عن الله واليوم الآخر .

ـ إن الإنسان عبارة عن جسد وروح (أو طين وروح) وهو مطالب بأمرين هما صلته بالله (وهو غذاء الروح) وصلته بالدنيا (وهو غذاء الطين) فإذا كانت مشاعره المتعلقة بغذاء الطين من الطعام و الشراب ومتطلبات الحياة والمعيشة ...الخ أكبر من مشاعره المتعلقة بغذاء الروح فهو يعبد الطين (يعبد الدنيا) ، كما أن عدم تغذية الروح يؤدي إلى أن تموت الروح ويبقى الجسد حي فيعيش الإنسان وهو منقطع الصلة بالله ، فهناك أموات خارج القبور هم يعيشون ويأكلون ويشربون ولكنهم ليسوا أحياء ، وذلك لأنهم يُؤْثِرُونَ الحَيَاة الدّنيَا على الآخرة : ((بَلْ تؤْثِرُونَ الحَيَاة الدّنيَا))[4] ، ((فَأمّا مَنْ طَغَى ، وَآثرَ الحَيَاة الدّنيَا ، فإن الجَحِيمَ هِيَ المَأوَى))[5] ، ((الذِينَ يَسْتَحِبُونَ الحَيَاة الدّنيَا عَلى الآخرة))[6] ، ((ذَلِكَ بِأنّهُمُ اسْتَحَبُوا الحَيَاة الدّنيَا عَلى الآخرة وَأنّ اللهَ لا يَهْدِي القوْمَ الكافِرِينَ))[7] ، ((كلا بَلْ تحِبُونَ العَاجِلة))[8] ، ((إنّ هَؤُلاء يُحِبُونَ العَاجِلة وَيَذرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثقِيلا ً))[9] ، فإذا كانت مشاعر الإنسان وهمومه وتفكيره وأهدافه وأمانيه المرتبطة بالطين (بدنيا الناس) أكبر من مشاعره المرتبطة بالله والآخرة فهذا وقوع في عبادة الهوى .

ـ الإنسان يعمل من أجل مصلحته وما فيه النفع له ، فإن كان لا يشعر بالنفع ولا يشعر بما فيه مصلحته في الجنة فإنه سوف يري أن العمل للآخرة تكاليف وأعباء فيتثاقل ، إنه يشعر أن السعادة إنما هي في المال و المتع والمظاهر والممتلكات والمادة ، وإن كان مقتنعا نظريا أن السعادة الحقيقية إنما هي في الجنة ، وأن هذه أعراض زائلة ، لكن هذا في الاقتناع النظري فقط ، فالمشاعر تتفاعل إيجابا وسلبا فرحا وحزنا بمفردات الحياة من مال ومتع ومظاهر ... الخ ، بينما لا تتفاعل المشاعر بالغيبيات وما يحدث فيها ، فالغيبيات ليست في بؤرة شعوره وليست علي باله ولا في حساباته رغم أنها المستقبل كله والمصير كله ، فهو يعيش من أجل الدنيا ، فتكون حياته مبنية علي الدنيا فهي هدفه وطموحه ومستقبله .

ـ إن الإنسان إذا وقف صريحا مع نفسه ، وسأل نفسه ما هي قضيتي في الحياة ؟ ، ما هي قضيتي التي أعيش من أجلها ؟ ، إنه سوف يكتشف أنه يعيش من أجل أربعة أشياء هي على الترتيب : أولا : المال وما يأتي به المال من المتع ، وثانيا : متع النساء والنظر إلى العورات ، وثالثا : المظاهر والمناصب ، ورابعا : الطعام والشراب ، هذا حال الكثير لكن لا يقف أحد أبدا صريحا مع نفسه ويتغافل عن أن يواجه نفسه ، فهذه الأمور الأربعة عبارة عن محور ، وحياة الكثير تدور حول هذا المحور وتظل تلف حوله من قريب أو بعيد ، أما المؤمن فإن له محور واحد يدور حوله هو خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب من الله تعالى ، وهناك من يغالط نفسه ويظن أنه يعيش من أجل رضا الله وهو في الحقيقة يخدع نفسه ، فالاقتناع النظري يسير في اتجاه والشعور والمشاعر تسير في الاتجاه المعاكس ، فهو مقتنع بأنه يعيش من أجل رضا الله ، لكن شعوره ومشاعره منقطعة عن الله والآخرة ولا تتأثر إلا بالدنيا وما فيها ، فإن المؤمن ينظر إلى متع الدنيا نظرة احتقار ، وينظر إلى أهل الدنيا الذين يعيشون لها ويعبدونها على أنهم مساكين لأنهم يهلكون

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2148 في صحيح الجامع)
(2) لقمان : من الآية 33
(3) تحقيق الألباني : صحيح (صحيح الجامع برقم : 192)
(4) الأعلى : 16
(5) النازعات : 37 ـ 40
(6) إبراهيم : من الآية 3
(7) النحل : 107
(8) القيامة : 20
(9) الإنسان : 27

أنفسهم : ((وَإِنْ يُهْلِكُونَ إلا أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ))[1] ، ((لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ))[2] ، ولأنهم يتنافسون على جيفة قذرة هي الدنيا ، فينظر المؤمن إليهم على أنهم أغبياء لأنهم يتنافسون على شيء لا قيمة له : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ))[3] ، وهؤلاء المتنافسين على الدنيا لا يعقلون لسببين هما أنهم يحصدون الهواء وأنهم حرموا أنفسهم من الجنة وأوردوها النار : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[4] .

ـ من الناس من يكون فرحه وحزنه مبني على أساس الدنيا ، فالسعيد عنده هو من حصل على الدنيا و التعيس من خسر شيئا من أمور الدنيا ، والفوز عنده هو الفوز بجائزة دنيوية أو الحصول على مال أو جاه أو متع أو شهوات ... الخ ، والخسارة عنده هي ضياع مال أو جاه أو شيئا من حطام الدنيا ، أما المؤمن فأساس الفرح والحزن عنده مبني على أساس أن السعادة إنما هي في الجنة ، فكل عمل يعمله يرجو فيه ثواب الله فهذا هو الفوز لأنه يقربه من الفوز الأكبر بالجنة ، وكل عمل يعمله من أجل الدنيا فهذه هي الخسارة لأنه يقربه من الخسارة الكبرى وهي النار .

ـ أمثلة تبين ارتباط عمل العقل والمشاعر بالنعم :

1ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بنعمة المال :

ـ أكبر وأخطر الأصنام التي يعبدها الناس اليوم هي عبادة المال والتي تعني تعلق المشاعر بالمال أكبر من تعلقها بـالله والآخرة ، وقد تكون المشاعر المتعلقة بـالله غير موجودة أصلا وكل المشاعر متعلقة بالمال ، فيكون كل حبه وخوفه ورجاءه وهدفه وهمه في المال وكيفية الحصول عليه .

ـ إن كلمة (المال) عند من لم يشعر بضآلته وفناءه أمام قيمة الآخرة تختلف عن كلمة (المال) عند من يشعر بذلك ، فالأول ينظر إلي المال أنه ذو قيمة عظيمة وينظر إلى صاحب المال نظرة تعظيم وانبهار أما الثاني فينظر إليه على أنه مجرد عارية تسترد بعد قليل حين الموت .

ـ من الناس مَنْ يعيش حياته من أجل جلب الرزق كأن ذلك عبادته التي خلق لها : ((وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالآنسَ إلا لِيَعْبُدُون ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون))[5] ، ((وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ))[6] ، ولاحظ أن الرزق مفهومه واسع فإن تحصيل الرزق يعني تحصيل أي أمر فيه راحة أو نفع للإنسان ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : { من كان يريد حرث الآخرة } الآية قال : ((يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك))[7] ، وفي حديث آخر : ((يقول ربكم يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يدك رزقا ، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقرا وأملأ يدك شغلا))[8] ، وفي حديث آخر : ((لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغه آخر رزق هو له فاتقوا الله وأجملوا في الطلب أخذ الحلا ل وترك الحرام))[9] ، وفي حديث آخر : ((إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله))[10] وفي حديث آخر : ((لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت))[11] ، وفي حديث آخر : ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إ

---

(1) الأنعام : من الآية 26
(2) آل عمران : 197
(3) الأعراف : 179
(4) الملك : 10
(5) الذريات : 56 ، 57
(6) سبأ : 37
(7) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم : 3166)
(8) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج : 3 ، برقم 3165)
(9) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 7323 في صحيح الجامع)
(10) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 1630 في صحيح الجامع)
(11) تحقيق الألباني : حسن (صحيح الجامع برقم 5240)

لا بطاعته))[1] .

2ـ الغرور بالنفس والتفاخر بالنعم :

ـ الخضوع معناه إلغاء الإرادة ، والإنسان مغرور بإرادته يحسب أنها ذاتية فيه وملكا له ، والخضوع معناه أيضا خضوع العقل فلا يسير الإنسان تبعا لما يراه هو وإنما تبعا لما يريده الله تعالى .

ـ قد يقول الإنسان بمشاعره : (أنا ربكم الأعلى) رغم أنه بلسانه وباقتناعه النظري يقول لا إله إلا الله ، وذلك عندما يشعر أنه الأعلى ـ أو يريد أن يكون الأعلى ـ فوق كل الناس في كل شيء وهم جميعا أذلاء تحت قدميه ، فقلبه مليء بالحقد على الناس وكراهية الخير لهم والحسد على ما عندهم ، فهو يريد التعاسة و الشقاء والفقر والبلاء للناس ، ويريد لنفسه كل الرفعة والعظمة والمكانة والغنى ، وهو يتجاهل أن هناك إله فوقه ، لذلك يرى أنه وحده الأعلى المتكبر على الناس الغني العظيم في مكانته ويريد أن يصل ليكون لنفسه كل صفات العظمة والقوة ولغيره كل صفات الضعف والفقر والذل حتى ولو لم يصل إلى ذلك فهو يشعر بذلك في نفسه أو يريده ، فهو يقول بمشاعره : ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ))[2] ، فهم يعتبرون أن غيرهم من الناس هم طبقة الرعاع السفلة المنحطين ! .

ـ هنا يأخذ الإنسان دور الإله بدلا من أن يكون عابدا ، فهو يصنع من نفسه إلاها ، حيث يغفل الإنسان عن حقيقة نفسه فلا يتنبه إلى ضآلته ، ويزين الشيطان للإنسان أنه ذو قدر عظيم وكبير ، فتكون نظرة الإنسان لنفسه أنه ذو شأن هام عظيم القدر وأن له إمكانيات وقدرات وسيطرة وعلم كبير ، فيغتر بما عنده من عقل ذو قدرات هائلة ، وأنه هو الذي صنع التقدم العلمي الهائل والتكنولوجيا المبهرة ، وأنه يستطيع أن يصنع الأعاجيب ، وأن ما عنده من مال أو صحة أو ممتلكات أو صحة جسدية أو جمال أو نعم فهي من صنع يده ونتيجة لكده وعلمه وخبرته ، وأنه حر وله الحقوق والسيطرة وقدرات كبيرة ، وأنه ليس بضعيف أو ناقص أو يحتاج لغيره فهو يعتمد على نفسه ولا يذل لأحد وليس لأحد عليه سلطان أو مذلة أو حق ، ولا يدري أنه بذلك يتعالى على الله ويستكبر أن يخضع له : ((إنهم كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ))[3] ، فإنه يتناسى أو يتجاهل قدر عظمة الله ، ويتناسى أو يتجاهل قدر ضآلة نفسه ومدى ضعفه : ((أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ))[4] ، ((هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً))[5] ، فيشعر الإنسان بأنه ذو قدر عظيم وتتوجه مشاعره تجاه نفسه فيعبد ذاته ، فيعتز بنفسه ويرى العزة لنفسه وليست لله : ((فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً))[6] ، فهو يعبد نفسه يريد لها كل المتع ويريد لغيره كل الشرور ، كأنه يريد أن يجعل من نفسه إله وغيره عبيد ، فربما تجده متكبرا متعالي مغرور شحيح النفس مرائي ، فكل همومه وأهدافه هي نفسه ، وكل مشاعره مرتبطة بما يسعد رغباته ، وعلى العكس فمشاعره كارهة لأي خير للناس ، فهذه هي عبادة الذات فهو يعبد نفسه ، وكذلك تجد عنده حب التسلط على الناس و التحكم فيهم وحب الزعامة وأن يكون مطاعا ، فإذا كان حبه لذلك أكبر من حبه لله أو كان كل حبه لذلك فقد عبد نفسه .

ـ من الناس من يكون أكبر ما تتعلق به مشاعره وهمومه وأهدافه هو الترقي في المكانة الاجتماعية و الحصول على الشهادات العلمية سواء لنفسه أو لأبنائه سواء كان ذلك للحصول على مال أكثر أو التمتع بـ المظاهر والرياء فإذا كانت مشاعره مرتبطة بذلك أكبر من ارتباطها بـالله والآخرة فذلك عبادة للمظاهر .

ـ ولاحظ أن عبادة المظاهر قد تكون صورتها في أن يكون أكثر مالا من الناس وتمني زوال المال من عند الناس بحيث يكون الإنسان أكثر مالا من غيره فيتعالى عليهم بذلك أو بتحصيل جاه ومنصب ومظهر وتمني زوال ذلك من عند الناس حتى يتعالى على الناس بمكانته ، وليست القضية في ذات العمل ولكن في تعلق

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2085 في صحيح الجامع) ا
(2) آل عمران : من الآية 75
(3) الصافات : 35
(4) يّـس : 77
(5) الإنسان : 1
(6) فاطر : من الآية 10

قلبه به ، فالعمل معصية لكن تعلق القلب به أكبر من تعلقه بـالله هو عبادة للهوى .

3. ارتباط عمل العقل والمشاعر بنعمة العقل :

ـ من الناس مَنْ حياته مبنية علي أساس ما يراه عقله ومزاجه ، فيجعل الرأي هو المحور والأساس والمقياس والمرجعية الوحيدة التي يعيش بها حياته ، فيعيش وفق ما يميل إليه رأيه ومزاجه وهواه وما يشتهي ويريد ، فهذا يعبد هواه .

ـ ومن الناس من يكون الجدال عنده شهوة يجد فيه اللذة لدرجة أن يكون أكبر مشاعره .

ـ وهناك مَنْ يصنع لنفسه قضية ويعيش لها ، فمثلا كان في الجاهلية قبائل كل محور حياتهم شرف القبيلة وسمعتها فكانوا يقاتلون من أجل القبيلة ، كذلك الذي محور حياته الموضة أو الشهوات أو هواية معينة أو تسلية معينة أو عمل معين بحيث يكون ذلك هدفه وغايته وكل شاغله يقوم ويقعد من أجله فعندئذ يقع في عبادة الهوى ، وهناك من يعيش من أجل هدف أو منهج اخترعه لنفسه كمن يعيش من أجل الليبرالية أو الا شتراكية أو الشيوعية أو غير ذلك .

ـ ومن الناس مَنْ يحب شخصا لقضيته فسوف يحشر معه ويكون مصيره هو نفس مصير هذا الشخص ، ففي الحديث : ((المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ))[1] ، فإذا كان يتخذ شخصا ما مثلا أعلى له في أمر من أمور الدنيا بحيث كان حبه لذلك أكبر من حبه لله فذلك عبادة للهوى ، لذلك فالمؤمن لا يحب أحداً أو شيئا إلا في الله أي لقضية الدين أي تتوجه مشاعره إلى الله والآخرة .

4. ارتباط عمل العقل والمشاعر بنعمة العقل عند الناس (العادات والتقاليد) :

ـ من الناس من لا يعترفون بعجز العقل البشري أمام علم الله ويحسبون أن البشر هم الأسياد والملوك على هذه الأرض لما لديهم من قدرات العقل الهائلة ، فتتعلق مشاعرهم بالمخترعات الحديثة والتكنولوجيا والعلم الحديث وتنصرف عن الله والآخرة .

ـ من الناس من يظن أن ما يقوله الناس بعقولهم وآراءهم هو الصواب ، فهو يعظم قوانين العادات والتقاليد والعرف والمصالح والقوانين الوضعية ويتعلق مشاعره بها أكبر من تعلقها بالقيم الإسلامية وقوانين الحلال والحرام وأكبر من تعلقها بـالله والآخرة فذلك من عبادة الهوى والمزاج والرأي .

ـ فمن الناس من يكون عندهم كل ما ينبني عليه عتاب من الآخرين أو خسارة اجتماعية أو عقاب من القانون فهو محل اعتبار واهتمام بدرجة أن أكبر مشاعرهم مرتبطة بذلك ، وكل التصرفات والحسابات مبنية على ذلك .

ـ ومن الناس مَنْ أعماله مبنية علي أساس اعتبارات الناس وفي الحديث : ((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس))[2] ، فهذا ينشأ من أن مشاعره متوجهة للناس ولو شعر أن نظر الناس ليس فيه نفع أو ضر لما اهتم بنظر الناس ، وإنك لتجده يعيش حياته بناءا علي عادات الناس وتقاليدهم يقيس علي ذلك ما هو صواب وما هو خطأ وما يفرح به وما يحزن عليه (والناس يفرحون ويحزنون علي أمور دنيوية من اختراعاتهم) ، ولا يمكن لإنسان يشعر بخطورة الآخرة و الغيبيات إلا أن يجعل الآخرة والغيبيات هي الأساس والمقياس الذي يبني عليه حياته وأعماله ، أما الذي جعل أساس حياته اعتبارات الناس فهو قد آثر عادات الناس وتقاليدهم ، فبدلا من أن يعيش أسيرا منقادا لله ، فهو اختار أن يعيش أسيرا منقادا لحسابات واعتبارات العادات والتقاليد وكلام الناس والوطن والجنسية و التعصب للعائلة أو الجنس أو الوضع الاجتماعي المعين أو المستوي المعيشي أو البيئة المحيطة أو التعود وا لألفة علي ما كان عليه الآباء والأصحاب ، أو يعيش أسيرا لهواه ، أو أسيراً لإطار معين : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

---

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6689 في صحيح الجامع)
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6010 في صحيح الجامع)

اتبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شيئا وَلا يَهْتَدُونَ))[1] .

5ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بتمني المال وتمني لذة ملئ البطن وإخراج المني وتمني التفاخر بالمال :

ـ قد لا يقع الإنسان في الشهوات ، لكنه يعيش حياته متمنيا لها قريبا منها يدور حولها وإن لم يقع فيها ، فهو ينشغل باله بالشهوات ويسمع عنها ويتكلم بها ، ويجد سعادته في الإغراء بها وتمنيها ، فإذا كان تعظيمه لهذه الأماني أكبر من تعظيمه لله ، وإذا كانت مشاعره متعلقة بهذه الأماني أكبر من تعلقها بالله فهو يعبد الأ ماني .

ـ إذا كان أكبر ما يتمناه الإنسان وأكبر ما يحلم به وأكبر ما يرجوه وأكبر ما يطمح إليه سواء على سبيل التمني في خيال الإنسان كأن يتمنى الإنسان أن يعثر على كنز مثلا ، أو على سبيل الأمل في الوصول لشيء من الممكن تحقيقه ، فإذا كان أكبر ما يتمناه ويطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه هو المال وأن يكون غنيا أو المظاهر أو الشهوات أو أي شيء من أمور الدنيا وشهواتها فهو يعيش من أجل الدنيا وإن كان يكذب على نفسه ويظن أنه يعيش لله ، أما المؤمن فإن أكبر ما يتمناه ويطمح إليه ويرجوه ويحلم به ويفكر فيه هو الوصول إلى الجنة ، ولا يتحقق الإيمان حتى يزول تعظيم قيمة الدنيا من القلب وبالتالي حتى يكون أكبر ما يحلم به الإنسان ويتمناه هو الجنة ورضا الله وليس العثور على كنز أو الوصول إلى ألوان الثراء الدنيوي والمناصب العليا وكامل التمتع بشهوات الدنيا .

ـ بعض الناس يظل يصور لنفسه أن شهوة النساء فيها متعة كبيرة وعظيمة ، وقد يصور لنفسه أنه بالفعل يحقق هذه المتعة العظيمة ، أو يظل ينشد الوصول لهذه المتعة العظيمة ، وينظر إلى شهوة النساء على أنها السعادة الني ينشدها الجميع ويعيشون لها ، ويظل يتغنى بها في حله وترحاله ، وذلك كله رغم يقينه النظري بأنها متعة صغيرة وقتية سواء في حد ذاتها حيث للإنسان قدرة محدودة لهذه الشهوة أو إذا قارنها بمتعة الحور العين في الجنة ، لكنه يتجاهل ذلك كله ويتغافل عنه ويخدع نفسه ويصور لنفسه أن متعة النساء هي الشيء العظيم ومنتهى الأمل وأن قدرته في التمتع بهذه الشهوة لا حد لها ، فإذا كان حبه ومشاعره المتعلقة بهذه الشهوة أكبر من حبه ومشاعره المتعلقة بالله فقد وقع في عبادة شهوة النساء ، وفي تفسير القرطبي : ((" الذين في قلوبهم مرض " يعني الذين في قلوبهم الزنا ... وقال سلمة بن كهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى متقارب))[2] ، وفي الحديث : ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء))[3] .

ـ وقد تتعلق مشاعر الإنسان ببعض الشهوات كشهوة المظاهر أو بالمال أو شهوة النساء ...الخ ولكنها لا تصل إلى درجة أن تكون عبادة للمظاهر أو المال أو شهوة النساء .. الخ ، أي لا تكون أكبر مشاعره متعلقة بالمظاهر أو المال أو شهوة النساء .. الخ ، وذلك لأي واحدة على حدة ، ولكن قد تتعلق مشاعر الإنسان بمجموعة من الشهوات أو الأشياء فيكون مجموع تعلق مشاعر الإنسان بمجموع هذه الشهوات أكبر من تعلق مشاعر الإ نسان بالله والآخرة ، وهذا هو الخطر .

ـ فمن الناس من تتوزع أهدافه على أمور كثيرة من أمور الدنيا حتى تمتلأ أهدافه فلا يوجد حيز لهدف آخر ، فهو يريد أن يكون كذا وكذا ، ويريد أن يحقق كذا وكذا من أهداف الدنيا ، فهو لا يعيش من أجل قضية معينة واحدة وإنما لعدة قضايا فلا يشعر أن مجموع هذه القضايا يمثل قضيته في الحياة ، فمجموع هذه الأ هداف هو في حقيقته هدف واحد هو الدنيا ، وكذلك في حبه ومشاعره ، فإن مجموع المحاب أكبر من حب الله ، ومجموع المخاوف أكبر من الخوف من الله ، ومجموع الهموم أكبر من انشغاله بلقاء الله والآخرة ، فمثل هذا الرجل هو يعيش من أجل الدنيا وغايته الدنيا رغم أنه قد يكون مقتنعا تماما بأنه يعيش لله وغايته الله .

6ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بنعمة الشعور بلذة إخراج المني :

---

(1) البقرة : 170
(2) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 14 ، ص : 245)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5597 في صحيح الجامع)

ـ قد يكون كل هم الإنسان وكل تفكيره وكل مشاعره في هذه المتعة وما يدور حولها من متعة النظر إلى العورات ومتعة الكلام عن الجماع بصورة مباشرة أو غير مباشرة ومتعة النظر إلى أفلام العري والإباحية ، أو يكون ذلك أكبر همه ومشاعره ، فهو يعبد الفرج ، أي يعبد شهوة إخراج المني .

7ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بالتغلب على نقص النعم :

ـ قد يعيش الإنسان كل حياته من أجل التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك ، فيكون ذلك كل هدفه وكل مشاعره وكل همه ، فهو بذلك يعبد الدنيا رغم أنه لا يملكها ! .

ـ إن كل إنسان يريد أن يحل مشاكله ليصل إلى السعادة ، ولكن الفرق أن هناك من يرى مشاكله في الدنيا من الطعام والشراب والزواج والمسكن والحرية ...الخ ، ويرى أن سعادته هي في الدنيا بحل مشكلاته وتوفير الراحة ، ويستند إلى الحل باستخدام العقل والرأي السديد ، وعلى العكس فهناك من يرى أن مشاكله في الآ خرة من البعث والوقوف بين يدي الله والحساب ومصيره إلى الجنة أو النار...الخ ، ويرى أن سعادته هي في الآخرة بحل مشكلاته والوصول إلى الراحة في الجنة ، ويستند إلى الحل باستخدام الشرع من الكتاب و السنة ، فالأول تدور مشاعره حول محور الدنيا فهو يعبد الدنيا ، والثاني تدور مشاعره حول محور الآخرة فهو يعبد الله ، فإذا لم يكن أكبر المشاعر متجهة لمشاكل الآخرة فذلك عبادة للهوى .

ـ ارتباط مشاعر الإنسان بقضايا الدنيا أكبر من ارتباط مشاعره بقضايا الآخرة يدل على أن تعظيم الدنيا عنده أكبر من تعظيم الآخرة ، وهذا يعني إيثار الدنيا على الآخرة ، وهذا فضلا عن أن تكون مشاعره مرتبطة بقضايا الدنيا فقط من قضايا الزواج والأموال والتجارة و الطعام والشراب والتعليم وغير ذلك من أمور الدنيا .

8ـ ارتباط عمل العقل والمشاعر بجلب النعم لغيره :

ـ من الناس من يعيش الإنسان حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه فيكون مورد مالي فقط فيكون ذلك أكبر مشاعره وأهدافه ويكون ذلك أكبر سعادة له ثم يكتشف في النهاية أنه كان يحصد الهواء ويموت ويترك أولاده يتنعمون بما ترك لهم وهم لا يقيمون له وزنا في أنفسهم سواء في حياته أو بعد موته .

ـ المؤمن لا يعيش من أجل نفسه ولا يعيش من أجل زوجته وأولاده ولا يعيش من أجل أحد من الناس ولا عمل من الأعمال ، وإنما هو يعيش لله فقط ، والمؤمن يرى نفسه عابر سبيل مسافر ويرى الناس كذلك ، لذلك فهو ينظر إلى ما يحصله من الدنيا لنفسه ولغيره نظرة المسافر الذي يدبر ما يعينه على سفره هو وغيره ممن هو مسئول عنهم ، كما أنه يعلم أنه لن ينفعه أحد من الناس فلا ينشغل إلا بتحقيق إيمانه وطاعة الله تعالى ، ولكن هناك من يعيش من أجل نفسه وإسعادها أو من أجل غيره كزوجته وأولاده أو من أجل الدنيا و الشهوات والمناصب ... الخ فهو يعبد الدنيا والهوى من دون الله تعالى .

ـ فهناك من أتعب نفسه في تحصيل متع الدنيا ظنا منه أنه بذلك سيحقق السعادة لنفسه ، ولكنه في الحقيقة أتعب نفسه بلا فائدة ، فهو قد خسر ما بذله من جهد حيث سخر نفسه لجلب متع الدنيا له فلم يحقق ذلك له السعادة ، وكذلك هناك من أتعب نفسه في تحصيل متع الدنيا لأهله ظنا منه أنه بذلك سيحقق السعادة لنفسه ، ولكنه في الحقيقة أتعب نفسه بلا فائدة ، فهو قد خسر ما بذله من جهد حيث سخّر نفسه لجلب متع الدنيا لأهله فلم يحقق ذلك له السعادة ولم ينفعه أهله ، فهو بذلك قد انشغل بنفسه عن الله وانشغل بأهله عن الله ، فهو بذلك قد خسر نفسه وأهله : ((قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ))[1] .

(1) الزمر : 15

ـ وتعلق مشاعر الإنسان بالناس من الغباء لأن الناس لن ينفعوه حتى لو كانوا أقرب الناس إليه كالزوجة والأو لاد والأقارب والأصحاب ، ففي الحديث : ((.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إ لا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك))[1] ، ومن علم أنه لن ينفعه أحد انشغل بنفسه في حاله مع الله عن الانشغال بالناس وعاش غريبا بين الناس ففي الحديث : ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور))[2] ، ويقول تعالى : ((لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ))[3] ، ((يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ))[4] ، وفي الحديث : ((واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس))[5] .

9ـ التلهي بالنعم :

ـ إن هناك أمور كثيرة أحلها الشرع كالطعام والشراب والملبس والتعليم والعمل ....الخ ، والقضية ليست في هذه الأمور في حد ذاتها فهي أمور يأمر بها الشرع حتى ما فيها من اللهو المباح والمتع الحلال ، وإنما القضية في ارتباط المشاعر وتوجه المشاعر تجاه هذه الأمور فتصبح قضية الإنسان في حياته وهمه الأكبر ، وإنك لتجد المرء مهموما بالمال والشهوات والمظاهر والترف والأغاني ومهموما بمشاغل الحياة من الدراسة والزواج والأولاد والطعام والشراب ....إلخ (سواء ما فيها من حلال أو حرام) ، وإذا بحثت عن مكان في الذهن مشغولا بالآخرة لا تجد ، وكأن عالم الغيب لا يعنيه رغم أن كلمة الآخرة تعني الأهوال والخطر القادم ، فإنه ينظر إلى عالم الغيب بعدم اهتمام في حين ينظر إلى أمور الدنيا باهتمام بالغ ، وقد يكون الإنسان مقتنعا بأنه لا يعيش من أجل هذه الأشياء أو أنها ليست قضيته الأولى في حياته ، ولكن العبرة باتجاه مشاعره وحياته وهمه وطموحه وتضحياته من أجل ذلك الأمر ، فأنت لا تختار الطريق باقتناعك النظري ولكن مشاعرك هي التي تختار الطريق ، فقد تختار أنت طريق الحق مقتنعا به نظريا ، لكن مشاعرك تختار طريق الشهوات أو أي شيء فلا تتأثر المشاعر بالغيبيات وإنما تتأثر بهذه الأشياء .

ـ ملحوظة :

ـ عبادة الهوى لا تعني التعلق بالنعم فقط وإنما أيضا التعلق بأي شيء سوى الله سبحانه وما يتصل به ، ك التعلق بالناس أو الأعمال الدنيوية أو شيء أو منهج يخترعه الإنسان ، والعاقل لا يتعلق بغير الله لأنه وحده النافع الضار وكل ما سواه لا ينفع ولا يضر فلا قيمة له .

ـ أي شيء غير الله سواء كان ماديا أو معنويا سواء كان حلالا أم حراما تتعلق به مشاعرك أكبر من تعلقها ب الله فأنت تعبد ذلك الشيء وذلك عبادة للهوى وذلك الشيء هو صنم يُعبد من دون الله تعالى .

ـ فهناك مفهوم مغلوط عن الأصنام ، فالأصنام ليست فقط تلك المصنوعة من الحجارة فقط ، فالدنيا صنم كبير يعبده الكثير من الناس ! .

ـ وعبادة الأصنام عبارة عن منهج مخترع اخترعه المشركون وعاشوا له وأعجبوا به وقدسوه وشغلوا حياتهم به ووجهوا تفكيرهم إليه ، وأصبح ذلك عادات وتقاليد مقدسة حصروا عقولهم فيها ، وكذلك كل من يخترع أمرا أو يختار أمرا غير الله والآخرة والدين فيشغل حياته وهمه وتفكيره به ، سواء كان ذلك خيرا آم شرا ح لالا أم حراما لكن توجه إليه التفكير منصرفا عن الله والآخرة وتعلقت به المشاعر مبتعدة عن التعلق بالله و الآخرة ، فعبادة الأصنام هي صورة من عبادة الهوى .

****

ـ ثالثا : عمل الجوارح

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 667 ، برقم : 2516)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 567 ، برقم : 2333)
(3) الممتحنة : 3
(4) عبس : 34 ـ 36
(5) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 73 في صحيح الجامع)

ـ عندما يشعر بأن جلب النعم ليس بكده وتعبه وذهابها ليس من تقصيره في السعي وأنه لا يدري ما يفعل به ويشعر بأن النعم لا قيمة لها من حيث زوالها بموته فإنه عندئذ لن يتشاحن مع الناس على الدنيا ولن يعيش للمال والشهوات وسوف يتعامل مع الناس بالأخلاق الحسنة لأنه يرى أن الناس مثله تأتي لهم النعم وتسلب حيثما يريد الله وهم لا حول لهم ولا قوة .

ـ عمل الإنسان يدل على ما في تفكيره ومشاعره ، فإذا كان المال هو الذي يشغل تفكيره ومشاعر فسوف تجد أن كل عمله أو أكثره يتجه لجلب المال ويكون أكثر كلامه عن المال ، وما يظهر عليه من انفعالات وغضب وفرح يدل على انبهاره بقيمة المال وحزنه على فقده ، وهكذا .

ـ ولكن مهما عمل الإنسان من أعمال لا يمكن أن نعرف بها حقيقة ما في قلبه ، فالله يعلم ما في قلبه والإ نسان نفسه يعلم ما يدور في قلبه (ما يدور في عقله وما تتعلق به مشاعره) .

ـ أعمال الدنيا وأعباء الحياة والأمور التي تسرق الوقت قد ينشغل بها هم الإنسان وكلامه وعمله حتى تسرق عمره كله فيموت ولم ينشغل همه بلقاء الله والآخرة : ((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ))[1] .

****

ـ الأدلة على عبادة الهوى (التعامل الخاطئ مع النعم) :

ـ عبادة الهوى تعني أن الإنسان يحسب أنه قوي بامتلاكه النعم ، ويرى أن ما يقوم به من أمور وما يصنعه من أشياء هي أمور وأشياء عظيمة القيمة ـ ولو كانت في حقيقتها أمور تافهة ـ ففي ذلك قوة له ، وهو يرى أن الدنيا عظيمة القيمة وأن ما بها من متع وشهوات عظيمة القيمة ففي ذلك قوة له لأنه يرى أن الدنيا ملك له وأن البشر هم الملوك على هذه الأرض ، رغم اليقين النظري التام بأن الدنيا إلى زوال ، وأن كل ما يخترعه الإ نسان مما يفيد هو نعم من الله وأن الله هو المالك والرزاق .

ـ فهو في حقيقته يتلهى بالنعم وبما يقوم به ويصنعه عن الخضوع للمنعم ، فيتشاغل بذلك عن سماع كلام المتحدث الذي يأمره بالخضوع (المتحدث هو الله أو الرسل أو القرآن أو الدين أو آيات الكون أو الشرع) .

ـ والأدلة على عبادة الهوى هي :

1ـ يقول تعالى : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ً))[2] ، ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ))[3] ، ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ** بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[4] .

2ـ جاء في تفسير القرطبي : ((الهوى إله يعبد من دون الله))[5] ، وفي تفسير الطبري : ((أرأيت يا محمد مَنْ اتخذ إلهه شهوته التي يهواها))[6] ، وفي تفسير ابن كثير : ((أرأيت مَنْ اتخذ إلهه هواه أي بما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه))[7] ، وفي تفسير النسفي : ((أي مَنْ أطاع هواه فيما يأتى ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه))[8] ، وفي تفسير الطبري : ((أفرأيت يا محمد مَنْ اتخذ معبوده هواه فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحق الذي له الألوهية من كل شيء))[9] .

3ـ قال تعالى : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ

---

(1) التكاثر : 1، 2
(2) الفرقان : 43
(3) الجاثـية : من الآية 23
(4) القصص :50
(5) تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 13 ، ص : 35)
(6) تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 19 ، ص : 274)
(7) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 6 ، ص : 113)
(8) تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج : 2 ، ص : 539)
(9) تفسير الطبري [الطبري جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج : 22 ، ص : 76)

حبّاً لِلهِ))[1] ، ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[2] ، ((ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ))[3] ، ((الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[4] ، ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))[5] ، ((إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلا ً))[6] ، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[7] ، ((وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[8] ، ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[9] ، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[10] ، أي إذا كان حب الدنيا أكبر من حب الله فهذا نفاق أكبر وعبادة للهوى .

ـ ويقول ابن القيم : ((قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) فأخبر أن من أحب من دون الله شيئا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادا فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحدا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم))[11] .

4ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فمن آمن بـالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله))[12] .

5ـ الحديث : ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط))[13] .

6ـ جاء في الحديث : ((ليغشين أمتي من بعدي فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل))[14] ، وفي حديث آخر : ((بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا))[15] .

7ـ جاء في الحديث : ((الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار))[16] .

8ـ قال عيسى عليه السلام : ((لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا))[17] .

9ـ يقول ابن القيم : ((فصل في القلب الميت : والقلب الثاني ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه و الغفلة مركبه ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادى

---

(1) البقرة : من الآية 165
(2) الشعراء : 98
(3) الأنعام : 1
(4) إبراهيم : من الآية 3
(5) القيامة : 20
(6) الإنسان : 27
(7) النحل : 107
(8) ابراهيم : 2 ، 3
(9) النازعات : 37 - 41
(10) الأعلى : 16
(11) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (3 / 21)
(12) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ دار العاصمة ـ الرياض (ج : 6 ، ص : 31 ـ 32)
(13) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 2962 في صحيح الجامع)
(14) التخريج : صحيح (صحيح الجامع برقم 5460)
(15) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 487 ، برقم 2195)
(16) التخريج : صحيح (صحيح الترغيب والترغيب ج : 3 ، برقم : 3219)
(17) إحياء علوم الدين ـ دار المعرفة - بيروت (3 / 203)

إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، ولا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه ، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى عدو لمَنْ عادت وسلم لأ هلها ومَنْ قربت ليلى أحب وأقربا ، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك))[1] .

10ـ دليل من الفطرة : معنى كلمة رب وإله في لغة المشاعر :

ـ الرب أو الإله لابد حتما أن يكون أكبر من البشر في صفاتهم وقدراتهم وإمكانياتهم وقدرهم وفي كل شيء لأنه الذي خلقهم بدليل الآية : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً))[2] ، وبغير أن يكون الإله أكبر وأعظم من البشر فلا يكون إله ، وهذا هو أبسط معنى لكلمة الإله ويعرف ذلك كل الناس بالفطرة وبدون أن يتعلموا شيء ، وطالما أن الإله أكبر فهذا يعني بالضرورة أن تعلق المشاعر به أكبر ، وبالتالي إذا ساوى أحد في مشاعره بين الله وبين غيره ، فإنه يساوي بين الله وبين البشر في القدرات والصفات كأنه مثل أي واحد من البشر ، كذلك من تكون مشاعره تجاه الله أقل من المشاعر المتجهة للبشر أو للدنيا فهذا مشاعره تنقص من قدر الإله وتقول أن هناك من هو أجدر منه وذو قدر أكبر منه ، أو الذي تكون مشاعره للإله تساوي صفرا وجميع مشاعره متجهة إلى الدنيا فهذا مشاعره تقول : (لا إله) .

11ـ ((فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى))[3] ، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[4] ، ((وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أمر مُسْتَقِرٌّ))[5] ، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ))[6] .

12ـ ويقول علي رضي الله عنه : ((إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة إلا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل))[7] .

13ـ الشيء الذي يصل حبك له إلى درجة العشق بحيث يمتلأ قلبك بحبه فلم يعد في قلبك شيئا لحب غيره ، فهذا الشيء أنت بذلك تعبده ، فإذا كنت تحب المال إلى درجة العشق بحيث يمتلأ كل قلبك بحبه فأنت تعبد المال ، وعلامة ذلك أن يتقطع قلبك على ضياع مليم ، وإذا كنت تحب المرأة أو الأولاد أو المظاهر والمناصب أو أي شيء إلى درجة العشق بحيث يمتلأ كل قلبك بحبه فأنت تعبد ذلك الشيء من دون الله ، وعلامة ذلك أن يتقطع قلبك عليه إذا ابتعد عنك .

ـ فمعنى كلمة (إله) أي هو الذي يجعلك تتحير وتندهش وتعجب به إعجابا شديدا بمدى صفاته ، فتحبه إلى درجة العشق بحيث يمتلأ كل قلبك بحبه ، وعلامة ذلك أن يتقطع قلبك على البعد عنه ، أي هو الذي لا تستطيع أن تقطع تفكيرك ومشاعرك وهمومك وأهدافك عنه ، أي هو الذي يتعلق تفكيرك ومشاعرك وهمومك وأهدافك به بشدة أي إلى درجة الوله ، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة ، ففي تاج العروس : ((وفي حديثِ وهب بنِ الوَرْدِ : (إذا وَقَعَ العَبْدُ في *!ألْهانِيَّةِ الرَّبِّ ، ومُهَيْمِنِيَّةِ الصِّدّيقِيْن ورَهْبَانِيَّةِ الأَبْرارِ لم يَجِدْ أَحَداً يَأْخُذ بقلْبِه) ، أي لم يَجِدْ أَحَداً يَعجبُه ولم يُحِبَّ إلا اللهَ سبحانه ، قالَ ابنُ الأثيرِ : هو فُعْلانِيَّة مِن أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تحيَّرَ ، يُرِيدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللهِ وجَلَالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمَه إليها ، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلبُه إلى أحَدٍ))[8] ، " الوله " يدل على الحب والفرح بالمحبوب لدرجة أنه إذا ابتعد عنك تتحير ويذهب عقلك وتحزن حزنا شديدا ، وهذا التحير والحزن هو الوله : ((الوَلَهُ : ذهابُ العَقل

---

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ مكتبة المعارف، الرياض (ج :1 ، ص : 9)
(2) فصلت : من الآية 15
(3) طـه : 16
(4) محمد : 16
(5) القمر : 3
(6) الكهف : من الآية 28
(7) صفة الصفوة ـ دار الحديث، القاهرة (1 / 120)
(8) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322)

والفُؤاد من فِقْدانِ حبيب ، يقال : وَلِهَت توْلَهُ وَتلِهُ، وهي والهةٌ ووَالِه. وكل أنثى فارقت وَلَدَهَا فهي والِهٌ))[1] ، (((وله) الوَلَهُ الحزن وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدّة الوجد أو الحزن أو الخوف والوَلَهُ ذهاب العقل لفِقْدانِ الحبيب))[2] .

ـ إذن إذا تعلق قلبك بشيء بشدة لدرجة الوله فأنت تعبد ذلك الشيء ، ومن أمثلة ذلك الخوف الشديد إلى درجة الوله على الصحة وعلى العمر وعلى المال وعلى الفقر وعلى الرزق ، والحزن والاكتئاب الشديد إلى درجة الوله من تقدم العمر والشيخوخة وفوات أي أمر من أمور الدنيا ، والحب الشديد لدرجة الوله للمال أو للشهوات أو للدنيا كحب الإنسان للمرأة لدرجة الوله .

****

ـ الخضوع معناه أن يترك الإنسان عبادة الهوى :

ـ أي يبتعد بتفكيره وهمومه ومشاعره وعمله عن الشهوات (عن التعلق بالنعم) ، ويتجه بتفكيره وهمومه ومشاعره وعمله إلى المنعم سبحانه ، وهذا أمر شاق جدا على من يعبد هواه وشهواته .

****

ـ الخضوع لله أو الخضوع للشهوات :

ـ طالما أن الإنسان لا يزال ينهزم أمام شهواته فهذا دليل على أنه لا يزال يعاند ويؤثر شهوته على عقله .

ـ كل الناس يدعون الإيمان ويدعون أنهم على الحق سواء في الاعتقاد أو في العمل أو في ارتباط أهدافهم ومشاعرهم بالله والآخرة ، فيختلط من تحقق عنده الإيمان مع من يدعي الإيمان ، إذن فلابد من اختبار واضح محدد يميز بين أهل الحق ومن يدعي الإيمان حتى لا يأتي أهل النار يوم القيامة فلا يرون أن أهل الإيمان يختلفون عنهم في كثير فقد كانوا مثلهم .

ـ لذلك جعلنا الله نعيش في اختبار صعب جدا وواضح ومحدد هو اختبار الشهوات ، فالذي تتعلق مشاعره وهمومه وجوارحه بالشهوات ويولع بها فهو بذلك يعبد الفرج أو يوشك على ذلك مهما ادعى الإيمان ، فالإنسان إما أن يعبد الشهوات وإما أن يعبد الله ، فإذا خضع للشهوات فهو بذلك لا يعبد الله ، وإذا لم يخضع للشهوات وانتصر على نفسه في هذا الاختبار الصعب فهو الذي يستحق الجنة ، وهو بذلك يعبد الله تعالى ، فالإيمان ليس اعتقادات نظرية باردة وبعض عمل ويوهم الإنسان نفسه بأنه يحب الله ويخافه ويخضع له وهو في الحقيقة لا يحب غير الشهوات والنظر إلى العورات والكلام عن الشهوات فذلك هو دينه أو يوشك أن يكون كذلك ، والله هو الذي يعلم هل وصل الإنسان الذي يعيش أسيرا للشهوات إلى درجة غياب الإيمان من قلبه أم أنه قريبا من ذلك .

ـ وهناك مؤشر واضح هو أن الذي يستمر في المعاصي المتعلقة بالشهوات ويصر عليها يخشى عليه أن يتكون الران على قلبه ، فكلما زاد في المعاصي زادت محبتها في قلبه وقلت محبة الله (إذا كانت موجودة أصلا) حتى تنتفي محبة الله من القلب ، ففي الحديث : ((إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }))[3] ، فالمعصية تصبح سهلة عنده ، ففي الحديث : ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أي بيده فذبه عنه))[4] .

****

(1) العين ـ دار ومكتبة الهلال (ج : 4 ، ص : 88)
(2) لسان العرب ـ دار صادر - بيروت (ج 13 ، ص : 561)
(3) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1418 ، برقم : 4244)
(4) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم 2358)

ـ ضوابط استخدام النعم :

ـ إذا كان الإنسان يعتقد أن الله هو مالك النعم وأنها مجرد أمانه وعطاء من الله ، فإنه سوف يلتزم بالضوابط التي وضعها الله في استخدام هذه الأمانة .

ـ فالطعام نعمة من النعم جعل الله الإنسان يجد متعة في الطعام ، والجماع نعمة من النعم جعل الله الإنسان يجد متعة في الجماع ، والمال والأولاد نعمة ، ووضع الله حدود وضوابط في استخدام النعم من تعداها فقد أسرف ، فأباح الطعام بشرط ألا تسرف وأباح الجماع بشرط الزواج وأباح السعي للمال ورعاية الأبناء بشرط أ لا يلهيك ذلك عن ذكر الله : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[1] .

ـ وفي أيسر التفاسير : (({ وكذلك نجزي من أسرف } : أي وكذلك الجزاء الذي جازينا به من نسي آياتنا نجزي من أسرف في المعاصي ولم يقف عند حد ، ولم يؤمن بآيات ربه سبحانه وتعالى))[2] ، وفي التفسير الواضح : ((ومثل ذلك نجزى من أسرف على نفسه ، وانهمك في الشهوات والبعد عن آيات القرآن ولم يؤمن بها الإيمان الصحيح))[3] .

****

ـ حقيقة النعم :

ـ النعم في حد ذاتها عظيمة جدا وتدل على عظمة الخالق وإنعامه .

ـ ولكن بالمقارنة بنعم الجنة فلا قيمة لها مطلقا ، وهذا يدل على مدى عظمة الخالق وقدرته أن أوجد نعم أعظم من نعم الدنيا وعلى مدى ثوابه .

ـ وهي أيضا لا قيمة لها بالمقارنة بفنائها وزوالها بالموت أو بالابتلاءات ، ولكن لها قيمة كبيرة في فترة وجودها عند الإنسان ، وزوال النعم دليل على ضعف الإنسان وأنه لا يمتلك النعم .

ـ وهي ضئيلة القيمة من حيث أن الله جعل الإنسان له قدرة محدودة على الاستفادة منها ، فالإنسان لا يستطيع أن يأكل كثيرا وإلا تعب ولم يجد متعة ، ولا يستطيع أن يسرف في الجماع وإلا تعب ولم يجد متعة ، ولا يستطيع أن يسرف في النوم وإلا تعب ولم يجد راحة وهكذا .

ـ وزوال النعم لا ينافي شكر الله وحبه لأن الإنسان استفاد منها في فترة حياته وجاءته ولم يكن مستحقا لها وليست ملكه فإذا أخذ الله ما يملك فيكون الإنسان شاكرا لله لأنه استفاد من النعم وقت وجودها ، ولا يحزن بزوالها لأنها ليست ملكه وإنما أخذها صاحبها .

****

الفصل الحادي عشر

التعامل الصحيح مع النعم

(1) المنافقون : 9
(2) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (3 / 387)
(3) التفسير الواضح ـ دار الجيل الجديد - بيروت (2 / 511)

ـ المؤمن يتعامل مع النعم على أنها ملك لله والله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء ، فهو النافع الضار بإعطائها وسلبها وغيره لا ينفع ولا يضر ، والنعم هي رزق للإنسان مقدر لا دخل للإنسان فيه ولا يزيد أو ينقص بسعيه أو عدم سعيه .

ـ والكافر والمنافق يتعامل مع النعم على أنه مالكها وهو الذي أتى بها بكده وسعيه ، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها ، أو أن غيره من البشر هو الذي أوجدها وأعطاها له ، أو أن الزمان أو الدنيا أو الأسباب هي التي أوجدتها ، وهي تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان ـ في نظره ـ رغم وجود اليقين النظري التام بأن النعم ملك لله وأن الله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء ، وهو النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر ، وأن الرزق مضمون ومقدر .

ـ والتعامل الصحيح مع النعم كالتالي :

ـ أولا : عمل العقل

1ـ التصور

ـ يتصور الإنسان أنه لا يملك شيئا بل إنه يحتاج إلى من يمده بعطاء ، وبالتالي يتصور ضعفه وخضوعه تحت قوة الله تعالى .

****

2ـ الشعور بالقيمة

ـ يشمل الشعور بالخضوع والشعور بالتوكل والرضا بالقضاء والقدر والشعور بالراحة النفسية (حلاوة الإ يمان) .

1ـ الشعور بالخضوع (الشعور بالضعف ـ إلغاء الإرادة)

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك الرازق وأن الإنسان لا يملك شيئا واليقين الحقيقي بأنك عبد هو الشعور بالخضوع .

ـ الخضوع هو إلغاء الإرادة :

ـ الخضوع يكون من الذي لا إرادة له كخضوع الملائكة والجمادات أو من الذي له إرادة ولكنها ليست ملكا له وهي نعمة أعطيت له أو فوقها إرادة أعلى تقهرها كخضوع الإنسان لأنه في حقيقة أمره لا إرادة له يملكها ، ولكن الإنسان يدعي أن يمتلك إرادته ويتناسى أن إرادة الله فوقها فلا يخضع .

ـ فالإنسان يكون خاضعا إذا ألغى إرادته ومشيئته فأصبح كأنه مسير مثل الملائكة والجمادات ، وشعر بأنه منقاد لا اختيار له ، وإذا استعمل إرادته فهو بذلك لا يخضع .

ـ إذا شعر الإنسان أن إرادته ومشيئته فوقها إرادة الله ومشيئته ، فإنه يلغي إرادته ومشيئته ويعيش خاضعا وفقا لإرادة الله ومشيئته ، فمن استشعر حقيقة أنه واقع تحت سلطان الله وأن الإرادة والقوة التي عنده ليست إرادته وليست قوته ـ أي ليست ملكا له ـ وإنما نعمة من الله عليه وملك لله تعالى ، كما أن إرادته وقوته ليست بشيء أمام إرادة الله وقوة الله تعالى ، إذا استشعر ذلك أسلم إرادته وقوته لله وخضع له .

ـ فالإرادة والمشيئة عكس الخضوع ، فكلما استعمل الإنسان إرادته كلما ابتعد عن الخضوع ، وكلما عطل إرادته كلما كان خضوعه أكثر .

ـ يصعب على الإنسان أن يلغي إرادته ويعيش كأنه مسير ، لأنه مغرور بنعمة الاختيار كأنها ناشئة من

كأنه هو الذي صنعها وهو الذي يملكها .

ـ والخضوع معناه خضوع العقل ، بمعنى أن الإنسان لا يعيش وفقا لما يختاره عقله ولكن وفقا لما يختاره ربه وإن خالف عقله ، ومعنى أن الإنسان يعيش وفقا لما يختاره له عقله أي يعيش تبعا لهواه ورأيه ومزاجه ، فالإ نسان إما أن يتبع هواه ورأيه أو يتبع الشرع .

ـ والإنسان أمامه الاختيار ، إما أن يلغي إرادته فيكون عبدا ، أي يكون خاضعا ، أو يرفض أن يلغي إرادته ويعيش حياته وفقا لما يريده هو لنفسه وتبعا لإرادته فيرفض أن يكون عبدا .

ـ والخضوع معناه أن يعيش حياته لغيره ، أي تبعا لما يريده منه سيده ، فيتنازل عن إرادته ، لأنه ضعيف مقهور ، فالخضوع معناه أن يشعر الإنسان كأنه مسيرا وليس مخيرا .

ـ الإنسان يتناسى أنه خاضع ويتصنع عدم الخضوع :

ـ العاجز لا يستطيع أن يفعل شيء ، والقادر يستطيع أن يفعل ما يريده ، العجز خضوع وضعف ، والقدرة قوة وكبرياء ، الإنسان عاجز خاضع وضعيف ولكنه يدعي أنه ليس بعاجز وخاضع وضعيف ، فيدعي أنه قوي بما عنده من نعم يحسبها ملكا له .

ـ الناس قسمين :

1ـ قسم يعترف بخضوعه وبضعفه وبأنه لا يملك شيئا .

2ـ قسم يدعي عدم الخضوع لأنه يحسب أنه قوي بما عنده من إرادة ونعم ، لأنه يدعي أن ما عنده من إرادة ونعم هي ملك له وليست ملك لله ، فهو يتصنع عدم الخضوع ، وهو يرفض الخضوع .

ـ الذي يكون له كل القوة يكون إله ، والذي يكون له كل الضعف يكون عبدا ، كذلك الذي يكون له الكبرياء يكون إله والذي يكون له الخضوع يكون عبدا ، ومعنى أن يقول الإنسان أنا عبد أي أنا خاضع ، والذي لا يريد أن يخضع هو بذلك يقول أنا لست عبدا ، وهذا هو أصل مفهوم الإله والعبد ، والناس يعرفون أن القوة كلها لله والضعف لهم ، أي يعرفون أن الله ربهم ، وهم في ذلك قسمين :

1ـ قسم يعترف بأن القوة لله ويشعر بها ، وهو بذلك يعترف بأن الله ربه وإلهه .

2ـ قسم يتناسى قوة الله ويدعى أنه قوي بما عنده من إرادة ونعم ، فهو ينسى الله .

ـ الخضوع نوعين :

ـ أولا : خضوع غير مرتبط بالثواب والعقاب : وينشأ من طريقين هما :

1ـ الخضوع الذي هو اعتراف الإنسان بحقيقة نفسه فليس له غير الخضوع ، أي اعترافه بأنه ضعيف ، و الضعف معناه الخضوع وأنه عبد .

2ـ شعور الإنسان بقوة الله يؤدي إلى الشعور بخوف المهابة والحب إعجابا بقوته العظيمة وجمال صفاته ، وهذا يؤدي إلى الخضوع خوفا من مهابته وحبا له .

ـ ثانيا : خضوع إضافي ، وهو خضوع مرتبط بالثواب والعقاب (ولابد من وجود النوعين معا) :

ـ فالأصل أن العبد يعيش من أجل سيده وليس من أجل أن يجلب لنفسه السعادة ويتجنب الشقاء ، فهو يرى أن سيده له الحق في كل شيء وهو ليس له الحق في شيء ، حتى لو آذاه سيده فهو حقه وشأنه ولا دخل للعبد في شأن سيده ، فهو يخضع لأنه ضعيف لا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعا ولا ضرا وليس من حقه أن

يطلب لنفسه نفعا وإنما يعطيه سيدا تكرما من عنده .

ـ فالأصل أن الخضوع والطاعة ليس صفقة تجارية بين العبد وسيده فيخضع له ويطيعه في مقابل عطاء ، فليس للعبد شيئا يملكه ليعطيه وخضوعه يكون لضعفه ، ولكن الله كرما من عنده عقد صفقة تجارية من عنده بأنه يشتري من الإنسان النفس والمال مقابل الجنة رغم أن النفس والمال هي ملك لله تعالى فيفعل أي شيء حتى لو طلب منه أن يقاتل فيقتل لأجاب : ((إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ))(1) .

ـ فالخضوع والطاعة يكون لسببين لابد من وجودهما معا هما الخضوع لأن الله هو المستحق للعبادة و الخضوع خوفا من النار ورجاءا في الجنة .

ـ مفهوم الخضوع (الشعور بالضعف) :

ـ الشعور بالخضوع معناه الشعور بأننا واقعون تحت سيطرة قوة قاهرة أكبر من قوى العالم ، وهذا يعني أننا لسنا أحرارا ولكننا مملوكين عبيدا تابعين ، والشعور بأننا ضعفاء لا نملك شيئا ولا حتى أنفسنا ، ولا نستطيع أن نجلب أي نفع لأنفسنا ، وأن ما عندنا من صفات كالقوة والإرادة والسمع والبصر ...إلخ هي أمور مخلوقة فينا ، فنحن وكل ما عندنا عبارة عن جزء من ممتلكاته وكل أمرنا بيده .

ـ الشعور بالخضوع يحدث عندما يشعر الإنسان بأنه ضعيف لا يمتلك قوة .

ـ ومن صور إدعاء القوة الغرور بالنعم على أنها ملك له وعدم الشعور بضعف الإنسان في الانتفاع بالنعم ، وبالتالي الشعور الكاذب بعظمة قيمة شهوة المال وشهوة النساء والطعام والشراب وشهوة الجاه والسلطان و المظاهر ، والشعور الكاذب بعظمة قيمة أي شيء سوى الله سبحانه وما يتصل به ، كالتعلق بالناس أو الأعمال الدنيوية أو الطموحات والآمال الدنيوية أو أي شيء أو منهج يخترعه الإنسان ، والعاقل لا يتعلق بغير الله لأ نه وحده النافع الضار وكل ما سواه لا ينفع ولا يضر فلا قيمة له .

ـ فإذا شعر بأن كل ذلك لا قيمة له شعر بالاستسلام والخضوع .

ـ فالخضوع هو الشعور بعدم الملكية ، والملكية قوة وعدم الملكية ضعف ، فالذي لا يملك مالا ولا متاعا ولا شهوات ويشعر بملكية كل شيء لله يشعر بافتقاره وضعفه أمام الله تعالى ، فإذا خرجت الدنيا من القلب دخل الخضوع ولن يخضع الإنسان طالما أنه يشعر بأنه يمتلك .

ـ عدم الشعور بالخضوع لله معناه استكبار : ((أنهم كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ))(2) ، فالذي يمنع من الشعور بالخضوع لله هو خضوع الإنسان لغير الله سواء خضوعه للدنيا ، أو خضوعه للشهوات أو للمال أو لأي شيء آخر .

ـ الإنسان أمامه خياران هو إما أن يركع وإما أن يرفض الركوع ، أي إما أن يبيع نفسه كما كان يحدث قديما في سوق العبيد فيعيش تابعا منقادا لسيده وليس له أي شيء خاص به ، فما عنده من مال هو ملك لسيده وما عنده من ملابس وطعام هو ملك لسيده ، وسيده له أن يفعل به ما يشاء ، أو يتحرر من هذه العبودية ويكون له رأيه وشخصيته الخاصة به .

ـ الأصل أن الإنسان ليس لديه أي نعم ، ومجيء النعمة له ليس قوة له لأنها ليست ملكه ومجيئها ليس بيده ، وذهاب النعمة عنه ليس ضعف منه لأنها ليست ملكه وذهابها ليس بيده فـالله هو الذي يعطيه النعمة أو يسلب منه النعمة ، ومجيئ النعمة أو ذهابها ليس باختياره وليس عليه إلا أن يقبل الأمر ويرضى باختيار الله له ، فهذا هو الخضوع .

---

(1) التوبة : 111
(2) الصافات : 35

ـ الخضوع والذل هو الاستسلام أي إسلام النفس وكل ما تملك إلى مالكها الحقيقي هو الله سبحانه ، أي التجرد من كل ما تملك لتنسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه ، لذلك هو أصعب شعور علي النفس ، فأنت مستسلم مغلوب علي أمرك من الله والله غالب علي أمره ، والخضوع والذل معناه أن تعيش مرهونا بعطائه فمن غيره تموت ، ذليلا لعطائه محتاجا لعطائه ، فبغير عطاءه ونعمه لا تستطيع أن تتنفس ، فالنفس والهواء نعمة ، فأنت عبد إحسانه خاضع لما يجود به عليك ، وكما يقولون فالإنسان أسير الإحسان ، و الخضوع والذل معناه اليقين الحقيقي بأن الله لا يسأل عما يفعل ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[1] ، فالله أراد أن يخلق الكون والناس والآخرة بما أراد وكيف أراد ، ولا يسأل لماذا ؟ ، فلا يحاسبه أحد ، ف الشعور بالتسليم بدون السؤال : (لماذا ؟) يعني الشعور بالخضوع ، كما أن الشعور بالخضوع معناه الشعور بأن كل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعا كاملا وسيطرة كاملة ، فأنت وكل شيء خاضع لهيمنة الله وسيطرته الكاملة ، كما أن الشعور بالخضوع معناه الشعور بالرضا بما أراد الله وقدر لكل واحد من رزق وأجل ، ومما يحدث في حياته وبعد موته ، والله لا يسأل عما يفعل ولا يحاسبه أحد ، لماذا هذا ولماذا هذا ؟ ، كما أن الله هو الذي خلق عقولنا وأفهامنا التي نفهم بها وخلق الأسباب التي نفهم بها ، و الله فوق الأسباب والناس مقهورون تحت سلطانه ، ولا يفهمون إلا ما أفهمهم الله ، ولا يعلمون إلا ما علمهم الله ، فمَنْ لم يشعر بكمال الخضوع والاستسلام لله ، فهو لا يشعر بالرضا بسلطان الله علي كل شيء وتحكمه في كل شيء وهيمنته علي كل شيء وأي شيء .

ـ إن الشعور بهيمنة الله تعالى على كل شيء يؤدي إلى أن يخضع العقل والقلب لله ، فمقياس الصواب و الخطأ ليس العقل وإنما الله من خلال شرعه وأمره ، ومقياس ما يجعل الإنسان يفرح أو يحزن هو ما وافق أو خالف أمر الله ، أما مَنْ لا يشعر بالخضوع لهيمنة الله تعالي فمقياس الصواب والخطأ عنده هو عقله ورأيه فهو يعبد عقله ، ومقياس ما يجعله يفرح أو يحزن هو شهواته ودنياه فهو يعبد هواه : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً))[2] .

ـ كيف يتحقق الشعور بالخضوع :

ـ الشعور بالخضوع هو شعور بهيمنة الله وشعور بالاحتياج إلى الله ، فلابد أن تشعر بأنك عاري من كل شيء ومحتاج إلى غيرك أي أنك أولا تنفي كل شيء من نفسك وثانيا تثبت وتنسب كل شيء لله ، أي الرضا بأن الله له كل شيء ، وأنك جزءا من ملكه وهو يقوم بأمرك ، وأنك ذليل إلى الله محتاج إليه ، فالمشكلة هي عدم وجود اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك لكل شيء حتى النفس الذي تتنفسه ، وأنت محتاج إليه فمن غيره تموت وتهلك ، فطالما أن الإنسان يظن أن ما عنده من قوة ومال وقدرات مادية ومعنوية وصحة وهواء ....الخ هي ملكا له ، فلن يشعر بالحاجة إلى الله ليعطيه هذه الأشياء ، ويقول الدكتور مجدي الهلالي : ((إن السبب الرئيسي لعدم إيمان الكثير من الناس بالله ـ عز وجل ـ وعدم قيامهم بحقوق عبوديتهم له ، هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه : يقول تعالى : { كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى }[3] ، ففي ظنهم أنهم يمتلكون من أسباب القوة ما يجعلهم في غنى عنه ـ سبحانه ـ وعندما يستبدل حالهم من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، ومن الأمن إلى الخوف والكرب ، فإنهم يتجهون بكليتهم إلى الله ـ عز وجل ـ بعد أن زالت عنهم عوارض القوة ، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم ، واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه ، فتراهم يعودون إليه متضرعين منكسرين مخلصين له الدين : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }[4] ، { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أنهم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }[5] ، ولقد كان الرسل يركزون في دعوتهم

(1) الأنبياء : 23
(2) الفرقان : 43
(3) العلق : 6 ، 7
(4) سورة النحل : 53 ـ 55
(5) يونس : 22

للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله ، فيذكرونهم بحجم النعم التي أنعم الله بها عليهم ـ سبحانه ـ))[1] ، ومما يحقق الشعور بالخضوع أيضا اليقين الحقيقي بهيمنة الله على كل شيء والمعرفة الحقيقية بالله .

ـ الحالة النفسية للخضوع والاستسلام :

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك يؤدي إلى الشعور بالخضوع ، فمعني أن ينخلع الإنسان من كل ما يملك حتى من نفسه هو أن يكون كالميت بين يدي مغسله يفعل به ما يشاء ، فيكون كالميت بين يدي الله يفعل به ما يشاء (وهذا أيضا أصل الشعور بالتوكل علي الله) ، فإن شعورك بهذه الحالة النفسية هو الذي يسمي بـ الخضوع وأيضا بالتوكل ، فإذا كنت تدعي الخضوع أو التوكل علي الله فأين هذه الحالة النفسية ؟! .

ـ فالإنسان عبارة عن مادة مصنوعة تتحرك وفق أمر الصانع ومصنوعة بالكيفية التي صنعها بها ، فلابد أن تشعر أنك مادة مصنوعة في يد غيرك يفعل بك ما يشاء .

ـ والشعور بالخضوع يعني اليقين الحقيقي بضعف قدرته وعجزه أمام قدرة الله وشعور بالانكسار والتسليم وأن الإنسان واقع تحت تصرف من له القدرة عليه وخائف منه .

ـ هل يستطيع الإنسان أن يعيش لغيره أي لا يعيش من أجل نفسه هو ولكن من أجل أحدا غيره ، إن الخضوع معناه أن تعيش لغيرك ، وتعيش تحت سلطة وسيطرة غيرك عليك وتقبل ذلك مستسلما ذليلا خاضعا ، إن المسلم يعيش لله بل ويموت أيضا لله ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[2] .

ـ أنظر إلى خادم يعمل في بيت من بيوت السادة ، إن الحالة النفسية التي يشعر بها هذا الخادم هي التي تسمي خضوع ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! .

ـ أنظر إلى الرجل الفقير المعدوم الذي يسأل الناس ليعطوه ، بماذا يشعر ؟ ، إنه يشعر بالخضوع والذل و الحاجة إلى إنعام الناس عليه ، إن الحالة النفسية التي عند هذا الرجل هي التي تسمي خضوع ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! ، كما أنك تجد هذا الرجل يظل يدعوا لمَنْ يعطيه محبة له ، وإذا كان هذا الرجل فقير إلى إنعام الناس من أموال ، ومحب لما يعطونه ، فكيف بك وقد أنفق عليك الله فأعطاك عينا وأعطاك الهواء الذي تتنفسه ونعما لا تحصي (والمشكلة أننا لا نشعر بنعم الله) .

ـ مثال آخر : تصور أنه تم بيعك في سوق العبيد مثلما كان يحدث في الماضي فأصبحت عبدا وخادما لسيدك ، هل تقبل هذه الحال الآن وأنت في عصر الحرية ؟! ، هل تقبل أن تضع نفسك تحت تصرف غيرك ؟! ، وهل تقبل أن يتحكم فيك غيرك ؟! وهل تتحمل هذه الحالة النفسية من الخضوع وطوال عمرك ؟ ، إنك مطالب بما هو أصعب من ذلك أن تكون عبدا لسيدك ومولاك رب العالمين ، فلماذا لا تشعر أنك واقع تحت سيطرة مَنْ يتحكم فيك وأنت عليك أن تقبل الخضوع والذل ؟ ، فأنت تخضع له خضوع مَنْ شعر بأنه القهار المهيمن ، وخضوع المحتاج إلى نعماءه ، وتحب الذل إليه ليعطيك ، كما يفعل الشحاذ حين يسأل الناس فإنه يخفض رأسه ويمد يده للناس ليعطوه ، فهل تخفض رأسك وتمد يدك لله ليعطيك ؟ ، إذن أين هذه الحالة النفسية المميزة للخضوع ؟ .

ـ تصور أن أحدا ما رفع في وجهك سلاحا وطلب منك أن تستسلم ، ماذا يكون شعورك عندئذ ؟ هذا الشعور هو شعور بالهزيمة والاستسلام والانقياد ، إن الحالة النفسية التي تشعر بها عندئذ هي التي تسمي خضوع واستسلام ، فإذا كنت تدعي الخضوع لله ، فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ والله هو الجبار المنتقم ذو البطش المتكبر شديد العقاب سريع الحساب .

ـ تصور أن هناك أحدا ما أو شيئا ما ذو قوة قاهرة يمكن أن يقضي عليك ويزهق روحك فبماذا تشعر عندما

---

(1) الإيمان أولا ـ د. مجدي الهلالي ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية (ص : 18)
(2) الأنعام : 162

تتعامل معه أو يأمرك بشيء ؟ ، إن الله هو القهار الجبار الذي سوف يزهق روحك ولن تفلت منه (فهو المميت) وهو يراك الآن ولن تستطيع أن تفلت منه أو تهرب عن نظره ، فلماذا لا تجد مثل هذا الشعور ؟ ، بل إن الله هو الذي يميتك كل يوم ويحييك فأين قدرتك وقوتك وإرادتك وأنت نائم ؟! ، فلماذا لا تشعر بالاستسلام لمَنْ يقهرك ويقدر عليك كل يوم وكل لحظة ؟ ، ولماذا لا تشعر أنك مقبل علي حياة أبدية ؟ ، فالذي يحييك كل يوم سوف يحييك يوم الدين والذي يميتك كل يوم سوف يميتك ويسلب منك كل شيء ، فلماذا لا تستسلم وتخضع وترضخ لله ؟ : ((اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[1] ، فالروح تخرج من الإنسان فإن عادت في الدنيا فذلك النوم وإن عادت في الآخرة فذلك الموت .

ـ ومن الخضوع أنك تشعر بأنك لست تخضع لأمر نفسك وما يمليه عليك عقلك وإرادتك وإنما وفقا لما يريده منك سيدك الذي أنت خادما عنده بل الذي أنت عبدا عنده .

ـ إذا لم تشعر بالخضوع فهذا معناه أن شعورك بأن لك ربا وإلها عظيما وشعورك بأنه المالك والعزيز والقهار و المهيمن كل هذا لا يكون متحققا في المشاعر وإن كان متحققا في الاقتناع النظري ، لأن تحقيق ذلك في المشاعر يعني الشعور بالخضوع .

****

2ـ الرضا بالقضاء والقدر

ـ الرضا بالقضاء والقدر معناه أن يسلم أمره لله ويقول لله : افعل بي ما تشاء ، فهو راضي بأي شيء سواء كان عطاءا أو منعا .

ـ الإنسان الذي في يده قطعة من الطين الصلصال له أن يفعل بها ما يشاء ويشكلها كيفما يشاء لأنه قوي يقدر على أن يشكلها كيفما شاء وهو مالكها وهي لا حول لها ولا قوة ، فالقوي بحق له أن يفعل ما يشاء بما صنعه وامتلكه ، والعبد الضعيف ليس له أن يفعل إلا ما يأمره به سيده ، فهذه هي العلاقة بين القوي و الضعيف .

ـ الإنسان لا يملك شيئا ولا يستحق شيئا ، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدا مسرورا بها لأن الأصل أنه لا يمتلك شيء ، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان ، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلا لم يكن مالكا لأي شيء افتقده ، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بـ الراحة والطمأنينة .

ـ كما أن الذي يشعر بأنه مفارق للناس ومفارق لما كان يعمله في الدنيا ومفارق للأموال والدنيا وما فيها ومن فيها فإنه يعيش سعيدا مسرورا لأنه لا يبالي بشيء ، فإذا افتقد شيئا من أمور الدنيا فلا يبالي لأنه سوف يترك ذلك الشيء وكل شيء حتما حينما يموت .

ـ كما أن الذي يشعر بضآلة متع الدنيا وضآلة آلامها فإنه لا يبالي هل أقبلت الدنيا أم أدبرت .

ـ والله سبحانه لا يسأل عما يفعل : ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[2] ، ففي تفسير البحر المديد : (({ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } ؟ أي : أيُّ شيءٍ أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المثل ؟ .. أو : أيُّ حكمة في جعل الملائكة تسعة عشر ،

(1) الزمر : 42
(2) الأنبياء : 23

لا أكثر أو أقل ؟))[1] ، إذن فلابد من الشعور بالتسليم والرضا بما أراد الله وقدر لكل شيء ولكل واحد من رزق وأجل ، وفي الحديث : ((إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرض لم يبارك له فيه))[2] ، فكل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعا كاملا وسيطرة كاملة ، فأنت وكل شيء خاضع لهيمنة الله وسيطرته الكاملة ، وعلى الناس تنفيذ مراد الله منهم ، والله لا يُسأل لماذا ؟ ولا يحاسبه أحد ، لماذا هذا ولماذا هذا ؟ .

ـ الفرق بين الاقتناع النظري بالقضاء والقدر وبين الشعور والرضا به :

ـ إن مفهوم القضاء والقدر يعني أن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ ، وأن العبد له مشيئة مقيدة ، فمشيئة العبد وإرادته واختياره هي جزء من قدرِ الله الذي كتبه ، وأعمالنا مخلوقة وكل ما نصنعه وما نبنيه هو مخلوق لله ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ))[3] ، وهذا يعني الشعور بالاستسلام والانقياد والخضوع لله و الشعور بالرضا والصبر والشعور بقدر عظمة الله في هيمنته وتحكمه في كل شيء ، فكل شيء سواء كان أو سيكون فهو وفق مشيئته ، فالله بيده الأمر كله ، وكل الناس علي اقتناع نظري تام بالقضاء والقدر ، أما في لغة المشاعر فلا تجد الشعور بالاستسلام والانقياد والخضوع لله والشعور بالرضا والصبر ، وقد يحدث للإ نسان مصيبة فيقول الحمد لله ولكن قلبه ساخط غير راضي وإن قال : أنا راضي ، وهو على اقتناع نظري تام بالقضاء والقدر ، وعلى اقتناع نظري تام بأنه راضي !! ، وتجده يقول (الحمد لله) لكنه من باب الروتين والتعود في الكلام ، وفي الحقيقة قلبه ساخط ، ونحن قد ندعي الصبر ، فما ورد في القرآن هو الصبر الجميل وهو حبس القلب عن التسخط وحبس اللسان عن الشكوى ، وهو أن تتجرع المر وأنت مبتسم في منتهي الأريحية والانبساط ، فيتقبل الإنسان المصيبة برضا ، وهو سكون القلب تحت مدار الأحكام واطمئنان للعاقبة وانتظار للفرج واحتساب للأجر .

ـ الشعور بأن الله هو المالك يؤدي إلى الشعور والرضا بالقضاء والقدر :

ـ إن الذي يشعر بأن الله هو المالك لكل النعم فإنه يصبر علي سلب النعمة لأنها ليست ملكا له وليست حقا له ويرضى بذلك ، شرح ابن كثير معنى (إنا لله) في الآية : ((الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ))[4] أي : (({ الذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إنّا لِلهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعُونَ } أيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذا عَمّا أصابَهُمْ **وَعَلِمُوا أنَّهُمْ مِلكٌ لِلَّهِ** يَتَصَرّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ))[5] ، فمالك الشيء يفعل به ما يشاء ، فلا ضير أن يفعل الله بما يملك ما يشاء ، فلو قطعك إربا إربا فإنك ترضي لأنك نفسك ملكا له خاضعا له ، ومالك الشيء له الحق في أن يفعل بما يملك ما يشاء ، بل إن الله لو عذب جميع الخلق لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأ نه مالكهم له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء : ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً))[6] ، ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[7] ، وفي الحديث : ((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو كان لك مثل أحد ذهبا أو مثل جبل أحد ذهبا تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار))[8] ، إن الذي يشعر بأن حياته وكل شيء ملك لله وإنما هي نعم وعارية يستردها مالكها فعند الموت يكون راضيا لأن الله يأخذ ما يملكه ويكون شاكرا لله لأنه أعطاه هذه النعم طوال هذه المدة تنعم بها بغير استحقاق فتخرج الروح سهلة ، لكن الإنسان الذي يشعر أنه هو الذي جلب النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه ، فعند الموت لا يريد أن يترك النعم فتخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم ، ويكره مَنْ يقبض روحه ، فعندما يأتيه الموت يكره هذا القدر .

---

(1) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (8 / 272)
(2) التخريج : صحيح (السلسلة الصحيحة : ج : 4 ، ص : 215 ، برقم : 1658)
(3) الصافات : 96
(4) البقرة : 156
(5) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية - بيروت (1 / 338)
(6) الفتح : 14
(7) الأنبياء : 23
(8) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج : 1 ، ص : 29 ، برقم 77)

ـ الحالة النفسية للشعور بالرضا :

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته ، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء ، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله يفعل بها ما يشاء ، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية ، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله ، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه .

****

3ـ الرضا عن الله

ـ لقد جعل الله فلان غني وفلان فقير ، وفلان يتعب في عمله ورزقه قليل ، وفلان لا يعمل أو عمله قليل ورزقه كبير ، وفلان أجاب الله دعاءه رغم معاصيه وفلان لم يستجب له رغم تقواه ، وفلان يريد أمرا ما ليستعين به على الطاعة لكن الله لا يعطيه إياه ، وفلان يبتلى ويزيده الله ابتلاءا رغم دعاءه وعبادته ، وفلا ن يؤذي الناس في دنياهم ودينهم ويظلمهم ويزيده الله في الترقي في المناصب والمزيد من الدنيا فيتمكن من ظلمهم أكثر ، وفلان حرمه الله من البنين ، وفلان أعطاه الكثير ، وفلان ترك عملا لأنه كان يكسب منه ما لا حراما ثم سعى للبحث عن عمل فلم يجد .

ـ طالما أن الإنسان مع الله ويطيعه فلابد أن يكون الله معه ، ولكن قد يظن الإنسان أن ذلك معناه أنه لابد أن ينقذه الله من الشدائد ويعطيه من الدنيا ويستجيب له .

ـ فقد يرى الإنسان أن لنفسه شأن كما أن لله شأن ، فيتعامل مع الله كما يتعامل مع الإنسان المكافئ له وهذا دليل على الاستكبار في نفسه .

ـ وقد يظن الإنسان أن معاصيه أمور بسيطة وأنه لا يستحق هذا العقاب الدنيوي من الله بابتلائه .

ـ وقد يتعامل الإنسان مع الله على أن كل واحد له شأنه ولا يتعدى أحد على الآخر ، فإذا ابتلاه الله بشيء فهو يرى أن ذلك ظلما من الله له .

ـ لكن الذي يشعر بأن الله هو المالك ، وأن مالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء ، فإنه يرضى بكل ما يفعله الله لأن هذا حقه وشأنه ، ويعلم أن كل ما يفعله الله هو بعلم وحكمة يعلمها سبحانه وليس تخبطا تعالى عن ذلك علوا كبيرا سبحانه ، ويرضى بما قسمه الله له وبما يفعله الله في عباده .

ـ وكل من شعر بمدى عظمة الله وضآلة نفسه تعلم الأدب مع الله وعلم أن لله أن يفعل ما يشاء وشعر بخوف المهابة من عظمته ، فعدم الرضا ينشأ من عدم خوف المهابة والتعظيم لله ، ومن خاف عظمة الله رضي ب الله فرضي الله عنه : ((رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))(1) .

ـ ومن أصعب الاختبارات على الثقة في الله هي فتنة المسيح الدجال فإنه إذا أمر السماء أن تمطر فتمطر وإذا أمر الأرض أن تنبت فتنبت .

ـ ومن العجيب أن البعض قد يرضى عن الدنيا والزمان على أنه هو الذي يصيب الإنسان بالبلاء وهو الذي قدر المرض والشيخوخة والموت على الإنسان ، ويظن بمشاعره أن الموت هو النهاية ولا شيء بعده ، فيرضى ويطمئن إلى الدنيا والزمان : ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))(2) ، وهو بذلك يقول بمشاعره أن الزمان هو الذي أوجدنا وقدر علينا الابتلاءات وعلينا أن نخضع له ونرضى به ، ولأن الزمان هو شيء معنوي فهو يقصد بالزمان أنه لا شيء خلقه وإنما وجد هكذا من غير شيء ـ وذلك في مشاعره وليس في يقينه النظري ـ :

---

(1) البينة : 8
(2) يونس : 7 ، 8

((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ))[1] ، وربما تسمع في الأغاني ما يفيد أن الزمان هو الذي يفعل بنا الأفاعيل .

****

4ـ التوكل (الاستعانة)

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي ، أو العلاقة بين العاجز والقادر ، أو العلاقة بين العبد والسيد ، أو العلاقة بين الخاضع والمتكبر ، أو العلاقة بين الذليل والعزيز ، أو العلاقة بين الفقير والغني ، أو العلاقة بين المملوك و المالك ، أو العلاقة بين الذي لا ينفع ولا يضر والنافع الضار ، هي بالنظر إلى ضعف الضعيف علاقة خضوع وتوكل ورضا ، وبالنظر إلى قوة القوي هي علاقة خوف مهابة وحب وخوف العقاب ورجاء الثواب .

ـ أما العلاقة بين الضعيف والقوي من جهة القوي فهي علاقة سيطرة وهيمنة وهو يطعمه ويسقيه وإذا مرض فهو يشفيه إذا أراد ، والله هو المتكبر المعظم الذي يأمر الناس بأن يذلوا له ويركعوا له ويخضعوا له ويسجدوا له ويعيشوا عبيدا أذلاء لسيدهم رب العالمين ، وهذا شرف لهم وعزة لهم .

ـ القادر إذا أمر العاجز بأمر ما ، فإن العاجز يستعين بالقادر على أداء هذا الأمر لأنه بغير ذلك لا يستطيع القيام بالأمر ، فكذلك إذا أمر الله الإنسان بالعبادة فإنه يستعين بـالله على القيام بهذه العبادة كما أراد الله تعالى ، فيقول تعالى : ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ))[2] ، كأنه يقول لله اعني على نفسي وساعدني وكن معي ، فالعاجز إذا لم يستعن بالقادر دل ذلك على أنه لا يشعر بأنه عاجز أو يقينه بذلك ضعيف .

ـ الشعور بأن الله وحده القوي والقادر والنافع والضار وغيره لا يقدر ولا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الشعور بـ التوكل عليه والخضوع له ، فلا يستعين الإنسان بنفسه أو بغيره من البشر أو بأي شيء سوى الله سواء كان شيئا معنويا أو شيئا حسيا ، فالضعيف لا يستطيع عمل شيء وهو يستعين بالقوى على عمل ما يريده ولا يستعين بغيره من الضعفاء لأنهم لا يستطيعون شيئا ، وعدم الاستعانة بـالله معناها أن الإنسان يرى نفسه أو غيره من البشر أو الأشياء ليس بضعيف ويمكن أن يعتمد على نفسه أو غيره في قضاء حاجاته أو يقينه بضعف نفسه ضعيف .

ـ فكل شيء هو من عند الله وحده ، فالهداية من الله والرزق من الله والتوفيق للأعمال الصالحة من الله وما يصيب الإنسان من خير أو شر هو من إرادة الله له ، وغير الله لا ينفع ولا يضر ، والإنسان لا يستطيع أن يهدي نفسه ولا أن ينفع نفسه ومشيئة الإنسان مقيدة بمشيئة الله تعالى ، فلا يحدث في الكون شيء إلا بأمر الله وعلمه سبحانه ، والله مالك كل شيء ومالك الشيء له أن يفعل بما يملك أي شيء ، فمن كان عنده يقين حقيقي بذلك أسلم نفسه لله وفوض أمره إليه فهذا هو معنى التوكل .

ـ الحالة النفسية للتوكل :

ـ الإنسان يستعين بغيره عندما يشعر بثلاثة أمور هي الشعور بالاحتياج والنقص (الشعور بضعف الإنسان) ، والشعور بقدرة من يعينه على إعانته (الشعور بقدرة الله) ، والاطمئنان والثقة في أن من يستعين به سيعينه (الشعور بأن الله هو الوكيل والكفيل والكافي والرزاق والولي) .

ـ والإنسان يتوكل على الله وحده إذا شعر بأن غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر .

ـ والتوكل على الله يؤدي إلى عدم انشغال الهموم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا ، فالحالة النفسية المميزة للتوكل هي الشعور بالاطمئنان والراحة النفسية من هموم الدنيا ومن الهم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا فلا تكون هدف الإنسان وقضيته ، كما أن الشعور بأن غير الله لا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الارتياح النفسي لأنه لا يحمل هما لما سوى الله ، وكلما نقص إيمان العبد كلما نقص توكله وانشغل همه بالدنيا .

---
(1) الطور : 35
(2) الفاتحة : 5

ـ فالإنسان قد يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن له مصدر دخل ثابت شهريا من عمل حكومي أو معاش مثلا يوفي له ما يريد (وذلك ينشأ من ضعف شعوره بأن الله هو الرزاق أو من غياب ذلك الشعور) .

ـ كذلك المتوكل على الله يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن هناك من يمده بما يحتاجه فهو يطمئن إلى الله الوكيل والرزاق ، فهو مطمئن إلى رزقه ومطمئن إلى أنه إن استعان بالخالق لم يخذله .

ـ فالتوكل هو شعور بضعف الإنسان واستسلامه لله وانهزامه بين يدي الله وتفويض أمره لله ليفعل الله به ما يشاء ، مثل شعور اليتيم الذي يحتاج إلى من يكفله وينفق عليه ، ومثل شعور الأعمى الذي يحتاج إلى المبصر ليحدد له اتجاه سيره ويسير به حيث يريد ، ومثل شعور الذي يجلس على كرسي بعجلات ويحتاج إلى من يقوده ، ومثل شعور السائل (الشحاذ) الذي يحتاج إلى الناس فيسألهم أن يعطوه ، ومثل شعور الفقير الذي ذاق طعم الفقر فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه ، ومثل شعور الطفل الذي يحتاج إلى أبوية في طعامه وشرابه ونومه ورعايته ، ومثل شعور التائه الذي ضل الطريق فهو يحتاج إلى من يهديه ، ومثل شعور الجائع الذي ذاق طعم الجوع فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه طعاما ، ولذلك ففي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[1] ، وحقيقة الإ نسان هو أنه أعمى لا يبصر لأن عينه ليست ملكه وإنما هي ملك لله تعالى أعطاها الله له ، وهو أصم وأبكم لأ نه لا يملك الإذن ولا اللسان ، وهو فقير لأن المال الذي عنده هو ملك لله ، وهو مجرد من كل شيء ولا يعلم شيئا لأن عقله ملك لله ، فهو مثلما كان في بطن أمه في المراحل الأولى حيث كان لا يسمع ولا يرى : ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[2] .

ـ فالإنسان إذا شعر بأن غير الله لا ينفع ولا يضر فشعر بأنه هو نفسه لا ينفع ولا يضر وبأن الأسباب لا تنفع و لا تضر وبأن كل الناس والأشياء لا تنفع ولا تضر ، والشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء لا قيمة له فإنه عندئذ يشعر بالاستسلام والانهزام ويشعر بأنه في حاجة إلى من يكفله ويقوم بأمره ويرعاه لأنه عاجز عن أن ينفع نفسه ، فيلجأ إلى الله ليستعين به ويحتمي به ، فيكون كالطفل كلما احتاج إلى أمر لجأ إلى أبويه وهو يثق بأن أبويه لن يخذلانه ، لأن القوي لا يخذل الضعيف ، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة ، قلت هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير و الضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان ـ وإن لم يشأ الناس ـ وما لم يشأ لم يكن ـ وإن شاءه الناس ـ فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه ، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما ، فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق/3] أي كافيه والحسب الكافي))[3] .

ـ ((قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك هذا من التوكل ؟ ، قال : على أربع خلال : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلست أهتم له ، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه))[4] .

ـ قلق الإنسان من عدم وجود عمل يتكسب منه ، أو خوفا من أنه قد يترك العمل ... الخ ، فكل ذلك يدل على عدم توكله على الله (يستثنى القلق الفطري الخارج عن إرادة الإنسان) .

ـ وكذلك من سرق مليما فليس بمتوكل ، لأنه استعجل رزقه الذي كان سوف يأتيه حتما ، والإنسان إذا أخذ مليما ليس من رزقه فلن يستطيع إنفاقه أو أنه يَضيع منه أو يصرفه في شيء لا قيمة له أو يمرض أو يمرض أحد من أبناؤه فيصرفه في العلاج ، أو يصاب بابتلاء بفقد شيء من ممتلكاته .... الخ .

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 4345 في صحيح الجامع)
(2) النحل : 78
(3) التفسير القيم لابن القيم ـ دار ومكتبة الهلال - بيروت (ج : 1 ، ص : 76)
(4) شعب الإيمان ـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (ج : 2 ، ص : 456)

ـ الأسباب لا تنفع ولا تضر :

ـ الأسباب لا تنفع ولا تضر ، والحكمة من أن الله أمرنا بالأخذ بالأسباب رغم أنها لا تنفع ولا تضر ليختبرنا هل نطيعه أم نعصيه ، فنحن نأخذ بالأسباب طاعة لله رغم أنها لا تنفع ولا تضر .

ـ فينبغي عدم الربط بين العمل للكسب وبين الرزق ، فالناس كلهم عاطلين عالة على الله ، وما يعملونه للكسب هو مجرد لعب ولهو من ناحية علاقته بالرزق ، وهو طاعة من الطاعات من حيث أن تركه معصية .

ـ فالأسباب عبارة عن قوانين تسير بها الأشياء فمن الذي وضع هذه القوانين ؟ ، فالله هو الذي خلق القانون الذي يسير به الكون ، ففي تفسير الشعراوي : ((فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون))[1] ، فالإنسان إما أن يؤمن بالله الذي يخرق الأسباب وإما أن يؤمن با لأسباب فيكون مادي ، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبد الأسباب .

ـ فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر ، فهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله ، فالبشر لا يستطيع أن يلغي الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها .

ـ فمثلا قانون الجاذبية هو الذي يجعلك إذا سقط شيء من يدك أن يقع على الأرض ، فهذا القانون مخلوق يلزمك أنت ولكن لا يلزم الله ، فالله إذا أراد أن لا يقع على الأرض ما يسقط من يدك لفعل ، كما أن قانون الجاذبية لا يستطيع أن يفعل شيء فليس هو الفاعل الحقيقي ، ولكن الفاعل هو الله سبحانه ، فإذا سقط شيء من يدك فوقع على الأرض فنقول أن سبب ذلك قانون الجاذبية مجازا لكن في الحقيقة الله هو الذي أوقع ما سقط من يدك على الأرض لأن الله هو الذي صمم هذا القانون .

ـ وكذلك فالدواء لا يشفي والشافي هو الله ، فالله هو الذي جعل الدواء يؤدي إلى الشفاء لأنه هو الذي خلق القانون الذي به يستطيع الدواء أن يؤدي إلى الشفاء ، أي أن الله هو الذي خلق الخواص المعينة التي في الدواء ، والخواص المعينة الموجودة في الجسم بحيث إذا وضع الدواء نتج الشفاء ، والإنسان فقط يكتشف ويعرف ما هو موجود فيستفيد من خواصه وليس يخترع ويبتكر الخواص التي تؤدي إلى الشفاء ، وقد يريد الله للمريض أن يشفى بغير دواء ولا أسباب ، والإنسان مطالب أن يأخذ بالأسباب فقط لأن الله أمره بذلك لأ ن عدم الأخذ بالأسباب معصية .

ـ عبادة الأسباب :

ـ قد يكون الإنسان على اقتناع نظري تام وإيمان كامل بأن الله هو النافع الضار الشافي الرازق الوكيل الكفيل وأن كل شيء بيد الله وأنه متوكل على الله تماما ، لكن حقيقة مشاعره تقول أن كل شيء بالأسباب ، وأن كل شيء يمكن صناعته بالعمل ، وكل شيء يمكن شراءه بالمال ، وأنه يحصل على المال من كده وتعبه ، وأن الأ سباب هي التي تفعل كل شيء ، فشعوره بالخضوع يكون للأسباب وشعوره بالخوف متعلق بالأسباب وشعوره بالحب للأسباب ، لذلك فهو يعيش في عالم الأسباب كل شيء عنده بالحساب وبالتخطيط وبالا ستقراء وبالمعادلات الرياضية ، بل إنه يرى أن المشاعر نفسها يمكن صناعتها بالأسباب ! .

ـ قد يكون الإنسان على اقتناع تام بأنه متوكل على الله وأن كل شيء بأمر الله ، لكن في حقيقة الأمر يعتمد على عقله ويعتمد على الأسباب حيث تتعلق مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه بالأسباب أكبر من تعلقها ب الله ، فإن مشاعره تقول عندئذ : الأسباب هي التي تنفع وتضر ، والأسباب هي التي ترزق ، فبغير الأسباب ينقطع الرزق ، وما مع الإنسان من مال هو من كد يده فحصل عليه من سعيه ، والعقل والتخطيط هو الذي يقي الإنسان من المشاكل ، وفلان هو الواسطة الذي جلب لي الوظيفة المعينة ، والأسباب هي التي تصنع كل شيء ، فمثل هذا يعبد الأسباب ، وإن كان على اقتناع تام بأنه متوكل على الله تعالى ؟!! .

ـ فرجاؤه في الأسباب أكبر من رجاؤه في الله ، وخوفه من الأسباب أكبر من خوفه من الله ، وخضوعه

(1) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (ج : 1 ، ص : 5585)

لقانون الأسباب أكبر من خضوعه لله ، فلا يشعر أن الأسباب مخلوقة ولا تملك نفعا ولا ضرا .

ـ فكل حزنه وفرحه وهمه وأمله في الأسباب ، فتأثر مشاعره يعتمد ويتوقف على الأسباب لا على الله .

****

3ـ انشغال البال

ـ يحدث إلغاء لرغبات النفس ، وتنهدم أهدافه وطموحاته الدنيوية التي كان يعيش من أجلها ، ويحدث تفريغ للذهن ، فلا ينشغل بالدنيا ، وهنا يقول شيخ الإسلام ابن القيم : ((أعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بـ الدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز و جل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))[1] .

ـ وينشغل البال بوقوع الإنسان طوال وقته تحت قدرة الله ومراقبته ، ينشغل بترقب الآخرة ، وينشغل بصورة الجنة والنار التي ربما تكاد لا تفارق ذهن العاقل .

****

ـ ثانيا : عمل المشاعر (انتقال المشاعر)

ـ عندما يشعر الإنسان بضعف نفسه وضآلة الدنيا ويشعر بقوة الله وخطورة الآخرة ، تبتعد مشاعره عن الدنيا وتتعلق بـالله والآخرة ، فتتفرغ المشاعر المتعلقة بغير الله وما يتصل به ، أي يخرج حب الدنيا من القلب .

ـ مفهوم انتقال المشاعر :

ـ مشاعر الإنسان وهمومه وأهدافه وعمله تسير في اتجاه ما يوقن به الإنسان ، فإذا كان الإنسان يوقن يقينا حقيقيا بعظمة قدر الله وخطورة الآخرة وضآلة الدنيا فإن مشاعره وهمومه وأهدافه وعمله تسير في اتجاه التعلق بـالله والآخرة مبتعدة عن الدنيا ، وإذا كان حقيقة اليقين عند الإنسان هو أن الدنيا وما بها من شهوات ومال وجاه هي الحياة ولا شيء غيرها فإن مشاعره وهمومه وأهدافه وعمله تسير في اتجاه التعلق بالدنيا مبتعدة عن الله والآخرة .

ـ مشاعر الإنسان ترتبط بالأمر المؤثر الخطير القوي الذي له القدرة على النفع والضرر ، وتبتعد عن الأمر الغير مؤثر الضعيف الذي ليس له قدرة على النفع والضرر .

ـ الله هو القوي وحده وهو النافع الضار وحده ، وكل ما سواه ضعيف ولا ينفع أو يضر ، فمن شعر بذلك تعلقت مشاعره بـالله وابتعدت عما سواه .

ـ الإنسان إما أنه يشعر بأنه قوي بما عنده من النعم والدنيا ويتجاهل قوة الله وعندئذ تتعلق مشاعره بنفسه وبالدنيا ولا تتعلق بـالله وما يتصل به ، وإما أنه يشعر بأنه ضعيف وبأن الله هو القوي وعندئذ تتعلق مشاعره بـالله وما يتصل به ولا تتعلق بنفسه وبالدنيا .

ـ ابتعاد المشاعر عن النفس والدنيا هو الشعور بالخضوع والتوكل والرضا بالقضاء والقدر والشعور بالراحة النفسية (حلاوة الإيمان) ، وانتقال المشاعر إلى الله وما يتصل به هو الشعور بحب الله والخوف من مهابته والخوف من عقابه ورجاءه وحب الرسول والمؤمنين وحب الدين .

ـ فالإنسان لابد له أن يحب ، فإذا لم يحب الله أحب الشهوات ، وكلما زاد حبه للشهوات نقص حبه لله ، و العكس صحيح ، وكذلك باقي المشاعر ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ

(1) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (3 / 352)

صَغُرَتْ عِنْدَهُ المَحْبُوبَاتُ وَقلتْ ، وَكلمَا ضَعُفَتْ كثرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانتَشَرَتْ ، وَكذَا الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنْ كمُلَ خَوْفُ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لمْ يَخَفْ شيئا سِوَاهُ قالَ اللهُ تعَالى { الذِينَ يُبَلِغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أحَدًا إلا اللهَ } وَإِذَا نقصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ المَخْلوق وَعَلى قدْرِ نقص الخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكونُ الخَوْفُ كمَا ذكرْنا فِي المَحَبَّةِ وَكذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ))[1] .

ـ المشاعر قسمين هما :

1ـ مشاعر ناشئة من العلاقة بين الضعيف والقوي :

ـ الضعيف يخضع للقوي ويحبه إعجابا بقوته ويخاف من مهابته ، وهذه المشاعر تستمر مع المؤمن حتى وهو في الجنة ، وهي موجودة أيضا عند الملائكة والجمادات : ((ألمْ ترَ أنّ اللهَ يَسْجُدُ لهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ وَالشّمْسُ وَالقمَرُ وَالنّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ وَكثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكثِيرٌ حَقّ عَليْهِ العَذَابُ))[2] ، ((وَيُسَبِّحُ الرّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكة مِنْ خِيفتِهِ))[3] ، والأنبياء يتلعثمون في الجواب من خوف المهابة يوم القيامة : ((يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُسُلَ فَيَقولُ مَاذَا أجِبْتُمْ قالوا لا عِلمَ لنَا))[4] .

ـ فإذا شعر الإنسان بضعف نفسه وقوة الله تعالى تحققت عنده هذه المشاعر ، وإذا لم يشعر بضعف نفسه وقوة الله تعالى فهو بذلك لم يجعل الله ربا له وإلاها ، رغم اليقين النظري التام بربوبية الله تعالى .

ـ وهذه المشاعر ليست لها علاقة بالثواب والعقاب ، وهي تؤدي إلى طاعة الله تعالى .

2ـ مشاعر ناشئة من العلاقة بين الضعيف وثواب القوي وعقابه :

ـ وهي الخوف من عقابه ورجاء ثوابه ، وهي تؤدي أيضا إلى طاعة الله تعالى .

ـ ولن تتحقق هذه المشاعر إلا إذا تحقق القسم الأول من المشاعر ، فلن يشعر الإنسان بالخوف من النار و الشوق إلى الجنة إلا إذا شعر بخوف المهابة من الجنة والنار وشعر بحب الجنة وكراهية النار .

****

ـ أولا : ابتعاد المشاعر عن ما سوى الله وما يتصل به

ـ اليقين الحقيقي بضآلة الدنيا يؤدي إلى عدم الخوف من آلام الدنيا أو الحزن الشديد عليها ، ويؤدي كذلك إلى عدم الرجاء وطول الأمل في نعيمها أو الفرح الشديد بها ، وهذا يجعل الإنسان في راحة واطمئنان لا يهمه شيء ولا يخيفه شيء .

ـ وكذلك اليقين الحقيقي بالقضاء والقدر وبأن الخالق له أن يفعل ما يشاء فيما خلق يجعل الإنسان راضيا متقبلا ما يحدث له لأنه قضاء الله والله ليس بظالم ، فهذا يجعل الإنسان يعيش في سعادة وراحة .

ـ عندما يشعر الإنسان بأن كل ما هو غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر فإنه عندئذ لا يخاف من أي شيء سوى الله ولا يحب أي شيء غير الله ولا يرجو أي شيء غير الله ولا يخضع لأي شيء غير الله ولا يستعين ويتوكل على أي شيء غير الله ولا يحزن أو يفرح بأي شيء لأن كل شيء لا قيمة له والقدر كله والعظمة لله وحده ، فهو عندئذ تنقطع مشاعره وهمومه وأهدافه عن الدنيا وعن أي شيء سوى الله ، وهذا الشعور بِ الراحة النفسية والسعادة النفسية وراحة البال تجاه أمور الدنيا (حلاوة الإيمان) ، وهذا معناه تحقيق معنى لا إله إلا الله في شعور الإنسان فلا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ولا يحب إلا الله ولا يخضع إلا لله ولا يتوكل إلا على الله .

---

(1) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (1 / 94)
(2) الحج : 18
(3) الرعد : 13
(4) المائدة : 109

ـ ولاحظ أن وجود مشاعر متعلقة بغير الله في الله هي من تعلق المشاعر بالله تعالى كحب النبي وحب المؤمنين ، ووجود مشاعر متعلقة بغير الله ليست في الله (أي من أجل الدنيا) هي من ضعف الإيمان ، وإذا كان حب غير الله أكبر من حب الله فذلك نفاق أكبر .

ـ ولاحظ أيضا أنه يستثنى من ذلك المشاعر الجبلية التي فطر الإنسان عليها وهي خارجة عن إرادة الإنسان كخوف الإنسان من الأسد إذا هجم عليه .

ـ فشعور الإنسان بالغضب والضيق والحزن والخوف على أمور الدنيا هو من ضعف الإيمان ، وكذلك فرحه بها وحبه لها .

****

ـ ثانيا : انتقال المشاعر إلى الله وما يتصل به

1ـ الخوف من مهابة الله

ـ معنى خوف المهابة :

ـ جاء في تفسير النيسابوري : ((وَالذينَ يَصِلُونَ مَا أمر اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (21) .... الخشية نوعان : خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملا ئكة { يخافون ربهم من فوقهم } [النحل : 50] وإلى هذا أشار بقوله : { ويخشون ربهم } ، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها . وإليه الإشارة بقوله : { ويخافون سوء الحساب }))[1] ، وفي تفسير الرازي : ((وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين : خوف العقاب ، وخوف العظمة والجلال ، أما خوف العقاب فهو للعصاة ، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين ، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلا ً ، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه ، وليست تلك الهيبة من العقاب ، بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه ، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة))[2] ، وفي تفسير الرازي أيضا : ((قال العارفون : الخوف خوفان خوف العقاب وخوف الجلال ، والأول نصيب أهل الظاهر ، و الثاني نصيب أهل القلب ، والأول يزول ، والثاني لا يزول))[3] ، ((وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ))[4] .

ـ وفي تفسير البغوي : (({ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا } قال ابن عباس ومجاهد : لا ترون لله عظمة ، وقال سعيد بن جبير : ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته ، وقال الكلبي : لا تخافون الله حق عظمته ، و"الرجاء" بمعنى الخوف ، و"الوقار" العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم))[5] ، وفي تفسير بحر العلوم : (({ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } ، يعني : من هيبته خائفون))[6] ، وفي تفسير النيسابوري : ((مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ...... قال أهل الاشتقاق : إن تركيب (خ ش ى) يلزمها الهيبة ومنه للسيد ولكبير السن ، وتركيب الخوف يدل على الضعف ومنه الخفاء ، وكل موضع ذكر فيه الخشية أريد بها معنى عظمة المخشى منه ، وكل موضع ذكر فيه الخوف فإنه أريد ضعف الخائف كقوله { يخافون ربهم من فوقهم } [النحل : 50] أو ضعف المخوف منه كقوله { لا تخف ولا تحزن } [العنكبوت : 33] يريد أنه لا عظمة لهم وقال { إنا نخاف من ربنا يوماً } [الإنسان : 10] لأن عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله هينة))[7] .

ـ ومعنى خوف المهابة يتضح من الحديث : ((أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد

---

(1) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (ج : 4 ، ص : 153)
(2) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (15 / 443)
(3) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 3 ، ص : 482)
(4) إبراهيم : 14
(5) تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي -بيروت (ج : 5 ، ص : 156)
(6) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 424)
(7) تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] ـ دار الكتب العلميه - بيروت (ج : 6 ، ص : 179)

فرائصه فقال له هون عليك فإني لست بملك إنما أنا بن امرأة تأكل القديد))[1] .

ـ لماذا يخاف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعشرة المبشرون بالجنة من الله رغم علمهم من خلال الوحي أنهم من أهل الجنة ؟ :

ـ هذا الخوف هو خوف مهابة وإجلال ، وذلك مثلما كانت الملائكة تخاف الله رغم أنهم معصومون ففي تفسير الرازي : (((يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ..... ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء } [فاطر : 28] وهذا يدل على أنه **كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء**))[2] .

ـ إن الضعيف يخاف من القوى ويخضع له ، وحتى لو لم يفعل شيئا يغضبه فهو يخاف لمجرد أنه ضعيف والآخر قوي ، ويشعر باستكانة وأنه مغلوب على أمره (شعور بالخضوع) ، فكذلك الحال مع الله تعالى ، الخوف من عظمته ، فالله غالب على أمره ولا يأمن مكره إلا القوم الكافرون لغفلتهم عن قوة الله وضعفهم .

ـ وفي الحديث : ((شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت))[3] .

ـ اليقين الحقيقي بقدرة الله وضعف الإنسان يؤدي إلى الخوف والرهبة :

ـ لو سمعت أن رجلا خارقا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو .....الخ ، بماذا تشعر ؟ ، إنك تشعر بالهيبة والخشية والرهبة ، فان الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً))[4] ، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة ، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق ؟ ، وإذا كنت تدعي أنك تشعر بالهيبة والرهبة من الله ففي الحالة الأولى كانت هناك حالة نفسية وانفعالات داخلية مميزة للشعور بالرهبة والهيبة ، فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ ، أم أنه مجرد إدعاء واقتناع بأن عندك الهيبة والرهبة والتعظيم لله ؟! .

ـ أنت إذا قابلت ملكا من ملوك الدنيا فإنك تشعر بالخوف والرهبة والمهابة ، فإذا لم تشعر بأي شيء من هذا فأنت لا تعرف أن من قابلته هو ملك من الملوك ، فهو بالنسبة لك مثل أي رجل عادي يمر بك في الطريق ، هذا هو الحال مع الله الملك فأنت لا تشعر بماذا يعني أن الله هو الملك ، إن الملك هو الذي بيده كل شيء وكل ما يملكه ملوك الدنيا هو أقل من ذرة من ملكه وهو الجبار المهيمن وأنت بين يديه دائما يراك ولا تغيب عنه فأين هذه المشاعر ؟ إذن فصفات الله وأسماءه موجودة في اقتناعك النظري لكنها غائبة ولا وجود لها في مشاعرك .

ـ الشعور بعظمة الله يؤدي إلى الخوف والرهبة :

ـ جاء في تفسير ابن كثير : ((وقال الضحاك : { تكادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } أي : يتشققن فَرَقًا من عظمة الله))[5] ، وفي تفسير القرطبي : ((" ما لكم لا ترجون لله وقارا " أي لا تخافون عظمة الله))[6] ، وفي شعب الإيمان للبيهقي : (((ما لكم لا ترجون لله وقارا) فقيل في التفسير ما لكم لا تخافون عظمة الله ، وذمهم في آية أخرى فقال : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) فقيل أراد به : لا يخافون ، فدل جميع ما وصفناه على أن الخوف من الله تعالى من تمام الاعتراف بملكه وسلطانه ونفاذ مشيئته في خلقه ، وأن إغفال ذلك إغفال العبودية))[7] .

---

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1101 ، برقم : 3312)
(2) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 20 ، ص : 218)
(3) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ج : 5 ، ص : 402 ، برقم : 3297)
(4) طـه : 105
(5) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 5 ، ص : 266)
(6) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 3 ، ص : 50)
(7) شعب الإيمان للبيهقي ـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (ج : 2 ، ص : 290)

ـ لماذا يخاف الإنسان من العفاريت ؟ ، لأنها كائنات لا يراها لها القدرة على أن تؤذي الإنسان ، فيخاف منها خوف مهابة وخوف عقاب ، ورغم أن الإنسان غير مقتنع بوجود العفاريت ولكن بمجرد أن يأتيه الشك بوجودها يشعر بالخوف !! ، إن الله ليس كمثله شيء وهو أعظم من كل شيء وهو سبحانه لا نراه وله القدرة على أن يفعل بالإنسان أي شيء وكل شيء من ضرر أو نفع فلماذا لا نخاف من الله مثلما نخاف من العفاريت رغم أننا نشك في وجود العفاريت ونوقن بوجود الله ورغم أن قدرة الله أعظم بكثير من قدرة العفاريت على الإنسان ؟! ، ذلك لأن الله بقدرته وهيمنته وعظمته ليس له وجود حقيقي في المشاعر وإنما موجود فقط في الاقتناع النظري !! .

ـ الحالة النفسية للخوف والقلق والتوتر والاضطراب :

ـ أنت إذا رأيت ساحرا ، فإنه يحدث لك خوف مهابة مما يصنع وحب إعجاب بما يصنع : ((قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ))[1] .

ـ أنظر إلى حال رجل يذهب لمقابلة ملك من ملوك الدنيا ، فإنه يستعد ويتهيأ نفسيا لأنه أمر رهيب ، إنه يكون في قلق واضطراب ، وعندما يقف عند الملك قد يتلعثم من هيبة الموقف ، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف المهابة ، فإذا كنت تدعي خوف المهابة من الله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟! .

ـ خطورة الشعور بالخوف من مهابة الله والخوف من عقابه :

ـ الخوف شرط الإيمان ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في الفصل الثالث .

ـ الخوف الدائم والمخاوف المؤقتة :

ـ الخوف الأكبر هو خوف مسيطر على الإنسان لا ينساه طوال عمره .

ـ الإنسان الذي يسافر إلى مكان مجهول لا يعرفه ، وهناك يتم عرضه على محكمة تحكم عليه إما بالخلود في العذاب أو النعيم ، فهو خائف من هول الأمر الذي هو مقبل عليه لأنه يتوقف عليه مصيره وحياته كلها ، ولكن هناك مخاوف أخرى مؤقتة بسيطة أثناء سفره إلى هذه المحكمة وهي هل يجد استراحات قريبة يستريح فيها أم لا ؟ ، وهل ينفد ما عنده من ماء وهل يجد مكان قريب فيه ماء ؟ ، وهل يوجد شيء يعرضه للأذى أثناء سفره ؟ ، كل هذه مخاوف يحمل لها هما ولكنها ليست بشيء أمام الخوف الأكبر الذي يسيطر عليه وهو ماذا يجد وماذا يكون مصيره عندما يصل إلى ذلك المكان الرهيب ؟! .

ـ فكذلك الدنيا هناك بعض الأمور التي يخاف منها الإنسان والتي قد تعرضه للأذى لكنها مخاوف مؤقتة عابرة وخوفه الأكبر من يوم القيامة والحساب ومن لقاء الله تعالى وهو خوف دائم لا يفارقه .

ـ أنواع الخوف من هيبة الله تعالى :

1ـ خوف المهابة من القرآن وذكر الله تعالى :

ـ اليقين الحقيقي بأن القرآن هو كلام الملك والمسيطر والمهيمن والقهار والجبار والمتكبر يؤدي إلى الخوف من جلال الله ، أي الخوف من مهابة الله والخشية والوجل وليس خوفا من عقابه ، أي يحدث الخوف لمجرد أن ذلك كلام الله القهار المهيمن : ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ))[2] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ الذين إذا ذكر

(1) الأعراف : 116
(2) الزمر : من الآية 23

اللّه وَجَلَتْ قلوبُهم } ؛ خافت واقشعرت لذكره استعظاماً له وهيبة من جلاله))[1] .

ـ وفي تفسير ابن كثير تفسير ابن كثير : ((ثم قال تعالى منكرا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم : { تعْجَبُونَ } من أن يكون صحيحا ، { وَتضْحَكُونَ } منه استهزاء وسخرية ، { وَلا تبْكُونَ } أي : كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم : { وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } [الإسراء : 109]))[2] ، فالموقنون بالقرآن يبكون من مهابته ، وفي تفسير القرطبي : ((لما قرأ النبي صلى اللّه عليه وسلم (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) لم ير ضاحكا إلا مبتسما حتى مات صلى اللّه عليه وسلم))[3] .

2ـ خوف المهابة من اللّه تعالى :

ـ لقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعشرة المبشرون بالجنة يخافون من اللّه رغم علمهم بالوحي أنهم من أهل الجنة ، لأنهم يخافون من مهابة اللّه .

ـ جاء في أيسر التفاسير : (({ مالكم لا ترجون لله وقارا } : أي لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده))[4] ، ((وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنهم إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ))[5] ، ((وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ))[6] .

ـ والملائكة تخاف من مهابة اللّه تعالى ، ففي تفسير الرازي : (((يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ... ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللّه مِنْ عِبَادِهِ العلماء } [فاطر : 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة اللّه تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء))[7] ، وفي تفسير بحر العلوم : (({ يخافون رَبَّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ } » أي : يخافون خوفاً ، معظمين ، مبجلين))[8] ، وفي تفسير البحر المديد : (({ يخافون ربهم من فوقهم } ... أي : يخافون عظمة ربهم من فوقهم ؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت ، مقهورون تحت القدرة والمشيئة))[9] ، وفي تفسير الألوسي : (({ يخافون ربهم من فوقهم } لأنه القاهر المؤثر فيهم { ويفعلون ما يؤمرون } [النحل : 50] طوعاً وانقياداً))[10] ، ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[11] ، وفي الحديث : ((مررت بجبريل ليلة أسري بي بالملإ الأعلى وهو كالحلس[12] البالي من خشية اللّه عز وجل))[13] .

ـ وفي تفسير الوسيط : (({ تكادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ } .. { يَتَفَطَّرْنَ } أي : يتشققن ، والضمير في قوله تعالى { مِن فَوْقِهِنَّ } يعود إلى السماوات ، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التى تليها ، وهذا التفطر سببه الخشية من اللّه تعالى ، الخوف من جلاله وعظمتنه فيكون المعنى : تكاد السماوات يتشققن مع عظمهن { مِن فَوْقِهِنَّ } أي : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته عز وجل ، كما قال تعالى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }))[14] .

---

(1) تفسير البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (3 / 4)
(2) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج : 7 ، ص : 468)
(3) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 17 ، ص : 124)
(4) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج 4 ، ص : 314)
(5) المؤمنون : 60
(6) البقرة : من الآية 40
(7) تفسير الرازي (ج 9 ، ص : 400 ، 401)
(8) بحر العلوم للسمرقندي (ج : 2 ، ص : 467)
(9) البحر المديد ـ الناشر : الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة (ج : 3 ، ص : 269)
(10) تفسير الألوسي (ج : 10 ، ص : 193)
(11) الرعد : من الآية 13
(12) الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج
(13) السلسلة الصحيحة (2289)
(14) الوسيط لسيد طنطاوي ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة (ج : 1 ص : 3753)

ـ ويقول تعالى : ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))[1] .

3ـ خوف المهابة من سماع كلام الله وأوامره :

ـ جاء في فتح القدير : (({ وهم من خشيته مشفقون } فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل .... وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب))[2] ، وفي تفسير القرطبي : ((" وهم من خشيته مشفقون " [الأنبياء : 28] والمعنى : أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير))[3] ، وفي تفسير الطبري : ((ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا ؛ فيفزَع أهل السماء الدنيا ، حتى يستبين لهم الأمر الذي نزل فيه ، فيقول بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق وهو العلي الكبير ، فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ...) الآية))[4] .

4ـ خوف المهابة من رؤية الله تعالى :

ـ الإنسان إذا سمع بأذنه كلام الله له ، أو إذا رأى الله سبحانه فإنه قد يصعق من شدة الخوف من هول المهابة والعظمة وشدة الأمر : ((فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ))[5] ، وفي الحديث : ((حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[6] .

****

2ـ خوف المهابة من هول الآخرة

ـ الإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة ، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل ، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها ، أما الذي يوقن يقينا حقيقيا بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة .

ـ إن الطالب إذا دخل الامتحان فمن هول الموقف قد يتلعثم ولا يستطيع الإجابة ، وبعض الناس إذا تعرض لصدمة شديدة فإنه قد يفقد الذاكرة ، فنحن في الدنيا في حالة امتحان عصيب عليه رقيب وعتيد لكننا غافلون عنه .

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز : ((واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام { لا علم لنا } فقال الطبري ذهلوا عن الجواب لهول المطلع ، وذكر عن الحسن أنه قال : لا علم لنا من هول ذلك اليوم ، وعن السدي أنه قال : نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم ، وعن مجاهد أنه قال : يفزعون فيقولون لا علم لنا))[7] .

ـ وفي تفسير النيسابوري : ((ومعنى { عميت عليهم الأنباء } أن أخبار المرسلين والمرسل إليهم صارت كالعمى عليهم جميعاً لا يهتدون إليهم فهم لا يتساءلون كما يسأل بعض الناس بعضاً في المشكلات لأنهم متساوية الأقدام في العجز عن الجواب ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتلعثمون في الجواب عن مثل هذا السؤال كما قال سبحانه { يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا } [المائدة : 109]

---

(1) الحشر : من الآية 21
(2) فتح القدير للشوكاني ـ دار ابن كثير- دمشق (ج : 4 ، ص : 461)
(3) تفسير القرطبي ـ دار الكتب المصرية - القاهرة (ج : 14 ، ص : 295)
(4) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج : 20 ، ص : 397)
(5) الأعراف : من الآية 143
(6) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1860 في صحيح الجامع)
(7) تفسير المحرر الوجيز ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج : 2 ، ص : 256)

فما ظنك بضلال أممهم ؟!))[1] .

ـ وفي الحديث : ((إنكم تحشرون حفاة عراة ، قلت : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض قال إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك))[2] ، وذلك من شدة الخوف من هول الموقف .

ـ إن الذي يقف أمام القاضي ينتظر حكم المحكمة هل يحكم عليه بالسجن أم بالبراءة فهو قلق جدا لدرجة أنه قد لا يستطيع الوقوف على رجليه فيجلس على ركبتيه من هول الترقب والانتظار وليس من التعب ، ففي أيسر التفاسير : (({ وترى كل أمة جاثية } : أي كل أمة ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها))[3] ، وفي تفسير الخازن : (({ وترى كل أمة جاثية } أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء ، قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي))[4] ، وفي تفسير الخازن أيضا : (({ وترى كل أمة جاثية } قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات ، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً))[5] .

****

3ـ الخوف من العقاب والرجاء في الثواب

ـ الخوف من سلب النعم والخوف من الذي يسلب النعم :

ـ الذي يتعامل مع النعم على أنها ملك لله وهو الذي يعطيها وهو الذي يسلبها ، فهو يخاف من سلب النعمة (الابتلاء) ويخاف من الذي يسلب منه النعمة .

ـ كل الناس يريدون الشهوات واللذات وتحقيق السعادة وتجنب المضار والآلام ، وهم في ذلك صنفين هما :

ـ الصنف الأول يرى السعادة في شهوات الدنيا ولذاتها وتجنب مشاكل الدنيا وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الدنيا وهمه في الحصول عليها ، وهؤلاء كفار أو منافقون ، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الدنيا .

ـ الصنف الثاني يرى السعادة في شهوات الجنة ولذاتها وتجنب عذاب النار وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الجنة والحور العين وهمه في الحصول عليها ، وهؤلاء هم المؤمنون ، وهؤلاء هم العاقلين الذين يصبرون أنفسهم عن شهوات الدنيا القليلة ليتمتعوا بالنعيم الأبدي في الآخرة ، والدنيا في نظرهم ما هي إلا صبر ساعة ، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الله .

ـ الخوف من العقاب والرجاء في الثواب لابد أن يسبقه المشاعر الغير مرتبطة بالثواب والعقاب :

ـ لكي تتحقق هذه المشاعر لابد أولا أن تتحقق المشاعر الغير مرتبطة بالثواب والعقاب (خوف المهابة و الحب) ، لأن هذه المشاعر تعني أنه عقل حقيقة الشيء وشعر بمدى قيمته ، ونوضح ذلك كالتالي :

ـ لكي يتحقق الخوف من دخول النار لابد أن يتحقق أولا الخوف من مهابة النار وكراهية النار .

ـ ولكي يتحقق الرجاء في دخول الجنة لابد أن يتحقق أولا خوف المهابة من عجائب اللذات التي فيها بما يفوق كل التصورات والحب لما في الجنة من لذات .

ـ الخوف من العقاب ينشأ من خوف المهابة ، ورجاء الثواب ينشأ من الحب :

(1) تفسير النيسابوري ـ دار الكتب العلميه - بيروت (ج : 5 ، ص : 355)
(2) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن النسائي ج : 4 ، ص : 114 ، برقم : 2084)
(3) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، السعودية (ج :4 ، ص : 62)
(4) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج 5 ، ص : 402)
(5) تفسير الخازن ـ دار الكتب العلمية - بيروت (ج 4 ، ص : 355)

ـ الإنسان إذا ذهب إلى قسم الحرائق بأي مستشفى مثلا ورأى ما فعلته النار بهؤلاء المرضى فإنه يتألم رغم أنه لم يصب بأي أذى من النار ، فهذا هو خوف المهابة من النار ، وينشأ عن ذلك الخوف من أن يقترب من النار أو تدركه النار فيصاب مثلهم ، وهذا هو خوف العقاب أي خوف الوصول للنار ، فإذا لم يشعر الإنسان بـ التألم لهؤلاء المرضى فهذا معناه أنه لا يعرف ماذا تعني كلمة نار معرفة حقيقية ، وهو ليس حي ولا عقل له ، وبالتالي فلن يخاف من العقاب .

ـ فكذلك في هلاك الأمم السابقة لابد أن يشعر الإنسان تجاهه بخوف المهابة مما حدث لهم ، فينشأ عن ذلك خوف العقاب من أن يكون مصيره مثل مصيرهم .

ـ الإنسان إذا سمع عن رجل كريم جواد يعطي الفقراء والمحتاجين ويساعد الناس فإنه يحبه ، وينشأ عن ذلك الرجاء في الحصول على عطاء منه ، فإذا لم يحبه فلن يرجوه .

ـ وينشأ عن خوف العقاب ورجاء الثواب الخضوع خوفا من العقاب ورجاءا في الثواب .

ـ الخوف من النار هو في حقيقته خوف من الله ، ورجاء الجنة هو في حقيقته رجاء الله :

ـ الخوف من النار هو في الحقيقة خوف من الله ، لأن النار ليست موجودة بذاتها وليست هي التي تريد أن تعاقب أحدا ، ولكنها عقوبة من الله ، لذلك فالخوف من النار في الحقيقة هو خوف من الله من أن يعاقبك بـ النار ، وكذلك رجاء الجنة هو في الحقيقة رجاء الله في أن ينعم عليك بالجنة ، وكذلك الخوف من الآخرة هو في الحقيقة خوف من الله في أن يقيك هول ذلك اليوم ، لذلك يقول تعالى : ((إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً))(1) ، لذلك فالذي يعبد الله رجاء الجنة فهو يقصد رجاء الله في أن ينعم عليه بالجنة .

ـ الحالة النفسية للخوف وللرجاء :

ـ لاحظ أن كل الأمور التي يخاف الإنسان منها خوف العقاب فهو يخاف أيضا منها خوف المهابة لخطورتها ، والعكس غير صحيح .

ـ الطالب في الثانوية العامة الذي ينتظر النتيجة يكون عنده رجاء واشتياق وتتطلع إلى النجاح والوصول إلى كليات القمة ، ويكون عنده خوف وقلق واضطراب من الرسوب .

ـ أنظر إلى طالب في الثانوية العامة ، فإنه قد يأخذ حالة طوارئ ويتهيأ نفسيا لأنه أمر مصيري يتحدد عليه مستقبله ، إنه يكون في قلق واضطراب وخوف وترقب حتى تظهر النتيجة ، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف وقلق ، فإذا كنت تدعي الخوف من الآخرة فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟ ، وأنظر إلى حالته وهو في انتظار النتيجة ، أنظر إلى حالته المزاجية وانشغال باله بالنتيجة ، فإن الشعور الحقيقي يظهر علي الوجه ويؤثر في وجدانه وربما يأرق من النوم وتقل شهيته للطعام .

ـ أنظر إلى إنسان مطلوب منه أن يقوم بعمل معين وإلا يتعرض مثلا للفصل من العمل ، أنظر إلى حالته النفسية قبل وأثناء وبعد تأدية العمل فتجد حالة نفسية مميزة للخوف ، وأنظر إلى قوة هذه الحالة النفسية واستمراريتها والشعور بها ، وحتى بعد العمل يظل خائفا هل أداه علي ما يجب أم أنهم لن يرضوا عن هذا العمل .

ـ مثال آخر : هل خوفك من القيام بعمل يعاقب عليه القانون مثل خوفك من القيام بمعصية ، فأين خوفك من عقاب الله ، وهل ندمك وحزنك على الوقوع في معصية مثل حزنك على ضياع مائة جنيه مثلا ، وهل الحالة النفسية التي تشعر بها في هذا مثل هذا ؟! .

ـ لو كنت تدعي أن هناك أحدا من الناس يتعقبك ويريد قتلك ثم أنت لا تشعر بالخوف من ذلك فأنت كذاب ، كذلك إذا كنت تدعي بوجود الآخرة بما فيها من أهوال وعقاب ولم تخف خوف المهابة وخوف العقاب فأنت

(1) الإنسان : 10

كذاب ، فالآخرة مثل الجيش الذي يهجم عليك ليقتلك ، ففي الحديث : ((مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))(1) ، فهل عندك الحالة النفسية للذي يهرب من الجيش المقبل عليه ليفتك به .

ـ الإنسان الذي يعيش من أجل الدنيا كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من تحقيق طموحه الدنيوي فيزداد نشاطا للدنيا ، والذي يعيش منتظرا لقاء الله كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من الموت ولقاء الله ، فـ الرجاء فيه شوق وحنين وفرح وحب وتطلع وانطلاق وشعور بالهدف الذي تسعى إليه ، فإذا كنت تدعي أنك ترجو الله واليوم الآخر فهل عندك مثل الحالة النفسية التي تكون عند من يرجو ويهدف إلى القيام بعمل دنيوي كمشروع تجاري أو السعي لمنصب أو جاه أو شهوة ؟! .

****

4ـ حب الله تعالى

ـ لا يتحقق الإيمان حتى يكون الله أحب إليك من الدنيا وما فيها ، فيكون حب الله أكبر من حب الأهل و الزوجة والمال والجاه .

ـ الإنسان قد لا يستطيع أن يقاوم محبة الدنيا والشهوات ويقول : اطلب مني أي شيء ما عدا أن أبتعد عن محبة الدنيا والشهوات ، وفي المقابل لا يعرف أصلا ماذا يعني أن يحب الله ؟ ولا يعرف أن حب الله ألذ وأمتع من كل لذات ومتع الدنيا ، ومن عرف الله عرف أن الشهوات ليس فيها شيء يدعو إلى محبتها ! .

ـ حب النعم وحب صاحب النعم :

ـ الذي يتعامل مع النعم على أنها ملك لله وعطاء منه فإنه تلقائيا سوف يحب الله ، وإذا سلب منه فإنه لا يحزن لأنه أخذ ما يملكه بل يكون شاكرا لما استفاد به طوال الفترة السابقة ، فسلب النعمة ليس ظلما لأنه النعمة ملكه .

ـ معنى الحب :

ـ الحب هو أحلى وألذ ما يشعر به القلب ، ونحن في زمان كثر فيه الكلام عن الحب ، فلا تحتاج إلى أن أذكر لك فوائد ومزايا وجمال ولذة ومتعة الحب .

ـ حب الله عبارة عن لذة ومتعة وسعادة يحس بها الإنسان عندما يعرف (معرفة حقيقية) مدى جمال صفات الله ومدى جمال ذاته فيشتاق إلى لقاءه والنظر إليه ويأنس به ويحب ذكره .

ـ فالحب هو الشعور بالراحة والميل والإعجاب والسعادة والطمأنينة والسكينة بالشيء لما فيه من صفات جميلة وما يعود علي الإنسان من الخير منه ، فإذا كنت تشعر بهذا الشعور تجاه الله فأنت تحب الله .

ـ إن الذي يحب امرأة فإنه يشعر بالميل إليها ، لذلك فالحب هو الميل إلى المحبوب وهذا معني كلمة حنيف ((حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ))(2) ، وإن الذي يحب امرأة فإنه يشعر بالشوق إليها ، لذلك فالحب هو الشوق إلى لقاء المحبوب ، فمن أدعية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((اللهم وأسألك لذة العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقا إلى لقاك))(3) ، وإن الذي يحب امرأة ينشغل باله وفكره بها ، فالحب هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب : ((إنما المُؤْمِنُونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ))(4) ، وإن الذي يحب امرأة

(1) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5860 في صحيح الجامع)
(2) الحج : من الآية 31
(3) التخريج : صحيح (ظلال الجنة ج : 1 ، برقم 424)
(4) الأنفال : من الآية 2

يشعر بالراحة والسعادة عند ذكر المحبوب ، فالحب هو سكون القلب إلى المحبوب : ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))[1] .

ـ إن الله تعالى يقول : ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[2] ، وأنت تسمع من كلام الحب للعشاق في الغناء وفي الشعر ما معناه : إن كل أعمالي وكل حياتي وروحي ومماتي للمحبوب ، وهذا هو ملخص معظم الأغاني والأشعار ، وهذا لا يكون إلا لله ، لأن هذا الكلام يفيد أن كل مشاعري وكل ما يشغل بالي وكل أهدافي هي المحبوب ، فخطورة أغاني العشاق أن فيها تعظيم لحب غير الله ، ففي ذلك صرف عن حب الله كما أن فيها تلهي وتشاغل عن الله ، وهذا يعني أن كلام الحب للعشاق لابد أن يتحول إلى الله بشرط تعديله بحيث يليق ويتناسب مع الله سبحانه ، وبشرط إزالة الكلمات والمعاني التي تتناسب مع الطين (الإنسان) لأنك تتعامل مع الله سبحانه ، وإنك تجد أن أهل الغناء والشعراء كثيرا ما يبالغون مبالغة شديدة في معاني القرب من محبوبهم ، وهذه المبالغة الشديدة إنما تجب أن تكون لله تعالي ، والعكس فإن الكلمات والمعاني الدينية التي تستخدم للتقرب إلى الله فإنك تجد أهل الغناء يستخدمون معاني قريبة أو شبيهة أو حتى نفس الكلمات في التقرب إلى المحبوب وهذا يجب أن يكون لله تعالى ، فإن الشعراء وأهل الغناء ذاقوا طعم الحب ، ولكن للأسف الحب للنساء ، ولابد أن يكون نفس هذا الحب ، بل أشد منه لله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى : ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ))[3] ، ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[4] .

ـ موجبات الحب :

ـ حب الله تعالى له أربعة أسباب هي حب الله تعالى لجمال ذاته ولنعماءه ولأنه له كل الصفات الحميدة ولكمال صفاته :

ـ أولا : حب الله لجمال ذاته :

ـ الإنسان إذا نظر إلى وردة جميلة فإنه يحب ذلك المنظر ويجد في ذلك متعة ، فهذا النظر متعة للإنسان .

ـ الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ونحن لم نراه ولكننا نوقن يقينا حقيقيا بجمال ذاته لأنه هو الذي أبدع وخلق جمال المنظر في الأشياء كالورد والفراشات والألوان المتناسقة المبدعة في كل شيء ، وخالق الشيء هو أولى به ، فمثلا الذي خلق في الإنسان قوة فهو أقوى منه : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً))[5] .

ـ وجمال ذاته سبحانه هو فوق كل ما يتصوره الإنسان لدرجة أن مجرد النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه أكثر لذة من كل لذات الجنة بما فيها من الخمور والحور العين وكل متع الجنة ، لذلك فأسعد شيء يرجوه المؤمن هو لذة النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه وتعالى .

ـ ثانيا : حب الله شكرا على نعماءه :

ـ الأصل أن الإنسان جائع لا يجد لقمة يأكلها وليس له حق في أن يأخذ لقمة يأكلها ولم يظلمه أحد في أن يأخذ منه لقمة ، وبالتالي إذا جاءته لقمة كان كأنه جاءه ملك عظيم ، فهذا حال من يعرف أنه لا يملك شيئا ، فإذا وجد لقمة في بيته هي عنده عطاء عظيم ، فيعبد الله شكرا على نعماءه ويعلم أن عبادته لا تساوى لقمة واحدة (الخضوع حبا لله لنعماءه ـ الخضوع شكرا لله) .

ـ فالأصل أن الإنسان لا يرى ولا يسمع وليس عنده مال ولا بيت ولا زوجة ولا ماء ولا هواء وهو راض بهذا الأ

(1) الرعد : 28
(2) الأنعام :162
(3) البقرة : من الآية 165
(4) الشعراء : 98
(5) فصلت : من الآية 15

أمر لأن هذا حقيقته لا يملك شيئا وليس له حق عند أحد ليعطيه ولو كان سيموت ، فهو يعلم حقيقته أنه ليس له حول ولا قوة ، ثم أتاه الله بشربة ماء لا يستحقها ولا يملك ثمنها فهو بذلك سعيد أشد السعادة شاكرا لله محبا له فيعبده ويخضع له شكرا له : ((وَهُوَ الذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ))[1] ، ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[2] .

ـ ولذلك إذا ابتلي أو فقد شيئا لم يحزن لأنه لم يكن أصلا يملك شيئا وبالتالي ما ضاع منه شيء وما فقد شيء ، وكيف يحزن على شيء ليس ملكا له ، وصاحب هذا الشيء له أن يفعل بما يملكه ما يشاء يعطيه أو يمنعه .

ـ والإنسان لا يجد لذة إلا عن جوع خاصة لو لم ينتظر أو يتوقع طعاما ورضي بأنه يموت جوعا لأنه لا يملك طعاما وليس له حق في طعام ثم تأتيه لقمة يأكلها من عند الله فعندئذ يعرف لذة حب الله تعالى لنعماءه ، فإذا لم يشعر الإنسان بأنه لا يملك شيئا لن يشعر بلذة حب الله تعالى لنعماءه .

ـ فالحكمة من أن الله أعطانا النعم كالسمع والبصر هو للاختبار هل نعرف بها الخالق فنخضع له ونكون شاكرين آم نشعر أنها ملكا لنا أصلا فنستكبر بها عن الخضوع : ((إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً))[3] .

ـ فالنعم أمانة أو عارية يستردها صاحبها وهو الله سبحانه في أي وقت شاء ، لذلك فأنت تحب الله لما أعطاك ولا تكرهه لما سلب منك لأنه أعطاك أمانة تمتعت بها فترة من الزمن بغير استحقاق منك ، فأنت تحبه لما استفدت به من هذه النعمة خلال هذه الفترة .

ـ المسلم عنده رضا بما عنده ، بل يشعر أن ما عنده لم يكن يستحقه فهو زائد عن أهدافه ، لأن الإنسان لا يملك شيئا والمالك لكل شيء هو الله تعالى ، فإذا أعطاه الله شيئا كالماء والهواء فذلك فضل يفرح به فيحب الله تعالى لما أعطاه .

ـ فالله ينعم عليك ويتودد إليك فلماذا لا تشعر بحبه ؟ ، فلو أن رجلا أعطاك مالا وبيتا ومرتبا شهريا وزوجك وتكفل برعايتك وتودد إليك فلماذا لا تحبه ؟ ، فيجب عليك أولا أن تشعر بالتجرد والاحتياج إلى النعم وأنك لم تأتي بالنعم من كدك أو تعبك وأنها ليست ملكا لك وأنك في أمس الحاجة إليها ، ثم تتصور أن أحدا يعطيك هذه اللقمة التي تأكلها عن جوع واحتياج وبدون ثمن ولا مقابل فتحبه ، وكذلك تصور أن أحدا يعطيك ما تلبس وما تملك من عنده وبلا مقابل ، إنك عندئذ تشعر بالحب له ، أما إذا كنت تتصور أن ما عندك إنما هو من كدك وتعبك وأنه ملك لك أو أن أحدا أعطاك حقا لك وواجبا عليه وهو ملك لك فلن تشعر بالحب لله .

ـ وتصور أنك تقابلت مع شخص هو الذي كان قد أنفق عليك ورعاك طوال سنوات عمرك منذ أن كنت رضيعا وأعطاك السكن الذي تسكن فيه وكل شيء فبماذا تشعر ؟ ، ولماذا لا تجد مثل هذا الشعور والله هو المالك لكل شيء المنعم عليك وأنت بين يديه ولا تغيب عنه طول وقتك .

ـ إذن عندما تتجرد من النعم وتنسب كل النعم إلى الله تعالى يحدث لك مشاعر هي : الخضوع والانقياد وأنك عاري لا تملك شيئا ولا سمعا ولا بصرا ، والحب لله لأن هذه النعم عندك تتمتع بها ، إذن قد أُعْطِيَتْ لك مقصودة لك فتحبه ، وتتوكل على الله لأنك عاري لا تستطيع عمل شيء ولا تملك شيء فتعتمد على الله ليعطيك .

ـ ثالثا : حب الله تعالى لصفاته سبحانه :

---

(1) المؤمنون : 78
(2) يونس : 31
(3) الإنسان : 3

ـ الله له كل الصفات المحمودة ، والإنسان بطبعه يحب هذه الصفات ويحب من يتصف بها ، ويعجب بها .

ـ فأنت مثلا إذا رأيت ساحرا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله ، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء ، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرا وخيالا ، فمثلا عندما خرجت ناقة صالح من الصخرة لم تكن خيالا حتى أنهم ذبحوها وأكلوها ، وقدرة الله على خلق السماوات أعجب من السحر وهي حقيقة وليست سحرا .

ـ فالإنسان يحب الصفات الحميدة ويكره صفات النقص والعجز ، فمثلا الإنسان لا يحب النظر إلى إنسان أعمى أو معوق أو أصابه حرق أو مريض ، وكذلك لا يحب أن يصاحب إنسان غبي أو ضعيف البنية أو بخيل أو ليس بجميل المنظر أو ظالم .. الخ ، وعلى العكس فالإنسان القوي الذكي الكريم حسن المنظر يحبه الناس .

ـ فالله سبحانه فيه كل الصفات الحميدة ، وهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال ، وكل ما سوى الله فيه كل صفات النقص والعجز والضعف وما عنده من صفات حميدة إنما هي مجرد عطاء من الله وليست أصيلة فيه وبالتالي ليست مدحا له وإنما مدحا لمن أعطاها إياه .

ـ الصفات الحميدة في الإنسان مثل الشجاعة والكرم والنجدة والقوة .... الخ هي صفات محبوبة ، والصفات السيئة مثل الجشع والظلم والقسوة والطمع .... الخ هي صفات مكروهة ، الله سبحانه له كل الصفات الحميدة فهو ينعم على الناس ولا يريد شيئا منهم ويرحمهم ويغفر لهم ويحلم عليهم ويتصف بكل الصفات الحميدة الجميلة .

ـ وكل صفات الله تعالى محبوبة ، والتكبر عكسه الخضوع ، فالتكبر صفة قوة والخضوع صفة ضعف ونقص ، وهناك فرق بين تكبر الظالم على المظلوم ، وتكبر من حقيقته القوة على من حقيقته الضعف ، فالظالم ليست له قوة حقيقية ولكنه أخذها من المظلوم ، والمظلوم كانت له قوة فسلبت منه ، أما إذا كان المتكبر ليس ظ الما فهو في ذاته قوى ولم يأخذ قوته من أحد ، وتكبر على من ليست له قوة أصلا فلم يسلب منه أحد قوة ، فذلك التكبر صفة مدح ، فالإنسان ليس له أن يتكبر على غيره لأن جميع البشر لا قوة لهم ، فما عندهم من قوة هو نعمة من الله عليهم وليست ملكا لهم ، والله له القوة وحده وغيره لا قوة له : ((أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً))[1] ، فالناس يخضعون لله لأن هذا حقه لأنهم ضعفاء وهو القوى ، والضعيف يخضع للقوى و القوى بحق يتكبر على الضعيف الذي لا قوة له فلم يسلب منه أحد قوته .

ـ فصفات الله مثل الجبار والمتكبر والقهار هي أيضا صفات محبوبة ، لأن صفات القوة والإرادة عند البشر هي صفات مخلوقة فيهم وليسوا هم أقوياء من ذوات أنفسهم وحقيقتهم أنهم ضعفاء وما عندهم من قوة هو محض تكرم من الله عليهم ، لذلك فالإنسان ليس له أن يتكبر لأنه ليس بقوي ، والقوي بحق هو الذي له أن يتكبر على الضعيف .

ـ وفي تفسير الرازي : ((واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم ، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقص في حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً ، فكان ذلك مذموماً في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم قال : { سبحان الله عَمّا يُشْرِكُونَ } كأنه قيل : إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم ، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي ، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة ، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال ، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق))[2] .

---

(1) البقرة : من الآية 165|
(2) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : 29 ، ص : 514)

ـ فالإنسان يحب الله لأنه الوكيل ، فهو يتكفل بما يحتاجه العبد ، فيتوكل العبد على الله وفي ذلك راحة وسعادة ، ويحب الله لأنه تواب غفور رحيم ودود فيتوب على من أذنب ويغفر له ويتودد إلى عباده ، فأنت إذا أخطأت في حق ملك من ملوك الدنيا وخالفت أمره فقد يبطش بك ولكن الله يظل يغفر لك طالما أنك تتوب مهما كثرت الذنوب ، فذلك يؤدي بالضرورة إلى محبته .

ـ والإنسان يحب الله لأنه الهادي ، فالله يعرف الإنسان بطريق الهداية ويعينه عليه ويحب له الخير وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى ما فيه نجاته وسعادته .

ـ والإنسان يحب الله لأنه يجيب الدعاء ، فكلما احتجت إلى أي شيء دعوته فوجدته في أي وقت ، فالله عنده القوة التي تحميك وعنده كل ما تريد وتطلب في الدنيا والآخرة .

ـ والإنسان يحب الله لأن الله يريد للإنسان الخير ، وما يحدث للإنسان من ابتلاءات هو خيرا له لكي يفيق من غفلته ، كما أن الابتلاءات والمصائب فيها تكفير للذنوب ، وفي الحديث : ((يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ))[1] .

ـ والإنسان يحب الله لأنه يعطي الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها فقط .

ـ رابعا : حب الله تعالى لأن صفاته تصل إلى درجة الكمال :

ـ الإنسان يحب الصفات الحميدة ، وحبه أكبر لمن تتميز هذه الصفات الحميدة عنده فتكون أعلى من الناس ، فيحب من يضرب به المثل في الإنفاق أو أعمال الخير ، ويحب من يحقق رقما قياسيا في بطولة رياضية مثلا ، ويحب الانتماء إليه ومودته والعزة به ، وقد يعلق صوره في بيته ويكثر من الحديث عنه وينسب نفسه إليه ويفتخر بقدرة ذلك الإنسان الذي جعله مثلا أعلى له .

ـ ولأن الله هو الأعلى في كل الصفات الحميدة ، فمن شعر بالعلو والكمال في هذه الصفات لله تعالى شعر بحب الله وحب الانتماء إليه والحديث عنه وعن فضله ، فيعتز بانتسابه إلى الإسلام ، ويستمد فخره وشرفه وقوته من انتسابه إلى الإسلام .

ـ ولأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلى الناس في الصفات الحميدة كما أنه أرشد الناس وعرفهم بطريق النجاة ، فمن شعر بهذه الصفات للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شعر بحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحب الانتماء إليه والحديث عنه وعن فضله ، فيعتز بانتسابه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويستمد فخره وشرفه وقوته من انتسابه إلى الإسلام ، ويفرح بانتسابه إلى الله ورسوله والمؤمنين : ((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[2] .

ـ فالجمال والصفات المحمودة كالكرم والرحمة وغيرها هي صفات محبوبة ، فالإنسان يحب هذه الصفات ويحب من يتصف بهذه الصفات ، وكلما كانت هذه الصفات موجودة بصورة أكبر كان حب الإنسان لمن يتصف بها أكبر كأن يحب فلانا الذي كرمه كبير جدا أو جماله لا يوصف مثلا ، فإذا كانت جميع الصفات المحمودة هي من صفات الخالق وتصل إلى درجة الكمال التام وما عند الإنسان من صفات محمودة هي محض تكرم من الله علية لأن الإنسان لا يملك شيئا يعطيه لغيره ليكون كريما مثلا ، فلا كريم كرما حقيقيا إلا الله تعالى ، والذي خلق كل هذا الكم من الجمال في الخلق والمخلوقات لابد أن يكون عنده من الجمال ما هو أكبر من مجموع ما أعطى من الجمال للخلق والمخلوقات منذ خلق الكون والبشر والمخلوقات إلى يوم القيامة ، وبالتالي فلذة النظر إلى وجه الله أعظم من مجموع كل جمال الدنيا ، وبالمثل كل الصفات المحمودة من الكرم والرحمة وغيرها فالله خلقها وهي عند الله أعظم فلله الكمال في الجمال والصفات ، وبالتالي فكل صفات الله تدعو إلى حبه حبا عظيما ، فمن لم يشعر بشيء من حب الله تعالى هو لا يعرف الله ولا يوقن يقينا حقيقيا بالخالق وصفاته .

---

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (جامع الترمذي ج : 4 ، ص : 603 ، برقم 2402)
(2) المنافقون : من الآية 8

ـ حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها :

ـ جميع المخلوقات هي في ذاتها فيها كل الصفات المذمومة وما عند المخلوقات من صفات حميدة هي عطاء من الخالق وليست أمور في ذاتها ، فالمخلوقات في ذاتها لا تمتلك شيئا وليس لها حول أو قوة أو علم ، كما أن الذي لديه صفات حميدة معرضة لأن تسلب منه فهذه صفات ذم ، وجميع الصفات الحميدة هي للخالق وحده ، فهي صفات ذاتية في ذات الخالق سبحانه لم يكتسبها من أحد ولم يعطيها أحد له ولا يستطيع أحد أن يسلبها منه سبحانه ، إذن فلا يحب لذاته إلا الله ، وجميع المخلوقات يبغضها الإنسان لذاتها لضعفها ونقصها ، وما يحبه الإنسان في المخلوقات هو من حب الله أي هو حب في الله وليس حب لذات المخلوق لأ ن المخلوق في ذاته لا يملك ولا يعلم شيئا وما عنده من إرادة هي عطاء من الله ومعرضة لأن يسلبها الله منه في أي وقت ، فحب الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ هو حب في الله أي هو من حب الله تعالى وكذلك حب المؤمنين .

ـ الأدلة على حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها ، والأدلة على أن الحب هو إعجاب بالصفات الحميدة :

ـ الإنسان إذا تفكر عرف أن الخالق لابد أن يتصف بكل الصفات الحميدة وحده وإلا لا يكون خالقا ، وعرف أن المخلوق لابد أن يتصف بكل الصفات الذميمة وإلا لا يكون مخلوقا لأنه مصنوع وما عنده من صفات حميدة ليست نابعة من ذاته ، فإذا عرف الإنسان ذلك معرفة حقيقية أحب الخالق لذاته بكل الحب ، وأبغض جميع المخلوقات لذاتها ففي النهاية في غريب الأثر : (({ أله } في حديث وُهَيْب بن الوَرْد [إذا وقع العبد في ألْهَانِيّة الربّ لم يجد أحداً يأخذ بقلبه] هو مأخوذ من إلاهٍ ... وأصله من ألِهَ يألهُ إذا تحَيّر . يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[1]

وفي تاج العروس : ((وفي حديثِ وهب بن الوَرْد : (إذا وَقَعَ العَبْدُ في أُلْهانِيّةِ الرّبّ ، ومُهَيْمِنِيّة الصِّدّيقِيْن ورَهْبَانِيَةِ الأبْرارِ لم يَجِدْ أحَداً يَأْخُذ بقلبِه) ، أي **لم يَجِدْ أحَداً يَعجبُه** ولم يُحِبّ إلا اللهَ سبحانه ، قالَ ابنُ الأ ثيرِ : هو فُعْلانِيّة مِن ألِهَ يَأْلهُ إذا تحَيّرَ ، يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها ، أبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلبُه إلى أحَدٍ))[2] ، وفي غريب الحديث لابن قتيبة : ((ألِهَ يَأْله إذا تحيّر كأنّ القلوب تأْلهُ عند التفكر في عَظَمة الله ... يقول : إذا وَقَع العبد في عَظَمَة الله وجلا َله وغير ذلك من صِفات الرُّبُوبيّة ... يقول : إذا وَقَع العَبْد في هذه الدّرجَة **لم يُعْجِبهُ أحد** ولم يُحبّ إلا الله عز وجلّ))[3] .

ـ مقدار الحب المطلوب :

ـ الحب الذي يجعل الإنسان ضعيف أمام محبوبه مستكين له فيلغي رأيه فلا رأي له إلا ما يراه محبوبه فهو يجعل نفسه تحت تصرف محبوبه ، فهذا هو الخضوع حبا للمحبوب ، فهو بذلك يجعل المحبوب إلاها له ، فإذا كان المحبوب الله فهو يعبده ، وإذا كان المحبوب امرأة أو مال أو جاه فهو يعبد هواه من دون الله تعالى .

ـ إذا زاد حبك لشخص لدرجة أنك تطيعه فأنت فعلا تحبه ، كذلك إذا وصل حبك لله إلى درجة أنك تطيعه حبا له فهذا هو الحب المطلوب وذلك من قوله تعالى ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ))[4] ، فحب الله يؤدي إلى الخضوع له حبا ، فيؤدي ذلك الخضوع إلى الطاعة ، وليست القضية الأساسية مجرد الطاعة وإنما الطاعة الناشئة عن حبك لله أي تطيعه لأنك تحبه ،

---

(1) النهاية في غريب الأثر ـ المكتبة العلمية - بيروت (1 / 62)
(2) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322)
(3) غريب الحديث لابن قتيبة ـ مطبعة العاني - بغداد (3 / 728 ـ 729)
(4) آل عمران :31

فمن أثر حبك للقرآن فإنك تتلوه وتحفظه ، ومن أثر حبك لله والرسول فانك تتبعه ، فمقدار الحب هو أن يصل إلى درجة الانقياد ، فالذي يحب المال ينقاد له والذي يحب امرأة ينقاد لها ، والذي يحب الدنيا ينقاد لها ، كذلك فالذي يحب الله ينقاد له ويخضع له ، فالحب يلازم الخضوع والانقياد ، ودرجة الحب هو أن يصل إلى درجة الخضوع ، فالذي يملا قلبك حبه فأنت أسيرا لحبه ، فهو قد سيطر علي مشاعرك ، أي أصبحت مشاعرك خاضعة له ، فالحب يؤدي إلى الخضوع للمحبوب ، فأنت تخضع حبا أو من حبك له ، كَمَنْ يحب امرأة إلى درجة أن يخضع لها ، والله يريد أن تخضع له وتركع عن حب وتعظيم ولا يريد أن تخضع له عن قهر ولو أراد ذلك لفعل سبحانه .

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((آخِرَ مَرَاتِبِ الحُبِّ هُوَ التَّتَيُّمُ، وَأَوَّلُهُ " العَلَاقَةُ " لِتَعَلُّقِ القَلْبِ بِالمَحْبُوبِ، ثُمَّ " الصَّبَابَةُ " لِانْصِبَابِ القَلْبِ إلَيْهِ، ثُمَّ " الغَرَامُ " وَهُوَ الحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ ثُمَّ " العِشْقُ " وَآخِرُهَا التَّتَيُّمُ " يُقَالُ: تَيْمُ اللهَ أَيْ: عَبْدُ اللهَ ، فَالمُتَيَّمُ المُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ))[1] .

ـ الحالة النفسية للحب والشوق والرغبة :

ـ الحب صورة من صور الشعور باللذة ، فإذا لم يشعر الإنسان باللذة فهو لا يحب ، فالحب عبارة عن متعة ولذة ، فمن لم يجد في محبة الله متعة ولذة فهو لا يحب الله تعالى .

ـ كثيرا من الناس يدعون حب الله فإن الذي يحب شخصا فإنه يحب أن يذهب إليه ويتحدث معه فهل تجد في نفسك الشوق إلى لقاء الله والشوق إلى النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم ، ومن أدعية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((اللهم وأسألك لذة العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقا إلى لقاك))[2] .

ـ إن الذي يدعي حب الله ولا يشعر بالحالة النفسية التي يشعر بها المحبين في الدنيا فليس بمحب ، فـ المشاعر ليست شيئا هلاميا وهميا ولكنها حالة نفسية وحالة عاطفية ومزاجية موجودة في النفس ، فحب الله هو من جنس الحب الموجود في الدنيا ، لأنه إذا لم يكن حب الله من نفس جنس الحب الذي يعرفه الإ نسان فـالله يخاطبنا بلغة لا نفهمها .

ـ المحب يفرح ويطمئن ويشعر بالأنس بلقاء محبوبه أو رؤيته أو ذكره والحديث عنه أو يفخر بالانتساب إليه ، فكل ذلك صور للقرب من محبوبه ، ويشعر بالغربة والحيرة والحزن عندما لا تحدث هذه الأمور ، أي عند البعد عن محبوبه ، فكذلك المؤمن يفرح ويطمئن ويشعر بالأنس بلقاء الله أو رؤيته يوم القيامة أو ذكره و الحديث عنه أو يفخر بالانتساب إليه بأن يعمل عبدا له ، فأفضل لقب يحصل عليه الإنسان هو أن يكون عبدا لله تعالى ، فكل ذلك صور للقرب من محبوبه ، ويشعر بالغربة والحيرة والحزن عندما لا تحدث هذه الأمور ، أي عند البعد عن محبوبه : ((الذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ إلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ))[3] .

****

ـ استمرارية المشاعر المتعلقة بـالله والآخرة

ـ طالما أن المؤثر ما زال مستمرا وموجودا فلابد أن يستمر التأثر به ، فمثلا طالما أن الآخرة لا تزال لم تأتي بعد لابد أن يستمر خوف المهابة من اقترابها وأن يستمر حب الجنة ورجاءها وكراهية النار والخوف منها وتبقى الآخرة في بؤرة شعوره ودائرة همومه وتكون أكبر أهدافه حتى تأتي الآخرة ، ويوم القيامة يكون هناك شعور أشد بخوف المهابة من أهوالها وما يحدث فيها .

ـ فما دام الطالب في انتظار نتيجة الامتحان فإنه يظل قلقا ، ويستمر القلق حتى تظهر النتيجة ، بل إنه كلما اقترب موعد النتيجة زاد القلق ، كذلك الذي يكون قلقا من الآخرة يظل هذا الشعور عنده حتى تأتي الآخرة ،

(1) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ـ دار الكتب العلمية (5 / 157)
(2) التخريج : صحيح (ظلال الجنة ج : 1 ، برقم 424)
(3) الرعد : 28

بل إن القلق يزداد كلما اقترب العمر من الآخرة ، كما أن الإنسان لا يدري متى يموت فيكون خوفه أشد ، إذن فالمؤمن لابد أن يعيش حياته خائفا من الله ومن عقاب الله ، ففي الحديث القدسي : ((قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي))[1] .

ـ وطالما أن الله موجودا دائما ولن يغيب سبحانه فيظل الشعور بحبه والخوف من مهابته مستمرا حتى في الجنة ، ويظل المؤمنون في الجنة يشعرون بأن حب الله أكبر من حب كل شهوات الجنة رغم عظمتها لأن الله أعظم كما أن لذة النظر إلى وجه الله تعالى أمتع من كل متع الجنة ، والشعور بخوف المهابة والحب موجود أيضا عند الملائكة وعند الجمادات لأن كل شيء يسبح بحمده سبحانه .

****

ـ تناسي قضية الخضوع وادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة :

ـ كل الناس يعلمون أنه يجب عليهم أن يخضعوا لله ولكنهم يتجاهلون ما يعلمونه ، فأخطر قضية في حياة ا لإنسان هي الخضوع لكن الإنسان يتناساها كأنها ليست بقضية أصلا ! .

ـ كل إنسان يدعى الخضوع ولا يسأل نفسه هل هو خاضع حقا أم لا ؟ ولا يتبين طبيعة وحقيقة الخضوع ، وكذلك يدعي أنه يخاف الله ويحبه ويرجوه ويخاف من الآخرة ؟ ولا يسأل نفسه هل هو خائف حقا من الله أم لا ؟ وهل هو يشعر بحب الله حقا أم لا ؟ ، ولا يهمه الأمر كأن المسألة غير مهمة ، ولكي يهرب من مواجهة نفسه أمام نفسه قد يدعي أن هذه الأمور موجودة بالفطرة عند كل الناس مسلمين وكافرين أو يدعي أن هذه الأمور هي عند المقربين وهي لمن يريد الدرجات العليا في الجنة وليست مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار ، أو يدعي أن هذه المشاعر موجودة بالفعل عنده في حين لا توجد عنده الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر فهذه المشاعر غائبة تماما .

ـ كل الناس يعلمون أن الخضوع هو شعور بالذل ويعلمون أن معنى أن لهم إله هو أن يخضعوا له ، ويعلمون أنهم يجب عليهم أن يخضعوا لله ويحبونه ويخافونه ويرجونه لكنهم يتناسون هذه المشاعر ، ويهربون منها ولا يشغلوا أنفسهم وتفكيرهم بهذه المشاعر كأنها لا قيمة له ، وقلما تجد إنسان يفكر في حقيقة الخضوع وخطورته كشعور حقيقي في النفس ليرى هل هو موجود فعلا عنده آم لا ؟ .

ـ كل الناس يدعون أنهم خاضعين لله وهم يتناسون معنى أن يعيش الإنسان خاضعا ذليلا لغيره طول حياته ، وهم لا يقبلون أن يعيشوا معيشة الذل لأنهم لا يقبلون أن يعيشوا أذلاء ويعتبرون أنفسهم أحرارا ولا يقبلون أن يستعبدهم أحد فيكونون عبيدا له .

ـ مشاعر الإيمان كحب الله والخوف منه ورجاءه والخضوع له والخوف من الآخرة تحولت عند بعض المسلمين إلى عبارات محفوظة مقدسة وليست مشاعر حقيقية يحس بها الإنسان في داخله ، وبالتالي وقعوا في النفاق الأكبر رغم أنهم يدعون وجود هذه المشاعر في أنفسهم ، وهي في الحقيقة أصبحت مفرغة من معناها .

ـ فاليقين بالله إذا لم يؤدي إلى هذه المشاعر فهو يقين نظري وليس يقينا حقيقيا ، أما اليقين الحقيقي فهو الذي يؤدي إلى هذه المشاعر ، ولأنه بالفطرة من عرف الله (أحس بقدره) خاف من مهابته وأحبه وخاف عقابه ورجا ثوابه وخضع له وأطاعه .

ـ لقد أصبح بعض الناس مخدوعون في أنفسهم يظنون أنهم يحبون الله ويخافونه ويخضعون له ويخافون ا لآخرة رغم أنه لا يوجد عندهم ولو ذرة واحدة من ذلك ، فرغم أن هذه المعاني بسيطة ويعرفها الصغار و

(1) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 4332 في صحيح الجامع)

الكبار لكن مات معناها الحقيقي ، لذلك أصبحنا نحتاج إلى توصيف وتعريف معنى شعور الإنسان بالخوف أو بالحب أو بالخضوع حتى يستطيع أن يعرف الإنسان في نفسه بدقة هل هذه المشاعر موجودة أم لا ؟ .

ـ ورغم بساطة هذه المشاعر فعدم وجودها يعني الخلود في النار ، ومع ذلك لا يهتم أحد بتوصيفها للتأكد من وجودها أم لا ، وقد يعتبر توصيف هذه المشاعر نوعا من الفلسفة ! رغم أنها مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار .

ـ أحد أهم الأشياء التي يتجاهلها الإنسان وهي هل حقق الإنسان الحالة النفسية المميزة لخوف المهابة و الحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع لله والخوف من الآخرة أم لا ؟ ، وأن يجتهد في تحقيقها ولو طول عمره ، وذلك بدوام التفكر والتذكر مع حضور القلب .

ـ ونستطيع أن نحدد بمنتهى الدقة أن عدم وجود هذه المشاعر يرجع إلى غياب الشعور بقدر الله والآخرة (نسيان الله والآخرة) ، فطالما لا يزال لم يتحقق ذلك بعد فهذا يعني أن مشاعر الإيمان ما زالت غير موجودة بالضرورة ، لأن من عرف الله معرفة حقيقية نشأ عن ذلك تلقائيا وبالضرورة محبته والخوف منه و الخضوع له .

ـ وطبيعي أن الشيء الذي ينبني عليه الخلود في الجنة أو النار لابد أن يكون شيئا بسيطا جدا بحيث يعرفه كل الناس مهما كانت بساطتهم وعلى جميع مستوياتهم ، فكل الناس يعرفون معنى حب الشيء والخوف منه ومعنى الخضوع والاستسلام .

ـ وقد أوضحنا حقيقة خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع ، وقمنا بتحليل كل شعور من هذه المشاعر من داخل النفس وأوضحنا الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر حتى يتبين لمن يدعى حب الله والخضوع له وأن الله غايته أنه مخدوع وأن مشاعر الإيمان غير موجودة عنده وأن اقتناعه بوجودها هو مجرد وهم وخداع يخدع الإنسان به نفسه .

ـ شرط وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة هو وجود الحالة النفسية المميزة لذلك الشعور :

ـ وهو شرط بديهي جدا من الفطرة ، وبالتالي فهو حجة على جميع الناس مهما اختلفت ثقافاتهم ومستوى فهمهم ولا عذر فيه لأحد لأنه لا يجهله أحد .

ـ لابد من وجود الحالة النفسية والعاطفية والوجدانية والمزاجية والحالة الانفعالية المناسبة لكل شعور وما فيها من الشعور بالضيق أو الألم أو الشعور بالفرح والسرور ، وإلا فإن هذا الشعور غير موجود وهو مجرد إدعاء ، فإن حب الله مثلا ليس شيئا هلاميا غير مفهوم وإنما هو من نفس جنس الشعور بالحب الذي يعرفه ا لإنسان ويشعر به ، فإذا أردنا تعريف الحالة النفسية للخوف مثلا فنقول هو الحالة النفسية التي تحدث للشخص عندما يتعرض لخطر ما (مثلا طالب ينتظر نتيجة امتحان) ، وتفسير هذه الحالة النفسية من داخل النفس واضح يشعر به كل إنسان وإن صعب عليه التعبير عما يحس به ، أو مثلا الغضب تجد له انفعال عصبي داخلي يشعر به الإنسان الغاضب كما يظهر علي سلوكه وانطباعاته ، أو مثلا الطمأنينة هو حالة نفسية فيها شعور بالارتياح والسكينة ...الخ ، فلابد من توصيف الحالة النفسية المصاحبة لكل شعور من المشاعر .

ـ ملحوظة :

ـ المشاعر مرتبطة ببعضها وتحدث معا ، فمثلا الذي يحب الله فهو يخافه ويخاف من الآخرة ...الخ ، وكذلك كل مشاعر الإيمان مرتبطة ببعضها ، وكذلك الهموم والأهداف مرتبطة مع المشاعر فتحدث جميعا معا لأنها مستمدة من شيء واحد وهو معرفة الله والآخرة معرفة حقيقية .

ـ مهما وصفت لك الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر فلن تكون مثل الحالة النفسية لإنسان حققها فعلا ، فمهما وصفت لك حال الطالب عند الامتحان وما ينتابه من قلق وخوف فلن يكون مثلما تعاين أنت هذا الأمر

فتشعر بهذا الشعور ، ففي الحديث : ((ليس المخبر كالمعاين))[1] .

ـ إذا لم تكن تشعر بشيء من الحالة النفسية للشعور بحب الخالق أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بـ الخضوع له أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بخوف المهابة منه فهذا ناشئ من نسيان الله والآخرة .

ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها :

إن العبرة بتحقيق مشاعر الإيمان مثل خوف المهابة والحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والخضوع و الخوف من الآخرة ، وليست العبرة بالاقتناع بها وتمني التحلي بها والدعوة إليها وتعليمها الناس ولا حتى السعي نحوها دون الوصول لتحقيقها ، فمن هذا حاله فلا فائدة من عمله : ((أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ))[2] ، وفي الحديث : ((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها))[3] ، وحتى لو كان الإنسان عالما عاملا بكل أمور الدين والدنيا من غير أن يحقق مشاعر الإيمان فلا يغني ذلك عنه شيئا ، ومن الناس مَنْ يظل طول عمره يقول أنا مقصر في هذه المشاعر وأريد تحقيقها : ((قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ))[4] ، فهذه المشاعر من الثوابت التي يقرها الجميع وعلى اقتناع نظري تام بأهميتها وأهمية تحقيقها ، ولكن مَنْ يحققها فعلا ؟! : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ))[5] ، وإنك لتجد الكثير ممَنْ يدعي أنها متحققة في نفسه : ((فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ))[6] ، ((وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ))[7] .

ـ ولا يكفي تحقيق مشاعر الإيمان ولكن لابد من الاستمرارية والثبات على ذلك بدوام التفكر والتدبر مع حضور القلب .

****

ـ ثالثا : عمل الجوارح

ـ يكون عمل الإنسان عمل الخاضع لأمر سيده ، فالإنسان في بيته ومع أهله يمارس حياته الطبيعية لكن في مكان عمله لا يستطيع أن يمارس حياته الطبيعية فهو يعمل عند صاحب العمل ، فحياة الإنسان كلها هي وظيفة مكلف للقيام بها ، فهو يعمل عند الله عبدا .

ـ تتفرغ الجوارح فلا يعمل بناءا على ما تأمره به نفسه ، ويأمر جوارحه بأن تعمل بناءا على أوامر الله ، فيعيش خاضعا لله .

ـ الشعور بالخضوع يؤدي إلى عدم طاعة النفس أو عدم طاعة غير الله تعالى ، والمشاعر المتعلقة بالله وما يتصل به تؤدي إلى طاعته .

ـ والفصل الثاني عشر هو بيان لذلك .

****

الفصل الثاني عشر

تناسي معنى

(1) التخريج : صحيح (تخريج الطحاوية ، ص : 377)
(2) البقرة : 44
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 5837 في صحيح الجامع)
(4) الأنبياء : 14، 15
(5) الصف : 2
(6) العنكبوت : من الآية 3
(7) العنكبوت : 11

ـ الطاعة ليست مطلوبة لذاتها ولكن كدليل على الخضوع وتعبير عن الخضوع وصورة من صور الخضوع وأثر للخضوع ، فالله لا يريد منا الطاعة لذاتها ولكن يريد منا الطاعة كتنفيذ أوامر ولو خالف العقل والهوى وما تحبه النفس ، لأن مخالفة الهوى وعدم الرجوع للعقل في الأمر دليل على الخضوع : ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))[1] .

ـ كل الناس يعلمون أن العمل هو خضوع لله لكنهم يتناسون ذلك فيكون العمل ليس فيه شعور بالخضوع وليس ناشئا من الشعور بالخضوع ، فهذا العمل في حقيقته ليس له معنى ، لذلك فتصور البعض عن الطاعة خاطئ ويتعامل مع الطاعة بصورة خاطئة .

ـ الطاعات تعني أن الإنسان يقبل أن يعيش تبعا لأوامر الخالق وليس وفقا لما يريده هو ، فهو بذلك يقبل الخضوع ، والمعاصي تعني أنه يرفض أن يعيش تبعا لأوامر غيره وليس وفقا لما يريده هو ، فهو بذلك يرفض الخضوع أو خضوعه ضعيف ، وعلى الإنسان أن يختار إما طريق المعاصي وإما طريق الطاعات ، فـ الطاعات والمعاصي كلاهما متناقضان والعاقل لا يقوم بأمور متناقضة ، ولكن الإنسان يتناسى هذا التناقض ويقدم على المعاصي متجاهلا أنه بذلك يرفض أوامر الله كأن الله يأمره بأمر فيقول له : لا لن أطيع ؟! ، فـ المعاصي عنده سهلة والطاعات ليست بالهامة .

ـ الله يخاطب البشر وفي خطابه يأمرهم بأوامر وينهاهم عن نواهي ، والنفس لا تحب الأمر والنهي لأن ذلك فيه خضوع ، فبعض البشر يسمعون خطاب الله لهم وهم لاهون يلعبون كأنهم لم يسمعوه فيهربون منه ويتناسوه ويتجاهلونه ويتغافلون عنه ويتصامون كأنهم لا يسمعون ويتباكمون فلا يردون على من يأمرهم بنعم أو بلا كأنهم خرس لا ينطقون ، وينصرفون عنه ويتولون عنه ويدبرون عنه ويتعامون كأنهم لا يرون من يأمرهم ويتعاملون مع الأمر كأنه هزل ويفرون وينفرون ويضعون أصابعهم في آذانهم ويضعون ثيابهم على رؤوسهم ويسدون آذانهم ويتغابون كأنهم لا يفهمون ، وذلك رغم اليقين النظري بأنه يجب طاعة أوامر الله تعالى ورغم العلم بالحلال والحرام عند الكثير من الناس ، وكل هذه الألفاظ السابقة وغيرها وردت في القرآن وقد أوضحناها في الفصل الثالث .

ـ الأمر والنهي من المخلوق إلى المخلوق يختلف عن الأمر والنهي من الخالق إلى المخلوق ، فالأصل أن الأمر يكون من الأعلى إلى الأدنى ، فالذي يعطي لنفسه حق الأمر والنهي يجعل نفسه أعلى على غيره ، والبشر ليس فيهم أعلى وجميعهم أدنى لأن الله وحده الأعلى ، فأوامر الله هي أوامر عليا من فوق سبع سماوات إلى العبيد من البشر ، فهي أوامر من المتكبر إلى الذليل .

ـ فالأمر والنهي صفة قوة ، وتنفيذ الأوامر صفة ضعف ، فالآمر تكون له السلطة والسيادة والكبرياء ، والمأمور يكون له الضعف والذل وليس له إلا تنفيذ الأوامر حتى فيما يريده هو لنفسه ، الله وحده هو الذي له الأمر و النهي وكل ما سواه عليه التنفيذ مهما كان الأمر .

ـ فالآمر من البشر هو ينفذ أمر الله على غيره وعلى نفسه ، ولو أن الله أذن له وأباح أن يأمر بما شاء في حدود معينة فهو أيضا ينفذ أمر الله تعالى ، ولو عصى أمر الله وسار تبعا لما تأمره به نفسه أو أمر غيره بغير إذن من الله فهو بذلك يدعى لنفسه القوة أو لنقص يقينه بكمال ضعفه ، فبهذا المعنى للأمر والنهي فالله وحده هو الذي له الأمر والنهي .

ـ والقضية ليست ما هو الأمر الذي يتم تنفيذه ولكن تنفيذ الأمر لمجرد أنه أمر ، وليس للمأمور أن يسأل أو

(1) آل عمران : 92

يناقش ولكن عليه التنفيذ فقط أيا كان الأمر سواء وافق هواه أم لم يوافق : ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[1] ، بل إنه لو افترضنا جدلا أن شيئا ما أمام عينك تراه وقال لك الله أنه شيء آخر وجب عليك أن تكذب عينك وتصدق الله تعالى .

ـ فقضية الطاعة هي مسألة خضوع ، فمن الناس من يقبل بهذا الخضوع ومن الناس من يرفض الخضوع فيتناسى أوامر الله كأنه لم يأمر بشيء أو كأنه لا يعرفها ويتناسى أن الطاعة هي مسألة خضوع وعلاقة بين قوي وضعيف .

ـ وقد يؤدي الإنسان الطاعة لكن لا يريد أن يشعر أن أحدا يلزمها عليها إلزاما ويفرضها عليه فرضا ، كأنه يوافق على الطاعة بمزاجه كأنه يقتنع أولا بالأوامر ثم يؤديها .

ـ أسباب عدم الطاعة :

ـ المسلم قد لا يطيع الله فيقع في المعاصي والمنافق والكافر لا يطيع الله .

ـ الكافر مطالب بالإيمان ومطالب أيضا بالطاعة ، رغم أنه لو أطاع ولم يؤمن لم تنفعه طاعته ، فالكافر مطالب بالطاعة بدليل قوله تعالى : ((مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ))[2] ، ((إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ))[3] ، ((وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ))[4] ، وقد يكون للكافر حسنات يُطعم بها في الدنيا ، ففي الحديث : ((إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنة يعطى عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا))[5] .

ـ أولا : أسباب عدم الطاعة عند المنافق والكافر :

ـ عدم الطاعة ينشأ من أمرين هما :

1ـ السبب الأول : ادعاء القوة ورفض الخضوع والاستكبار على الله : فطاعة الأوامر صفة ضعف .

ـ وصور ادعاء القوة ورفض الخضوع والاستكبار على الله هي :

1ـ تناسي قوة الخالق وضعف نفسه رغم اليقين النظري بذلك :

ـ القوي هو الذي يأمر وينهى والضعيف هو الذي يطيع ، فمن صفة القوة الأمر والنهي ، ومن صفة الضعف التبعية والطاعة ، فإذا كان الإنسان يوقن بالخالق وبأنه عبد فهذا معناه أنه يوقن بأن كل صفات القوة للخالق وكل صفات الضعف للمخلوق ، وبالتالي يوقن بأنه لا يعيش تبعا لما يأمره به عقله أو تأمره به نفسه أو لما يريده لنفسه وإنما يعيش تبعا لأوامر الله ، فبذلك هو يوقن بالخالق وبأنه عبد .

2ـ تناسي عظمة الخالق رغم اليقين النظري بذلك :

ـ عظمة الأمر من عظمة الآمر ، فلو أمرك ملك من ملوك الدنيا بأمر هو في نظرك بسيط لكنه يكون عظيما لعظمة من أمر به ، في حين لو أمرك طفل من الأطفال بنفس الأمر فإنك لا تأبه به ، وفي تفسير ابن كثير : ((قال بِشْر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه))[6] ، فإذا ذكر الإنسان عظمة

---

(1) الأنبياء : 23
(2) المدثر : 42 - 46
(3) الحاقة : 33 ، 34
(4) فصلت : 6 ، 7
(5) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 1853 في صحيح الجامع)
(6) تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج 2 / ص 185)

الله ندم، كيف أعصي ربي وهو الذي خلقني ورزقني ؟ فيندم كما لو عصى الإنسان أباه فإنه يندم .

3ـ تناسي أن الله هو المالك رغم اليقين النظري بذلك :

ـ مالك الشيء له أن يفعل بما يملك ما يشاء ، فالطاعة هنا غير مبنية على مبدأ النفع والضرر ، فأنت لا تطيع بناءا على أن ذلك العمل فيه نفع أو ضرر ، فأنت تطيع بناءا على أن هذا حق الله عليك .

4ـ تناسي أن الله هو المسيطر والمهيمن على الناس رغم اليقين النظري بذلك :

ـ رفض أمر الآمر معناه أنه يراه خاطئا أو لا يلزمه أو أنه ليس له سلطة عليه تجبره على طاعته أو ليس له حق الأمر والنهي أو لن يحدث شيء من عقاب أو ثواب إذا أطاع أو رفض أو يتجاهل ان الله له أوامر ونواهي أصلا وأنه تكلم بها ، فالمعصية إعراض عن المتحدث وهو الله يتحدث إليك فيأمرك بأوامر وأنت تعرض عنه وتتشاغل عن كلامه وتتجاهله وتتناساه وتتغافل عنه .

5ـ تناسي أن الله هو المنعم الرزاق رغم يقينه النظري بذلك :

ـ نعم الله عليك لا تحصى ، ولو عبدت الله ليلا ونهارا لم توفه نعمة واحدة كالعين مثلا ، فالعاقل يستحي من أن يعصي من يكرمه ويحسن إليه ، فكيف تعصيه وأنت تعيش في ملكه وتقف على أرضه وتأكل من رزقه .

6ـ تناسي أن الله هو النافع الضار رغم يقينه النظري بذلك :

ـ إذا كان الإنسان يعمل بناءا على النفع والضرر ، فالله سبحانه هو الذي يعلم النفع والضرر ، لأن علم الإنسان أمام علم الله لا شيء ، كما أن عقل الإنسان الذي به تميز النفع من الضرر هو مخلوق ، وهذا معناه خضوع العقل لله تعالى ، فيعيش الإنسان ويعمل ليس وفقا لما يأمره به عقله ، ولكن وفقا لما يأمره به ربه لان عقل ا لإنسان عاجز وقاصر أمام علم الله تعالى ، ورفض الأمر معناه أنه يستطيع أن يقوم بأمره بنفسه ويقوم بشئون نفسه ولا يحتاج لغيره ، وهذا معناه أنه ليس بضعيف ، فهو بذلك يوقن بأنه قوي وليس بخاضع وأنه من الممكن أن لا يحتاج أحد إلى الله وهذه صفة نقص لا تكون للخالق فالله هو الصمد أي الذي لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل شيء ، فالإنسان مغرور بعقله ويظن أنه يستطيع أن يعمل به الأفاعيل ، تعظيم العقل وعبادة الإنسان لعقله ورأيه وهواه أي خضوع الإنسان لعقله : ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا))[1] .

ـ فلو أعمل الإنسان عقله فيما يجب أن يعمله وما لا يجب أن يعمله فهو عندئذ يتبع عقله وليس يتبع الله سبحانه ، فالإنسان ليس له علم أمام علم الله وعليه أن ينقاد عقله لأمر الله سبحانه وهذا هو الخضوع ، فلو أن إنسان يعمل عند سيدا له وهو يتدخل في كل أمر يأمره به سيده فيكون شعوره بقيمة الأمر بحسب ما يراه عقله وليس بحسب أنه عظيم لعظمة من أمر به فكأنه يراجع سيده فيما كان يجب أن يأمر به وما كان لا يجب أن يأمر به .

7ـ تناسي أن الله يعلم ويرى ما يعمله ويسمع ما يقوله رغم اليقين النظري بذلك :

ـ الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء ويسمع كل شيء ، فإذا تناسى الإنسان ذلك فمعناه أنه يعمل كأنه لا أحد يراه أو يسمعه ، فيفعل ما يشاء .

8ـ عدم الشعور بالخضوع لله تعالى خوفا من مهابته وحبا له :

ـ فلو أمرك حبيب لك وتحبه وفضله عليك عظيم لأسرعت ، ولو أمرك أبوك بأمر لأسرعت لأنك توقره .

---

(1) الفرقان : 43

2ـ السبب الثاني : تناسي وجود الثواب والعقاب وخطورة :

1ـ تناسي أن الإنسان لم يخلق عبثا وأنه لابد من تكليف عليه ثواب وعقاب رغم يقينه النظري بذلك :

ـ عندما يشعر الإنسان بأن الدنيا دار اختبار وأن كل عمل يعمله داخل في هذا الاختبار ومحسوب عليه يشعر بأن الحكمة من الطاعات وترك المعاصي هو للاختبار فلا يقوم الإنسان بالطاعة لأن لها فوائد مادية ولا يترك المعصية لأن فيها ضرر دنيوي ولكن يقوم بالطاعة ويترك المعصية لمجرد أنها اختبار من الله ودليل على خضوع الإنسان لله وحبه له ، فمثلا الله سبحانه أمر آدم بعدم الأكل من شجرة معينة رغم أنها قد لا تختلف عن باقي الأشجار لكن ذلك للاختبار ، لذلك قد يبدو للإنسان أن معصية ما ضررها بسيط ويستصغرها ويتهاون فيها لكنه لا يعلم أن الأصل تركها لأنها مجرد اختبار والوقوع فيها دليل على استهانة الإنسان بـ الخالق وعدم تعظيمه له وعدم الخضوع له أو دليل على ضعف هذه الأمور تجاه الخالق

2ـ تناسي خطورة الثواب والعقاب رغم يقينه النظري بذلك :

ـ لو كان الإنسان يعقل أن ما يفعله من المعاصي والبعد عن الدين سوف يدفع ثمنه غاليا جدا من العذاب و العقاب في الآخرة لما أقدم على الذنب أو ابتعد عن الدين .

3ـ عدم الشعور بالخضوع لله تعالى خوفا من عقابه ورجاءا في ثوابه :

ـ لو كان الجندي يخاف من القائد أن يعصيه فيفتك به لما عصاه ، كذلك لو كان الإنسان يشعر بالرعب والفزع والقلق والخوف من مدى قدرة الله وبطشه وجبروته لما عصاه ، ولو أن إنسانا يمسك بمسدس ويصوبه نحوك ويأمرك بأمر فهل يمكن أن تخالفه ؟ ، إنك تطيعه وأنت تشعر بالخوف وترتعد فرائصك ، فالألم في الآخرة شديد جدا ولن يقدر الإنسان على أن يتحمله لفظاعته ولكن من يعقل ؟ : ((وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ))[1] ، فالطاعة تنشأ تلقائيا كأثر للشعور بالخضوع لله .

ـ الأمر مرعب وخطير ، فمن خاف لم يستطع أن ينام ولا يهدأ ولا يرتاح ويسارع في الخيرات وترك المعاصي ، ففي الحديث : ((من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة))[2] .

ـ فالخوف والرجاء يؤدي إلى ترك المعاصي والمسارعة في الخيرات : ((أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[3] .

ـ ثانيا : أسباب عدم الطاعة عند المسلم :

ـ المعصية تعني أن قبول الخضوع لله تعالى غير تام وأن هناك قدرا من الاستكبار وتعني أن شعور الإنسان بـ الضعف غير تام وأن هناك قدرا من شعور الإنسان بالقوة وأن شعوره بالثواب والعقاب ضعيف .

ـ فالأسباب السابقة لعدم الطاعة غير موجودة عند المسلم فهو يوقن بقوة الخالق وضعف نفسه ، ويوقن بعظمة الخالق ، ويوقن بأن الله هو المالك ، ويوقن بأن الله هو المسيطر والمهيمن على الناس ، ويوقن بأن الله هو المنعم الرزاق ، ويوقن بأن الله هو النافع الضار ، ويوقن بأن الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء ويسمع كل شيء ، ويوقن بأن الإنسان لم يخلق عبثا وأنه لابد من تكليف عليه ثواب وعقاب ، ويوقن بخطورة الثواب والعقاب ، ولكن يقينه بهذه الأمور ضعيف ، لذلك يقع في المعاصي ، فوقوعه في المعاصي من ضعف يقينه .

ـ والمسلم يشعر بالخضوع لله تعالى خوفا من مهابته وحبا له وخوفا من عقابه ورجاءا في ثوابه ، لكن هذا الشعور ضعيف يجعله يقع في المعاصي .

(1) يس : 62
(2) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم : 6222 في صحيح الجامع)
(3) الزمر : 9

ـ أسباب الطاعة عند الكافر والمنافق ! :

ـ الكافر والمنافق قد يطيع الله وطاعته لا تنفعه ، وأسباب الطاعة هي :

1ـ وجود قدر من محبة الله لكنه حبه للدنيا أكبر .

2ـ وجود قدر من تعظيم الله لكن تعظيمه للدنيا أكبر .

3ـ شعوره بوجود الآخرة فيه ريبة وشك فيفعل خيرا لعله إذا كانت هناك آخرة لنال الثواب : ((وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا))[1] .

4ـ شعوره بأنه عبد خاضع لله فيه ريبة وشك وشعوره بأن الله هو المالك المسيطر القوي الذي له حق الطاعة فيه ريبة وشك .

ـ وهذه الطاعات ليس فيها رياء وموافقة للشرع لكنها لا تنفعه ، فما بالك بالطاعات التي يكون فيها رياء أو حتى لا يتهمه أحد .

ـ المعاصي تنشأ من نقص العقل عند المسلم ومن غياب العقل عند الكافر :

ـ لو عقل الإنسان الأمور السابقة (عقل ما تعنيه قوة الخالق وضعف نفسه وعظمة الخالق ، وأنه المالك و الرازق والمسيطر والمهيمن على الناس والنافع الضار وعقل خطورة الثواب والعقاب في الآخرة) لما وقع في المعاصي ، ومعنى أن يعقل الإنسان هذه الأمور يتضمن ثلاثة أمور هي التصور والشعور بقيمتها وانشغال البال بها (كما سبق أن أوضحنا ذلك في الفصول السابقة) .

ـ عند المسلم يصف القرآن المعصية على أنها من الحماقة ودليل على نقصان العقل ، وعند الكافر يصف المعصية والكفر على أنها من الحماقة ودليل على غياب العقل :

ـ ففي تفسير روح البيان : (({ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } ، { بِجَهَـالَةٍ } أي : يعملون ملتبسين بها أي : جاهلين سفهاء فإن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل ولذلك قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع من جهالته ، وفي "التيسير" ليست هذه جهالة عدم العلم لأنه ذنب لأن ذلك عذر لكنها التغافل والتجاهل وترك التفكر في العاقبة كفعل من يجهله ولا يعلمه))[2] . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ))[3] ، ((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إليه وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ))[4] ، ((أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ))[5] ، ((قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ))[6] ، ((وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ))[7] .

ـ عمل الجوارح أثر لعمل العقل :

ـ عمل الإنسان أثر لطريقة تفكيره وطبيعة نظرته وما يشغل همه (الشروط الثلاثة للعقل) .

ـ العمل مؤشر على ما يدور في عقل الإنسان فإذا كانت قضيته المال أو الشهوات مثلا فهذا ما يفكر فيه ويظهر ذلك على سلوكه وكلامه وانفعالاته وعمله .

---

(1) الكهف : 36
(2) تفسير روح البيان ـ دار الفكر - بيروت (2 / 178)
(3) النحل : 119
(4) يوسف : 33
(5) النمل : 55
(6) الأحقاف : 22 ، 23
(7) الأعراف : 138

ـ عمل الإنسان وسلوكه وكلامه وملبسه ومأكله وحركته وفرحه وحزنه ينشأ من تفكيره ، فمثلا إذا كان تفكير الإنسان في شهوة النساء فعمله وكلامه يدور حول محور الشهوة فهو يحب النظر إلى العورات ويحب الكلام الذي يدور حول الشهوات .

ـ وكذلك إذا كان أكثر كلام الإنسان يدل على انبهاره وإعجابه بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب ومدى فائدتها ونفعها أو يدل على أن الله والآخرة ليس لهما وجود في حساباته ، فذلك من ضعف اليقين أو من غيابه .

ـ عندما يكون الإنسان مشغولا بقضية فإنه يتحدث فيها ، فإذا جلس مجموعة من الميكانيكية فإنهم سوف يتحدثون عن السيارات ، وإذا جلس مجموعة من أصحاب مهنة معينة فيكون حديثهم حولها ، كذلك إذا جلس مجموعة من الناس وكان الله في بؤرة شعورهم ومحور حياتهم وهمهم فإن حديثهم تلقائيا يكون عن الله وذكره واليوم الآخر وأمور الإيمان ، كما أن الذي يحب شيئا يذكره كثيرا ، ومن كان الله على باله دائما فإنه يكثر من ذكره .

****

ـ الاقتناع الحقيقي بأن المعصية ضرر :

ـ المعاصي عليها عقابا أليما إلا أن يغفرها الله أو تشفع يوم القيامة ، إذن فالمعصية ضرر وعقوبة شديدة ، وا لإنسان يعرف معلومة تقول : (المعصية ضرر) ، فكيف يتعامل الإنسان مع هذه المعلومة ؟ ، لابد من وجود خطوات التعامل مع المعلومات ، أي يعقل هذه المعلومة (التصور والشعور بقيمتها وانشغال البال بقدر ما فيها من ضرر) وتتأثر مشاعره بها فيكرهها ويخافها ، وتتأثر جوارحه بها فيتقيها ويبتعد عنها .

ـ الوقوع في المعاصي من الحماقة ودليل على نقصان العقل ، لأن العاقل لا يمكن أبدا أن يضر نفسه بعقوبة الله على الذنوب في الدنيا والآخرة ، فمثلا لو أن إنسانا يسير بسيارته بسرعة هائلة متجاوزا السرعة المسموح بها ، وعلم يقينا أن مكانا ما به رادار فإنه سوف يبطئ السرعة لأنه يعلم أن ذلك الأمر فيه عقوبة ، ولو سار بسرعة وهو يعلم لكان ذلك نقص في عقله ، لذلك فالمعصية توصف بالجهل .

ـ الإنسان إذا اقتنع اقتناعا حقيقيا بأنها المعصية والشهوات ضرر فلا يمكن أن يقع فيها ، وإذا اقتنع اقتناعا حقيقيا بأنها الطاعات فيها نفع كبير فسوف يسارع فيها ، فمثلا إذا اقتنع الإنسان اقتناعا حقيقيا بأن النظر إلى العورات فيه ضرر ووبال عليه في الآخرة لما نظر ، وإذا اقتنع الإنسان اقتناعا حقيقيا بأن شهوة المال وشهوة النساء وشهوة المظاهر ضرر له أعظم بكثير مما فيها من المتع الضئيلة فلن يقع فيها ، فهذه المتع لا شيء إذا غمس غمسة واحدة في النار ، ففي الحديث : ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أَيْ فُلَانُ هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ ، فَيَقُولُ لَا مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلَاءً ، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أَيْ فُلَانُ هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أَوْ بَلَاءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلَا بَلَاءٌ))[1] .

ـ فمثلا لو قيل لإنسان أنه إذا وقع في شهوة من الشهوات فإنه سوف يوضع في داخل الفرن الذي ينضج فيه الخبز بأحد الأفران مثلا حتى يشوى جلده ولحمه ، فإنه لن يقع في شهوة أبدا ، وكلما عرضت له شهوة تذكر " فرن الخبز " ! .

ـ المعاصي مع عدم التوبة تزيد حتى يطبع على القلب :

ـ الذي يتعمد المعاصي هو يتجرأ على الله فتزيده المعاصي جرأة ، فقد يخاف الإنسان أن يقدم على أمر ما ، لكن إذا أقدم عليه مرة بعد مرة زاده جرأة وتساهل في الأمر ولم يهمه شيء وتناسى الخطر ، كالذي يتناول المخدرات لأول مرة متعمدا فإنه يكون متهيبا الأمر وجلا يشعر بأنه مخطئ ، ثم يقدم عليها مرة أخرى

(1) قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن ابن ماجه ج :2، ص : 1445 ، برقم : 4321)

فيزداد جرأة ولا يبالي بالخطر ، ثم يقدم عليها مرات متناسيا كل شيء حتى ينسى نفسه ، كذلك الذي يتعمد المعاصي ويستمر عليها حتى يتناسى العقوبة في الآخرة ويتناسى الآخرة ويتناسى الله الذي يعاقبه عليها فيصبح من الذين طبع الله على قلوبهم : ففي الحديث : ((إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }))[1] ، فالمعصية تصبح سهلة عنده ، ففي الحديث : ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أي بيده فذبه عنه))[2] .

ـ فمثلا : الإنسان في فطرته قدر ضئيل من حب الدنيا والشهوات ، والمطلوب منه أن ينهى نفسه عن الهوى فيقوم بتحجيم هذا القدر وتصغيره بإبعاد نفسه عن الشهوات ، لأن الذي يحب شيئا وهو بعيد عنه فإنه ينساه ، كما يقولون : (البعيد عن العين بعيد عن القلب) ، فلا ينظر إلى العورات ولا يتكلم عن الشهوات ويبتعد عن كل ما يذكره بالشهوات ، لكن إذا لم يفعل ذلك فنظر إلى العورات أو تكلم بالشهوات وتمناها زاد حبه للشهوات ، فذلك معصية كبيرة ، وكلما زاد حبه للشهوات نقص حبه لله ، فإذا استمر على ذلك أصبح كل محبته للشهوات ولا محبة عنده لله فطبع على قلبه .

ـ فالإصرار (عدم التوبة) على المعصية كالتغني بحب النساء والسماع والتجاوب لذلك والنظر إلى العورات قد يؤدي إلى الغلو في حب غير الله ويؤدي إلى العشق (الحب الشديد لشهوة النساء ـ ومعظم الأغاني تتكلم عن العشق) ويؤدي إلى غياب حب الله من القلب ، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((فَإِنّ الزّنَا مِنْ الْكَبَائِرِ وَأَمّا النّظَرُ وَالْمُبَاشَرَةُ فَاللّمَمُ مِنْهَا مَغْفُورٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ فَإِنْ أَصَرّ عَلَى النّظَرِ أَوْ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ صَارَ كَبِيرَةً ، وَقَدْ يَكُونُ الْإِصْرَارُ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ قَلِيلِ الْفَوَاحِشِ فَإِنّ دَوَامَ النّظَرِ بِالشّهْوَةِ وَمَا يَتّصِلُ بِهِ مِنْ الْعِشْقِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْمُبَاشَرَةِ قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ بِكَثِيرِ مِنْ فَسَادِ زِنَا لَا إصْرَارَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي الشّاهِدِ الْعَدْلِ: أَنْ لَا يَأْتِيَ كَبِيرَةً وَلَا يُصِرّ عَلَى صَغِيرَةٍ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ {لَا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ} . بَلْ قَدْ يَنْتَهِي النّظَرُ وَالْمُبَاشَرَةُ بِالرّجُلِ إلَى الشّرْكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : {وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ} . وَلِهَذَا لَا يَكُونُ عِشْقُ الصُّوَرِ إلّا مِنْ ضَعْفِ مَحَبّةِ اللهِ وَضَعْفِ الْإِيمَانِ وَاَللّهُ تَعَالَى إنّمَا ذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الْمُشْرِكَةِ وَعَنْ قَوْمِ لُوطٍ الْمُشْرِكِينَ وَالْعَاشِقُ الْمُتَيّمُ يَصِيرُ عَبْدًا لِمَعْشُوقِهِ مُنْقَادًا لَهُ أَسِيرَ الْقَلْبِ لَهُ))[3] .

ـ وكذلك الإنسان كلما شغل همه بالدنيا وخاف من آلامها كلما زاد طموحه وهدفه في الحصول على الدنيا ونقص طموحه وهدفه في الآخرة حتى يصبح جلب المال والشهوات والتغلب على أعباء الدنيا كل هدفه ولا هدف له ولا طموح في لقاء الله والآخرة فيطبع على قلبه .

ـ حب المعصية هو معصية ، ويزداد هذا الحب بالاستمرار على المعصية حتى يكون حب هذه المعصية أكبر من حب الله تعالى فعندئذ يتكون الران على القلب ، فمثلا الذي يحب النظر إلى العورات قد يزيد هذا الحب حتى يكون أكبر من حب الله وحتى يختفي حب الله من القلب ، وكذلك تعلق المشاعر والهموم بأمور الدنيا بمحبتها والخوف عليها وانشغال الهم بها هي معاصي قد تزيد حتى تختفي المشاعر والهموم المتعلقة بالله والآخرة .

ـ وقد يظل يضعف عند الإنسان قبوله للخضوع لله ويزداد شعوره بالقوة وادعاءه بأنه قوي بما يمتلك من النعم من المال والشهوات حتى يستكبر عن الخضوع .

ـ المعاصي تنشأ من ضعف اليقين بالآخرة :

ـ المعاصي عند الكافر والمنافق تنشأ من غياب اليقين بالله والآخرة ، أي من تناسي اليقين بالله والآخرة ،

---

(1) قال الشيخ الألباني : حسن (سنن ابن ماجة ج : 2 ، ص : 1418 ، برقم : 4244)
(2) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم 2358)
(3) مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية (15 / 293)

والمعاصي عند المسلم تنشأ من ضعف اليقين بالله والآخرة .

ـ فالذي يطفف الكيل ألا يظن أنه سوف يبعث ويحاسب أمام الله ، فيقينه بذلك ضعيف : ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، إلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنهم مَبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[1] .

ـ عندما يشعر الناس بالآخرة ومدي النفع فيها للحسنات والسيئات فإنهم عندئذ سوف يشعرون بما تعنيه كلمة (حرام) وما تعنيه كلمة (فرض) أي يشعروا بمدي قيمة وخطورة هذه الأمور فتكون استجابة الناس لكلمة (فرض) أو كلمة (حرام) سريعة ، فإن كلمة (حرام) في لغة الاقتناع النظري هي كلمة عادية لا يستقبلها الإنسان بمشاعر الكره والبغض ، فلا مانع من أن يقع في أمر حرام وهو مقتنع نظريا بأنه حرام لأنه لا يوجد شعور بخطورة ما تعنيه كلمة (حرام) في الآخرة وفي حق الله العظيم لأنه لا يشعر بخطورة الآخرة وبقدر الله تعالى وبعظمة أوامره ، كما أن مَنْ يشعر بقيمة الحسنات والسيئات فإن قطع نفسه أربا إربا في مرضاة الله سوف يحقر ذلك ففي الحديث : ((لو أن رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))[2] وسوف يندم على أنه لم يستزد من الطاعة .

ـ إذا أخبرت إنسان أن نارا هائلة خلفه توشك أن تلحق به ، فإنه بالضرورة سوف يجرى ويهرب ، فإذا لم يجرى ويهرب فهذا يدل على أنه غير موقن بما أخبرته أو يقينه بما أخبرته ضعيف ، وإذا جرى وهرب فهذا يدل على أنه موقن بما أخبرته ، والذي يقول بأنه جائع وأمامه طعام شهي ولا يأكل فهو كذاب أو جوعه قليل ، فإذا كان الإنسان يوقن يقينا حقيقيا بالله والآخرة وبنفع الطاعات وضرر المعاصي فإنه سوف يسارع في الطاعات ويبتعد عن المعاصي .

ـ إن الذي يشعر بالآخرة يكون إنسان أخروي ومن أثر ذلك أن تتغير حركته في الحياة فتكون أعماله وأخلاقه ومعاملاته بعيدة عن منافسة الناس على الدنيا وتحصيل شهواتها فيبدوا عمله مستغربا بين الناس لأنه يرى بعين الحقيقة ما لا يراه الناس ، لأنه يرى الآخرة وما فيها من مغنم حقيقي يراها يقينا حقيقيا وغيره يراها يقينا كاذبا وهميا : ((إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء))[3] فمجال التفاهم عند بعض الناس هو الدنيا ، وينظرون إلى الإسلام على ما فيه من الدنيا وأثره على الدنيا فحسب لأنهم لا يعرفون غير الدنيا ، وحسابات الخسارة والمكسب عندهم هي خسارة الدنيا أو مكسب الدنيا ، فلا يعرفون غير لغة المصالح ، أما الذي يوقن بالآخرة يقينا حقيقيا فحسابات المكسب والخسارة مختلفة تماما وعكس حسابات الناس ، فالدنيا عنده ضئيلة جدا أو لا قيمة لها لذلك فهو مستغرب عند الناس .

ـ فالإنسان إذا نظر إلى حقائق الأشياء تغيرت نظرته إلى ما حوله ، لأنه يكتشف حقيقة الدنيا فيشعر بضآلتها ، ويكتشف حقيقة الآخرة فيشعر بخطورتها ، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية ، فمثلا إذا وقع بصره إلى نساء متبرجات فإنه يغض بصره ولا يكون تفكيره في زينتهن ولكن تفكيره في أن زينتهن فانية وهن أموات كجيف نتنة تحت التراب مثل مصير كل البشر ، وهن يلقون جزاء تبرجهن في الآخرة ، وكذلك لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء ، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك : ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))[4] وهكذا ، وكذلك تتغير نظرته إلى الذنوب فيشعر بألم الذنب وأنه يحاسب عليه أمام الله : ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أي بيده فذبه عنه))[5]

---

(1) المطففين : 1ـ 6
(2) تحقيق الألباني : حسن (انظر حديث رقم : 5249 في صحيح الجامع)
(3) تحقيق الألباني : صحيح (انظر حديث رقم: 1580 في صحيح الجامع)
(4) الشعراء : 135
(5) التخريج : صحيح (مشكاة المصابيح ج : 2 ، برقم 2358)

ـ إن الذي يشعر بالآخرة يشعر بأن الدنيا دار مؤقتة فلا يكون عنده طول أمل ، يقول تعالى : ((ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))[1] .

ـ مَنْ كان عنده فعلا شعور بالجنة فإنه لا يستعجل بالحصول علي متع الدنيا الضئيلة ويصبر لأنه قريبا جدا يصل إلى متع بلا حدود في جنات النعيم ، فإن كل من يريد المتع والشهوات ما عليه إلا أن يصبر ساعة ، ف الدنيا صبر ساعة وبعدها يجد أعظم المتع والشهوات في جنات النعيم : ((إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ))[2] .

ـ إن الذي ينظر إلى النساء لو كان يشعر فعلا بوجود جنس آخر من النساء هن أجمل وأقرب لما نظر .

ـ اليقين الحقيقى بالله والآخرة يؤدى إلى حل مشاكل المجتمع :

ـ إذا أردنا أن نحل مشاكل المجتمع فالحل هو تصحيح طريقة التفكير عندهم فينظرون إلى حقيقة المال و الدنيا والشهوات وحقيقة مشاكل الدنيا بالمقارنة بمشكلة الآخرة ، وعندئذ لن تكون هناك سرقات ومشاكل...... الخ ، بل إن مفهوم المشكلة سوف يتغير فلن تكون مشاكل الحياة هي المشاكل التي يعاني منها الناس وإنما سوف تكون مشكلة الناس الوحيدة هي النجاة من النار ودخول الجنة ، ولن تمثل مشاكل الحياة شيء لأنها في نظرهم عابرة وهم عابري سبيل ، فالمشكلة الحقيقية ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا غير ذلك وإنما المشكلة هي في عقول وقلوب الناس وهي أن يعيش الإنسان لله بهمومه ومشاعره وأهدافه ، أما مشاكل الدنيا فهينة وزائلة بزوال الدنيا ، وما الدنيا إلا أيام قليلة نعيشها كيفما اتفق ، فلن تزول مشاكل المجتمع إلا إذا تغيرت العقول والقلوب : ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ))[3] ، فحب الدنيا وتعلق المشاعر والهموم بها إذا خرج من العقول والقلوب فسوف يختفي التنافس على الدنيا وبالتالي تختفي المشاكل لأن كل المشاكل تأتي من التنافس على الدنيا ، كما يكون عند الناس عندئذ الرضا والقناعة لأنهم علموا أن أقل شيء عندهم هو نعمة عظيمة من الله عليهم فيحمدوا الله تعالى ، كما أن مفهوم السعادة سوف يتغير فلا تكون السعادة عندهم في المال والدنيا وإنما تكون السعادة عندهم في رضا الله ودخول الجنة ، أما إذا لم تكن الآخرة لها وجود حقيقي في هم الإنسان ومشاعره فإنه لن يسامح أحدا لأنه لا يشعر بأن هناك جزاءا على ما يفعل ، وسيعيش حياته يحصل أكبر ما يستطيع من المتع والمال ولو من غيره من الناس ، ويكون حريصا على عمره لأن ما في حقيقة مشاعره أنه إذا مات فلن يجد شيئا وأن الحياة هنا فقط ولا حياة أخرى فيجتهد أن يحصل كل ما يستطيع قبل أن ينتهي كل شيء فتكون السرقات وكل أنواع الظلم ويعيش الناس كالوحوش في الغابة القوى يأكل الضعيف ، والناس عندئذ هم في الحقيقة يتعبون أنفسهم بأنفسهم وهم في الحقيقة يسرقون أموال بعضهم بعضا ويرتشي بعضهم من بعض ويصنعون المتاعب لأنفسهم ويصنعون لأنفسهم عراقيل للزواج مثلا ويستمدون الجاه من أمور يخترعونها ويصنعون تعقيدات للحياة بدون داعي وهكذا ، ويتكون مجتمع من المنافقين يتحدثون فيما بينهم بمعسول الكلام وقلوبهم حاقدة بعضهم على بعض ، والقضية أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا إذا انصلحت ضمائر الناس فيكون الوازع الداخلي الذي يجعلهم يتركون الشر والفساد هو من خشية الله ، فإذا لم يتحقق ذلك فمهما صنعت من القوانين فلن يجدي ، ومهما وضعت من الأجهزة الرقابية فستأخذ الرشاوى وستحتاج إلى أجهزة أخرى تراقب عليها وهي بدورها ستحتاج إلى من يراقبها وهكذا ، فلابد أن يكون الأ صل أن الناس تترك الشر والفساد خوفا من الله وليس خوفا من القانون وهذا هو الذي ينفعهم في الدنيا والآ خرة .

ـ والإنسان إذا كان مغرورا بالدنيا لا يريد أن يفرط فيها لأنها كبيرة عنده فيريد أن يأخذ ما عند الناس ويظلمهم ويأخذ حقوقهم ويكره الخير لهم ، أما عندما يعقل الإنسان حقيقة الدنيا وضآلتها فإنه لا يبالي بها فيعطي مما عنده من الدنيا والمال للفقراء لأنهم مثله ضعفاء فقراء أمام الله وما يعطيهم من مال ليس ماله

---

(1) الحجر : 3
(2) الزمر : من الآية 10
(3) الرعد : من الآية11

وإنما يعطيهم من مال الله .

ـ فلابد أن يتغير مفهوم المشكلة ، فالسعادة ليست في حل المشاكل الدنيوية ولكن السعادة هي في الجنة ، فلو أن جميع مشاكل المجتمع الدنيوية تم حلها فلن يصل الناس إلى تحقيق السعادة لأن الدنيا ليست مؤهلة لتكون دارا للسعادة ، فمثلا الإنسان الذي عنده كل وسائل السعادة المادية هو في الحقيقة لا يشعر بالسعادة : ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[1] ، كما أنه كلما تم حل مشاكل تستجد مشاكل أخرى وكلما حقق الإنسان طموحا يستجد طموحا آخر ويموت الإنسان وعنده طول أمل ولم يحقق السعادة !! .

ـ أما عدم الشعور بالغيبيات عند أفراد المجتمع أو أكثرهم يؤدي إلى توجه المجتمع تجاه الدنيا والمادة و الشهوات ، وتصبح القضايا العامة التي تهم الناس هي كيف يعيشوا حياتهم الدنيوية ويتمتعوا بها من التنافس على المال والنظر إلى عورات النساء والمظاهر والتلهي بهموم الحياة والطعام والشراب .. الخ ، وتصبح المشاكل والهموم التي تشغل الناس كلها أمور دنيوية وكأن الآخرة ليست مشكلة ولا يحمل أحد لها هم ، وكأن الموت ليس بمشكلة ، وكأنه ليس أحدا مهيبا في السماء يهيمن على كل شيء ، وكأن الغيبيات لا تمثل أي مشكلة ، وعندئذ يكون رأي الإنسان ومزاجه وهواه وما يشتهيه هو المقياس الذي تقوم عليه الحياة .

****

الخاتمة

ـ اليقين بالله والآخرة مع نسيان الله والآخرة هو يقين نظري فقط ، واليقين بالله مع غياب الشعور بـ الخضوع والحب لله تعالى والخوف منه هو يقين نظري فقط .

ـ طالما أن الإنسان لا يزال ينهزم أمام شهواته فهذا دليل على أنه لا يزال يعاند ويؤثر شهوته على عقله ، فلا ييأس لأن الله يستطيع أن يحي عقله بعد أن مات كما يحي النبات من الأرض من بذرة ميتة : ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[2] .

ـ إن أصل المشكلة عند الناس قديما وحديثا هو أن عقولهم تحتاج إلى إصلاح لتعود إلى وظيفتها الطبيعية : ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[3] .

ـ نحن نعيش في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله ، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيء فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا والأمر خطير وعظيم : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[4] ، إنك مهما حاولت التغافل و الهروب عن الحقيقة والمصير القادم ، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضيت أم لم ترضي شعرت بذلك أم لم تشعر وقد سبقك الكثير إلى هناك ، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة ، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟! .

---

(1) البلد : 4
(2) الحديد : 16، 17
(3) الملك : 10
(4) ص : 67 ، 68

ـ إن مجرد العلم بأن لنا خالقا فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين للخالق ، وكذلك مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد ، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في غفلة وسكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم .

ـ وبعد كل هذا الإيضاح في هذا الكتاب عن الشعور بأن لك ربا وأن هناك آخرة وما ينشأ عن ذلك من الشعور بـ الخضوع والحب لله تعالى والخوف منه ، فهناك من لا يريد أن ينتبه مهما ذكرته فليس له قلب يعي به الأ شياء لأنه ميت : ((إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[1] ، وهذه وصيتي بـ التفكر لمعرفة الخالق ومعرفة مدى قدرته وعلمه والتذكر لصفات الله وأمور الغيبيات مع حضور القلب حتى يتحقق اليقين الحقيقي بـالله والآخرة وحتى يتحقق الشعور بالخضوع والحب والخوف من الله : ((فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ))[2] .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

****

الفهرس

(1) قٓ : 37
(2) غافر : من الآية 44